



جامعة أسوان
قسم التاريخ

كلية الآداب

الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في مصر فى عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى

إعـــــداد

الباحث/عبدالله أحمد همام عبدالمجيد

إشراف

أ.د/ ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم

أستاذ التاريخ الإسلامى المتفرغ

بكلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادي

د/ سقاو دردير عبد الجواد

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ

بكلية الآداب بأسوان

جامعة أسوان

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م





جامعة أسوان

قسم التاريخ

كلية الآداب

الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في مصر فى عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامي

إعـــــــداد

الباحث/عبدالله أحمد همام عبدالمجيد

إشراف

أ.د/ ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم

أستاذ التاريخ الإسلامي المتفرغ

بكلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادي

د/ سقاو دردير عبد الجواد

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ

بكلية الآداب بأسوان

جامعة أسوان

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م





جامعة أسوان

كلية الآداب بأسوان

قسم التاريخ **مرفق (١)**

اسم الباحث/ عبد الله أحمد همام عبد المجيد .

عنوان الدراسة/ **الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في مصر فى عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة (٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠- ١٥١٧م)**

الدرجة العلمية: **الماجستير.**

القسم التابع له: **التاريخ الإسلامى.**

الكلية: الآداب.

الجامعة: أســـوان.

سنة التخرج: ٢٠١٠م.

تمهيدى ماجستير : ٢٠١٢م.

سنة التسجيل : ٢٠١٣م.

سنة المنح : ٢٠١٥م.





جامعة أسوان

كلية الآداب بأسوان

قسم التاريخ **مرفق (٢)**

رسالة الماجستير

عنوان الرسالة : الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في مصر فى عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

اسم الباحث : عبدالله أحمد همام عبد المجيد .

لجنة الإشراف:

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د / ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم	أستاذ التاريخ الإسلامى المتفرغ بكلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادى
٢	د / سقاو درديرعبد الجواد	مدرس التاريخ الحديث والمعاصر المتفرغ بكلية الآداب بأسوان – جامعة أسوان.

لجنة فحص الرسالة و تقييمها :

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د/ زبيدة محمد عطا	أستاذ التاريخ الإسلامى و الوسيط بكلية الآداب – جامعة حلوان(رئيسا ومناقشا)
٢	أ.د / ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم	أستاذ التاريخ الإسلامى المتفرغ بكلية الآداب بقنا –جامعة جنوب الوادى(مشرفاً)
٣	أ.د/ صلاح سليم طايع	أستاذ التاريخ و الحضارة الإسلامية بكلية الآداب بقنا (مناقشاً)

تاريخ المناقشة : ٢٠١٥/٨/٤م

أجيزت الرسالة بتاريخ : ٢٠١٥/٨/٤م.

موافقة مجلس الكلية: ٢٠١٥/٨/٩م **ختم الاجازة**

موافقة مجلس الجامعة: ٢٠١٥/٨/٣١م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

"وإذا مرضت فهو يشفين [1] "

(١) سورة الشعراء: الآية (٨٠)

الإهـــــداء

إلي روح والدتي العزيزة الغالية التي غرست فيّ حب العلم والدراسة
أسال الله لها الرحمة والمغفرة
إلي والدي الحنون أطال الله في عمره مع وافر الصحة والعافية
إلي إخواتي وأهلي وكل أحبتي الأوفياء
إلي وطني مصر

شكر وتقدير

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا "**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا**[١]"، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد :

يقول رسولنا الكريم ﷺ:"**من لا يشكر الناس لا يشكر الله** [٢]"، وامتثالا لهذا الحديث، فإنه يطيب لي أن أزجي عبارات الشكر والتقدير إلى أستاذي الجليل ومعلمي الفاضل الأستاذ الدكتور/**ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم**، والدكتور/**سقاو دردير عبد الجواد** علي ما أحاطوني به من رعاية علمية ومعنوية، وما قدما من عون صادق وتوجيهات أنارت لي الطريق، وما أجادوا به علي من نصائح سديدة، وملاحظات دقيقة وعلي المجهود المضني الذي بذلاه طيلة فترة إعداد الرسالة، ولم يألوا جهدا ولم يبخلا بعلمهما ووقتهما وتوجيهاتهما البناءة التي كان لها الأثر البالغ في خروج هذا العمل إلى النور فجزاهما الله عنى خير الجزاء وبارك الله لهما في علمهما وصحتهما وأهلهما.

كما أسدى عميق شكري وتقديرى إلى العالمين الجليلين الأستاذة الدكتورة / **زبيدة محمد عطا** أستاذ تاريخ العصور الوسطى والأستاذ الدكتور/ **صلاح سليم طايع** اللذين تحملا تعب القراءة لمناقشة هذه الرسالة فجزاهما الله عنى كل خير.

وأنه من دواعي سرورى وافتخارى أن أتوجه بأسمى الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور/ **رفاعى يوسف عبد الحافظ** عميد كلية الآداب– جامعة أسوان والاستاذ الدكتور/ **شكرى حسين القنتيرى** أستاذ التاريخ القديم ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بأسوان وذلك لرعايته الابوية للباحث، فلسيادته خالص الشكر والتحية والتقدير والمحبة والاحترام.

وأسدى عميق شكرى وتقديرى الى الأستاذ/ **طارق محمد الصادق** الذى لم يتردد منذ اللحظة الأولى فى الوقوف الى جانب الباحث وفى إتمام هذا البحث، فلسيادته خالص الشكر والتحية والتقدير والمحبة والاحترام.

كما أتقدم بخالص الشكر والعرفان بالجميل والفضل الى أستاذي ومديرى فى العمل الاستاذ/**أحمد محمد أبوالمجد** رئيس قسم مكتبة كلية الآداب بأسوان، الذى أتاح لى الوقت والمساعدة لعملية البحث وشجعنى على مواصلة البحث كما أنهى شكرى وتقديرى وعرفانى، كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير الى أخوتى وأهلى والى أخى النقيب/**ابوبكر أحمد همام عبد المجيد** وزوجته الدكتورة/ **هنية** وجزاهما الله عنى كل خير.

" سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)"[٣].

الباحث/عبدالله أحمد همام عبدالمجيد

---

(١) سورة الكهف الآية (١٧).

(٢) إسناد صحيح رواه أحمد وأبوداود والترمذي.

(٣) سورة الصافات: الآيات(١٨٠– ١٨٢).

المقدمة

المقدمة

احتلت دولة سلاطين المماليك مكانة هامة بارزة فى التاريخ لا فى تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب بل تاريخ العالم أجمع، وخير شاهد على ذلك تلك السفارات العديدة التي قصدت سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لقواعد دقيقة معروفة.

وأصبحت مصر فى عصر سلاطين المماليك محوراً لنشاط علمي كبير فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقها وغربها يدل علي ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات في العلوم النقلية والعقلية تركها علماء ذلك العصر، ومما جعل مصر محوراً للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام خاصة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وسقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس، إذ تحول كثيراً من علماء تلك الأقطار إلى مصر، واختاروها مقراً لإقامتهم ونشاطهم.

ومازالت دور الكتب في جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلي عصر سلاطين المماليك، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة من أدب وتاريخ وجغرافيا وعلوم دينية وطب ومعارف عامة وغيرها من مختلف أنواع العلوم الدينية والدنيوية.

ومن هذا المنطلق نرى أن عصر سلاطين المماليك ليس عصراً عاديا من العصور الهادئة أو الخامدة في التاريخ الإسلامي والوسيط؛ وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائب في الخارج حروب وتوسعات وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن الإسلامي شرقاً وغرباً، وفى مصر حياة صاخبة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية.

وأشارت الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، بل كان منهم القفجاقى والجركسى والمغولي والصيني والرومي والسلافى، وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق إلى مصر، ومن الملاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام حتى في اختيار زوجاتهم طوال مدة حكمهم،

ولم يحاولوا الزواج من أهل مصر، بل تزوجوا من بني جنسهم أومن الجنسيات الأخرى فضلاً عن الجواري التي أحضرت إلى مصر، ومنهم لم تُعرف جنسيتهم، وإن كانت أغلب الجواري تنتمي إلى العناصر التترية والجراكسية والرومية وغيرها، ولعل هذا كان ترفعاً منهم على أهل البلاد المحكومين، ومحافظة على الأرستقراطية النابعة من سلطنتهم على مصر، على الرغم من اختلاف أصولهم المصبوغة بالرق والعبودية.

ومن أهم الدوافع لاختيار موضوع هذه الدراسة هو أن الدراسات السابقة حول هذا الموضوع لم تستعرضه كوحدة متكاملة وإنما استعرضت جوانب متفرقة منه كالأوبئة والمجاعات والأمراض الاجتماعية خلال العصر المملوكى ولم تتطرق تلك الدراسات إلى أمراض السلاطين والأمراء وزوجاتهم وأثرها على الحياة السياسية فى العصر المملوكى بحيث أن ما ورد فيها من معلومات عن الأمراض فى مصر وبلاد الشام فى العصر المملوكى بصفة عامة ولم تلقى الضوء على أثر تلك الأمراض على الحياة السياسية فى العصر المملوكى.

وهناك صعوبات هامة واجهت هذه الدراسة، من أهمها طغيان الأحداث السياسية والمواقع الحربية على غيرها من الموضوعات الحضارية فى المصادر التاريخية المطبوعة مما اضطر الباحث إلى الرجوع إلى المصادر المخطوطة، وكذلك اختلاف المؤرخين فى تحديد بعض الوقائع التاريخية فى بعض الأحداث، الأمر الذي جعل الباحث يقوم بدراسة شاملة لوقائع التاريخ المملوكي، واستخلاص الحقائق التاريخية من هذه المصادر، بعد مقارنتها ببعضها البعض.

ومن ثم اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي فى هذه الدراسة، حيث قام بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بشكل يخدم موضوع الدراسة فى حرص وحذر حتى لا نخلط من أحداثها المتشابهة والمتباينة.

وجاء عنوان البحث:**(الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م)** قسم الباحث هذه

الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق التى تخدم الموضوع ثم قائمة بالمخطوطات والمصادر والمراجع والدوريات العلمية والرسائل الجامعية ثم ذيل البحث بفهرسة موضوعاته المختلفة حتى يسهل على القارئ الوصول إلى ما يريد من معلومات بسهولة ويسر.

واشتملت المقدمة على إظهار أهمية الموضوع كما أظهرنا سلفاً، وأظهرت أسباب اختيار الموضوع وبعض الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، ويليه خطة البحث ثم دراسة تحليلية لأهم مصادر والمراجع التى اعتمد عليه البحث وقد جاء على النحو التالي:-

الفصل الأول: الأمراض فى عصر سلاطين المماليك:-

وقد تناول فيه الباحث الأمراض العضوية التى أصابت السلاطين والأمراء في عصر سلاطين المماليك التي تحتاج إلى طبيب يستطيع علاجها بالأدوية أو الأشربة الأمر الذى يدفع السلطان أو الأمير إلى الانقطاع بالدور لتلقى العلاج فينقطع أياماً بل وقد يتطلب المرض شهوراً حتى يشفى فينقطع بالتالى فى تلك المدة عن ممارسة حياته السياسية مما يكن له آثارا وخيمة منها قد يدفع الأمراء المتطلعين إلى السلطة فى الانقلاب على السلطان أثناء مرضه نظرا للانشغال فى تلقى العلاج كما ظهر من بين سلاطين المماليك من يعانى من مرض عضال لازمه طوال مدة حكمه نتيجة أصابته فى بعض المعارك أو ما شابه ذلك كمرض آلام المفاصل الذي لازم السلطان شيخ المحمودى حتى جعله يتنقل محمولاً فى محفة.

كما تناول هذا الفصل صور الأمراض العضوية كالإصابات التى كانت تصيب السلاطين والأمراء، أثناء ممارسة رياضتهم المفضلة كالصيد ولعب الأكرة وغيرها فيصيبوا بكسور تستلزم منهم الانقطاع لتلقى العلاج من تلك الكسور لمدة طويلة قد تصل الى شهور حتى يشفى منها الأمر الذى يؤدى فى بعض الأحيان فى اتساع نفوذ القائم بالحكم فى فترة مرض السلطان واتساع ثروته وفرض سيطرته على أمور الدولة، كما تؤثر الأمراض العضوية أيضا على السلطان فى حياته اليومية من مشاركة الأمراء فى إقامة الصلاة فى الأعياد الدينية وغيرها.

وشمل هذا الفصل الأمراض النفسية أيضا التي كانت كثيرا ما تصيب سلاطين المماليك خاصة صغار السن منهم الذين لا يستطيعون تحمل أعباء الدولة في ظل وتطلع الأمراء الكبار الطامحين إلى النفوذ والسلطان كما حدث مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار إذ ضيقا هذان الأميران على هذا السلطان حتى ضيقا عليه فى المأكل والمشرب فلجأ للتخلص من ذلك الضيق النفسى بخلع نفسه من الحكم، كما حرص سلاطين المماليك على زيارة مرضاهم من الأمراء، وعيادتهم أكثر من مرة، وعادة ما يقوم المريض عند علمه بقدوم السلطان لعيادته بفرش شقاق الحرير من ركوب السلطان من باب الإسطبل حتى بيت الأمير المريض لكي يمر السلطان عليها بفرسه، كما كان غالباً يقدم له هدية مالية، وفى نفس الوقت كانت تزين شوارع القاهرة وتقام الأفراح وتعم البهجة كافة أنحاء القاهرة فرحاً وسروراً بشفاء الأمراء من أمراضهم.

الفصل الثانى جاء بعنوان أثر الأمراض على الحياة السياسية :-

وكشف هذا الفصل أن بعض سلاطين المماليك لجأ إلى استخدام المرض كشكل من أشكال التحايل أو التظاهر والدوافع والأسباب قد تختلف بين سلطان وآخر، فالبعض يريد أن يطمئن على أحوال أبنائه من بعده كالسلطان الظاهر بيبرس الذى كان يتحايل بالمرض وهو فى الشام ليذهب خفية ومراقبة أحوال ابنه الملك السعيد فى مصر، ويريد بنفسه أن يستأصل شأفة الأمراء الطامحين في السلطنة ليعطى ولى عهده الثقة بالنفس، والقدرة على تحمل المسؤولية، وآخرون لجوا إليها لكي يتفقدوا أحوال سلطنتهم للوقوف على المقصرين في حين أدعى بعض سلاطين المماليك المرض للقضاء على الأمراء المتآمرين الذين أصبحوا يمثلون خطراً عليهم وعلى دولتهم، فيدّعى السلطان من هؤلاء المرض ليعوده الأمراء فيستطيع القبض بكل سهولة على الأمير الذى يقصده فور ذهابه لعيادة السلطان والقضاء عليه.

ثم تناول هذا الفصل الآثار السلبية السياسية لهذه الأمراض مثل تأثيرها على التولية والعزل إذ يؤدى تدهور صحة السلطان فى مرضه إلى اقتراح الأمراء على السلطان المريض وخاصة فى مرض الموت بتولية ابنه ولاية العهد بل وفى بعض الأحيان إلى

عزل نفسه لتنصيب أحد أبنائه ملكا وكما أثرت الأمراض فى تولية وعزل السلاطين فقد أثرت بذلك أيضاً فى تولية وعزل الأمراء والقضاة إذ أشارت الشواهد التاريخية إلى العديد من صور عزل النواب عن ولايتهم نظرا الأمراض التى أصابتهم فيقوم الأمير المريض بمناشدة السلطان لعزله مبرراً طلبه لمرض أصابه ومن ناحية أخرى قد يسعى بعض الأمراء لدى السلطان إلى تولية بعض المناصب فى الدولة عند علمهم بمرض شاغرها.

كما تناول هذا الفصل الآثار الناتجة عن القتل بالسم وإعطاء المرض للسلاطين والأمراء عن طريق السم وهى الطريقة التى لجأ إليها السلاطين فى بعض الأحيان للتخلص من الأمراء الذين يخشون من سطوتهم ونفوذهم فى الدولة فيلجأون إلى سقيهم شراباً أو إطعامهم طعاماً به السم فيمرض الأمير أياما أو شهوراً فيموت جراء ذلك السم وكما لجأ السلاطين إلى القتل بالسم فقد لجأ إليه الأمراء أيضاً للتخلص من منافسيهم، حتى ينفردوا بالمناصب الهامة بالدولة.

وجاء بهذا الفصل عرضاً للآثار السياسية للأمراض والتى استخدمت فى المؤامرات السياسية مثل تظاهر بعض الأمراء بالإصابة بالأمراض، وذلك ليعملون شركاً للسلطان حيث ينقضون عليه أثناء زيارته لهم؛ وأيضاً كانوا يلجئون إلى هذه الحيلة للقضاء على الأمراء، كما تطرقت آثار الأمراض أيضا إلى الحملات والفتوحات العسكرية إذ تؤدى الأمراض التى تصيب الجند والخيل وغيرها من الحيوانات الحاملة للأسلحة الجيش الى ضعفه وعجزه عن ملاقاة عدوه، كما قد يؤدى أيضاً انتشار الوباء فى البلاد المراد فتحها إلى تأخير غزوها لحين انقضاء ذلك المرض، ذلك خوفاً على سلامة الجند فيكون بذلك الأمراض سببا فى تأخير الفتوحات، كما تناولت الدراسة بعض الآثار السياسية الأخرى للأمراض كأثرها على الإدارة والحكم والترقيات وغيرها.

الفصل الثالث " الاحتفالات بشفاء سلاطين وأمراء العصر المملوكى":-

وعرض هذا الفصل ما انتاب سلاطين المماليك الأمراض التي تعددت أنواعها واختلف علاجها، وقد جرت العادة أنه عند شفاء السلطان أن يدخل الحمام إعلانا بشفائه، وتُزين القاهرة، ويتفنن الناس بأنواع الترف، كما جرت العادة فى المناسبات التى تقام

احتفالاً بعافية السلاطين أن توزع الصدقات من الخبز والملابس والأموال، وكانت أيضاً تعمل ألعاب النفط بحضور أهالي القاهرة وكبار رجال الدولة.

وأظهرت الدراسة فى هذا الفصل أن البشائر تكتب بشفاء السلطان وترسل إلى سائر أقطار الدولة المملوكية، فيغدق نواب الولايات الأموال الجزيلة والأقمشة الفاخرة والخيول على الأمير حامل بشارة شفاء السلطان كما ينعمون عليه الخلع الكاملة المزخرفة بحوائص الذهب ابتهاجا بشفاء السلطان، ومن مظاهر الاحتفالات التى كانت تقام بمناسبة شفاء السلاطين، أن تقام الدعوة لأرباب الملاهي إلى القلعة، ويقوم الأمراء بإقامة الولائم لإطعام الناس المشاركين فى مظاهر الاحتفال والأفراح سروراً لشفاء السلطان وابتهاجاً لرجوعه لإدارة شئون البلاد.

وعرض هذا الفصل للاحتفالات التى تقام بشفاء زوجات السلاطين فى العصر المملوكى بأقل من تلك والتى تقام ابتهاجا بشفاء زوجات السلاطين فخلال تلك الاحتفالات يتردد عليها أعيان الدولة باختلاف مراتبهم للتهنئة الخوند– زوجة السلطان– على الشفاء، حيث يجتمع على بابها أرباب الزمر والطبل، ومن مظاهر هذا الاحتفال أن تقام فى النيل مرامى النفط والتى تشبه الصواريخ فى يومنا هذا، وتزف الخوند إلى القلعة وحولها نساء الأمراء حيث يقام لها بالقلعة حفلة هائلة كما يقوم السلطان بالتصدق على الفقراء والمساكين فى هذه المناسبة.

وشمل هذا الفصل أيضاً عرضاً لتلك الاحتفالات وإقامة الزينة حيث تعلق فى المدن عقب شفاء السلاطين مباشرة ، وما تبعها من إشعال الشموع والقناديل وإغداق الصدقات على الفقراء والمحتاجين وقد تستمر هذه الزينة مدة ثلاثة أيام أو أكثر، وكانت الزينة تقام بمناسبة شفاء السلاطين فى العصر المملوكى من أمراضهم فى كافة نيابات الدولة فكانت تقام أيضاً تلك الزينة وتدق البشائر لعدة أيام متوالية لشفاء كبار رجال الدولة، كما ينثر الأمراء وكبار رجال الدولة على السلطان الذهب والفضة.

وأيضاً وضحنا ما اتخذه سلاطين المماليك فى العصر المملوكى من إغداق الصدقات وتفرقة الأموال وغيرها على الفقراء قربة إلى الله ليمن عليهم بالشفاء من

الأمراض سواء التى أصابتهم أو أصابت أولادهم أو الأمراء والإفراج عن المسجونين، وكما أقبل سلاطين العصر المملوكى أثناء مرضهم على إغداق الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وأقبلوا كذلك على رد المظالم وإعطاء كل ذى حقٍ حقه، والجلوس في إيوان القلعة ليستمع إلى شكوى المظلومين، وذلك تقرباً إلى الله تعالى الذى من عليه بالشفاء.

أما الفصل الرابع والأخير فقد جاء بعنوان " الأطباء والبيمارستانات"

حيث حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعًا كبيرًا من سلاطين المسلمين وملوكهم على مرِّ العصور الإسلامية، وكان للطب والأطباء مكانة كبيرة فى العصر المملوكي، وحظيت صحة رجال الدولة من السلاطين والأمراء بقدر كبير من العناية، إذ أن بقاء الأمر فى يد السلطان، وتمكنه من التأثير فى مجريات الأحداث يتطلب قدراً غير قليل من العناية بالنواحى الصحية، لذلك فقد كان الأطباء يستعان بهم كوسيلة من وسائل العلاج ومن أبرز هؤلاء الأطباء ابن النفيس وابن أبى أصيبعة.

وعرض هذا الفصل لاعتناء السلاطين والأمراء بأمر المرضى من كافة طبقات الشعب المصرى، وخير ما يدل على تلك العناية البيمارستان المنصوري الذي شيده المنصور قلاوون سنة٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وكانت له شهرة واسعة، وعين له الأطباء لعلاج المرضى والصيادلة لتركيب الدواء، كما زوده بمطبخ كبير لإعداد الطعام اللازم للمرضى، كما وضحنا بالتفصيل خلال هذا الفصل.

كما تناول الباحث أشهر البيمارستانات التى قام بتشييدها السلاطين والأمراء فى العصر المملوكى الأخرى والتى منها بيمارستان السلطان المؤيد شيخ المحمودى الذى أغلق عقب وفاة ذلك السلطان لعدم العثور على كتاب وقفه، كما أشرنا إلى البيمارستانات الأخرى التى أنشأها السلاطين والأمراء فى أنحاء بلدن الدولة المملوكية كمكة والمدينة المنورة وصفد وطرابلس وغيرها، ومن البيمارستانات التى شيدها الأمراء بيمارستان أرغون الكاملى فى حلب والذى أوقف عليه الأوقاف الجليلة، ولم يقتصر دور

السلاطين والأمراء على تشيد تلك البيمارستانات فحسب، بل قاموا أيضاً بترميم ما وإضافة بعض المنشآت المعمارية بتلك البيمارستانات.

وبلغ اهتمام سلاطين المماليك بالنواحي الصحية، وأمر المرضى إلى اهتمامهم بمهنة الطب، فألحقوا بالبيمارستان مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء التي جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن يعّين من قبل السلطان نفسه، يصبح بعدها رئيس الأطباء مسئولا عن إعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للأفراد أو حرمانهم منها؛ وهذا يدل على حرص هؤلاء السلاطين بالإشراف على الأطباء والقيام بممارسة مهنتهم على أكمل وجه.

أما **الأدوية** بأنواعها فكانت تصرف للمرضى من المماليك السلطانية من بيت "الشرابخاناه" بمقتضى أوراق الأطباء، وهى الحواصل المعبر عنها بالبيوت خاناه لفظ فارسى معناه البيت فتأويلها بيت الشراب وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفسية والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التى لا توجد إلا فيها، كما اهتم علماء المسلمون فى مصر بدراسة النبات، لأن معظم العقاقير التى كانت تستخدم فى العلاج من النبات أو خلاصات نباتية، حتى أن الأطباء كانوا يعرفون بالعشابين، وثمة إحدى النباتات التى اشتهرت بها مصر بجودة إنتاجه وزراعته المستخدمة فى سلك الأدوية والمستلزمات الطبية وهو البلسان(البلسم) وهذا على سبيل المثال وليس الحصر.

وانتهت الدراسة بخاتمة أظهرت أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال هذه الدراسة ثم مجموعة من الملاحق وثبت للمصادر والمراجع.

دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع
التى اعتمدت عليها الدراسة

دراسة تحليلية لأهم مصادر والمراجع التى اعتمدت عليها الدراسة :-

اعتمد الباحث فى دراسته لموضوع " **الأمراض وأثرها على الحياة السياسية في عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)**" على المصادر العربية المخطوطة وكذلك على عدد كبير من المصادر العربية المطبوعة والمراجع التاريخية والحضارية الحديثة وكذلك عدد لا بأس به من المراجع الأجنبية المترجمة إضافة إلى مجموعة من الدوريات العلمية وعدد من الرسائل العلمية من مختلف الجامعات المصرية، وقد قسم الباحث هذه المصادر والمراجع بناء على أهميتها بالنسبة للدراسة على النحو التالي:-

(أولاً) الوثائق والمخطوطات:-

تعد الوثائق من أهم المصادر الأصلية التى يعتمد عليها الباحث فهي مصدر معاصر للتاريخ الذى دّون فيه، خاصة وأنها تلقى الضوء على أهم جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية، ومن هذه الوثائق التى استفاد منها الباحث: "**وثيقة وقف السلطان المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى**" وتمحورت استفادة الباحث من هذه الوثيقة بالتعرف على ما كان يقدمه ذلك البيمارستان، والأوقاف الموقوفة عليه والتخصصات الطبية فيه، وغير ذلك من المعلومات المهمة.

أما **المصادر المخطوطة:** كما رجعت في كتابة هذا البحث إلى عدة مخطوطات خاصة المخطوطات العربية الطبية المحفوظة بمكتبة المسجد النبوي بالمدينة المنورة والتى أفادت البحث فى معرفة أنواع الأمراض المختلفة التى كانت تصيب السلاطين والأمراء فى ذلك العصر وأسبابها وعلاجها والتى من أهمها:

مخطوطة " **شفاء الأسقام ودواء الآلام**" لحاجى باشا(حسام الدين خضر بن على بن مروان الخطاب الايدينى(ت:٨٢٠هـ) وأفادت البحث فى ورقة(١٤)عن أسباب وعلاج مرض السرسام وهو احد الأمراض التى أصابت بعض سلاطين وأمراء العصر المملوكى كما أفادت تلك المخطوطة فى التعرف عن مرض الماليخوليا والذى كان شائعا بين سلاطين وأمراء العصر المملوكى وكذلك مرض "**الصرع**" وغيرها من الأمراض.

ومخطوطة "**المجموع فى الطب**" لابن حجيج(**أبو عبد الله محمد الحجيج الأندلسي التونسي الحجيج ت: بعد ١٢٨٠هـ**) التى تناولت عدة أمراض أفادت البحث فى إلقاء الضوء على معرفة أسباب

الأمراض التى كانت تصيب السلاطين وكبار رجال الدولة فى ذلك العصر ونذكر أهم تلك الأمراض التى تناولتها المخطوطة كمرض "السلّ" ومرض "القولنج" الذي أصاب العديد من السلاطين فى العصر المملوكى.

وأفادت البحث **مخطوطة** " **رسالة فى الطب شرح حديث: المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء**" للطرودى(مصطفى بن أحمد الحنفى التونسى ت: بعد ١١٧٢هـ) وهى المخطوطة التى تناولت فيها الأمراض المعدية المعروفة آنذاك وقد أفادت البحث فى معرفة مرض "الاحتباس" والتى تناولته بالتفصيل من حيث التعريف به وأسبابه وطرق علاجه وهو من الأمراض التى شاع بين السلاطين والأمراء فى ذلك العصر.

(ثانياً) المصادر العربية المطبوعة :-

نتناول بالبحث والتحليل المصادر العربية المطبوعة التى استعنا بها فى سبيل إتمام هذا البحث، والظاهرة التى لفتت أنظارنا أن معظم هذه المصادر لم تذكر الأمراض ذكراً صريحاً، إنما تناولتها طياً خلال ذكرها فى الأثر السياسى للأمراض فى العصر المملوكى وأهمها كتب الحوليات وأكثر هذا النوع من المصادر يتبع فيها مؤلفوها الطريقة الحولية، موجهين اهتمامهم إلى الحوادث السياسية والوقائع، وفى النادر ما يتطرقون إلى الجانب الحضاري.

وتأتى مؤلفات عمدة المؤرخين فى مصر **المقريزى**(ت:٨٤٥هـ/١٤٤٢م)التى لابد منها لكافة الدراسات الإسلامية والحضارة الإسلامية فى مصر، وفى مقدمة مؤلفاته "**السلوك لمعرفة دول الملوك**" فهو يهتم بذكر الحوادث السياسية، فضلاً عن تعرضه بذكر أمراض السلاطين والأمراء والآثار المترتبة عنها فى حياتهم السياسية، كما عنى فيه المقريزى بتاريخ مصر منذ الفتح العربي وحتى قبيل وفاته، وتأثير الأحداث الداخلية والخارجية على الوضع العام والأحوال بمصر، وقد امتاز أسلوب هذا الكتاب بالإسهاب فى سرد الأحداث وتفصيلها، وأفادتنا فى معرفة كثير من الأمراض التى أصابت كثيراً من سلاطين وأمراء المماليك، ونوع هذه الأمراض وأعراضها.

كما وافانا كتاب "**إغاثة الأمة بكشف الغمة**" للمقريزي بأن المصائب والمحن تعاظمت على الناس في مصر بحيث ظن الناس أن هذه المحن لم يكون فيما مضى مثلها ولا مر الزمان في شبهها، حتى أنهم قالوا لا يمكن زوالها، وغفلوا أن ما بالناس هو ناتج من سوء

تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد، وما هذه الأزمة التي تمر بها مصر حالياً إلا كما مر من الأزمات والمصائب والمحن التي مرت بها فيما مضى من الأزمات.

وأكد المقريزي على أن المحن والأزمات تتعاقب على هذا الكون منذ بداية الخليقة وفي سائر الأقطار والبلدان، وهو يحاول أن يوضح في كتابه هذا ما حل بمصر وشعب مصر من المجاعات منذ آدم وإلى الزمن الحاضر " الذي عاشه" وهو يعود إلى التاريخ ويحاول أن يوضح ويذكر أهم ما حدث لشعب مصر من المصائب على مر العصور، وكان لهذا الكتاب فائدة هامة للدراسة حيث اقتبسنا منه أنواع الأمراض المنتشرة فى مصر فى هذه الفترة، والتى كانت هى نفسها التى انتشرت فى عصر المماليك، وجاء كتاب "**اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء**" **للمقريزي** أيضاً، والذى أفادنا فى ذكر أثر أمراض الخلفاء الفاطميين على الحياة السياسية قبيل العصر المملوكى.

وأفادنا كتاب" **النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة**" لأبى المحاسن (ت:٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م ويعد من أعظم المصادر التاريخية، إذ يعد أبو المحاسن تلميذ المقريزى، ولذلك أعطانا معلومات واضحة عن أمراض السلاطين والأمراء وعن آثارها فى حياتهم السياسية، وساهم هذا المصدر مساهمة عظيمة فى سرد الأحداث السياسية وما لأمراض السلاطين والأمراء من أثر بالغ على حياتهم السياسية فى الدولة المملوكية، وتمتع هذا المؤرخ بأسلوب سهل العبارة، ولا غنى لأى باحث فى تاريخ مصر الإسلامية عن هذا الكتاب.

أما كتاب" **بدائع الزهور فى وقائع الدهور**" لمؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد ابن إياس المتوفى عام٩٣٠هـ/١٥٢٣م، فقد اهتم بالنواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أواخر عصر المماليك، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن مؤلفه من المؤلفين القلائل الذين عاصروا نهاية العصر المملوكى، وشاهدوا سقوط هذه الدولة، وهو كتاب لا غنى عنه لمن يتناول البحث فى هذه الفترة، وفيما يتعلق بالأمراض فى العصر المملوكى فقد أفاد الكتاب الحديث عن أمراض سلاطين وأمراء العصر المملوكى الثانى(الجراكسة) وتراجم أطباء العصر المملوكى فى هذه الفترة، كما أعطانا بعض المعلومات الهامة عن أمراض السلاطين والأمراء وطرق الشفاء منها.

ومن كتب الحوليات كتاب "**المختصر فى أخبار البشر**"، ومؤلفه أبو الفداء الملك المؤيد صاحب حماه المتوفى عام ٧٣٢هـ/ ١٣٢٨م، وهو فى أغلبه تلخيص لبعض ما كتبه ابن واصل وابن عبد الظاهر، باستثناء القسم الأخير من الكتاب الذى يحتوى على الأحداث التى وقعت فى عهد المؤلف وكان شاهد عيان لبعضها، ولقد أفاد هذا الكتاب البحث فى تتبع الأحداث السياسية المترتبة عن أمراض السلاطين والأمراء فى هذه الفترة، وأفادنا فى معرفة ما يدور حول هذه الأمراض وأعراضها.

أما كتاب "**البداية والنهاية فى التاريخ**" لعماد الدين إسماعيل القرشى المعروف بـ" **ابن كثير**"(ت:٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، فقد أفاد هذا الكتاب البحث من خلال الجزأين الأخيرين اللذين يؤرخ فيهما للقرنين السابع والثامن للهجرة(الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) وأفاد هذا الكتاب الباحث فى سرد الأحداث السياسية فى الفصل الأول والثانى وخاصة الآثار المترتبة عن أمراض السلاطين والأمراء، ووضح أهم الأمراض التى كانت التى كانت تصيب السلاطين والأمراء وعامة الشعب آنذاك.

وأفادنا كتاب" **صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء**" ومؤلفه أبو العباس أحمد القلقشندي (ت:٨٢١هـ/١٤١٨م)، والذى شغل منصب رئاسة "ديوان الإنشاء" وأرخ لهذا الديوان ذاكراً كل ما يتعلق به من وظائف وأحكام، فضلاً عن بعض المعلومات المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا والإدارة، وأفاد الباحث فى هذا الموضوع من هذا الكتاب بعض المراسيم التى خرجت من ديوان الإنشاء وأوردها القلقشندى، وذكر لنا بعض أنواع الأمراض التى كانت تصيب السلاطين والأمراء.

وكذلك كتاب "**نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان**" لعلى بن داود بن إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهرى وبابن الصيرفى،(ت:٨٥٣هـ/١٤٤٩م) والكتاب عبارة عن ثلاثة أجزاء، يحوى الجزء الأول حوادث الفترة من(٧٨٤-٨٠١هـ) والجزء الثانى(٨٠١- ٨٢٥هـ)، والجزء الثالث(٨٢٥-٨٤٢هـ)، لذلك فقد غطى الكثير من الموضوعات والنقاط التى أثيرت فى البحث فى هذه الفترات، وأعطانا صورة واضحة عن أمراض الأمراء والسلاطين وطرق علاجها.

كما أفادنا أيضاً كتاب "**القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية**" ومؤلفه شمس الدين محمد بن على بن طولون المتوفى عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، الذى ولد بدمشق وتوفى بها، وعاصر دولة

المماليك فى مصر والشام، ويحتوى على أخبار تلك البلاد من عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م إلى عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م، فالواقع أن هذا الكتاب يعتبر مصدراً هاماً لتاريخ الفترة الأخيرة من عصر المماليك فى مصر والشام، وقد أفاد فى الحديث عن الأطباء والبيمارستانات فى أواخر العصر المملوكى.

هذا بالإضافة إلى بعض المصادر التى ألقت الضوء على جوانب متعددة من البحث كما تناولت حياة السلاطين المماليك والأمراء وكبار رجال الدولة، ومن هذه المصادر تذكرة النبيه لابن حبيب(ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) والذى أفادنا فى سرد بعض الأحداث السياسية التى تدور حول أمراض السلاطين والأمراء.

ومن أهم المصادر الكتب الطبية ومن أبرزها كتاب "**الموجز فى الطب**" ومؤلفه أبوالحسن علاء الدين على بن أبى الحزم المعروف بابن النفيس(ت:٦٨٧هـ/١٢٨٨م) وهو طبيب وعالم، ولد بدمشق سنة ٦٠٧هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، درس الطب فى دمشق على يد مشاهير العلماء فى مستشفاها الكبير المعروف آنذاك بالبيمارستان النورى وخصوصاً على مهذّب الدين الدخوار ثم نزل مصر عام(٦٦٣هـ/١٢٣٨م) ومارس الطب في المستشفى الناصري ثم فى مستشفى المنصورى الذى أنشأه السلطان قلاوون، وأصبح عميد أطباء هذا المستشفى، وطبيب السلطان بيبرس وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء وأكابر الأطباء، ويعد هذا الكتاب مصدراً هاماً ساهم فى إثراء البحث حيث استقى منه الباحث الكثير من المعلومات عن الأمراض التى تعرض لها السلاطين والأمراء وطرق علاجها.

وأفادنا كتاب" **الحاوى فى الطب** " ومؤلفه ابوبكر محمد بن زكريا الرازي(ت:٣١٣هـ/ ٩٢٥م) الذى ولد بالري قرب طهران على الأرجح سنة٢٥١هـ/٨٦٥، وبرع في الطب والكيمياء والفلسفة، توفي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م، وبحث الرازي في كتابه "الحاوي" مواضيع كثيرة تتعلق بالرأس، منها السكتة الدماغية، والفالج، أوجاع العصب واسترخاؤه، الصرع، التشنج، الكزاز، وأمراض العيون والآذان والأسنان، مشرحا المرض، مشخصا إياه، موردا صفة العلاج الشافي لكل مرض أتى على ذكره بناء على دراسته وتجاربه واقتناعه، وقد تحدث أيضا عن الماليخوليا "مرض عصبي" والأغذية المضادة لهذا المرض، وقد أفادنا فى معرفة الأمراض المختلفة التى أصابت السلاطين والأمراء وأسباب هذه الأمراض وعلاجها وخاصة أمراض الفالج والمالخوليا التى كثر ذكرها فى الفصل الأول والثانى.

كما أفادنا كتاب "**القانون فى الطب**" ومؤلفه الحسين بن عبدالله ابن سينا(ت:٤٢٧هـ/ ١٠٣٧م) عالم وطبيب مسلم من بخارى، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما، ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى في (أوزبكستان حالياً) من مدينة بلخ في أفغانستان حالياً وأم قروية ولد سنة٣٧٠هـ/٩٨٠م وتوفي في مدينة همدان) في إيران حاليا سنة٤٢٧هـ/١٠٣٧م، ويحتوى هذا الكتاب على ما عرفه الطب القديم وما ابتكره ابن سينا من نظريات واكتشفه من أمراض، وقد جمع فيه أكثر من سبعمائة وستين عقارا مع أسماء النباتات التي يستحضر منها العقار، كما بحث ابن سينا في أمراض شتى أهمها السكتة الدماغية، التهاب السحايا وغيرها، الذى أفاد البحث فى معرفة بعض الأمراض وطرق علاجها.

كما يمثل مؤلف أمين الدولة أبى الفرج ابن موفق الدين يعقوب بن اسحق المعروف بابن القف والذي عاصر الدولة المملوكية الأولى حيث توفى سنة٦٨٥هـ/١٢٨٦م، **المسمى**" **العمدة فى الجراحة**"، حيث أفاد البحث منه فى معرفة الجراحة وطرق علاجها.

ومن أهم المصادر كتاب النويري(ت:٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، المعروف باسم "**نهاية الأرب فى فنون الأدب**"، فهو من الموسوعات ذات الأهمية الكبرى، وقد ألفها النويرى فى خمسة أنواع من المعارف فى السماء والحيوان والنبات والإنسان والتاريخ وقد استفدت من هذا الكتاب خاصة أجزاء من التاسع والعشرون حتى الثالث والثلاثون فى سرد الأحداث التاريخية السياسية خاصة الفصل الاول والثانى.

أما موسوعة بدر الدين محمود العينى(ت:٨٥٥هـ/١٤٥١م)المعروفة باسم "**عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان**" فقد أفادت البحث كثيراً، خاصة فيما يتعلق بأمراض السلاطين وما يصيب الأمراء منها كما حوت على تراجم الأمراء والشخصيات البارزة فى المجتمع المصرى فى العصر المملوكى، واستخلصت منها بعض الأمراض التى أصابت السلاطين وكبار رجال الدولة السكان فى المجتمع المصرى.

أما كتاب "**مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار**" لشهاب الدين أبو العباس بن فضل الله العمرى(ت:٧٤٢هـ/١٣٤١م)، فهو يتناول التاريخ العام، وان كانت تغلب عليه الصبغة الجغرافية، وهو يبحث فى أقاليم الأرض وأقسامها والمدن وسكانها وأنظمة الحكم فيها، وقد استفاد منه الباحث فى الحصول عن المعلومات الخاصة بالأمراض التى أصابت السلاطين والأمراض والبيمارستانات وغيرها.

أما عن كتب الطبقات والتراجم والأعلام :-

فهي تعتبر من المصادر الهامة التى أثرت مادة البحث العلمية كثيراً كتب التراجم والأعلام، حيث رجع إليها الباحث كثيراً.

ويأتي على رأس هذه الكتب كتاب "**عيون الأنباء فى طبقات الأطباء**" لموافق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة المولود بدمشق عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م والمتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، الذى يعد اكبر موسوعة طبية في تاريخ الطب والأطباء بالذات المتميزين والمشاهير منهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم، وقد أفادني هذا الكتاب بالكثير من المعلومات عن بعض الأطباء مصر والشام فى عصر الدولة المملوكية وعن دورهم فى خدمة المجتمع، وعن مؤلفاتهم فى الطب وكذلك عن المنشآت الصحية التى كانوا يعملون فيها وغيرها.

وأيضاً كتاب "**الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة**" لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني(ت:٨٥٢هـ/١٤٤٨م) ويكاد يكون أول كتاب تم تأليفه على عناوين القرون، تضمن من بين ما تضمنه من تراجم، ذكر كثيراً من الأمراء والشخصيات السياسية الأخرى فى العصر المملوكى، بالإضافة إلى انه كان يحوى الكثير من تراجم لنساء السلاطين والأمراء وغيرهن من النساء الشهيرات فى مصر، وهو مصدراً معاصراً وذكر كثيراً عن الأمراض التى أصابت الأمراء والسلاطين.

ومن الكتب التى اعتمدت عليها فى دراستي كتاب "**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**"، لمؤلفه السخاوى (ت:٩٠٢هـ/١٤٩٦م) ويقع هذا المؤلف فى اثنى عشر جزءاً، وتتضح أهمية هذا الكتاب فى انه أورد معلومات قيمة عن بعض الشخصيات الهامة التى عاشت فى مصر والشام وخاصة فى أواخر العصر المملوكى من أمراء وأطباء وغيرهم.

وأيضاً أفادت الدراسة كتب الجغرافيا والتى تعد من المصادر الهامة لهذا البحث، ومن أهمها:-

كتاب "**أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم**" للمقدسى، وقد صنفه فى سن الأربعين بمدينة شيراز عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م، وقد انفرد المقدسى باتجاهات جديدة فى دراسة الأقاليم، إذ انه

حاول جاهداً فى معالجته لكل إقليم أن يبرز شخصيته، وما به من منافذ وبحار وأنهار، واختلاف أهله فى كلامهم وعاداتهم، إلا أن كتاباته تميل إلى السجع وتتبع أهمية هذا الكتاب فيما أورده من وصف لمدن بلاد الشام وعادات أهلها وأحوالها.

وتمثل مؤلفات ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومى الحموى،(ت:٦٢٦هـ/١٢٢٩م) مصدراً رئيسياً اعتمد عليها الباحث حيث أن ياقوت مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين ويأتي على صدارة مؤلفاته كتابه "**معجم البلدان**" والذى أمدنى بمعلومات كثيرة عن سائر مدن مصر والشام وعن أحوالها وأحوال سائر أهلها وقد استعنت به كثيراً عن التعريف بالعديد من المدن والبلاد، وكان يدور فيها من أوبئة أو مجاعات أو أمراض.

ومن الكتب أيضاً كتاب " **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك** " لمؤلفه غرس الدين خليل بن شاهين المتوفى ٨٧٣هـ/١٤٦٧م، وكتابه يحتوى على معلومات جغرافية وإدارية للممالك الإسلامية، وأنواع الوظائف بها، أما فيما يتعلق بموضوع الأمراض وأثرها السياسى فقد ألقى الضوء عن المدن والبلدان التى ذكرت فى البحث وكذلك ذكر بعض الوظائف الإدارية للرتب بالدولة المملوكية.

(ثالثاً) المراجع العربية:-

إلى جانب المصادر العديدة التى سبق ذكرها، هناك مراجع عربية حديثة هامة قد تعرضت لموضوع بحثنا سواء من قريب أو من بعيد، فمنها ما هى مؤلفات ومنها ما هو مجلات دورية ومنها ما هى رسائل علمية.

فمن المؤلفات التى أفادت البحث تأتى فى مقدمتها كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ومنها "**المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك**" الذي استفاد منه الباحث استفادة عظيمة فى الحديث عن الأمراض الاجتماعية، وكتاب" **العصر المماليكى فى مصر والشام**" الذى استفاد منه الباحث أيضا فى التمهيد وذكر بداية دولة المماليك، وكتاب "**الظاهر بيبرس**" فقد أفدت منها جميعاً وهى من الكتب التى لا غنى عنها لأي باحث يتصدى لدراسة عصر المماليك.

وكذلك من المراجع الهامة للبحث للدكتور" أحمد عيسى بك" **تاريخ البيمارستانات فى الاسلام**" والذى استفاد منه الباحث فى الحديث عن البيمارستانات فى العصر المملوكى استفادة كبيرة فى إثراء مادة البحث العلمى.

كما أفادتنى فى البحث كتب الدكتور/عبد المنعم ماجد وخاصة كتابه "**التاريخ السياسى لدولة المماليك**" فى إلقاء الضوء على نشأة المماليك فى مصر وظهورهم على مسرح الأحداث، ومن مؤلفاته التى أفادت البحث أجزاء " نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر حيث أفادتنى فى الفصل الثالث الخاص بالاحتفالات التى تقام عقب شفاء السلاطين والأمراء وما يقام بها من مظاهر الاحتفالات بهذه المناسبة.

كما استفاد الباحث استفادة كبيرة من كتب الدكتور/قاسم عبده قاسم وخاصة كتاب" **عصر سلاطين المماليك**" وقد تمحورت الاستفادة من هذا الكتاب فى معرفة أحوال المماليك ونشأة دولتهم كما أفادني كتاب" **دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعي**" فى الفصل الأول وخاصة الأمراض الاجتماعية وكذلك فى الفصل الثالث الخاص بالاحتفالات الخاصة بشفاء السلاطين والأمراء.

أما من المجلات العلمية:" الرعاية الصحية فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى (٦٤٨-٩٣٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)"، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، مج٣٨، القاهرة ١٩٩٥م للدكتور على السيد على محمود، وقد أفادت البحث فى الفصل الرابع الذى تناول الطب والأطباء والبيمارستانات فى العصر المملوكى، "المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك فى الفترة فيما بين عامى ٦٩٤- ٦٩٥هـ/١٢٩٤- ١٩٨٤م"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السابع، ١٩٨٤م والذى أفاد الباحث فى الفصل الثانى الذى تناول الأثر السياسى للأمراض فى العصر المملوكى.

أما الرسائل العلمية: "الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية فى مصر زمن المماليك البحرية(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)" للدكتور إسماعيل عبد المنعم محمد قاسم والتى أفادت الباحث عند تناول الأمراض الاجتماعية فى الفصل الأول" الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية" للدكتورة سعاد حسن على الضوينى وقد افادتنى فى الفصل الرابع الخاص بذكر الأطباء والبيمارستانات فى العصر المملوكى، كما أفادني كثيرا فى إثراء مادة

البحث فى الفصل الرابع أيضاً" الطب والأطباء فى مصر خلال عصر سلاطين المماليك(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)" للدكتور/ مكرم عبد الجواد عبد الحميد عبد اللطيف.

أما المراجع المترجمة عن لغات أجنبية و يأتى على رأسها كتاب دوزى(ت: ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) وهو " تكملة المعاجم العربية" والتى استفاد منها البحث فى معانى بعض الكلمات الواردة فى المصادر وكذلك كتاب جومار" وصف القاهرة وقلعة الجبل منذ نشأتها وحتى سنة ١٨٠٠م والذى استفاد منه الباحث فى معرفة منشآت القاهرة والقلعة قبل وبعد العصر المملوكى وغيرها من المراجع المترجمة.

(رابعاً) المراجع الأجنبية:-

كما استعان الباحث بعدد من المراجع الأجنبية وخاصة للمؤلف:

William Muir وكتابه"(**The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt)** وقد تمحورت الاستفادة من ذلك الكتاب فى سرد الأحداث السياسية والتى منها على سبيل المثال وصف ما أصاب السلطان الصالح إسماعيل عند وصول الأمير منجك برأس أخي السلطان المذكور، ومنها أيضا هروب السلطان الناصر فرج بن برقوق من تضييق كبار رجال الدولة عليه وتولية المنصور عبدالعزيز سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م.

وكذلك كتاب" **Cairo of the mamluks**" **للمؤلف Doris Behhiens** وقد استفاد منه الباحث خاصة فى الحديث عن البيمارستان المؤيد شيخ ومعرفة أحواله وما تبقى منه الآن.

هذا بالإضافة إلى عدد من المقالات العلمية المحكمة للاسترشاد بها عن أنواع بعض الأمراض خاصة من الجامعة الأمريكية وجامعة شيكاغو وغيرها والتى منها مقال.

"**Qalawan's Patronage of the Medical Sciences Thirteenth-Century Egypt**"

لـ **Linda s.northrup** فى **university of chiago** فى سنة ٢٠٠١م، والتى أفادت البحث عند تناول تشييد السلطان المنصور قلاوون للبيمارستان المنصورى ومعرفة أحواله وأقسامه وإلقاء الضوء على ما قدمه ذلك السلطان من رعاية المرضى والرعاية الصحية وغيرها.

وكذلك محاضرة **لـ Michel Voision بعنوان:-**

"**William Harvey et la circulation sanguine**" والتى أشارت إلى إسهامات ابن النفيس فى الطب وخاصة الجراحة كمكتشف للدورة الدموية الصغرى والتى ألقيت بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠١١م، فى

Académie des sciences et letters, Montpellier.

التمهيد

تمهيد

أولاً: الأمراض وأثرها السياسى منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الأيوبي:-

ظهرت للأمراض آثاراً سياسية شتى على مصر والشام عبر العصور فى تاريخها منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية العصر الأيوبى، والتى لم يكن آثارها مقتصراً على العصر المملوكى فحسب، وفيما يلى نلقى الضوء على أشهر تلك الآثار التى تدخلت فيها الأمراض فى الحياة السياسية وغيرها وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

فمن المعروف إن الأمراض التى تصيب الجند من الأمور الخطيرة التى تؤدى إلى تناقص عددهم وإضعافه عن ملاقاة العدو وخاصة فى أوقات الذروة من المعارك بل قد تؤدى هذه الأمراض إلى سحق القوة العسكرية للجيش فى بعض الأحيان فيؤدى إلى إضعافه فى مواجهته للطرف الثانى فى الصراع العسكري وظهر ذلك الأثر العسكري للأمراض أثناء **الفتح الإسلامى** لمصر ما أصاب جنود الروم فى حصن بابليون أثناء محاصرة الجيش الإسلامى له بقيادة القائد عمرو بن العاص سنة٢٠هـ/٦٤١م، حين فتكت الأمراض بالجنود داخل الحصن وتناقص عددهم، وظلوا يترقبون وصول المدد من بلاد الروم[١] الأمر الذي أدى بدوره فى تعجيل فتح هذا الحصن المنيع أمام الجيوش الإسلامية الفاتحة لمصر.

وفى **عهد بنى أمية بمصر** فمن المعروف أن الأمراض والأوبئة قد تبيد الأمم وبلدان بأكملها إلا أنها أثبتت من ناحية أخرى أنها ساهمت فى إقامة المدن وذلك من خلال هروب الولاة والحكام منها إلى مناطق أخرى بعيداً عن الوباء فيلجئون إلى إنشاء وتعمير مدينة جديدة واتخاذها حاضرة لهم فينقلون إليها أمتعتهم ويختطونها لهم ولأمرائهم وجنودهم بعيداً عن تلك الأوبئة وفراراً منها، كما هو الحال حين هرب الوالي الأموي عبد العزيز بن مروان(٦٥- ٨٦هـ/٦٨٥- ٧٠٥م) إلى الشرقية من الطاعون الذى وقع بمصر سنة ٧٠هـ/٦٨٩م، فأسس مدينة حلوان فى الصحراء الممتدة إلى الفسطاط، واشتراها من القبط بعشرة ألآلف دينار، وبنى بها داراً للإمارة، واتخذ بها الدور والمساجد، كما أقام بها الجند،

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج١، صـ ٢٣.

فصار الوباء الذى وقع بمصر آنذاك الدافع الرئيسى لإنشاء مدينة حلوان[١].

أما عن **خلافة بنى أمية ببلاد الشام** فأشارت المصادر فى الفترة التى شكلت بداية النهاية للدولة الأموية إلى أثر الأمراض التى انتشرت ببلاد الشام فى دفع بعض خلفاء بنى أمية فى ترك حاضرة ملكهم "دمشق" إلى مشارفها تفاديا لتلك الأمراض أن تصيبهم مما دفع الطامعين والمتطلعين لتسلق السلطة فى انتهاز فرصة غياب هؤلاء الخلفاء للاستيلاء عليها والقبض على مقاليد الحكم والسيطرة على الخلافة ،كما حدث حين دفع الوباء الذى وقع بدمشق سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى ترك حاضرة خلافته دمشق فى طائفة من أصحابه نحو المائتين إلى مشارفها مما كان له الأثر السياسي السيئ والوخيم عليه إذ طرقها يزيد بن الوليد بن عبد الملك بغتة وأخذ البيعة لنفسه واستولى على دمشق منتهزا فرصة غياب الخليفة الوليد خارجها ثم أرسل من تتبع أثر الخليفة وقتله[٢].

وكذلك نتيجة لكثرة انتشار وباء الطاعون وغيره من الأوبئة فى حواضر الشام كدمشق، كان ذلك من الأسباب التى دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء قصور لهم فى بوادى الشام وأريافه[٣].

وتعرض مؤسس **الدولة الطولونية** الأمير أحمد بن طولون(٢٢٠-٢٧٠هـ/٨٣٥-٨٨٤م) لمرض أودى بحياته أثناء صراعه مع نائبه على ثغر طرسوس" يازمان الخادم" لعصيانه وكان التوقيت حينذاك شتاءاً فاضطر إلى رفع الحصار وعند عودته إلى أنطاكية تناول لبناً بكثرة تسبب له فى ألم وغثيان شديدين فأشتد عليه المرض، وأخذ أطبائه يعكفون على علاجه إلى أن وافته المنية، وعادت الجيوش الإسلامية إلى الديار المصرية[٤].

---

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمرى، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م، ج٥، صـ٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج٨، صـ ٣٤٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١، صـ ١٨٥.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٠، صـ ١٠ – ١٢.

(٣) على محمد محمد الصلابى: الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، بيروت، ٢٠٠٨م، ج٢، صـ ٣٨٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ط١، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٩٧م، ج٦، صـ ٤٢٧– ٤٢٨.

وظهر فى **الدولة الإخشيدية** أن المرض الذى يصيب الملك خطراً يهدد بزعزعة ملكه وعزله وتوليه غيره، ومن تلك الحالات مؤسس الدولة الإخشيدية محمد بن طغج الإخشيد الذى أصيب فترة من الزمن بمرض عصبى كان يعاوده من حين إلى آخر وعمل هو وبعض حاشيته على كتم أمره، ولكنه كُشف وبادر بعض أتباع الإخشيد وغيرهم بالكتابة إلى العراق– حيث الخليفة العباسى– يطلبون أن يعهد إليهم بولاية مصر[١].

وبالنسبة **للدولة الفاطمية** فى مصر فنجد أن الأمراض فى عهد **الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله(٣٨٦-٤١١هـ/٩٧٧-١٠٢٠م)** قد ظهر لها تأثير على النواحي الاقتصادية للبلاد والذى يتمثل من خلال ارتفاع أسعار الأدوية والمستلزمات الصحية وكذلك السلع التجارية حين تزايدت الأمراض سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م حتى بلغ السكر أربعة دراهم للرطل، وبذر الرمان كل أوقية بدرهم، فضلاً عن ذلك فقد أجبرت الأمراض الخليفة الحاكم بأمر الله التزام قصره وعدم الخروج لصلاة العيد[٢].

وفى عهد **الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله**(٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٦م) فظهر أثار الأمراض الاقتصادية من خلال ارتفاع أسعار السلع التجارية التى صحبت الأمراض التى انتشرت بين الناس والتى منها آلام الحلق سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وخاصة الأدوية والمستلزمات الطبية حتى صارت " الرمانة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهما، والأوقية الشراب بدرهم" وغيرها[٣].

وفى **الدولة النورية** ببلاد الشام أدى مرض الملك العادل نور الدين زنكي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م إلى إثارة القلاقل والاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي فى البلاد نظراً لتطلع رجال دولته وأقاربه إلى الحكم والوثوب على السلطنة حيث جمع أخيه أمير أميران زنكي جمعاً وحاصر قلعة حلب[٤]، كما قام أكبر أمراء نور الدين زنكي الأمير شيركوه

(١) سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ط.٢، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠، صـ ١٠٠.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين، تحقيق: محمد حلمى محمد احمد، ط.١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ج٢، صـ ٧٨- ٧٩.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفاء، ج٢، صـ ١٦٢.

(٤) حلب:(مدينة عظيمة كثيرة الخيرات طيبة الهواء له سور حصن وقلعة حصينة....)(انظر المقدسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط.٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، صـ ١٥٥؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ط.٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، صـ ٢٨٢).

وكان بحمص آنذاك بالسير إلى دمشق طمعاً فى الاستيلاء عليها ولم تستقر هذه الأوضاع إلا بعد ظهور نور الدين للناس ورؤيتهم له، فلما رأوه تفرقوا عن أخيه أمير أميران واستقرت الأحوال فى البلاد(١).

بينما **الدولة الأيوبية** أشارت المصادر فى أكثر من موضع إلى تدخل الأمراض كسبب مباشر أو غير مباشر فى التطورات السياسية والتى نسرد منها على سبيل المثال لا الحصر.

حيث أدى ذيوع خبر مرض الملك إلى إثارة مطامع أعداء الدولة فى بلاده فيتحينون هذه الفرصة للوثوب على بلاده ويحاولون النيل منها، كما هو الحال حين أصاب أعداء صلاح الدين "**الإفرنج**" الضعف ووقوع الغلاء فى بلادهم ولما ضاق بهم الأمر، عزموا فى الخروج غزاة إلى بلاد المسلمين وكان طمعهم بسبب مرض السلطان وظنوا انه لا يستطيع النهوض وهى "نوبة النهر" فما كان من الملك الناصر صلاح الدين إلا أن رتب العسكر تعبئة القتال و"هو صابر على شّدة الألم وقوّة ضَرَبان الَّدمامل" للقاء العدو وطبيبه يتبعه فأخذ فى تتبع أعدائه حتى ردهم إلى بلادهم خاسئين لم ينالوا من المسلمين نيلا (٢).

وكان من شأن المرض زعزعت الاستقرار السياسي والاضطرابات من خلال أثارة تحركات المتطلعين للحكم وتولى السلطنة فيقومون بأعمال من شأنها الاستعداد للوثوب على السلطنة بمجرد العلم بمرض السلطان من ذلك حين مرض الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م فما كان من ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه أن راسل جماعة من الدمشقيين وأمناهم فوعدوه على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين ولكن الأقدار شاءت أن يموت ناصر الدين محمد ويرثه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي(٣).

---

(١) أبى الفداء: المختصر فى أخبار البش، ط.١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، د.ت، ج٣، صـ ٣٥؛الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٣٨، صـ٢٥– ٢٦.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال، ط.٢، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١، صـ ٥٨– ٥٩؛ على محمد محمد الصلابى: صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط.١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٨م، صـ ٢٤٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، صـ ١٠.

هذا على صعيد بلاد الشام أما عن أثر شيوع خبر مرض الملك الناصر على مصر كانت النتيجة أن تحركت لدى ابن أخيه تقى الدين عمر أفعال من يريد أن يستبد بالملك، فلما شفى صلاح الدين من مرضه وعلم بخبر ابن أخيه فى مصر قام بعزله وأرسل الفقيه عيسى الهكارى وأمره بإخراج تقى الدين والإقامة مقامه فى مصر(١).

واعترى الملك العادل سيف الدين أبو بكر(٥٩٦-٦١٢هـ/١١٩٩-١٢١٥م) مرض مزمن فى أنفه يجبره على ترك حاضرة دولته بدمشق فى فصل الربيع من كل سنة فلا يستطيع الإقامة بدمشق بسببه فيخرج له الوطاق بمرج الصفر ثم يعود بعد انقضاء فصل الربيع مما جعل من المرض سببا مباشرا تحكم فى بعض الأحيان فى تحركات الملك ومحل إقامته (٢).

ومن شأن المرض الذي يصيب الملوك أن يدفعهم إلى التصدق بالأموال على الفقراء والمساكين قربة إلى الله ليمن عليهم بالشفاء كما يشارك أمرائهم فى هذه الصدقات كما هو الحال حين مرض الملك المعظم شرف الدين عيسى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م فتصدّق وأخرج المسجونين، وأعطى الأشراف ألف غراره، وفرقوا على الفقهاء والصوفية وغيرهم ثمانين ألفاً وخمسمائة غراره كما اشترى احد الأمراء حصانا أصفراً للمعظم بألف دينار مصرية، وأحضرها له، فأمر بالتصدق بها فى المصلى، فازدحم الناس لينالوا منها فكان من جراء ذلك الازدحام أن مات ثمانية أنفس ثم مات الملك المعظم فى آخر ذى القعدة(٣).

وخلال الصراع الأيوبي الصليبي فى موقعة المنصورة فان الأمراض قد ظهرت كأحد العوامل التى ساعدت على إضعاف موقف الفرنج وأدت إلى نصر الجيوش الإسلامية حين وقع فى خيولهم وباء وموت مما تسبب لهم بطئ فى حركاتهم وحمل أثقالهم وانقطعت عنهم الميرة والمؤن حين طال القتال بين الفريقين مما أجبر ملكهم الفرنسيس محاولة الهروب ليلاً الى دمياط فى أوائل سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م دون جدوى وتمكن المسلمون من أسره ومن معه من الفرسان فى قرية تسمى منية أبى عبد الله(٤).

---

(١) ابن الأثير: نفس المصدر، ج١٠، صد ١٦؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٦، صد١٢٢.
(٢) النعيمى: الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط.١، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ٢٧٢.
(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٥، صد ٢٣.
(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، صد ٣٦٤- ٣٦٥.

ثانيا : نبذة عن أحوال مصر خلال العصر المملوكى :-

المماليك لغة واصطلاحاً:-

(أ) المماليك لغة :- المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربى ملك وملكت المرأة: تزوجتها والمَمْلوكُ: العبد، وملكة الشئ تمليكاً، أى جعله مِلكاً له، وقيل: وعبد مَمْلَكة ومْملُكة أى بفتح اللام وضمها، إذا مُلِكَ ولم يُملَكْ أبواه[١]، ولقد ورد هذا المعنى بالقرآن الكريم، فى عبارات " ملكت ايمانكم" و"ملكة أيمانهم" " وملكت يمينك" أكثر من مرة.

(ب)المماليك اصطلاحاً :-

يقصد بهم جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً لأسباب عدة إما للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم الى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضاعتهم[٢].

والمملوك هو عبد مالكه، ولكنه يختلف عن العبد الذى بمعنى الخادم [٣] ومن المعروف أن أصل نظام المماليك – عموماً–، يتصل اتصالاً وثيقاً بحياة القصر الإسلامي؛ منذ نشأته ،فى أيام الأمويين، وكان معظم مماليكهم فى بداية الأمر من سبى الأتراك فى وسط آسيا.

كما توسع العباسيون فى هذا النظام بعد الأمويين، من مماليك الترك أيضاً، وبذلت الأموال لشرائهم واستخدمهم المعتصم ابن المأمون فى جيشه، وتغالي فى شرائهم، مما جعل قواد الترك المماليك يلعبون دوراً هاماً فى سياسة العباسيين؛ وصل الى حد التحكم فى تولية الخلفاء العباسيين أنفسهم[٤].

أما عن بداية انتقال المماليك إلى مصر فيرجع ذلك إلى الدولة الطولونية التى قامت

---

(١) (انظر سورة النساء ٣، ٢٤، ٢٥ ، ٣٦ وسورة النحل آية ٧١؛ وسورة النور آيات ٣١، ٣٣، ٥٨؛ وسورة الروم آية ٢٨؛ وسورة الأحزاب آية(٥٠)؛ الفارابى: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٤، ط.١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧م، صـ ١٦٠٩، ١٦١٠.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ ٧

(٣) شفيق جاسر أحمد محمود: المماليك البحرية وقضائهم على الصليبين فى الشام، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط.٢١، العدد ٨١، ٨٢، جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ، صـ ١٠٧.

(٤) عبدالمنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، صـ ٦٤-٦٥.

فى مصر ٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨- ٩٠٥م ويعتبر أحمد بن طولون أول من أدخل المماليك بمصر فى جيوشه بعد انتقاله إليها لرغبته فى الاستقلال بها عن الخلافة العباسية، فعمل على الإكثار منهم وجلبهم إليها بأعداد ضخمة قيل أنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك(١)، وقد سلك الأيوبيون مسلك سابقيهم فى هذا النحو إذ كانوا غرباء فى البلاد فاحتاجوا إلى الاعتزاز بأمثال هؤلاء.

بيد أن القبائل المقهورة فى أواسط آسيا كانت لا ترى غضاضة فى بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة فى الغرب وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن الثروة الكبيرة التى يمكن الحصول عليها بأقل جهد، لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحرب وأسراها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة(٢).

أما المكان الذى يأتون منه بالمماليك فهو من بلاد القفجاق(٣) الممتدة إلى البحر الأسود وبحر قزوين والتركستان، أو من بلاد الجركس وهى القوقاز أو حتى من بلاد التتر أو منغوليا، حيث كان الترك عموماً يبيعون أولادهم ذكوراً وأناثاً، كذلك كانت بيزنطة ومدن إيطالية لها مستعمرات على البحر الأسود، قد تخصصت فى بيع المماليك، مثل الجنويين فكانوا يتاجرون فى المماليك فى الجورجيين واللان والأرمن وقد كان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً عن طريق البحر، حتى يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية(٤)، بينما التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر(٥).

وكانت أشهر أسواق بيع هؤلاء المماليك، خان مسرور فى القاهرة حيث يذكر

---

(١) **محمد عبدالمنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى، دار المعرفة الجامعية، د.ت، صـ ٢١٢.**

(٢) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، ط١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٥م، صـ ٣٨.

(٣) القفجاق: " أطلق عليهم الروس اسم polovtsy والأوروبيون والبيزنطيون أسموهم comans والعرب القفجاق وان ذكروا عند الإدريسي تحت اسم القومان وهم فرع من شعب الكيماك التركى وكانوا يعيشون عند نهر الفولجا أو نهر kama ولم يظهروا كعنصر فعال فى تاريخ المنطقة ابتداء من القرن الحادى عشر."(زبيدة عطا: بلاد الترك فى العصر الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٦م، صـ ٨).

(٤) الإسكندرية:(وهى المدينة المشهورة بمصر، على ساحل البحر اختلف أهل السير فى بانيها: فمنهم من ذهب إلى أن بانيها الاسكندر الأول)(انظر القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، صـ١٤٣؛البكرى: المسالك والممالك، دار الغرب الاسلامى،١٩٩٢م، ج٢، صـ ٦٢٨، ٦٣٠؛ المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، صـ ٢٦٩- ٢٧٩؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار)، ج١، دار الشرق العربي، د.ت، صـ١٢- ٢٥؛ العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ط١، المجمع الثقافي، أبوظبى، ٢٠٠٢م، ج٣، صـ٤٩٠-٤٩٦؛ ناصر خسرو: سفرنامه، ترجمة: يحيي الخشاب، ط.٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٣م، صـ٩٨-٩٩)

(٥) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر،ط.٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م، ج١،صـ١٢.

المقريزى عنها فى كتابه المواعظ أنها كانت موضعاً يعرض به المماليك الترك والروم ونحوهم للبيع، إلى أوائل أيام الملك الظاهر برقوق ومن أسواق المماليك أيضاً سوق الإسكندرية(١).

وكان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان فى عصر المماليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك، على حين أن مشتريات السلاطين من المماليك لم تزد عن مائتين أو ثلاثمائة مملوك فى النصف الثانى من القرن الخامس(٢).

والمماليك الذين يشتريهم السلطان أو حتى الأمراء يوضع أغلبهم فى أماكن خاصة، تعرف بالطباق والأطباق وهى المدارس العسكرية وتوجد الطباق فى أماكن متفرقة فى القاهرة وخارجها ولاسيما فى القلعة(٣)، فكان المماليك الذين يدخلون الطباق، يعُرفون باسم مماليك "الطباق" أو" الكتُابية" أو" كتابية"(٤).

وكانت كل طبقة من هذه الطباق مخصصة لجنس معين من أجناس المماليك، لذلك كان يبعث بالمملوك الجديد إلى الطبقة المخصصة لبنى جنسه، وهناك يبدأ تهذيبه وتثقيفه وتعليمه فيشرف على تعليمه فقيه مخصص لهذا الغرض يحضر كل يوم ويقوم بتعليمه هو وزملائه القرآن والصلاة والكتابة والخط ويؤدبه بآداب الشريعة(٥).

وكان هؤلاء المماليك يلقون تدريباً جاداً، فما يكادون يصلون الى مصر وهم أطفال صغار، حتى يودعوا فى مبنى ضخم للتدريب مشيد من عدة طوابق حيث ينامون فى قاعات فسيحة، ويشرف عليهم أساتذة من الأغوات، ويتلقون أصول العقيدة الإسلامية،

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، صـ ٢٢٧؛ شفيق جاسر أحمد محمود: المرجع السابق ، صـ ١١٠.

(2)E. Ashtor : A social and economic history of the Near East in The Middle Ages (Collins, London 1976), p.282.

(٣) " بنيت القلعة على نشز عالٍ يشرف على المدينة، وهذا النُشز يشرف عليه بدوره جبل المقطم وبنيت هذه القلعة بناء على أمر السلطان الشهير صلاح الدين يوسف بن أيوب.. ولم يسكن صلاح الدين ولا ابنه القلعة إلا قليلاً فلم تصبح مقراً دائماً للأمراء والولاة إلا ابتداءاً من الملك الكامل محمد (انظر جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل منذ نشأتها وحتى سنة ١٨٠٠م، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط.١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، صـ ٢٢٧- ٢٢٨؛ أولج فولكف: القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة(٩٦٩- ١٩٦٩)، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٦م، صـ ٨١-٨٢؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، صـ ٢٣؛ ماجدة مصطفى نادى الغمرى: قلعة الجبل فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م، صـ ١٥.

(٤) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، ج١، صـ١٥.

(٥) حمدى عبد المنعم محمد حسين: دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، صـ ١٥٦.

ويأخذون نصيبهم من التعليم الحربي[١]، وكثيرا ما ذهب السلطان ومعه كبار رجال الدولة إلى طباق المماليك ليفاجئهم بزيارته ويتفقد أحوالهم [٢].

وكانت الدراسة فى الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً؛ وإن كانت أحياناً تمتد الى عدة سنين فإذا انتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة، ويقام له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقة فيسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً" قماشاً" وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد نشأ المماليك تنشئة حربية ممتازة، واعتمد نظامهم أساساً على الفروسة الإقطاعية[٤]، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة، بحيث غدت فى أيديهم المناصب العسكرية والإقطاعات المقررة لها فضلاً عن الوظائف الكبيرة فى مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية، وأطلق على المماليك عموماً اسم رجال السيف تمييزاً لهم عن رجال القلم، وهم أصحاب الوظائف الدينية من أهالي البلاد المصريين المسلمين وغير المسلمين[٥].

ولقد أسكن أمراء الأيوبيين مماليكهم من الترك والمغول بجزيرة فى النيل (جزيرة الروضة)[٦] ليكونوا بعيدين عن المدينة ولذا سموا بـ "المماليك البحرية"[٧] وأول أسر المماليك (٦٥٨-٧٨٣هـ/١٢٦٠-١٣٨٢م) كانت من هذه الطائفة، أما المماليك الآخرون

---

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ط.١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦م، صـ ٢٣٨.

(2) Dopp: L' Égypte au commencement du quinzième siècle d' après le traité d' Emmanuel Piloti de Crète, le caire, 1950, P17.

(٣) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، ج١، صـ ١٨.

(٤) "وكانت الاقطاعات فى ظل سلاطين البحرية الأوائل وراثية، ولكن هذا النظام ألغى فيما بعد، ومنذ ذلك التاريخ اتبع المماليك النظام الإقطاعي كما تصوره نظام الملك مستخلصين النتائج المنطقية من مبادئه، وتألف إقطاع الأمير عادة من بعض القرى، وإقطاع المملوك السلطانى من قرية واحدة أو أقل." انظر آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادى علبة، مراجعة: أحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، صـ٣٧١- ٣٧٢.

(٥) محمود الحويرى: المرجع السابق، صـ ٢٣٩.

(٦) الروضة:" هي جزيرة فى وسط البحر وهى تقع ما بين الفسطاط والجيزة وبطرفها من الجنوب دار المقياس وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن فى غيرها " انظر ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ج١، صـ ١٠٩)

(7) Ayalon: Le régiment Bahrya dans l'armée mamelouke, R.E.I,1952,PP. 133-141.

فإنهم جلبوا إلى البلاد بعد ذلك وسموا بالبرجية نسبة إلى الأبراج التى كانوا يقطنوها فى القلعة أو فى أرجاء المدينة ومعظمهم ينتسب إلى الجنس الجركسى، ومن هؤلاء كانت أسرة المماليك الثانية(٧٨٣هـ-٩٢٣هـ/١٣٨٢- ١٥١٧م)[١].

وكان هؤلاء المماليك من أجناس مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والأسبان والألمان والجراكسة وغيرهم إلا ان غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية (الجراكسة) من الجراكسة[٢].

وقد انتسب هؤلاء المماليك غالباً الى أساتذتهم أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار، وأشرفوا على تربيتهم، فالمماليك الظاهرية بيبرس نسبة الى السلطان الملك الظاهر بيبرس، والمماليك الأشرفية خليل نسبة الى السلطان الأشرف خليل وهكذا وأحياناً ينسب المملوك الى تاجره الذى جلبه كالمماليك العثمانية، أو الى قيمته التى اشترى بها إذا كانت كبيرة تستحق الفخر لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك، مثل قلاوون الألفي الذي اشترى بألف دينار[٣].

ظهور المماليك على مسرح الأحداث:-

والواقع أن العصر الذى أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م شهد ازدياد أعداد المماليك ازدياداً يسترعى الانتباه ذاك الازدياد الذى جاء نتيجة وقوع الخلاف والشقاق بين ورثة صلاح الدين فكان لابد لكل أمير من الأمراء من أن يكون له عصبية يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته، فلم يجد الأمراء المسلمون من الأيوبيين وغيرهم وسيلة يتقون بها فى أوجه خصومهم سوى المماليك، فأكثروا من تربيتهم وتنشئتهم تنشئه حربية ليكونوا عدة وسنداً لهم[٤]، وكان هؤلاء الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً فى سن

---

(١) وليم موير: المرجع السابق، صـ ٣٩- ٤٠

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط.١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ٧.

(٣) الدينار:" هو مثقال من الذهب، و مقداره ٤,٢٥جراماً ويساوى الدينار ٦ دوانق فوزن الدانق ٧٦٨ جراماً" إبراهيم على السيد القلا: نظم الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة العلم والإيمان، دسوق، ٢٠٠٧م، صـ١٦٧؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، صـ ٢٠١- ٢٠٢.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ٨-٩؛ شفيق جاسر أحمد: المرجع السابق، صـ ١١٠.

الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية خاصة ليكونوا عدتهم فى الصراع المرتقب(١).

وسرعان ما غدا لأولئك المماليك كلمة مسموعة على مسرح الأحداث ذلك الدور الذى يمثل أول ظهور لهم فى عالم السياسة، وهو ما تشير إليه المصادر عند وفاة الملك العزيز عثمان سلطان مصر فى نوفمبر سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وقد تمثل ظهور المماليك الاسدية والصالحية فى ذلك الحدث من خلال استدعائهم للملك الأفضل من حوران خشية من وقوع مصر تحت سطوة الملك العادل الذى كان يتطلع للاستيلاء على مصر، فحضر الملك الأفضل وتسلم منهم مقاليد الحكم فى يناير ٥٩٥هـ/١١٩٩م(٢).

ولم يلبث أن غدا هؤلاء المماليك أداة لا غنى عنها لملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم مما أدى الى ازدياد نفوذهم السياسي لشعورهم بأهميتهم.

وقد ازداد نفوذ المماليك فى مصر بعد موت الملك الكامل(٣)(ت:٦٣٥هـ/١٢٣٨م) خامس السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي، والذى صار لديه فرقة من المماليك عرفت بـ"الكاملية"، استطاع من خلالها توحيد مصر وسورية وبلاد الجزيرة (٤).

وأما الملك الصالح نجم الدين أيوب(٥)بن الملك الكامل(ت:٦٤٧هـ/١٢٤٩م) " فقد جمع من مماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته "حتى أصبح أكثر أمراء عساكره من مماليكه، ورتب جماعة منهم، وسماهم "البحرية"(٦)، وكان أغراض الملك الصالح نجم الدين أيوب من وراء إكثار المماليك "لحماية الدولة، وإقامة رسوم الملك"–على حد قول ابن خلدون(٧).

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ٧.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، صـ ٢٥٨؛ أبو شامة: عيون الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: ابراهيم الزيبق،ط.١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، صـ ٤٤٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ٩–١٠.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكى فى مصر والقاهرة ، صـ١٠.

(٤)عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، صـ ٦٧.

(٥)الملك الصالح نجم الدين أيوب(ت:٦٤٧هـ/١٢٤٩م):" وهو أيوب بن الكامل بن محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ملكه لمصر تسع سنين وكسر وأمه ورد المنى جارية سوداء)(انظر ترجمته في ابن الوردي: تاريخ ابن الوردى، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢،صـ ١٧٦).

(٦)أبو الفدا: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٧٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، صـ ٣١٩.

(٧)ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج٧، صـ ٦٩٢.

ولعل انتقال سلطة الحكم فى مصر الى المماليك ينسب الى شجرة الدر، تلك المرأة التى يرجع أصلها أيضاً الى الرقيق، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب قبل توليته سلطاناً على مصر، وأنجبت منه ولداً اسمه خليل؛ ولذلك عرفت به "أم خليل"[1]، وهذه المرأة سيطرت فى شئون الدولة فى حياة زوجها، وصارت تصدر الأوامر من وراء الحجاب.

وكانت بديعة الجمال عديمة المثال رفيعة القدر، وحصلت من الجواهر والذخائر مثالاً يزيد عليه، تزوجت بعد وفاة زوجها الصالح نجم الدين السلطان الملك المعز أيبك الصالحي وظلت معه إلي أن حملتها الغيرة علي قتله[2].

موقعة المنصورة :-

واتيحت الفرصة قوية للمماليك للتدخل فى شئون الحكم، حيال حملة لويس التاسع ضد مصر عن طريق دمياط [3] الذى جاء فى أعداد كبيرة، بصحبة زوجته مارجريت marguerit وأخويه، وعدد كبير من الأمراء والنبلاء، فوصلت الحملة إلى دمياط [4]، واستولت عليها فى صفر سنة ٦٤٨هـ/ يونيه ١٢٤٩م[5].

وما ان جاء عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى أصبح الفرنج على المنصورة[6]، والمسلمون بإزائهم، وكان موقف الفرنج قد ضعف نتيجة لنقص الميرة وانقطاعها، وتفشى المرض

(١) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، صـ ٦٩.

(٢) ابن حبيب: مخطوط درة الأسلاك فى تاريخ الأتراك، مخطوطة بجامعة القاهرة، القاهرة، رقم ٢٢٩٦١، ورقة (٦).

(٣) شفيق جاسر أحمد محمود: المماليك البحرية، صـ ١١٤، ١١٥

(٤) دمياط: " مدينة قديمة بين تنيس ومصر وهى من ثغور الإسلام" القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، صـ ١٩٣؛" وهى على ساحل البحر وإليها ينتهى ماء النيل، ثم يفترق من دمياط فيخرج بعضه إلى بحيرة تنيس" انظر اليعقوبى: البلدان، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، صـ ١٧٦.

(٥) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، صـ ٦٩، ٧٠.

(٦) المنصورة:(هذه البلدة على رأس أشموم تجاه ناحية طلخا بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة ست عشرة وستمائة عندما ملك الفرنج، مدينة دمياط، فنزل فى موضع هذه البلدة ، وخيم به، وبنى قصراً لسكناه، وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء، فبنى هناك عدة دور ونصبت الأسواق وأدار عليها سوراً مما يلى البحر، وستره بالآلات الحربية والستائر وتسمى هذه المنزلة المنصورة " (انظر المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، صـ ٤٢٧؛ ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٤م، صـ ٢٤٨؛ العمرى: المصدر السابق، ج٢٧، صـ ٢٣٥).

والموت فى خيولهم، وكان قد عزم ملكهم الفرنسيس[١] قد عزم العودة أول الليل الى دمياط وقد علم المسلمون بما عزمه الفرنج، وكان الفرنج قد أنشئوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل ونسوا قطعه، فتسلل المسلمون من خلاله الى الفرنسيس نحو خمسمائة فارس من أبطال الفرنج وقعد فى حوش المنية (أى منية أبى عبدالله[٢])[٣].

وسرعان ما ظهر المماليك البحرية على مسرح الأحداث السياسية عندما داهم الديار المصرية خطر الصليبيين حتى وصلوا الى المنصورة ذلك الظهور الذى يتضح من خلال تركهم الصليبيين المنصورة ليتفرقوا فى أزقتها فداهموهم طائفة الترك من الجمدارية والبحرية وحملوا على الفرنج حملة زعزعت وهدمت بنيانهم فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسمائة وولوا منهزمين[٤].

وكان للخطة التى وضعها بيبرس البندقدارى[٥] ونفذها فرسان المماليك فى شوارع المنصورة أثرها فى هزيمة جيش الصليبيين، ثم استطاع هؤلاء بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماماً على الجيش الصليبي، وأسر لويس التاسع نفسه[٦].

وبدأت المفاوضات بين الملك لويس وبين المصريين وتم الاتفاق أخيرا على الإطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط، وان يدفعوا مبلغ ألف دينار فدية للملك، يدفعوا نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الأخر بعد وصولهم الى عكا وجمعت

---

(١) الفرنسيس :– هو ملك فرنسا لويس التاسع ويرد فى المصادر:" ريد فرنس وهو تعريب France Roide انظر حاشية الذهبى: تاريخ الإسلام ، ج٤٧، صـ٤٩.

(٢) وذكرها المقريزى بـ "شارمساح " فى الخطط، ج١، صـ ٤٠٨.

(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٧، صـ ٤٩، ٥٠

(٤) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٤٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ، صـ ١٤.

(٥) بيبرس البندقدارى (ت: ٦٧٦هـ/١٢٧٧م):"السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبوالفتوح بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالحى النجمي الأيوبي التركى، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية، وهو الرابع من ملوك الترك مولده فى حدود العشرين وستمائة بصحراء القفجاق تخميناً وبيبرس معناه باللغة التركية: أمير فهد ..)(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٩٤؛ نفسه: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ج٣، صـ ٤٤٧؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، تحقيق: أحمد= =الأرناؤوط، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١٠، صـ ٢٠٧)؛ البندقدارى: " وهو الذى يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير وهو مركب من لفظين فارسيين إحداهما بندق، وإن كان الجوهرى قد أطلق ذكره فى الصحاح من غير تعرّض لانه معرّب فقال والبندق الذى يرمى به ثم هو منقول عن البندق الذى يؤكل وهو الجلّوز بكسر الجيم والزاى المعجمة فى آخره الجلوز عربى وهو البندق والبندق فارسى اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك ويكون المعنى ممسك البندق.." انظر القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٥، صـ ٤٣١.

(٦) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ٧– ٨.

الملكة، وكانت مقيمة فى دمياط نصف المبلغ المطلوب، فأطلق المصريون سراح الملك، ودخل المسلمون ثانية الى دمياط، ورفعوا عليها العلم المصرى[1].

ولم يكد النصر يتحقق على حملة لويس التاسع الصليبية حتى شهدت مصر قيام سلطنة المماليك، وهى السلطنة التى شملت فى أوج عظمتها مساحات واسعة شملت مصر وبلاد الشام، فضلاً عما كان لسلاطين من سيادة على بعض القلاع والمدن فى أعالى الفرات والجهات الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز [2].

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقامت زوجته شجر الدر بإدارة شئون الحكم بمساعدة كبار أمراء المماليك، وحين تولى تورانشاه العرش اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية، وبقوة المماليك البحرية من ناحية أخرى[3].

وكان تورانشاه[4](ت:٦٤٨هـ/١٢٥٠م) قد دفعه ندمائه الذين كانوا لا يكفون عن تذكيره بأنه ليس ملكاً إلا بالاسم، وأن السلطة الفعلية بيد زوجة أبيه شجر الدر، الى الإساءة لمن كان عليهم اعتماده كبيبرس وأقطاى وغيرهم، فأبغضوه وصاروا يخشون غدره ويتحينون الفرصة للقضاء عليه[5].

مع ان تصرف تورانشاه (ت:٦٤٨هـ/١٢٥٠م) تجاه مماليك أبيه حدّد لمن ستئول السلطة أو السيطرة فى مصر؛ ستكون للأيوبيين الأكراد أم لطائفة المماليك؛ خاصة عند

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، صـ ١٠٢.

(٢) محمد عبد المنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الاسلامية، صـ ٢١٥.

(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ٨.

(٤) تورانشاه (ت:٦٤٨هـ/١٢٥٠م):" هو السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ابن مروان وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية، ملك الديار المصرية والشام، بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح وكان مقيماً بحصن كيفا، فلما مات السلطان اجتمع= =رأى الأمراء على إقامته، وجهزوا لإحضاره الأمير فارس الدين أقطاى ..." ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م، ج١، صـ ٣٠٦- ٣٠٩؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٧٢؛ النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج٢٩، صـ ٣٤٠.

(٥) شفيق جاسر أحمد: المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين، صـ ١١٦.

عدم أخذه لنصيحة والده الصالح نجم الدين أيوب ووصيته[١] بضرورة الاستماع الى نصائح شجرة الدر[٢].

وأخيراً أدرك البحرية سوء ما يضمره لهم تورانشاه من سوء عندما رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد الأخرى حتى تنقطع ويقول "هكذا أفعل بالبحرية "[٣] ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه وهكذا لم يبق أمام البحرية إلا ان يقتلوا توران شاه قبل ان يقتلهم هو، فاستقر رأيهم على تنفيذ خطتهم عند نزوله فى فارسكور[٤]، الى ان انتهى ذلك الصراع بين تورانشاه وشجر الدر من ناحية والمماليك البحرية من ناحية أخرى بمصرعه[٥] على نحو مروع[٦].

عندئذ برز من أعلام المماليك– أى بعد مقتل تورانشاه– من كبار المماليك كل منهم يطمع فى حكم مصر، وهم بيبرس قائد الجيوش، وفارس الدين أقطاي[٧] مقدم المماليك [٨]، وعز الدين أيبك الجاشنكير[٩]، ولكن خوفاً من استئثار أحدهم بالسلطنة جعلهم يتفقون على سلطنة شجر الدر، على ان يكون عز الدين أيبك مدبراً للمملكة[١٠].

---

(١) وقد ذكر النويرى تلك الوصية فى نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٢٩، صـ ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، صـ ٧٣

(٣) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ٤٥٧.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢٠٤.

(٥) يذكر المقريزى: ان المعظم تورانشاه " تقدم إليه واحد من البحرية وهو بيبرس البندقدارى وضربه بالسيف فتلقاه المعظم بيده فبانت أصابعه والتجأ الى البرج الخشب الذى نصب له ففر المعظم الى أعلى البرج وأغلق بابه والدم يسيل من يده فأضرموا النار فى البرج فألقى نفسه من البرج وفر المعظم هارباً الى البحر وسبحوا خلفه (البحرية) فى الماء وقطعوه بالسيوف قطعاً حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً...." (المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٥٨) .

(٦) قاسم عبده قاسم :عصر السلاطين المماليك، صـ ٨

(٧) **الفارس أقطاى**(ت:٦٥٢هـ/١٢٥٤م):"وهو أقطاى بن عبدالله الأمير فارس الدين الجمدار الصالحى النجمي التركى أكبر مماليك الملك الصالح كان شجاعاً جواداً كريماً نهاباً وهاباً كان مملوك الزكي ابراهيم الجزرى المعروف بالحليبى اشتراه بدمشق ورباه وباعه بألف دينار فلما صار أميراً وأقطعوه الإسكندرية طلب من الملك الناصر إطلاق استاذه المذكور وكان محبوساً..." انظر الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٩، صـ١٨٥، ١٨٦.

(٨) **مقدم المماليك:**"(وهو لقب على الذى يتولى أمر المماليك للسلطان أو الأمير من الخّام الخصيان المعروفين بالطواشية ومقامه فيهم نحو مقام رأس النوبة) انظر القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٥، صـ ٤٢٨.

(٩) **الجاشنكير:**(وهو الذى يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدّس فيه سمّ ونحوه وهو مركب من لفظين فارسين: أحدهما جاشنا بجيم فى أوله قريبة فى اللفظ من الشين، وعناه الذّوق، ولذلك يقولون فى الذى يذوق الطعام والشراب الشيّشنىّ والثانى كير وهو بمعنى المتعاطى لذلك يكون المعنى الذى يذوق) انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، صـ٤٣٢).

(١٠) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، صـ ٧٤.

ومن الواضح قيام شجرة الدر فى السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليك، لأنها بحكم أصلها كانت أقرب الى المماليك منها الى الأيوبيين[١].

حقيقة ان هؤلاء الحكام لا ينتمون الى أسرة حاكمة، بل أنهم ليسوا أحراراً وإنما " مسهم" الرق ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى ان أمراء المماليك اعتقدوا ان عرش البلاد حق لهم جميعا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين[٢]، وبمقتل تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب فى عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ينتهى عصر الدولة الأيوبية فى مصر والشام، وبتولي شجر الدر السلطنة يبدأ عصر جديد هو عصر سلاطين المماليك الذين حكموا من خلال دولة عرفت باسم الدولة المملوكية[٣].

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٢.

(٢) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعي، صـ١٤.

(٣) حمدى عبد المنعم محمد حسين: دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، صـ ١٥٣.

شجر الدر:

وأخذت شجر الدر[١] (ت:٦٥٥هـ/١٢٥٧م) منذ توليها السلطنة من إرساء دعائم ملكها عن طريق اعتمادها الكلى على المماليك الترك من البحرية، فزادت فى اقتطاعاتهم، وفرقت عليهم الوظائف، بحيث زاده من قبضتهم على الحكم، وكان عز الدين أيبك لا يتصرف فى أى أمر دون الرجوع إليها ومشاورتها، ومن مظاهر إرسائها لدعم الملك أن أخذت تصبغ عليه صبغة الخلافة من خلال الألقاب التى اتخذتها لنفسها وأصبحت تلقب بـ" المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين"[٢].

تولية المعز أيبك السلطنة :-

ولكن الخليفة العباسى لم يوافق على ان تتولى امرأة الحكم ولو صورياً فتزوجها أيبك ثم إنه إرضاء للأيوبيين فى بلاد الشام والكرك، أجلس طفلاً من نسل الأيوبيين على عرش مصر سلطانا[٣].

تولى المعز أيبك السلطنة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ليجد نفسه أمام مشاكل كثيرة خطيرة، أولها تهديد الأيوبيين بغزو مصر ذاتها.

(٢) الأيوبيين فى بلاد الشام:-

وكان أن بدأت تشتعل نار الثورة فى الشام ضد السلطنة الوليدة فى مصر، فأبى ملوك بنى أيوب ان يعترفوا بما تم فى مصر فى قيام المماليك فى الحكم وإعلان شجر الدر سلطانة[٤].

(١) شجرة الدر(ت:٦٥٥هـ/١٢٥٧م):"جارية السلطان الملك الصالح، وأمّ ولده خليل، كانت بارعة الجمال، ذات رأى ودهاء وعقل وكان الملك الصالح يحبها ويعتمد عليها ولما توفى أخفت موته، وكانت تعلم بخطها مثل علامته وتقول: السلطان ما هو طيب وتمنعهم من الدّخول إليه وكانت الأمراء والخاصكّية يحترمونها ويطيعونها، وملكوها عليهم أياماً وتسلطنت وخطب لها على المنابر إثر قتل السلطان الملك المعظم بن الصّالح ثم تزوج بها المعز..."(انظر ترجمتها فى أبوالمحاسن: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٦، صـ ٢١٩؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١٦، صـ ٧٠؛ الزركلى: الأعلام، ط.١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٣، صـ ١٥٨؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٨، صـ ١٩٩).

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٥٩؛ ابى الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٣، صـ ١٨٢؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك، صـ٧٥.

(٣) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، صـ ٤٣.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢٠٨، ٢١٠.

ومن ناحية أخرى كان من الطبيعى ان يرفض الملوك الأيوبيون فى بلاد الشام الاعتراف بشرعية حكم سلاطين المماليك، ولم تفلح محاولة المماليك لإخماد غضب الأيوبيين بإقامة موسى بن الملك المسعود بن الملك السلطان الملك الكامل لصغر سنه، وكان لابد للسيوف ان تحسم الصراع لصالح احد الطرفين فدارت المعركة بين المماليك والأيوبيين بالقرب من مدينة الصالحية – فى محافظة الشرقية الحالية– وكانت الهزيمة من نصيب الجيش الأيوبي إلا ان المعركة لم تكن تمثل نهاية الصراع بين المماليك والأيوبيين، وقد استمر ذلك الصراع حتى تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائي فى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس[١].

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكتلون بالشام للوقوف فى وجه المماليك فى مصر، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين[٢].

وخرج المعز بالعساكر وعربان مصر لمحاربة الناصر يوسف فى ٣ ذى القعدة ٦٤٨هـ/ ٢٧ يناير ١٢٥١م، وخيم بمنزلة الصالحية وترك الأشرف بقلعة الجبل، واقتتل مع الناصر فكانت النصرة له على الناصر وعاد.

ثم فى محرم ٦٤٩هـ/ ابريل ١٢٥١م، خرج المعز بالأشرف والعساكر، فنزل بالصالحية وأقام بها نحو سنتين، والرسل تتردد بينه وبين الناصر فورد الخبر فى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بحركة التتار على بغداد، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف وانفرد بالسلطنة، وقبض على الاشرف وسجنه[٣].

وكان الخليفة العباسى فى بغداد أشد إحساساً بخطر المغول، بحكم تطرف بلاده فى الشرق وقربها من دولة هولاكو فى فارس، لذلك بادر الخليفة المستعصم بالله بإرسال رسول الى الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق " يأمره بمصالحة الملك المعز(أيبك) وان يتفقا على حرب التتار"، ويبدو ان موجة الرعب التى أثارتها أخبار المغول ووحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبا فى سهولة لدعوة الخليفة المستعصم، فتم الصلح فى صفر

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ، صـ ٩.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢٠٩.

(٣) نبيلة حسن محمد: المقتبس من تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط١، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٩م، صـ ٩٢.

٦٥١هـ/ ابريل ١٢٥٣م بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام[١]على ان يكون للمماليك مصر حتى نهر الأردن وأن يدخل المصريين فى ذلك غزة[٢] والقدس ونابلس والساحل كله بينما للأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام[٣].

(٣) ثورة العربان: -

ثارت القبائل العربية فى مصر فى بلاد الصعيد[٤] وبعض مناطق من الوجه البحرى وقطعوا الطرق براً وبحراً، وكان وراء ثورة هذه القبائل العربية هو رفضهم الخضوع للمماليك لأنهم من الجنس التركى وليسوا أحراراً، وتولى زعامة تلك الثورة الشريف حصن الدين ثعلب الذى نسب إليه قوله: " **نحن أصحاب البلاد، وأنا أحق بالمُلك من المماليك وقد كفى ان خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد**"[٥].

فجهز إليهم السلطان الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، فبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب ولكن الهزيمة لحقت بحصن الدين ثعلب وفر هارباً، ثم طلب الأمان من المعز فأمنه، واستدعاه إليه، وسرعان ما قبض عليه وعلى سائر أصحابه وكانت عدتهم نحو ألفى وستمائة رجل، فأمر الملك المعز بشنقهم جميعاً، أما حصن الدين ثعلب فقد ارسل الى الاسكندرية وحبس بها[٦].

---

(١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، صـ٤٧٩.

(٢) غزة: " مدينة طيبة بين الشام ومصر على طرف رمال " القزوينى: المصدر السابق، ج١،صـ ٢٢٧؛ " ومدينة غزة على ساحل البحر وهى رأس الإقليم الثالث وبها قبر هاشم بن عبد مناف " انظر اليعقوبى: المصدر السابق،ج١،صـ ١٦٧؛ " موضع بديار جذام من مشارف الشام على ساحل البحر" انظر الحميري: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ج١، صـ ٤٢٨؛ المهلبى: المسالك والممالك، تحقيق: تيسير خلف، د.ت، صـ ١٠٢؛ ابن عبد الحق: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة ، ط.١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م،ج٢، صـ ٩٩٣؛"وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر متسقة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها " انظر رحلة ابن بطوطة، ج١، صـ ٤٠؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، صـ ٢٠٢.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢١٢- ٢١٣.

(٤) الصعيد: " الصعيد المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدث فى الإسلام، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر، ولذلك يقال فيها أعلى الأرض، ولأنها أرض ليس فيها رمل ولا سباخ، بل كلها أرض طيبة مباركة ، ويقال للصعيد أيضاً الوجه القبلى...... " انظر المقريزى: الخطط، ج١ ، صـ ٣٤٩ – ٣٥١) .

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٧٩.

(٦) حمدى عبد المنعم: دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، صـ١٥٩.

(٤) الصراع بين الأمراء:-

ولم يلبث ان توصل البحرية بالذات الى السلطنة، وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلث (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨١م) استطاعوا فيها مواجهة المشاكل التى واجهت المسلمين فى مصر والشام عندئذ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول أو داخلية فى صورة مؤامرات أو أزمات اقتصادية.

الذين ازداد نفوذهم ازدياداً خطيراً عقب واقعة المنصورة من ناحية ثم عقب الانتصار على الناصر يوسف الأيوبى عند العباسة من ناحية أخرى فجميع هذه الانتصارات كان الفضل فيها لقوة المماليك البحرية الأمر الذى جعلهم يشعرون بنفوذهم وسطوتهم ويتمادون فى غيهم وإفسادهم، ويبدو ان ازدياد البحرية فى ذلك الدور لم يهدد نفوذ أيبك فحسب بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم[١].

واستفحل خطر نفوذ فارس الدين أقطاى خاصة بعد نجاحه فى القضاء على ثورة العرب، وانضمت إليه المماليك البحرية، فأصبح ملجأ لهم يسألونه فى حوائجهم ويكون هو المتحدث باسمهم مع الملك المعز.

أرسل الملك المعز إلى أقطاى يستدعيه الى القلعة للتشاور، وبمجرد دخوله القلعة أغلقت الأبواب، وأمر المعز القبض عليه وقتله، وانتشرت الإشاعات فى القاهرة بقتله، فسارع أصحابه فى نحو السبعمائة فارس، ووقفوا تحت القلعة، وفى ظنهم انه لم يقتل وإنما قبض عليه، ولكن المعز أمر بإلقاء رأس المعز إليهم فسقط فى أيديهم، وقرروا ترك القاهرة، فمنهم من قصد الملك المغيث صاحب الكرك، ومنهم من سار الى الملك الناصر صاحب دمشق، ومنهم من ذهب الى الملك علاء الدين ملك سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وقد تتبع المعز أيبك من بقى منهم بالقاهرة فقبض على من بقى منهم وقتل بعضهم وحبس باقيهم وصادر أملاكهم وأموالهم ونسائهم وأتباعهم واستصفى أموالهم[٢].

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢٠٠، ٢١٣.

(٢) حمدى عبد المنعم: دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، صـ ١٦٠.

أما المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت المعز أيبك والتى أودت به فى نهاية الأمر فكان سببها شجر الدر [١].

وما لبث ان ضاق أيبك بتصرفات شجر الدر، فأرسل الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب، وعندما علمت شجرة الدر بما عزم عليه المعز، قررت التخلص منه [٢].

فحرضت على قتله سنجر الجوهرى أحد مماليك الفارس أقطاى، فدخل عليه الحمام وانقض عليه بمعاونة الخدام، وأخذت هى تضرب على رأس المعز بالقبقاب وهو يستغيث إليها حتى مات [٣].

وبعد ذلك أصبح أيبك سلطاناً على البلاد لا ينازعه فيها منازع واعترف به كل من حوله من الدول عند ذلك فكر أيبك فى التزوج ثانية من أميرة من الموصل فأغضب ذلك السلطانة وكانت محنقة من قبل فدست عليه من قتله، ولكنها لم تنج من زوابع العاصفة التى أعقبت قتله فان بعض الجواري إحدى زوجاته قمن إليها فقتلنها، وبعد موت أيبك نصب أمراء المماليك ابنه الأصغر سلطاناً على البلاد، وقد عرضت الوصية عليه على قطز – أحد مشهوري المماليك الخوارزمية فقبلها بعد إباء شديد [٤].

الظاهر سيف الدين قطز:-

ثم استدار [٥] المماليك البحرية ليواجهوا المغول، وكان هؤلاء قد خرجوا من جوف قارة آسيا المجدبة، بعد ان نجح زعيمهم جنكيز خان فى توحيد قبائلهم، وسألوا عرش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب ودمروها وأحرقوها حتى أصبحت أثراً بعد عين [٦].

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢١٤.

(٢) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٤.

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٦، صـ ٣٧٦.

(٤) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، صـ ٤٣.

(٥) الاستدار:" بضم الهمزة لقب مملوكى يطلق على القائم على الشئون الخاصة للسلطان والأستدارية وظيفة موضوعها التحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ، والشراب خانة، والحاشية، والغلمان، ويمشى صاحبها بطلب السلطان الطُلب: الكتيبة من الجيش، فارسية الأصل، ويحكم فى غلمانه وباب داره، وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكسوة" انظر محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكي، ط.١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م، صـ ١٥؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، صـ ٣٩، ٦٨.

(٦) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٤.

(٥) خطر التتار:-

وكان على دولة المماليك الناشئة ان تتصدى للخطر التتري، فانتهز قطز الفرصة وعزل السلطان الصغير " المنصور على ابن المعز أيبك" وتولى سلطنة البلاد تحت اسم "السلطان المظفر سيف الدين قطز"، وتمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر التتار الطغاة وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامى[١].

وقام من بعده السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز وأخرج المنصور ابن المعز منفياً هو وأمه الى بلاد الأشكرى[٢]، وقبض على عدة من الأمراء[٣].

ولم يلبث هولاكو ان بعث برسالة تهديد الى السلطان المملوكى قطز وحذره من عاقبة العناد إذا حدثته نفسه بالمقاومة، قائلاً له[٤]" **فنحن ما نرحم من يبكى ولا نرق لمن شكى وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب...**" وغيرها من عبارات الوعيد والترهيب[٥].

ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد، فقتل رسل المغول وعلق رءوسهم على باب زويلة فكانت أول من علق على باب زويلة من رءوس المغول.

وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد الى حاضرة المغول فى آسيا وترك كتبغا نائبا عنه فى الشام عندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى الى الشام قرر رأيه على منازلة المسلمين فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسان فى فلسطين.

موقعة عين جالوت:-

ولا شك فى ان موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى حيث أنقذت مصر والشام من خطر المغول وجعلت دولة مغول فارس تقف عند

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ٨.

(٢) الاشكرى: "اسم إمبراطور بيزنطي فى مدينة نيقية (بتركيا) توّج سنة ١٢٠٦م وتوفى سنة ١٢٢٢م ثم صار اسماً لكل أباطرة الدولة البيزنطية " (انظر محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية، صـ١٥).

(٣) نبيلة حسن محمد: المقتبس من تاريخ الأيوبيين والمماليك، صـ ٩٣.

(٤) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٧.

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٥١٤.

حدود العراق وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام، فإن تهديدهم بعد عين جالوت لم يتخذ شكل غزوات كاسحة كما كان الحال من قبل، وإنما اتخذ صفة غارات متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية من مصر [١] وتعتبر هزيمة المغول فى عين جالوت أول هزيمة لحقت بهم فى تاريخ توسعهم البربري الخاطف منذ أيام جنكيز خان، وبداية انحسار خطرهم الذى هدد الحضارتين الإسلامية والعالمية[٢].

ولما أصبح قطز صاحب السيادة فى سورية أعاد إليها ولاتها السابقين بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء، وكان قطز قد وعد بيبرس البندقدارى جزاء خدمته الجليلة، ولاية حلب[٣]، ولكنه خاف أطماعه فولى عليها غيره لذلك حنق عليه بيبرس، وخاف ان رجع الى القاهرة ان يدهمه خطر، فدبر بينه وبين نفر من أصحابه لاغتيال قطز فانتهز فرصة خروجه للصيد أثناء عودتهم الى الديار المصرية فصحبه وطلب من امرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه فتقدم ليقبل يده فقبض عليها وانهال أصدقائه يضربون قطز بالسيوف من خلفه حتى مات[٤].

واتجهوا جميعاً الى الدهليز السلطانى بالصالحية ودخلوه وهناك قال لهم الأمير أقطاى وسألهم:" من قتله منكم ؟"، فقال بيبرس: "أنا قتلته "، فرد عليه أقطاى " يا خوند أجلس فى مرتبة السلطنة مكانه" فجلس بيبرس وبايعه أقطاى وحلف له وتبعه بعد ذلك بقية الأمراء على طبقاتهم[٥].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، صـ ٢٢١ – ٢٢٣.

(٢) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٧.

(٣) حلب : (مدينة عظيمة كثيرة الخيرات طيبة الهواء له سور حصن وقلعة حصينة قال الزجاجى: كان الخليل – عليه السلام – بحلب غنمه بها ويتصدق بلبنها يوم الجمعة فيقول الفقراء: حلب، فسميت بذلك ويزرع من أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين عذباً يسقى بماء المطر والمدينة مسورة بحجر أسود، وفى جانب السور قلعة حصينة لأن المدينة فى وطاء من الأرض وفى وسطها جبل مدور مهندم والقلعة عليه ولها خندق عظيم وصل حفره الى الماء، وفى وسطه مصانع للماء المعين وجامع وبساتين وميدان ودور كثيرة...) (انظر المقدسى: المصدر السابق، صـ ١٥٥؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢،صـ ٢٨٢؛ العمرى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٥٣٥؛ الحميرى: المصدر السابق، ج١،صـ ١٩٦؛ بدر الدين الغزى: المطالع البدرية فى المنازل الرومية، تحقيق: المهدى عيد ، ط.١، دار السويدى، بيروت، ٢٠٠٤م، ج١،صـ ٧٢)

(٤) وليم موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، صـ ٤٥ ؛

William Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt 1260-1517, London ,1896. P .11

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، صـ٥٢٠.

الظاهر بيبرس البندقدارى:-

وفى ١٩ ذى الحجة ٦٥٨هـ/٢٤ نوفمبر ١٢٦٠م وصل بيبرس ومعه الأمراء الى القلعة وتسلمها[١].

ونودى فى القاهرة ان " **ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس**"[٢]، وقد استطاع السلطان الملك الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) ان يثبت بأعماله وإصلاحاته التى قام بها وحروبه انه المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك فى مصر والشام [٣].

ويمكن القول ان الأمراء المماليك قد اعتقدوا ان عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذى تأكد منذ بداية الدولة، سواء فى مصرع أيبك وشجر الدر، أو فى اغتيال "بيبرس" " لقطز" وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى عين جالوت[٤] .

ولكن بطولات المماليك فى المنصورة وفارسكور وعين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير من نظرة المعاصرين لهم أو تغير من نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد فمن المعروف ان النظرية السياسية الإسلامية تجعل من شروط الحكم، ان يكون الإمام "حراً" ومن ثم فإنه تعين على سلاطين المماليك ان يواجهوا متاعب عدم الاعتراف بهم كحكام شرعيين منذ البداية[٥].

ويمثل عصر المماليك بعصر العصبيات، تقاسمت فيه النفوذ والسلطان عصبيات شتى، لكل سلطان عصبيته من المماليك السلطانية، ولكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به واعتبروه أستاذهم.

---

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، صـ ٢٤٨.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ٥٢١.

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، صـ ٤٦.

(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ١٠.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعي، صـ ١٣.

المماليك البحرية:-

التسـمية:- ولقد تباينت الآراء حول تأويل مسمى البحرية الذى أطلق على مماليك الصالح أيوب، فهناك رأى يذهب الى سبب تسميتهم بالبحرية نتيجة لجلبهم عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق، ومن ثم سموا بالبحرية، وهناك رأى آخر – ولعله الأرجح – يقول ان هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة الى (بحر النيل)، حيث ان السلطان الصالح أيوب(٦٣٧- ٦٤٦هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل مستقراً ومقاماً(١).

ورجح الدكتور جمال الدين الشيال ان البحرية سموا بهذا الاسم لأنهم جاءوا من وراء البحار أو على طريق البحار(٢) مستنداً بقوله على رأى جونقيل مؤرخ الحملة الصليبية السابعة على مصر الذى ذكر فى كتابه " سيرة القديس لويس" أنهم يسمون البحرية أو رجال ما وراء البحار، وذلك استناداً ان جونفيل المذكور اشترك فى محاربة المماليك فى الحملة المشار إليها وأسر عندهم، واتصل بهم وتحدث إليهم.

وكان بداية ميلاد المماليك البحرية يرجع انتسابهم الى الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٦هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) حيث شعر بأهمية المماليك – الرقيق الأبيض– فى توطيد سلطنته والذى ظهر له جلياً حين مكنوه من إحلاله محل العادل الثانى فى السلطنة فيذكر المقريزى: " فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك وجعلهم معظم عسكره" والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر (٣).

أما الدولة المملوكية الثانية أو" الجراكسة " فقد امتازت بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسى، ما عدا خشقدم وتمربغا إذ كان أصلهما ينحدر من أصل يونانى(رومى)(٤).

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١١ ، ١٤١.

(٢) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، صـ١١١.

(٣) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، صـ ٤٤١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٠.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى ، صـ ١٥٨.

ويرجع نشأة المماليك الجراكسية الى السلطان الملك المنصور قلاوون الذى أراد ان يكوّن فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء، وتكون سندا له ولذريته من بعده فى الاحتفاظ بالعرش، ولتحقيق هذه الغرض رأى قلاوون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس التى انتمى اليها مماليك عصره، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون الى بلاد الكرج (جورجيا) وهى البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود [١].

(١) محمد عبد المنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الاسلامية، صـ ٢٨٨.

الفصل الأول

الأمراض فى عصر سلاطين المماليك

❖ **الأمراض العضوية:-**

أ- السلاطين.   ب- الأمراء

جـ - عيادة السلاطين للأمراء المرضى .

د - عيادة السلاطين لزوجاتهم وزوجات الأمراء.

هـ - الأمراض الناتجة عن الحوادث

١- السلاطين.   ٢- الأمراء.

❖ **الأمراض النفسية :-**

أ-أمراض السلاطين النفسية. ب-أمراض الأمراء النفسية.

❖ **الأمراض الاجتماعية :-**

أ- معاقرة الخمور والمخدرات   ب-الرشوة.

جـ -الزنا والأمراض الجنسية.   د - الشعوذة والسحر.

الفصل الأول

الأمراض فى عصر سلاطين المماليك

أولاً: الأمراض العضوية:-

(أ)السلاطين:-

كان من شأن الأمراض العضوية أن تؤثر فى مزاولة السلاطين لمقاليد الحكم فتجعلهم ينقطعون عنها مدة تلقيهم العلاج حتى يشفوا من أمراضهم ويعودوا إلى مزاولة أمور السلطنة مما له الأثر على الأحوال السياسية بالبلاد وشئونها نتيجة هذه الفترة التى يظل فيها السلاطين يتلقون فيها العلاج.

ومن هؤلاء السلاطين الذين تعرضوا للإصابات أثنا ممارستهم للصيد السلطان الملك الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) إذ نزل فى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م قرب صيدا[١] للصيد فتقنطر عن فرسه وتهشم وجهه فتحامل على نفسه من شدة الألم وواصل السير حتى وصل إلى مكان آمن، وأبى أن يظل ضريحاً على الأرض، وتحامل على نفسه وركب فرسه، ثم تلقى العلاج على وجه السرعة و ذلك حتى لا يعوق مهام حياته السياسية[٢].

وفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م حين عاد من الشام إلى الديار المصرية متوجها إلى الكرك[٣] ، ينظر فى أحوالها، فلما وصل إلى بركة زيزاء[٤] خرج للصيد، فسقط عن فرسه فكسرت ساقه فأقام بالكرك يتداوى حتى تمكن من ركوب المحفة[٥] عائدا إلى القاهرة حتى

---

(١) صيدا:" من صاد يصيد صيدا، سميت بذلك لكثرة السمك الذى كان يصاد بها، وهى بين واسط العراق وخّفان بالسواد مما يلى البرّ تعد فى ألطف بالكوفة " انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٩٣ ؛ ناصر خسرو علوى: المصدر السابق، صـ ٦٠.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠١م، صـ ٩٧، ٩٨.

(٣) الكرك: " حصن مشهور بناحية الشام ومعقل مشهور " الحميري: المصدر السابق، صـ ٤٩٣؛ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج١، صـ٨٤.

(٤) زيزاء:" من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق وفيها بركة عظيمة، وأصله فى اللغة المكان" انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٦٣.

(٥) محفة: " ج محفات ومحاف. هو سرير له ذراعان من كل ناحية، ليسهل حمله، يستلقى فوقه المريض العاجز عن المشى." أحمد مختار عبدالحميد: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط.١، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، ج١، صـ ٥٢٦؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ط.٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥م، ج١، صـ ٦٠٧)

وصل إلى مسجد التبر[١] (أو مسجد التبن) وعندئذ أبى أن يدخل القاهرة على هذا الحال- فأقام ليالي مريضا بمخيمه عند المسجد المذكور، وهناك شفيت ساقه واستطاع ركوب فرسه[٢]، وان كان اليافعى قد أشار أن ساقه لم تلتئم[٣].

وقد يستدعى المرض السلطان فى بعض الأحيان إلى قطع رياضته المفضلة(أي الصيد) والعودة حتى تتحسن حالته الصحية ثم العودة مرة أخرى إلى مواصلة الصيد- كما هو الحال - سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م حين عاد الركب السلطاني إلى قلعة الجبل وقد وصل جهة الأهرام بالجيزة[٤] وكان سبب ذلك هو ما لحق السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩- ٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م) من دُمَّل[٥] صغير أصابه فى يده اليسرى، واشتد الألم به " فاقتضى ذلك عوده"، وظل بقلعة الجبل حتى عالج ذلك الدُمَّل وتحسنت حالته، حينها استقل ركابه إلى الصيد متجها إلى الوجه القبلي[٦].

وجرت العادة فى العصر المملوكى عند اشتداد المرض بالسلطان أن يمنع الأمراء من الدخول إليه، وينيب السلطان عن نفسه من يلقى عليهم سلام السلطان من ذلك حين اشتد المرض بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م " منع الأمراء من الدخول إليه إذا حضروا الخدمة "- على حد قول المقريزى- وأخرج إليهم

(١) مسجد التبر:" هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق ، عرف قديماً بالبئر، والجميزة، وعرف بمسجد تبر، وتسمّيه العامّة مسجد التبن وهو خطأ، وموضعه خارج القاهرة قريباً من المطرية"(انظر المقريزى: الخطط، ج٤، صـ٤٨٠؛ الشارعى: مرشد الزوار الى قبور الأبرار، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٥م، ج١، صـ ٧٥١).

(٢) العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ج١، صـ ٤٢٥. ذكرها سنة ٦٦٤هـ؛ بيبرس الدوادارى: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس ريتشارد، ط.١، الشركة المتحدة، بيروت، ١٩٩٨م، صـ ١٠٥، ١٠٦ ذكرها سنة ٦٦٤هـ؛ اليافعى: مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، صـ ١٢٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ج٨، صـ ١٢١ ذكرها سنة ٦٦٤هـ.

(٣) اليافعى: المصدر السابق ،ج٤، صـ ١٢٤.

(٤) الجيزة :" مدينة إسلامية بنيت فى سنة ٢١هـ وقيل فرغ منها سنة ٢٢هـ وسبب بنائها أن عمرو ابن العاص لما رجع من الإسكندرية فى جيشه ونزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفاً من عدو يغشاهم من تلك الناحية فبنى فيهم فى سنة ٢١هـ وفرغ من بنائه فى سنة ٢٢هـ وأمرهم عمرو بالخطط بها" (انظر ابن دقماق: المصدر السابق، ج١، صـ١٢٦-١٢٧)

(٥) الدُمَّل: "الدُمَّل يحدث عن دم غليظ فمتى كان غلظه انقص قرب من الجلد وكان مكروهه أقل بعد عَن الجلد" انظر حاجى باشا: مخطوط شفاء الاسقام ودواء الآلام، مكتبة الحرم النبوى،٢/٦١٠، ورقة٢٤٠أ، ٢٤٠ب؛ ابوبكر الرازى: الحاوى فى الطب، تحقيق: هيثم خليفة طعيمى، ط.١، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٤، صـ ٢٩.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٢٧؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٣٠١.

الأمير جندار[١] ليبلغهم السلام نيابة عنه ثم انصرفوا، فخف عن السلطان مرض الإسهال[٢] فجلس للخدمة ووجهه شاحب[٣].

وحين اشتد مرض الإسهال على السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرة أخرى قرر ألا يشهد صلاة العيد فى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م إلا انه مع إصرار الأميران قوصون[٤] وبشتاك[٥] عليه بضرورة خروجه لصلاة العيد، ركب ونزل الى الميدان، وأمر ملقى خطبة العيد قاضى القضاة[٦]عز الدين عبدالعزيز بن جماعة[٧] أن "يُوجز فى الخطبة" وما أن جلس السلطان لسماع الخطبة إلا أن عاوده شدة الألم وتحركت بطنه فاضطره إلى القيام وعاد الى القلعة[٨].

وذكر بعض المؤرخين أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعانى من آثار بعض الأمراض العضوية المزمنة –حيث يذكر ابن شهبة– أن" بعينه حَوَل وبرجله اليمنى" آثار ألم ينقض عليه من الحين للآخر ولا يكاد يمشى عليها إلا متكئاً على أحد أو

(١) أمير جاندار:(وهو لقب على الذى يستأذن على الأمراء وغيرهم فى أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل)انظر القلقشندى: المصدر السابق، ج٥، صـ٤٣٣؛ محمد أحمد دهمان: المرجع السابق،صـ٢٠؛ حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ١٩٥–١٩٨؛ دوزى: تكملة المعاجم العربية، تحقيق: محمد سليم النعيمى، ط.١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ٢٠٠٠م، ج٢، صـ١٢٨.

(٢) الإسهال: (فى الطب) نقص ما فى المعدة والأمعاء من الأخلاط على غير مألوف الطبيعة)ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ت، ج١،صـ ٤٥٨؛ الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، الرياض، د.ت، ج٢٦، صـ ١٠١؛ التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: على دحروج، ترجمة عبد الله الخالدى، ط١، دار مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، صـ ٢٠٠؛ ابن النفيس: الموجز فى الطب، تحقيق: عبد الكريم العزباوى، ط.٢، القاهرة، ١٩٩٧م، صـ ٢١٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٩٨، ٢٩٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٦٢، ١٦٣.

(٤) الأمير قوصون(ت: ٧٤٢هـ /١٣٤٢م):(هو قوصون بن عبدالله الناصرى الساقى وأما أصل قوصون و اتصاله بالملك الناصر محمد بن قلاوون حتى صار ساقيه أعظم مماليكه هو وبكتمر الساقى)(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ط.٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٧٢م، ج٤، صـ٣٠٠؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٢٤، صـ٢٠٧، ٢٠٨)

(٥) الأمير بشتاك (ت: ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م):(هو بشتاك الناصرى اشتراه الناصر بستة آلاف درهم وسلمه لقوصون ليربيه فشغف به السلطان فأفرط فى العطاء له حتى أعطاه كوجرى أمير شكار ثم قتل فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢هـ)(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٧١؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، ج١٠، صـ ٨٨، ٨٩).

(٦) قاضى القضاة:" وكانت وظيفة قاضى القضاة، أعلى وظائف القضاء فى مصر عصر سلاطين المماليك" انظر حسن أحمد التطاوى: أهل العمامة فى مصر عصر سلاطين المماليك، ط١،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧م، صـ ٤٦.

(٧) القاضى عز الدين عبد العزيز بن جماعة(ت: ٧٦٧هـ/١٣٦٦م):(وهو الإمام العالم العلاّمة قاضى القضاة عز الدين عبدالعزيز ابن قاضى القضاة بدر الدين الكنانىّ الحموى..)(انظر ترجمته في ابن العماد: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الارناؤوط، ط.١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م، ج٨، صـ٣٥٩،٣٥٨؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٦)

(٨) المقريزى: السلوك، ج٣،صـ ٣٠٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٦٢، ١٦٣.

النمجا[١] بحيث لا يصل من قدمه سوى أطراف أصابعه[٢] ولعل ذلك يفسر لنا سبب مناداة العامة له عند ثورتهم على المظفر بيبرس بالأعرج لتوليه السلطنة قائلين: "يجيبوا لنا الأعرج يجى الماء ويدحّرج"[٣].

كما انتاب السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد(٧٤٢-٧٤٣هـ/١٣٤١-١٣٤٢م) ألم فى رأسه فاستدعى جمال الدين بن المغربى[٤]رئيس الأطباء لعلاجه، " فوصف له ما يناسبه وتردد إليه يومين "، ولعل المرض صار فى ذلك الموضع السبب المباشر الذى أتاح لنا التعرّف على حال ذلك السلطان وكان قد انقطع عن رجال القلعة وظهر دور المرض أن أتاح لرئيس الأطباء جمال الدين المغربى أن يسرد لنا ما رآه حين دخل على السلطان ووجده مستلقيا وبجانبه " شاب من أهل الكرك وبقية الكركيين قيام " وتردد عليه يومين وهو على تلك الهيئة، واستطاع رئيس الاطباء من رؤية جلساء السلطان فى تلك الفترة [٥].

ونتيجة لمرض السلطان الملك الصالح إسماعيل (٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م انقطع لتلقى العلاج عقب عودته من سرحة[٦] سرياقوس[٧]أياماً حتى ظهر آثار ذلك المرض على سائر بدنه بالضعف العام داعيـــاً لقيـــام الأميـــران

(١) النمجة: "وكانت أسلحة الأمير تحتوى على سيف وخنجر يطلق عليه اسم" دشن" أو" سيخ sikh أو نمجه Namza أو"سكين" انظر ل.ا ماير: الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، صـ ٦٧.

(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ١٩٩٤م، ج١، صـ ١٩٥؛ أولج فولكف: المرجع السابق، صـ ١١٦.

(٣) أبوالمحاسن: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٣،صـ ٤٧١.

(٤) الرئيس جمال الدين المغربى(ت:٧٥٦هـ/١٣٥٥م)(وهو ابراهيم ابن أحمد القاضى الرئيس الكبير جمال الدين، رئيس الأطباء بالديار المصرية، المعروف بابن المغربى مات أواخر ذى القعدة سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م)(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: على أبوزيد وآخرون، ط.١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، صـ ٥٤).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٦٢؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٥٩.

(٦) سرحة سرياقوس انظر عبدالله كامل موسى: منتزه سرياقوس فى العصر المملوكى، جامعة جنوب الوادى، مجلة كلية الآداب، ع٣، ١٩٩٤م، صـ ١٥٠.

(٧) سرياقوس: " بليدة فى نواحى القاهرة، بمصر" ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج٢، صـ ٧١٢؛ انظر عبدالله كامل موسى: نفس المرجع، صـ ١٤٧.

العلائـــى[١] وآقسنقر[٢] النائب[٣] بتدبير أمور الدولة حتى يشفى مما أصابه من المرض[٤].

وكان من أهم نتائج مرض السلطان فى العصر المملوكى رفع شأن الأمير الذى يتولى أمور دولته واتساع أملاكه وارتفاع منزلته وهو ما نلمسه من قول – ابن شهبة– واصفاً حال الأمير أرغون لما مرض السلطان الملك الصالح إسماعيل سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م قائلاً:" كثر إقطاع " أرغون " وأملاكه، وبقى أكبر من نواب السلطنة"[٥].

ومن أهم تداعيات مرض السلطان الصالح إسماعيل، أن مؤسسات أو إدارات الدولة فى الشام ووجهت كل عنايتها بالاهتمام بشفاء السلطان من مرضه، لدرجة أن ديوان البريد[٦] قد انقطع عشرين يوماً، وذلك سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م[٧].

وفى بعض الأحيان كان السلطان يصر على أداء فريضة الحج وهو مريض مثلما حدث فى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م حين أراد السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد الناصر بن قلاوون (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م) الحج، فاعتذر الأمراء بسبب كثرة الأمراض التى اعترت الناس، فصمم على التجهيز للسفر للحج[٨]، غير انه ما لبث أن مرض مرضاً شديداً وفشل الأطباء فى علاجه، وهنا استدعى بعض المشايخ الذين نجحوا فى علاجه حتى عوفى وصمم على السفر للحج واختلف مع أمرائه وهرب خفية إلى مصر فظل مختفياً إلى أن قبض عليه الأمراء وقتلوه[٩].

---

(١) أرغون العلائى (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م) (هو الأمير أرغون بن عبد الله العلائى توفى قتيلاً بالإسكندرية، وكان أرغون أحد المماليك الناصرية، رقّاه الملك الناصر محمد فى خدمته، وزوجه أم ولديه الصالح إسماعيل والكامل شعبان، وعمله لالا لأولاده)(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ٤١٩-٤٢٠؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٨، صـ ٢٣٠).

(٢) آق سنقر (ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م):(وهو الأمير سيف الدين وقيل شمس الدين آق سنقر بن عبدالله السّلاّرى نائب السلطنة بالديار المصرية) (انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٠٥).

(٣) النائب: " هو من ينوب عن شخص آخر، يكون أعلى من مرتبة ومكانة وتكون النيابة فى أعماله حال غيابه، أو بعضها حال تواجده وقد تضاف لفظة نائب إلى اسم، أو نوع العمل الذى يقوم به النائب بدلاً من صاحبه الأصلى " عثمان عبد الحميد عشرى: نظم الحكم والإدارة على عصر سلاطين المماليك فى مصر: الدولة الأولى ٦٤٨- ٧٨٤هـ/١٢٥٠- ١٣٨٢م، د.ت، صـ ١٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٨٤؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٨٢.

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٤٨٦ .

(٦) البريد: " البريد هو تبليغ إجراءات ولاة الأمر إلى الأطراف، وتوصيل الترتيبات المتعلقة بهذه الأطراف إليها ونقل أخبار هذه الأطراف وحاجاتها إلى ولاة الأمر، ومن ثم الوقوف على مجريات الأمور والأحداث فى الدولة قيل فى أصل لفظ البريد انه فارسى وهو بريد دم، وقيل بريد ذنب " انظر ابراهيم على السيد القلا: المرجع السابق، صـ ٩٦.

(٧) ابن شهبة: المصدر السابق، ج٢، صـ ١٦٤.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٥،٦؛ ابن شهبة: المصدر السابق، ج٢، صـ ٥٠٨.

(٩) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ١٣.

ويبدو ان السلطان الملك الظاهر برقوق الذى يبدو كان يعانى مرض الاسهال حيث ذكر المقريزى أن مرض الإسهال قد انتابه سنتي(٧٩٤/١٣٩٢م)و(٧٩٥هـ/١٣٩٣م) واشتد به حتى ألزمه الفراش لتلقى العلاج منه أياماً[١]، وكذا سنة(٨٠١هـ/١٣٩٨م) حيث يذكر المؤرخون أن السلطان انتابه الإسهال الشديد حتى ألزمه الفراش لمدة تزيد على عشرين يوماً[٢].

وكانت الحمى الحادة المصحوبة بمرض الإسهال أو الدُوسِنْتاريا[٣] من أهم الأمراض الشائعة فى العصر المملوكى والتى أصابت كثيراً من سلاطين المماليك، فقد أصابت السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م، الأمر الذى جعله طريح الفراش، وأخذ يتلقى العلاج الدائم لهذا المرض لمدة أسبوع، وشغله ذلك عن أداء واجباته السياسية[٤]، واستمر فيه هذا المرض حتى استهلت سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٥]، مما جعله ضعيفاً لا يقوى على التحرك من فراشه، وتمادى به المرض حتى انطلقت الإشاعات بموته؛ ولكنه تماثل للشفاء، ورجع إلى حياته العادية[٦].

ومن الأمراض التى شاعت فى عصر المماليك آلام المفاصل والعظام، وأصاب هذا المرض السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى(٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢٠م)، فقد كان ألم المفاصل يعتريه من حين إلى آخر، ولما اشتد عليه المرض كان يحمل على الأكتاف لأنه لا يقدر على المسير على قدميه؛ وبناء على ذلك كان لا يخرج من القلعة طوال الشهر إلا أياماً معدودة، يذهب فيها للاستجمام بساحل بولاق[٧]،وبعض المنتزهات التى يروح بها عن نفسه[٨].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٣٢٤، ٣٣٦.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤٢٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ٩١.

(٣) دُوسِنْتاريا:"مرض يصيب الأمعاءَ الغليظة يتميّز بكثرة التبرُّز ويعرف أيضًا بالدوسنطاريا" انظر أحمد مختار عبدالحميد: المرجع السابق، ج١، صـ ٧٨٧.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م، ج٥، صـ ٢٢٦.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ١٣٧

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٥، صـ ٢٧٢.

(٧) بولاق: "بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور، يزرع فيها القصب والقلقاس على ما فيه تنقل الماء من النيل، حيث جامع الخطيرى الآن.." (جومار: المرجع السابق، صـ ٣٤٠- ٣٤٢؛ محمد الشتشاوى سند: منتزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ ٥٦) .

(٨) أبو المحاسن: مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م، ج٢، صـ ١٣٧.

ولقد أرجع المؤرخون ذلك المرض الذى انتاب الملك المؤيد شيخ إلى حادثة تعرض لها – قبل توليه السلطنة– أثناء الخلاف الذى نشب بينه وبين السلطان الملك الناصر فرج(٨٠٩–٨١٥هـ/١٤٠٦–١٤١٢م) سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م حين نزل شيخ المحمودى[١] ونوروز[٢] بمدينة الكرك واطمئنوا بها واعدوها استعدادا للقتال.

وفى بعض الأيام نزل شيخ المحمودى وبعض أصحابه من قلعة الكرك إلى حمام الكرك، وما أن علم شهاب الدين أحمد حاجب[٣] الكرك بنزوله فى طائفة قليلة بادر بأصحابه واقتحموا الحمام ليقتلوا شيخ وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى أدركهم الأمير نوروز بعسكره، بعد ما قتل من أصحاب شيخ الأمير سودون بقجة[٤]، وأصيب شيخاً بسهم أصابه بجرح بالغ، فنزف منه دم كثير، ثم استطرق أبو المحاسن على هذه الإصابة قائلا:" ومن هذه الرجفة حصل له مرض المفاصل الذى تكسح منه بعد سلطنته "[٥].

وأشارت المصادر إلى معاناة السلطان المؤيد شيخ المحمودى من ألم المفاصل فى سنين سلطنته فيتبين لنا مدى تأثير المرض على حياته السياسية فى سني حكمه ومنها سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م اشتد به مرض المفاصل وانقطع لأجله عدة أيام بالقلعة وكان على

---

(١) المؤيد شيخ (٧٥٩– ٨٢٤هـ/١٣٥٨–١٤٢١م)(هو السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبدالله الظاهرى، وهو السلطان الثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع من الجراكسة وأولادهم، وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق... توفى سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م) (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٦، صـ ٢٦٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٢٥٦؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٢٤٠؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٨٢).

(٢) نوروز (ت:٨١٧هـ/١٤١٤م):(وهو الأمير سيف الدين نوروز بن عبدالله الحافظى وكان أصل نوروز المذكور من مماليك الملك الظاهر برقوق، ومن أعيان خاصّكيته، الى أن ولى نيابة دمشق، ومن حينئذ ظهر أمر نوروز وانضم إليه شيخ ....) (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٢٨، ١٢٩).

(٣) أمير حاجب:" فى عصر المماليك قد زادت اختصاصات الأمير حاجب فكانت مهمته أن ينصف بين الأمراء والجند أحياناً برأيه هو فقط، وأحياناً بعد مراجعة السلطان أو النائب إن كان، وصار له أتباع من الحجاب قد يزيدن عن عشرة، وكانت مهمتهم جميعاً لا تتعدى المحاكمات والخدمة" (انظر حسن الباشا: المرجع السابق، صـ ٢٠٦ – ٢١٠)

(٤) سودون بقجة(ت:٨١٣هـ/١٤١١م)(هو سودون بن عبدالله الأحمدي الظاهرى، الأمير سيف الدين المعروف سودون بقجة هو أيضاً من مماليك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصكيته، ومن آنيات الأمير تمراز الناصري نائب السلطنة بالقاهرة، وزوج ابنته، تأمر فى أول الدولة الناصرية فرج ، وترقى إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية..) (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ ١٥٦ – ١٥٩) .

(٥) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١١٥– ١١٦؛ ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م، ج٢، صـ ٤٥٦.

الاستعداد لقتال نوروز(ت:٨١٧هـ/١٤١٤م) وتعطل لهذا المرض عن المواكب السلطانية[١].

وفى السنة التالية ٨١٧هـ/١٤١٤م عاد ألم المفاصل على السلطان المؤيد شيخ المحمودى فانقطع داخل الدور السلطانية حتى زال عنه الألم[٢] غير انه ما لبث أن عاوده ألم المفاصل مرة أخرى سنتي ٨١٨هـ/١٤١٥م[٣] وربيع الأول ٨١٩هـ/ مايو ١٤١٦م[٤] وقد انتابه ألم المفاصل فى تلك السنة أكثر من مرة ولم يشهد السلطان صلاة الجمعة فى شهر رمضان بتلك السنة لملازمته الفراش من ألم رجله[٥]، وسنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م عاود السلطان ألم رجله المزمن الذى كان يلازمه سنين سلطنته شهر رجب فى تلك السنة وقصد حلب محمولاً فى محفة لعجزه عن ركوب الفرس[٦].

وفى بعض الأحيان قد لا يمثل المرض عائقاً يحول دون ممارسة سلاطين المماليك رياضتهم المفضلة من ذلك ما رواه المقريزى عن السلطان المؤيد شيخ المحمودى أن السلطان المؤيد شيخ سبح فى النيل مع خاصته فى المسافة ما بين بيت كاتب السر[٧]، ومنية السيرج، ورغم مرضه يسبح بقوة[٨].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ١٤٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣،صـ ٣٦.

(٣) المقريزى: السلوك، ج ٦، صـ ٣٨٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، صـ ٩٠.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤١٨-٤١٩.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٤٥ ،٤٤٩، ٤٦٢، ٤٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٥٥.

(٧) كاتب السر:" وهو صاحب ديوان الإنشاء يعلم فى الأمور الكبار صاحب العلامة الكبرى؛ وهو مستودع الخبايا ، ومستطلع الخفايا...."(محمد حمزة إسماعيل: السلطان المنصور قلاوون(تاريخ – أحوال مصر فى عهده – منشآته المعمارية)، ط.٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ ٣٤- ٣٧؛ انظر:

Quatremère: E., Histoire de sultans mamlouks de l' Egypte , paris, 1844- 1845,I, pp. 118-119 .

(٨) لطفى احمد نصار: وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب(فرع الصحافة)، القاهرة، ١٩٩٩م، صـ ٢٥٩.

ولعله لا ضير فى ذلك وقد أصبح العلاج المائى فى أيامنا هذه تستخدم السباحة فى المياه لمن يعتريه ألم فى المفاصل كعلاج للمريض والذى يعد من صور العلاج الطبيعى فى الطب البديل(١).

وكذلك سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م لم يحضر السلطان موكب القصر السلطانى لاشتداد ألم قدمه عليه(٢).

وكانت سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م كسابقيها إذ عاود السلطان ألم المفاصل لذلك لم يشهد السلطان صلاة الجمعة لعدم قدرته على النهوض وحمل فى محفة ونزل من القلعة بدار البارزى على النيل، ثم حمل على الأعناق حتى وضع على فراشه ونقل معه زوجاته، كما نزل الأمراء فى دور الناس حول السلطان، ونظراً لذا المرض المزمن الذى تعاود آلالامه السلطان فقد اشتد الألم بالسلطان ولم يحمل إلى القصر ،ولما أهل شهر شوال لم يستطيع السلطان النزول لصلاة العيد –عيد الفطر، واكتفى بالصلاة على فراشه نظراً لعدم قدرته على النهوض والصلاة فى الجامع(٣).

ويبدو لنا أن السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى كان عرضة لعدة أمراض أخرى غير آلام المفاصل والقدم؛ ففى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أصيب بمرض يختلف عن آلام المفاصل والقدم، وهو مرض" حبسة الإراقة"(٤)؛ وعندما أدرك السلطان شهر رمضان سنة ٨٢٣هـ/ سبتمبر سنة ١٤٢٠م فقد عاودته آلام القدم بجانب مرض الإراقة، الأمر الذى جعله مقيما بالدور السلطانية بالقلعة، وعلى الرغم من ذلك كان السلطان لا يفطر ويصوم بإستثناء الأيام التى يتناول فيها الدواء(٥).

---

(1) Mary s.templeton, Debbie L.Booth, Wendy D.O'kelly: Effects of Aquatic Therapy on Joint Flexibility and Functional Ability in Subjects With Rheumatic Disease, Journal of thopaedi & sports physical therapy, 1996, vol.23, issue :6 , pp.376 – 381.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٦٢–٤٦٣، ٤٨٠–٤٨٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٦٥، ٧٣، ٧٤.

(٣) المقريزى:السلوك، ج٦، صـ ٥٠١، ٥٠٣، ٥٠٦ –٥٠٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج١٤، صـ٨٤–٨٥،٨٧–٩٠.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ١٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٩٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٢١٧؛ حبسة الإراقة(يراد بالإراقة البول، وحبسه أصابته باحتباس البول) انظر الطرودى: مخطوط رسالة فى الطب" شرح حديث المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء، مكتبة المسجد النبوى، المدينة المنورة، ٦١٠/٤، ورقة ٢٧أ ملحق (٢).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ١٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٢٢٤.

ومن تداعيات مرض آلام المفاصل التى كانت تعترى السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى أن منعه من أداء شعائر صلاة العيد بالجامع وذلك لعدم استطاعته النهوض على قدميه فاضطر إلى صلاتها بالقصر الكبير وذلك فى أول شوال٨٢٣هـ/ أكتوبر ١٤٢٠م وحين أراد رؤية أعماله الإنشائية التى استجدها فى جهة الخمس وجوه[١]، التى استجدها بالقرب من التاج وقد انتهى من تجديدها فحمل إليها فى محفة[٢].

ثم توالت الأمراض على السلطان المؤيد شيخ المحمودى واشتدت به فى ١١ ذي الحجة٨٢٣هـ/١٧ديسمبر١٤٢٠م والتى منها الإسهال والزحير[٣] والحصاة، والحمى، والصداع[٤] بجانب ما يعتريه من ألم المفاصل التى ظلت تلازمه طوال فترة حكمه[٥].

وأشارت المصادر إلى بعض الحالات لا يمثل المرض فيها عائقاً يحول دون ممارسة السلاطين حياتهم بصورة طبيعية منها المؤيد شيخ المحمودى فرغم الألم الذى كان يعاوده فى رجله ويلزمه الفراش أحياناً، فإنه ركب المحفة وهو مريض وسرح ثم عاد ولم يقعده المرض عن ممارسة رياضته المفضلة الصيد[٦].

وبالرغم من اشتداد تلك الأمراض التى أصابت السلطان وغيرها عليه سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م إلا أنه ظل بكامل قواه العقلية ويصدر القرارات السلطانية مزاولا حياته السياسية بصورة طبيعية مما يبدو لنا أن الأمراض التى كانت تعترى السلطان قد لا تمثل عائقاً دون مزاولة حياته السياسية فى بعض الأحيان[٧].

---

(١) منظرة الخمس وجوه: "وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش وكان لها فرش معدّ لها، وبقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة، ابتدأ بناءها فى يوم الأثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة) (انظر المقريزى: الخطط، ج٢، صـ ٤٢١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٩٤).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ١٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٠٢.

(٣) الزحير: " مرض يتميز بتبرز متقطع معظمه دم ومخاط ويصحبه ألم وتعن" انظر في ابوبكر الرازى: الحاوى فى الطب، ج٣، صـ٩، ١٠-١٤؛ ابن النفيس: المصدر السابق، صـ ٢٣٣؛ انظر ابراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق ، صـ ٣٩٠، (زحل).

(٤) الصداع: " ألم فى الرأس، وكل ألم فسببه: إما سوء مزاج ساذج أو مادى" ابن النفيس: المصدر السابق، صـ ١٢٩.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٠.

(٦) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ٢٢٥.

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٠٧.

أما السلطان الملك الظاهر ططر(٨٢٤هـ/١٤٢١م) فما لبث أن تولى السلطنة إلا وقد استهل حكمه بالآلام والأوجاع ففى شوال٨٢٤هـ/سبتمبر١٤٢١م أصبح ملازماً للفراش، وصارت تعمل الخدمة بالدور السلطانية،" وينفذ الأمور ويعلم على المناشير"[١]، وما أن شفى السلطان من مرضه أول ذي القعدة٨٢٤هـ/أكتوبر١٤٢١م، ودخل الحمام وأخلع على الأطباء، إلا انه سرعان ما ضعف وعاوده المرض ولزم الفراش وانقطع بالدور السلطانية، وظل يباشر أمور الحكم من فراشه[٢].

وظهرت الأمراض الباطنية التى تؤثر على صحة الإنسان، وكانت تمثل خطراً كبيراً على الناس عامة؛ فقد أصيب السلطان الملك الأشرف برسباى(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) وعلى وجه التحديد سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م بمرض الحمى فى باطنه وكان يتألم من شدة أعراض هذا المرض، وكان لا يدخل عليه خدمة ولا موظفين؛ وأصبح محجوباً من جميع الناس، إلا رئيس الأطباء الذى كان مباشره بالحقن ليلاً ونهاراً[٣].

وقد شهدت السنة الأخيرة من حكم الأشرف برسباى كثرت مرض السلطان، ففى شهر رجب٨٤١هـ/يناير١٤٣٨م وعقب عودة السلطان الأشرف برسباى من خليج الزعفران[٤] وتناوله الطعام مع الأمراء بالسماط[٥]، مرض فى اليوم التالى من عودته وصار لا يشتهى الطعام، وملازماً للفراش[٦].

وكذا فى شهر شوال من تلك السنة، فقد انتكس السلطان ولزم الفراش بعد أن أبدى مظالم فى حكمه فكثرت الألسن الدعاء عليه، وأخذ المرض يشتد به، إلا انه يتجلدّ ويظهر انه عوفى بخلعه على الأطباء، ويركب ووجه متغير وقد أصفر لونه إلى أن عجز عن

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٢.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٦٥.

(٤) خليج الزعفران: انظر محمد الششتاوى سند: المرجع السابق، صـ٣١٣.

(٥) الأسمطة: " هى الولائم، التى تعتبر من رسوم البلاط أيضاً فكانت الأسمطة تقام يومياً لسكان القلعة الكثيرين، كما تقام الأسمطة عظيمة فى أيام المواكب، مثل سماط عيد الفطر، الذى عد من أكبرها(انظر في عبد المنعم ماجد: نظم سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر(دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه)، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ج٢، صـ ١١٦)

(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٤٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٩١.

القيام[١]، وفى شهر ذى القعدة٨٤١هـ/مايو١٤٣٨م اشتد مرض السلطان، وحجب عن الناس وأصبح لا يدخل عليه المباشرين عدة أيام سوى قلة من الأمراء كالأمير إينال شاد الشربخاناه، والأمير صفى الدين جوهر الخازندار[٢] وكثر الإرجاف بموت السلطان[٣].

وظهر مرض خطير أثر على السلطان وهو مرض الماليخوليا[٤] وكثر هذيانه وصار فى أكثر الأوقات غائب وإذا أفاق خلط، وتوالت عليه نوب الصداع مراراً وتخلت قواه حتى مات عصر يوم السبت ١٣ذى الحجة٨٤١هـ/٦ يونيو١٤٣٨م [٥].

أما السلطان الملك الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) ففي ذى القعدة ٨٤٧هـ/مارس١٤٤٤م فقد مرض السلطان[٦]، سرعان ما أرجف الناس بما يعانيه السلطان من شدة المرض ولذلك ركب من قلعة الجبل إلى أن وصل إلى ساحل بولاق ليظهر الناس بعافيته لما يترتب على مرض السلطان من إثارة الفتن والفساد فى البلاد عند ذيوع خبر مرضه[٧].

وفى شوال٨٥٦هـ/أكتوبر١٤٥٢م رسم السلطان الملك الظاهر جقمق بعمل الخدمة السلطانية بالدهيشة[٨] دائماً يومى الأحد والخميس لضعف حركته، وهو يتجلّد ولا يظهر ما به من الألم[٩]، وفى شهر ذى الحجة٨٥٦هـ/نوفمبر١٤٥٢م فقد صلى الملك الظاهر

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٣٥٥؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ٣٤٨.

(٢) جوهر اللالا(ت:٨٤٢هـ /١٤٣٩م):(عتيق أحمد بن جلبان وكان قبله لعمر بن بهادر، ثم اتصل بخدمة الملك الأشرف وهو أمير فتنقل معه، وقرره لالا ولده محمد الأكبر ثم ولده يوسف..) (السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج٣، صـ٨٤).

(٣) المقريزي: السلوك، ج٧، صـ٣٥٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١٠٥.

(٤) " من الأمراض التى عرفها الأطباء النفسيين خلال عصر سلاطين المماليك مرض المالنخوليا، وأعراض ذلك المرض هو تشوش الفكر والظنون إلى الفساد والخوف.." انظر حاجى باشا: المصدر السابق، ورقة ١٧ (ملحق ١)؛ ابن سينا: القانون فى الطب، تحقيق: محمد أمين الضناوى، د.ت، ج١، صـ ١١٩؛ ابن النفيس: المصدر السابق، صـ ١٣٩؛ مكرم عبد الجواد عبد الحميد: الطب والأطباء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ٢٠٠٩م، صـ ٦٤.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٥٩.

(٦) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٣٥٢.

(٧) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج١، صـ ١٧٧.

(٨) الدهيشة : (عمّرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون ، فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وذلك انه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه انه عمر بحماه دهيشة لم يين مثلها ؛ فقصد مضاهاته .....) (انظر المقريزى : الخطط،ج٣، صـ ٣٦٩؛ عبد الرحمن زكى: قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١م، صـ ٦٥- ٦٦؛ ماجدة مصطفى نادى الغمرى: المرجع السابق، صـ ٢٢)

(٩) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ج٤، صـ ١٥.

جقمق بجامع القلعة وهو مريض وحين انقضت الصلاة وخرج من الجامع سقط مغشياً عليه، فأرجف الناس بموته، فما كان من اليوم التالى إلا وقد حضر الخدمة فى الدهيّشة من القلعة، وحضر جميع الأمراء وعلّم على المراسيم والأوامر(١).

وكذا سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م فقد استهلت والسلطان مريضاً، إلا انه يتحامل على نفسه على عدم إظهار ما به من المرض وكان قد انتابه مرض " ضعف شهوة الأكل" هذا منذ أواخر سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م وكان له على ذلك أشهر كثيرة إلا انه لا تظهر عليه علامات الموت(٢).

وعلى صعيد آخر فانه كما جرت العادة أن يتبع المرض الذى يصيب السلطان خلال العصر المملوكى الانقطاع عن الخدمة السلطانية أياماً وعدم تدبير أمور الحكم إلا انه فى بعض الأحيان أشارت المصادر أن بعض سلاطين المماليك استطاع تدبير شئون البلاد والعباد وهو يتحامل على نفسه لعدم إظهار أثر المرض عليه.

كما كانت تقام البشائر السلطانية وتعلق الزينات فى الديار المصرية ولاسيما القاهرة ابتهاجاً بشفاء السلاطين مما لحق بهم من أمراض كما هو الحال حين ظل السلطان الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م)ملازماً لفراشه بالدور السلطانية بسبب مرض أصابه سنة٨٥٧هـ/١٤٥٣م وعندما تمثلت صحته للشفاء باكر يوم الأحد دقت البشائر السلطانية وأقيمت الزينة فرحا لشفائه(٣).

ويبدو أن مرض الإسهال كان من الأمراض الأكثر شيوعاً بين سلاطين العصر المملوكى إذ أشارت المصادر أن من هؤلاء السلطان الملك الظاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م) الذى رغم ما عانه من مرض الإسهال الذي أصابه سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م إلا انه مع ذلك، لم ينقطع عن صلاة الجمعة كعادة من سبقه من السلاطين عند مرضهم ويحضر الخدمة بوجود كبار رجال الدولة، كما يجلس على الفرش

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٤٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٤٨- ٤٥٠؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج٤، صـ ١٥.
(٣) أبوالمحاسن: حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عزالدين، ط.١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، صـ ٤٥٩.

بقاعة البيسيرية[١] وتدخل الناس إليه الخدمة كالعادة وقام بتلك الأمور وهو يتحامل على نفسه من شدة المرض[٢].

ورغم ما كان يعانيه السلطان الملك الظاهر خشقدم من المرض إلا انه كان يصر على إصدار الأوامر إذ تذكر المصادر التاريخية انه لما مرض سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م باشر أمور الحكم بأن كتب لنائب الكرك الأمير بلاط ونائب غزة[٣] الأمير إينال الأشقر لقتال مبارك- شيخ عرب بنى عقبة ومن معه من الأعراب فى محرم سنة ٨٧٢هـ/أغسطس ١٤٦٧م فخرج الأمير أزبك ومن معه من القاهرة فى٧ صفر ٨٧٢هـ/٦سبتمبر ١٤٦٧م كل ذلك والسلطان ما زال مريضاً بالإسهال[٤].

ولم يكتف بذلك بل قام بعمل الموكب السلطانى بالقصر ولم ينقطع عن الخروج إلى الحوش[٥] لأجل خروج الأمير أزبك.

وكعادة سلاطين المماليك فى عدم إظهار الضعف قدر المستطاع أثناء مرضهم وذلك تفادياً لوقوع الاضطرابات، لذا حين أرجف بموت السلطان الملك الظاهر خشقدم فى ١٠ صفر ٨٧٢هـ/٩سبتمبر ١٤٦٧م، وأشيع بذلك ورغم ذلك نجد أن السلطان أخذ المرض منه الحد المؤلم يصر على الخروج لتأدية صلاة الجمعة مشياً على قدميه دون مساعدة أحد وهو مظهراً الشفاء والصحة إلى أن فرغت الصلاة، عاد إلى باب النساء بالدور السلطانية مباشرة ولما عاد إلى دور نساء السلطان سقط مغشياً عليه من شدة ما به من المرض وتحامله على نفسه[٦].

على أية حال، ومع تدهور صحة السلطان الملك الظاهر خشقدم فانه فى ١٤

---

(١) القاعة البيسيرية:(ومن جملة دور القلعة قاعة البيسيرية، أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وكان ابتداء بناها فى أوّل يوم من شعبان سنة ٧٦١هـ)(انظر المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ٣٦٩).

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٢٧٢.

(٣) غزة: "موضع بديار جذام من مشارف الشام على ساحل البحر" انظر المهلبى: المصدر السابق، صـ ١٠٢.

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٠١.

(٥) الحوش:"استهل العمل فيه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م وكانت مساحته أربعة فدادين وكان موضعه بكرة كبيرة قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة حتى صارت غوراً كبيراً..." انظر عبد الرحمن زكى: المرجع السابق، صـ ٦١.

(٦) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٠٢.

صفر سنة ٨٧٢هـ/١٣سبتمبر١٤٦٧م عمل الخدمة بقاعة البيسرية من الحريم[١] وذلك " لضعفه عن الخروج إلى قاعة الدهيشة "، وعلم كذلك السلطان على عدة مناشير وهو يتجلّد من الألم، ويقف لمن يدخل إليه من القضاة والعلماء إلا انه لم يحضر صلاة الجمعة خامس عشرين صفر لثقل المرض عليه[٢]، وقد بلغ هذا السلطان ما لم يبلغه قبله ولا بعده من السلاطين فى تجلدّه من المرض وعدم إظهار العجز، ومع شدة هذا المرض إلا انه" عقله واع، ولسانه طلق، وكلامه كلام الأصحاء "[٣].

أما السلطان الملك الأشرف قايتباى(٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) فقد مرض فى شوال٨٧٢هـ/مارس١٤٦٨م فانقطع عن مزاولة حياته السياسية أياماً نتيجة تلقيه العلاج[٤].

وظهرت خلال هذا العصر أمراض العيون التى كان يصاب بها كثيراً من الشعب خلال العصر المملوكى وكان قد أصيب السلطان الأشرف قايتباى بمرض فى عينيه فالتزم المقام بالدور السلطانية وتعطل عن مراسم الخدمة أياماً حتى شفى من مرضه وكان سبب مرضه انه فى سنة٨٨٠هـ/١٤٧٥م كان قد توجه إلى طرا[٥]، وأحضر بين يديه قدوراً بها شهد، ففتحت منهم قدرة وكان السلطان جالس على السماط، فخرج منها نحلة كبيرة لدغت السلطان فى جفن عينيه، فتورمت عيناه فى الحال، وتألم منها غاية الألم وصعد من وقته إلى القلعة إلى إن شفى[٦].

وكان سلاطين المماليك أثناء مرضهم يحرصون على أن يظهروا بمظاهر القوة ويمارسون حياتهم الطبيعية دون أي تغير وحتى بلغ بهم الأمر أن يمارسوا الرياضة المفضلة لديهم والتى تحتاج إلى صحة جيدة لممارستها فقد ذكرت المصادر التاريخية أن السلطان قايتباى خرج فى سنة٩٠٠/١٤٩٥م وكان مريضا، وظهرت عليه علامات

(١) " وسمى مكان سكن الحريم السلطانى بالآدر السلطانية أو بالأدر الشريفة، وتحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار.... " انظر ماجدة مصطفى نادى: المرجع السابق، صـ ١١١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٠٠ – ٣٠٣.

(٣) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٠٤، ٣٠٥ .

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، بيروت، ١٩٧٢م، ج٣، صـ ١١.

(٥) طرا:(قرية فى شرقى النيل، قريبة من الفسطاط، فى ناحية الصعيد)(ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٤)

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ١١١.

الموت، للعب الكرة[١] ضرب الكرة ضرباً هيناً، بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة "، وذلك حرصاً منه للظهور بمظهر القوة حتى لا تضطرب الأحوال فى البلاد إذا انتشر خبر عجزه فى المرض الذى أصابه[٢].

أما السلطان الأشرف قانصوه الغورى(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) ففى شوال ٩٠٧هـ/مايو١٥٠٢م لم يصلّ صلاة العيد، واحتجب عن الناس حتى كثر القيل والقال وكان ذلك نتيجة مرض أصابه[٣].

وكان مرض القولنج[٤] من الأمراض المنتشرة بمصر فى عصر المماليك، حتى أننا نجد السلطان الأشرف قانصوه الغورى قد أصيب بهذا المرض والذى من أهم أعراضه الإسهال المستمر والمزمن؛ مما يجعل السلطان لا يمارس رياضته المفضلة وهى رمى الكرة [٥] فى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٩م[٦]، واحتجب عن الناس، لدرجة انه لم يخرج لصلاة الجمعة فى ٩١٦هـ/ ١٥١١م ولكن بعد ذلك شفاه الله تعالى، وعاده كبار رجال دولته، وخرج لأداء صلاة الجمعة مع الرعية[٧].

أما فى سنة٩١٧هـ/١٥١١م فنجد أن المرض تحّكم فى ملبس السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى إذ اضطر إلى شق القاهرة وهو لابس تخفيفة صغيرة مملسة[٨]، بدلاً من لبس التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال وكان ذلك بسبب أصابته بـ" دمُّل فى رأسه".

---

(١) " ووصف الرحالة تافور لعب السلطان مع أمرائه هذه اللعبة، قائلاً: ان الميدان الفسيح الذى يلعبون فيه يقسمونه خطوطاً بخطوط بيضاء، وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة، وفى وسط الميدان كرة، ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب اجتذاب الكرة إلى جانبه، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة ...." انظر: tafur (pero): travels and adventures, London,1926, P. 80.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣؛ صـ٣١٠؛ لطفي أحمد نصار: المرجع السابق، صـ٢٤٩.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٨.

(٤) قولنج: (مرض معوىّ مؤلم يصعب معه خروج البراز والرّيح وسببه التهاب القولون)انظر ابن حجيج: مخطوطة المجموع فى الطب، مكتبة المسجد النبوى، المدينة المنورة، ٦/٦١٠ ، ورقة ٨١أ ،٨١ب ، ملحق (٣).

(٥) " وتسمى أيضاً "الأكرة"، و"الصولجان" وهى اللعبة المعروفة اليوم باسم بولو polo تلعب واللاعبون على ظهور الخيل، وتصنع الكرة من مادة خفيفة كالفلين وخلافه ...." انظر سعود محمد العصفور: الألعاب ووسائل التسلية فى العصر المملوكى، مجلة كلية الآداب ، جامعة حلوان، ع١٧، (يناير ٢٠٠٥م)، ج١، صـ ٩٢٨؛ انظر
Mercir : La chasse et les Sports chez Les Arabes , paris , 1927, p. 205-223.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٤٩ ، ١٥٢ .

(٧) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٢٠٠- ٢٠١.

(٨) انظر ل. ماير: المرجع السابق، صـ ٣٢.

وفى سنة٩١٨هـ/١٥١٢م فقد أصاب للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى مرض فأقام لأجل تلقى العلاج له فى دور الحريم يومين، فكثرت الإشاعات فكان منها أن أشيع انه قد أصابه مرض القولنج حتى خرج يوم الجمعة وصلى فى الجامع حتى انتهت هذه الإشاعات(١).

وفى مستهل سنة٩١٩هـ/١٥١٣م فقد بدأ الألم يشتد بعين السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى حتى ارتخت جفونه على عينه، مما تسبب فى احتجابه فى الدهيشة عن الناس، وعدم حضور تفرقة الجامكية(٢)، وعدم خروجه إلى صلاة الجمعة لهذا المرض(٣).

وفى ربيع الآخر ٩١٩هـ/أغسطس١٥١٣م ازداد رخو جفون عين السلطان قانصوه الغورى وغارت عينه، فاحتجب عن الناس أياماً فى القبة الأشرفية، وفى ٢٤ربيع الآخر/٢٨ يونيو تظاهر السلطان بالشفاء من مرض عينه، فعلّم على المراسيم وحكم وهو جالس فى الشباك وأشار الكحّالون على السلطان ألا علاج لما يعانيه إلا بقطّع ما طال من جفونه، فامتنع السلطان عن ذلك، فاشتد ألم عين السلطان وجلس بالقاعة بالأشرفية حتى يراه الناس، وقد صنع له الكحالون رفادة(٤) على عينه لينظر الناس ما دام جفنه مرتفعاً(٥).

وكانت الأمراض فى بعض الأحيان تجبر السلاطين فى العصر المملوكى من اتخاذ قرارات فى الدولة تكون هذه الأمراض السبب المباشر لهذا القرار من ذلك حين فاصدر مرسوما السلطان قانصوه الغوري بمنع ضرب الكرة فى ربيع الآخر سنة ٩١٩هـ/أغسطس ١٥١٣م بسبب مرض عينيه، وبسبب انتشار وباء الطاعون بين الناس، وكان غالب الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم(٦)، ومن تداعيات مرض السلطان الملك الأشرف

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٨١.

(٢) الجامكية: (cogregation الجامكية: لفظ فارسى معرب: رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف) (انظر محمد رواس قلعجى ، حامد صادق : معجم لغة الفقهاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، صـ ١٥٨؛ محمود نديم أحمد فهيم : الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٣م، صـ ٦٣.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٠٧.

(٤) رفادة: "هي خرقة أو قطنة تلف كبة وتوضع على الموضع المقعر تملأه" انظر دوزى: المرجع السابق، ج٨، صـ ٣٣٧.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق ، ج٤، صـ ٣١٥.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣١٠؛ لطفى احمد نصار: المرجع السابق، صـ ٢٥٤.

قانصوه الغورى الذي أصاب عينيه إلى عدم صلاة ستة جمع ولم يتمكن من صلاتها إلا فى جمادى الآخرة/ يوليو من تلك السنة التى صلى فيها صلاة الجمعة، وفى ١١ جمادى الآخرة/١٥ يونيو ركب السلطان ونزل من القلعة نحو المطرية[١] لكشف العمارة التى أنشائها وكان قد انقطع من الركوب منذ أصابه ذلك المرض فى عينه[٢].

وفى٢٢رجب٩١٩هـ/٢٢سبتمبر١٥١٣م احتجب السلطان عن الناس والأمراء، فأشيع انه قصّ ما طال من جفنه فتألم من ذلك، ولم يصلى الجمعة ورسم للأمراء بعدم زيارته وعيادته فى ذلك اليوم وسيصلى السلطان الجمعة بالقلعة.

وأخيراً فقد شفى السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى من مرض عينه حين قام الأطباء بجراحة عينه باستئصال ما طال من جفنه وما أن نزع الرفادة من عينه عقب ذلك فى شعبان ٩١٩هـ/أكتوبر١٥١٣م حتى تمكن من ممارسة حياته السياسية فقام بالجلوس فى دار الحكم وحكم بين الناس كما نزل من القلعة وقام بزيارة قبة الأمير يشبك، ويبدو بالرغم من ذلك أن آثار ذلك المرض ما زالت به الأمر الذى دفعه أثناء ركوبه بالموكب السلطانى من ارتداء تخفيفته الصغيرة بدلاً من التخفيفة الكبيرة[٣].

ويبدو أن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى خشى على أمواله وهو مريض لذا أودع منها خمسمائة ألف دينار عند الأمير خاير بيك الخازندار عندما حصل له المرض فى عينيه سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م، ولما توفى الأمير خاير بيك لم يظهر لهذه الأموال أى أثر ولم يعلم مكانها[٤].

وفى سنة٩٢٠هـ/١٥١٤م رغم مرض السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى أصابه إلا أن ذلك لم يمنعه من ضرب الكرة بالميدان ولكنه ضربها ضربا هينا والذى دفعه لذلك حتى يقال أن السلطان ضرب الكرة فى هذه السنة.

---

(١) المطرية:(من قرى مصر عندها الموضع الذى به شجر البلسان الذى يستخرج منه الدّهن فيها والخاصية فى البئر) انظر الهروى: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ط. ١، دار مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، صـ ٣٨.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٢٥ .

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٦.

(٤) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٣٧٢ ، ٤٠٥.

أما سنة ٩٢١هـ/١٥١٤م فبمجرد لم يخرج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى من الدهيشة وعدم نزوله إلى الميدان فى جمادى الثانى ٩٢١هـ/ يوليو ١٥١٤م أشاع الناس شرابه دواء وهو مريض فأصبح المرض بذلك بمثابة مبرراً لانقطاع السلطان لدى الناس مما يدل على مدى أثره فى الحياة السياسية – فى ذلك الوقت –، ولكنه فى حقيقة الأمر انه كان قد حدث له انزعاج لما حضر رسول ابن عثمان برأس دولات وحصول الشقاق بين السلطان والأمراء بسبب تلك الرسالة(١).

وفى رمضان ٩٢١هـ/أكتوبر ١٥١٤م أسرع السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى بالعودة إلى مصر وكان آنذاك بالإسكندرية حين أشيع انه مريضاً وقد أفطر يوماً من رمضان فحصل له غثيان وأغمى عليه، وحضور السلطان على هذا الوجه أن دل على شئ فانه يدل على حرص السلطان على تفادى مثل تلك الإشاعات لما يترتب على الإشاعة بمرض السلطان من فساد فى أحوال البلاد والعباد(٢).

(ب)أمراض الأمراء العضوية:–

تميزت العلاقات بين السلاطين والأمراء فى العصر المماليك بالتقارب والقوة ومن مظاهر تلك العلاقات الوثيقة انه إذا مرض أحد الأمراء اهتم السلطان لمرض هذا الأمير اهتماما بالغاً وإذا علم بقدوم أمير من خارج الديار المصرية مريضاً، يقوم بإصدار الأوامر لتجهيز الأدوية والأطباء لعلاجه، ومن هؤلاء السلاطين السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) حين اهتم منذ قدوم الأمير شمس الدين أقش البرلى العزيزى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وكان الأمير مريضاً من جرح أصاب "رجله فجهز إليه الأدوية واهتم بأمره اهتماماً عظيماً"(٣).

وعندما خرج السلطان بيبرس البندقدارى فى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م إلى بلاد الشام فوقع فيها صيد كثير جداً وحدث أثناء الصيد أن تعرض الأمير شمس الدين سنقر الرومى لحادث سقط فيه عن فرسه، فسار السلطان إليه وترجل عن فرسه، وجعل رأسه

(١) ابن اياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٤٦٣.
(٢) ابن إياس: نفسه، ج٤، صـ ٤٧٦.
(٣) المقريزى: السلوك، ج١، صـ ٥٤٥؛ النويري: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٥٩-٦٠.

على ركبته وسقاه وأسعفه وأخذه إلى خيمته[١].

ومن الأمراض التى أصابت الأمراء مرض الأمير سيف الدين ابوبكر(ت:٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) المعروف اسبا سلار[٢]– متولى مصر– الذى مرض بازدياد السمن، فمنعه الأطباء من الرقاد على فرش وطي، ومن النوم إلا إغفاءاً لأنه أن استغرق فى النوم مات[٣].

وقد يدفع المرض المزمن بعض رجال الدولة إلى الانتحار حين يشتد به الألم الأمر الذى دفع علاء الدين ابن الملك الناصر صاحب الشام– وكان معتقلاً منذ أوائل دولة المنصور قلاوون– إلى الانتحار سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م حين اشتد به مرض الماليخوليا.

ومن جملة الأمراض التى أصابت أمراء العصر المملوكى الدوسنتاريا الكبدية التى أصيب بها الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور والتى أودت بحياته مما كان أثره على أبيه المنصور قلاوون وقضى على آماله فى توليته من بعده[٤].

ولما مرض أمين الدولة فى عهد السلطان الملك المنصور لاجين(٦٩٦–٦٩٨هـ/ ١٢٩٦–١٢٩٨م) سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م مكث فى داره لما اشتد به الألم[٥].

ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بحياة الأمراء الصحية ما أظهره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من القلق والألم الذى انتابه حين مرض الأمير كريم الدين الكبير –نحو أسبوعين[٦]– وأخذ يرسل فى كل يوم جماعة من كبار الأمراء ليسألوا عنه ويطمئنوا السلطان، بل وبلغ بالسلطان الحال أن أرسل إلى كريم الدين جملة من

---

(١) لطفي أحمد نصار: المرجع السابق، صـ٢١٤.

(٢) اسبا سلار:" وكان الاسبا سلار فى عصر المماليك يرأس الطباخين فى المطبخ السلطانى، وكان يقوم بإعداد طعام السلطان وحاشيته وضيوفه ويجهز الأسمطة التى تمد فى أيام الاحتفالات، وكان يحمل إليه اللحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائج خاناه .... " انظر حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ ٣٧.

(٣) المقريزى: السلوك ، ج٢، صـ ١٣٨؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٧١.

(٤) النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ١٥٠، ١٥٩.

(٥) النويرى: نفس المصدر، ج٣١، صـ ٣٣٦.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، صـ ٣٠.

المال ليتصدق بها فى مرضه سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م[١].

ومن الأمثلة التى أشارت إليها المصادر أن المرض قد لا يكون عائقاً– فى بعض الأحيان – يحول دون ممارسة كبار رجال الدولة عملهم ، فعندما مرض القاضى شمس الدين محمد بن صفى الدين عثمان بن زكى الدين عبدالوهاب الأنصاري الحنفي المعروف بابن الحريرى[٢] قاضى الحنفية بالديار المصرية ركب "مراراً إلى المدارس لإلقاء الدروس" وكان يحضر دار العدل[٣] الشريف لمباشرة أعماله رغم مرضه[٤].

وأصيب الأمير الكبير سيف الدين بكتمر الحسامى[٥]بـ "نَهَج"[٦] فأرجعه الأطباء إلى " ريح مجاور للكبد" وكان هذا المرض يعاوده مراراً كلما شفى منه، وكانت تصيبه دوخة عند تردده فى الخدمة السلطانية حتى بلغ بالسلطان أن رسم له ألاّ يتكّلف الطلوع الى الخدمة حتى يشفى، فعاد إلى داره، واشتد به المرض حتى مات[٧].

وأقام الأمير سيف الدين أيتمش[٨] نائب صفد[٩] سنة كاملة كان يحضر خلالها الخدمة وهو يتكأ على عصاه رغم مرضه بفالج[١٠].

وعندما مرض عبد الوهاب النشو[١١] ناظر الخاص فى عهد الناصر محمد بن

---

(١) النويرى: المصدر السابق ، ج٣٣، صـ ٥٤

(٢) ابن الحريري: (هو قاضى القضاة شمس الدين محمد بن عثمان ابن أبى الحسن الدمشقى الحنفى ابن الحريرى، ولد فى صفر سنة ثلاث وخمسين . " (انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج٤، صـ ٨٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ١٦٢؛ ابن قطلوبغا: تاج التراجم، تحقيق : محمد خير رمضان يوسف، ط.١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م، ج١، صـ ٢٦٨، ٢٦٩).

(٣) دار العدل: " يعد الظاهر بيبرس أول من بنى دار العدل " بالقلعة " فى عصر سلاطين المماليك، ظلت دار العدل مقراً لنظر المظالم، حتى جاء السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م وبنى الإيوان المعروف بـ " دار العدل" واتخذه مقراً جديداً لنظر المظالم .. " انظر ماجدة مصطفى نادى: المرجع السابق، صـ٨٤– ٨٥.

(٤) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٦٠.

(٥) الأمير سيف الدين بكتمر الحسامى (ت:٧٢٩هـ/١٣٢٩م) (وكان بكتمر هذا من جملة مماليك الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة المنصورية قلاوون أخذه فى سنة خمس وسبعين وستمائة .. ولى الوزارة والحجوبية توفى سنة ٧٢٩هـ" (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٢٢؛النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٩٢– ٢٩٣).

(٦) النَّهَجُ: الربو، وتواتر النفس من شدة الحركة.

(٧) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٩١،٢٩٠.

(٨) أيتمش (ت:٧٣١هـ/١٣٣١م): " هو الأمير أيتمش بن عبد الله المحمدي نائب صفد كان من مماليك الملك الناصر محمد ومن خواصه.." (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩ ، صـ ٣١٠) .

(٩) صفد:" مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام "(انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤١٢).

(١٠) اليوسفى: نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط.١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م، صـ٣٢٩– ٣٣٢.

(١١) النشو (ت:٨٤٠هـ/١٣٤٠م): " وأما أصل النشو هذا انه كان هو ووالده واخوته يخدمون الأمير بكتمر الحاجب، فلما انفصلوا من عنده أقاموا بطالين الى ان جمع السلطان فى بعض الأيام كتاب الأمراء لأمر ما، فرآه السلطان وهو واقف من وراء الجماعة وهو شاب طويل نصراني حلو الوجه ورتبه مستوفياً فى الجيزة..."(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٣، صـ ٢٠٠– ٢٠٤؛ نفسه: الوافى بالوفيات، ج١٩، صـ ٢١٦؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٤٣).

قلاوون بمرض الفالج لزم داره من شدة ما به من المرض، ثم صعد إلى القلعة ووجهه شاحباً وبه أثر المرض(١).

ويبدو أن المرض يوضح لنا فى بعض الأحيان مدى مكانة الأمير عند السلطان المملوكى والتى تظهر من خلال عناية السلطان بمرض الأمير يلبغا اليحياوى(٢) فقد أصابه مرض سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م مما أقلق السلطان وأقام عنده لعلو منزلته لدى السلطان(٣).

وكان الأمير جينغاى(٤)–مملوك تنكز(٥)– يعانى من قرحة ينفث منها دماً بصفة مستمرة حتى صار بسببها" نحيلاً مصفراً"، حتى أجاز له استاذه تناول القليل من الخمر للتداوى(٦).

وحين مرض الأمير طشتمر(٧)سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م وقد انتابه لمدة طويلة فجعل السلطان الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون(٧٤١هـ/١٣٤١م) فى خدمته الأمير ألطنبغا(٨) وذلك لعلو منزلة الأمير طشتمر عند السلطان ومحبته حتى حين اقترح ألطنبغا على السلطان تسفير الأمير طشتمر لعدم استطاعته من علاجه من كثرت الزائرين له أذن

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٦٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٣٣.

(٢) يلبغا اليحياوى(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م):" الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوى الناصرى نائب الشام وكان يلبغا هذا احد من شغف به أستاذه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم جعله أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية توفى مقتولاً بقلعة قاقون"(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٦، صـ٢٠٦، ٢٠٧؛المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٦٧).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٦٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٣٣.

(٤) جنغاى:" هو الأمير سيف الدين جنغاى بن عبد الله التنكزى قال الشيخ صلاح الدين: لم نسمع ولم نعلم أن استاذه – يعنى الأمير تنكز نائب الشام – أحب أحداً وقربه مثله"(انظر ترجمته فى أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٥، صـ ٢١).

(٥) تنكز(ت:٧٤١هـ/١٣٤٠م):" هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامى الناصرى جلبه الخواجا علاء الدين السيواسى أمره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إمرة عشرة قبل توجهه الى الكرك كانت وفاة تنكز المذكور بحبس الإسكندرية فى "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ١٥٦).

(٦) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ١٥٦ .

(٧) طشتمر(ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م): " توفى مقتولاً بسيف الملك الناصر أحمد بالكرك، وكان أيضاً احد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخواصه " (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٠١ ، ١٠٢).

(٨) ألطنبغا الماردانى (ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م): " وهو الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبدالله الماردانى الناصرى الساقى نائب حلب بها وكان ألطنبغا أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وخاصكيته ...جعله أمير مائة ومقدم ألف، وزّوجه بابنته"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ١٠٥؛ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ٣٧٨– ٣٧٩)

له، فتوجه به إلى الصعيد[1] ومعه الخبز وغيره إلى أن شفى مما حل به وعاد بعد شفائه الى مصر، فحدث لألطنبغا السعادة بسبب ذلك بأن أخذ طشتمر له الشفاعة عند السلطان بتوليه الحجوبية[2].

ومن جملة الأمراء الذين أصيبوا خلال العصر المملوكى بالأمراض المزمنة الأمير بهادر الدمرداش الناصرى[3] حيث ابتلى برمد[4] مزمن فى عينه وقرحة ألزمته بيته ومما جعله لا يحضر مجلس حكم السلطان بالقلعة[5].

وجرت العادة فى الدولة المملوكية خروج أكابر رجال الدولة لملاقاة الأمير المريض عند قدومه من خارج الديار المصرية فى محفة مما يعكس لنا رفعة قدر ذلك الأمير عند رجال الدولة كما حدث فى سلطنة الملك الكامل شعبان حين خرج الأمير أرغون العلائى ومعه الأمراء لملاقاة الأمير طقزدمر[6] عندما عودته مريضاً فى محفة من الشام فى ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م[7].

أما الأمير الكبير يشبك الأتابكى السودونى[8] المعروف بالمشْد فقد مرض فى أوائل ٧٤٧هـ/١٤٤٣م، وطال مرضه سنين، وقد ارتخت أعضائه وعجز عن تحريك يديه ورجليه، واختلفت الأقوال فى مرضه فأشيع بين الناس انه اغتيل بالسّم، ومنهم من قال غير ذلك، ورغم مرض الأمير يشبك المزمن إلا انه تحامل على نفسه وركب فى الخدمة

(١) الصعيد: " المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة" انظر المقريزى: الخطط، ج١، صـ٣٤٩-٣٥١)

(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٢٧٠.

(٣) بهادر الدمرداش (ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م): " هو بهادر بن عبدالله التمرتاشى، الأمير سيف الدين .. وصار أحد الأربعة الذين يبيتون ليلة بعد ليلة عند السلطان وسماه الناصر: بهادر الناصرى "(انظر ترجمته فى ابو المحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) الرمد:" الرمد ورم حار يعرض للطبقة الملتحمة فإذا كان سببه من حر الشمس والغبار والدخان، فإن برأه يكون بزوال تلك الأسباب واستعمال الأدوية المبردة المقوية للعين" انظر محمد كامل حسين: الموجز فى الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، د.ت، صـ ١٨٠.

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٣٢٣.

(٦) الأمير طقزدمر (ت:٧٤٦هـ/١٣٤٥م):" هو الأمير سيف الدين طقزدمر بن عبدالله الحموى الناصرى الساقى توفى فى أول جمادى الآخرة، وكان أصله من مماليك الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الأيوبي صاحب حماة... وصار من عظماء أمرائه الى أن مات "(انظر ترجمته فى أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، صـ ١٤٢).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١١، ١٢ ؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٢٠.

(٨) يشبك الأتابكى السودونى (ت:٨٤٩هـ/١٤٤٥م) " هو يشبك السودونى، الأتابكى وَيعرف بالمشّد/ ومات وهو فى الكهولة فى شعبان سنة تسع وأربعين." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ٢٧٧- ٢٧٨؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٢٤٥؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٣٠٢) .

أكثر من مرة إلا انه انتكس ومات بعد ذلك[١].

ولزم الأمير الكبير بكتمر جلق[٢] الفراش لمدة شهرين مما كان له الأثر على منعه من مزاولته أعماله فى هذه الفترة، وكان سبب ذلك المرض نتيجة عقرباً[٣] لسعته عند عودته بالعسكر والخليفة من دمشق سنة٨١٥هـ/١٤١٢م فاشتد ألمه منها وأصابته الحمى حتى مات[٤].

ويبدو أن المرض فى العصر المملوكى قد تحكم أحياناً فى مكان إقامة الأمير المريض أثناء مرضه بل وقد يضطره إلى الانتقال من مكان إلى آخر طيلة فترة مرضه، وهو ما حدث حين مرض المقام الصارمى إبراهيم[٥] بن السلطان المؤيد شيخ (ت:٨٢٣هـ/١٤٢٠م) فى جمادى الأولى ٨٢٣هـ/مايو ١٤٢٠م، فكان لعدم قدرته على ركوب الفرس حيال مرضه استدعاه للنزول من القلعة إلى بيت زين الدين عبدالباسط المطل على النيل، ثم تغير ذلك المكان بان انتقل إلى الخروبية بالجيزة، ثم من الخروبية إلى المنظرة الحجازية، مع ازدياد ألم مرضه وقد زاره السلطان الملك المؤيد شيخ مراراً مصطحباً معه زوجاته وأنزلهن معه أثناء أقامته ببيت كاتب السر، ثم حمل المقام الصارمى إبراهيم على الأكتاف لعجزه عن ركوب المحفة إلى القلعة إلى أن مات فى خامس عشر جمادى الآخرة ٨٢٣هـ/٢٧ يونيو ١٤٢٠م[٦].

وعندما أصيب الأمير كزل العجمى[٧] بمرض الفالج ظل يلازمه سبعة عشرة سنة،

---

(١) أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ ١٣٠؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج١، صـ٢٩١.

(٢) بكتمر جلق(ت:٨١٥هـ/١٤١٢م): " عزل بكتمر جلق عن نيابة دمشق بعد ان حكمها نحو الشهرين عن الخليفة، ورسم ان يتوجه أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية على أحسن الإقطاعات." (انظر ترجمته فى ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ٢٠١ ؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ١٧).

(٣) العقرب: " واحدة العقارب، وهى تؤنث، والأنثى عقربة وعقرباء ممدود غير مصرف، والذكر عقربانُ بالضم " انظر الجوهرى: المصدر السابق، ج١، صـ ١٨٧؛ الفراهيدى: العين، تحقيق: مهدى المخزومى& إبراهيم السامرائى، دار الهلال، د.ت، ج٢، صـ ٢٩٧).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٣٣٦ ؛ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، صـ٥١٥.

(٥) المقام الصارمى إبراهيم (ت:٨٢٣هـ/١٤٢٠م): " هو إبراهيم بن شيخ الأمير صارم الدين بن المؤيد أبى النصر المحمودى الظاهرى ولد بالبلاد الشامية فى أوائل القرن وأمه أم ولد اسمها نوروز ماتت قبل سلطنة أبيه " (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج١ ، صـ ٧٨؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ٥٣).

(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ١١، ١٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٩٥ – ٩٦.

(٧) كزل العجمى (ت: ٧٤٩هـ/١٤٤٥م):" كان أحد الأمراء فى الدولة الناصرية فرج، وولى وظيفة الحجوبية الكبرى مدة، وول إمرة الحاج مراراً، وأصابه فالج فى سنة ٣٢ " (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٢٤١)

وقد أصاب هذا الفالج سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م شقه ثم فمه بشلل وأزلع لسانه من خارج فمه، ثم شفى إلا انه صار أخرس لا يستطيع النطق مما كان لمرضه هذا بالغ الأثر على حياته السياسية والاجتماعية(١)، وحين قدم جمال الدين يوسف الكركى(٢) ناظر الجيش بدمشق فى سنة٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م مريضاً من ألم المفاصل فقدم هدية جليلة للسلطان الملك الأشرف برسباى، الذى قبلها بدوره ورسم بإقامة الكركى فى منزله حتى يبرأ(٣).

كما ظهر من الأمراض التى أصابت أمراء العصر المملوكى "مرض السّل(٤) " والذى أصاب الأمير ناصر الدين ابن السلطان الملك الظاهر جقمق(٥) وما زال مريضاً منه حتى تناقصت رغبته فى الطعام، ثم اشتد به الإسهال، وتمكن منه مرض السّل حتى دام به قدر ستة أشهر؛ إلا انه رغم ما يعانيه من تلك الأمراض فكان يحضر الموكب السلطاني(٦) مما يجعل من ذلك صورة تشير إلى أن المرض قد لا يعد فى بعض الأحيان عائقاً يحول دون مباشرة الأمير حياته السياسية.

ومن الملاحظ خلال العصر المملوكى أن الأمراء–أيضاً– شاركوا السلاطين والخوندات(٧) بإتاحة الحرية لهم بالتوجه إلى بولاق للإقامة بدار ابن قطينة، للنزهة بها حتى يذهب عنهم الوخم(٨)، كما هو الحال فى عهد السلطان الأشرف إينال (٨٥٧– ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣–١٤٦١م) حين ركب الأمير يونس الدوادار إلى قاعة ابن قطينة المطلة على بحر النيل ببولاق " لمرض تمادى به"، وتردد لزيارته أعيان الدولة(٩)، أما الصاحب جمال الدين

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٢٤١؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج١، صـ ٢٧٤.

(٢) الكركى (ت: ٨٥٦هـ/١٤٥٢م):"ولى نظر جيش طرابلس وكتابة سر مصر فى بعض الأحيان (انظر ترجمته فى ابن الحمصى: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق: عبدالعزيز فياض حرفوش، ط.١، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١، صـ٦٢) .

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٠٠.

(٤) السل: "هو قرحة فى الرئة يلزمها حمى دقيقة للقرب من القلب ونفث المدة، ويفرق بينهما وبين البلغم بإستدارتها ونتن رائحتها "انظر ابن حجيج: المصدر السابق، ورقة (٦٧ أ) انظر ملحق(٣).

(٥) ابن جقمق (ت:٨٤٧هـ/١٤٤٤م):" هو الأمير محمد بن جقمق، ابن الملك جقمق، مولده ووفاته فى القاهرة سافر مع أبيه الى آمد...." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٧، صـ ٢١٠).

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٥٠٣ – ٥٠٤؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج١، صـ ١٩٢.

(٧) " الخوندات فئة من فئات نساء العصر المملوكى، وقد تمتعن بكثير من الأهمية خلال حقب العهود المملوكية المختلفة، فكانت خوند زوجة السلطان من أهم نساء ذلك العصر...." انظر نهلة أنيس محمد مصطفى: خوندات العصر المملوكى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠٠٣م، صـ ٦.

(٨) الوخم:" هو فساد شهوة الطعام .." انظر حاجى باشا: المصدر السابق، ورقة ١١٩أ ،١١٩ب.

(٩) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٥٨٥.

يوسف[١] ناظر الجيوش المنصورة(ت:٨٦٢هـ/١٤٥٨م) فإنه انقطع فى داره لمرض لازمه من شهر رمضان حتى شهر شوال واشتد به المرض وكان أصابه مرض الذَّرب[٢].

(جـ) عبادة السلاطين للأمراء فى العصر المملوكى:–

وكان سلاطين العصر المملوكى يكثرون من التردد على الأمراء فى مرضهم لزيارتهم كما تشير المصادر الى ذلك فى كثير من المواضع منها[٣] كما ذكر عن السلطان المنصور قلاوون انه اعتاد زيارة الأمير بدر الدين الأيدمرى الصالحى (ت:٦٨٧هـ/١٢٨٨م) فى منزله إذا مرض[٤].

وكان من حرص السلاطين خلال العصر المملوكى لعيادة مرضى الأمراء والأعيان أن كان منشغلاً بأمور الحكم أن ينيب السلطان من يقوم بهذه المهمة للاطمئنان على صحة الأمير المريض كما حدث فى سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م حين علم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمرض كاتب السر القاضى شرف الدين ابن فضل الله[٥] أرسل إليه الأمير بدر الدين الدوادارى [٦] المعروف بالمغربى ليزوره نيابة عنه[٧].

ومن ناحية أخرى فإن المصادر تشير الى حقيقة هامة ألا وهى أن السلاطين فى العصر المملوكى أولوا عنايتهم لأسر الأمراء ومتابعة حالتهم الصحية ولم تقتصر تلك العناية على الأمراء فحسب، فعلى سبيل المثال فإن السلطان الملك الناصر محمد بن

---

(١) جمال الدين يوسف(ت:٨٦٢هـ/١٤٥٨م)(هو جمال الدين يوسف بن عبد الكريم السعدى القاهرى ولد سنة تسع عشرة وثمانمائة بالقاهرة .. توفى سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م"(انظر ترجمته في السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ٣٢٢).

(٢) الذَّرِبُ: (والذَّرِبُ من الأمراض مأخوذ من الجُرح، وهو الذى لا يبرأ، واستعير من الجُرْحِ للمرض، قال الغزنوى: إذا أساها صبيب زادها مرضاً) (انظر ابن سيده: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط.١، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، صـ ٤٨٧؛ نشوان الحميرى: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين عبد الله العمرى& مطهر على & يوسف محمد عبد الله، ط.١، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٩م، ج٤، صـ ٢٦٤).

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ط.١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ٢٢

(٤) النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٦٠– ١٦١.

(٥) شرف الدين ابن فضل الله (ت:٧١٧هـ/١٣١٧م): " القاضى الصدر الرئيس الكتاب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة نقل الى كتابة السر بدمشق إن أن توفى فى ثامن رمضان ودفن بقاسيون، وقد قارب التسعين" (انظر ترجمته في ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ٩٧؛ الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ٤٧).

(٦) بدر الدين الدوادارى (ت:٦٩٨هـ/١٢٩٩م)" هو الأمير بدر الدين الدوادارى يعرف بالمغربى، كان أصله من المغرب، وعمل دواداراً للسلطان لاجين، وكان على عمارة جامع أحمد بن طولون، وكانت له معرفة وخبرة . " (انظر العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤٨٦)

(٧) العينى: نفس المصدر، ج٣، صـ ٤٨٦ .

قلاوون حين علم فى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م بمرض والد الأمير ناصر الدين محمد بن سيف الدين أرغون وأخوته، رسم بإرسال أحد أطباء الباب الشريف وهو صلاح الدين بن البرهان لعلاجهم، فتوجه إليهم على خيل البريد(١).

وفى سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م ركب السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م) إلى جهة الأهرام لعيادة الأمير شيخو(٢) فى بيته وكان مريضاً فقدم له الأمير تقدمة جليلة القدر(٣).

وكان لنزول السلاطين لعيادة الأمراء فى مرضهم غاية الاحترام والتبجيل من قبل هؤلاء الأمراء المرضى، ومن مظاهر ذلك التبجيل للسلطان عند عيادته للأمير المريض أن يقوم ذلك الأمير بفرش شقائق الحرير تحت أقدام فرس السلطان، وتقديم الهدايا من المماليك والخيول والجوارى، وغير ذلك مثلما حدث سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م حين نزل السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين(٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م) لعيادة الأمير منجك اليوسفى النائب فما كان من الأخير إلا أن فرش تحت قدمي فرس السلطان شقائق الحرير، كما قدم له عشرة مماليك وعدة خيول فقبلها السلطان وأنعم بها عليه(٤).

ولم تقتصر زيارات سلاطين المماليك فى العصر المملوكى على الأمراء فحسب بل قاموا أيضاً بعيادة كبار أعيان الدولة من القضاة والفقهاء، ففى رمضان ٧٨٦هـ/نوفمبر ١٣٨٤م قام السلطان الملك الظاهر برقوق بعيادة الشيخ أكمل الدين(٥)، وذلك لمرض أصابه(٦).

---

(١) الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٤٥٥؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٤٧.

(٢) شيخو (ت:٧٥٨هـ/١٣٥٧م):" هو شيخو بن عبدالله الناصرى الأمير الكبير سيف الدين، أصله من كتابية الملك الناصر محمد بن قلاوون ......" (انظر ترجمته فى أبو المحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ ٢٥٧ – ٢٦٢).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٤ ، صـ ٢١١ .

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٦٥.

(٥) الشيخ أكمل الدين (ت:٧٨٦هـ/١٣٨٤م):" محمد بن محمود بن أحمد البابرتى الشيخ أكمل الدين الحنفى ويقال محمد بن محمد بن محمود ولد بسنة بضع عشرة وسبعمائة وأخذ عن أبى حيان " (انظر ترجمته فى السيوطى: بغية الوعاة فى طبقة اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج١، صـ ٢٤-٢٣٩) .

(٦) المقريزى:السلوك،ج٥،صـ ١٦٧؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة،ج٣،صـ ١٣٧.

وأشارت المصادر الى قيام السلطان المملوكى بزيارة بعض الأمراء المرضى أكثر من مرة للاطمئنان على صحتهم لمنزلتهم الرفيعة فى الدولة، ومن ذلك حين نزل السلطان الملك الظاهر برقوق فى ١٨ربيع الأول ٧٨٦هـ/١٠ مايو ١٣٨٤م لعيادة الأمير ألطنبغا الجوبانى[١] أمير مجلس[٢]، فنجد السلطان يكرر الزيارة مرة أخرى فى ذات الشهر فى ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٨٦هـ/١٧ مايو ١٣٨٤م ففرش له الجوبانى شقائق الحرير السكندرى من إسطبله الى حيث مضجعه، فمشى عليها السلطان، فنثرت عليه الدنانير والدراهم، كما قدم له الجوبانى هدايا من المماليك والخيل، فلم يأخذ السلطان منها شيئاً وجلس فترة اطمئن فيها على الأمير ثم عاد الى القلعة[٣].

وقد تلقى عيادة المرضى فى العصر المملوكى الضوء على مكانة الأمير المريض فى الدولة من خلال تصرفات الأمراء الزائرين أثناء عيادتهم للمريض،(مثال ذلك) ابن غراب سعد الدين إبراهيم[٤]حيث بلغ من وفور حرمته ومكانته أن الأمراء الكبار حين زاروه فى مرضه كانوا " **يعودونه قياماً على أرجلهم** "[٥].

ومن جملة الأمراء الذين قام بعيادتهم السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق الأمير طوخ[٦] أمير مجلس الذى نزل السلطان بداره لعيادته فى مرضه سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م،

---

(١) ألطنبغا الجوبانى (ت:٧٩٢هـ/١٣٩٠م):" هو الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبدالله الجوبانى اليلبغاوى نائب الشام، مات قتيلاً فى واقعة منطاش وكان من عظماء المماليك اليلبغاوية، وولّاه الملك الظاهر فى سلطنته الأولى أمير مجلس، ثم ولاه نيابة الشام ... توفى سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م "(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤٨٥؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٢٠؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٥٧ – ٦١) .

(٢) أمير مجلس:" لقب لمن يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب" محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٢٢.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ١٦٣– ١٦٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٣٨– ٢٣٩.

(٤) ابن غراب سعد الدين إبراهيم (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م): "هو ابن غراب سعد الدين ابراهيم بن عبد الرازق، وكان جده غراب أول من أسلم من آبائه توفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م " (انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٣٢٩).

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٣٢٩.

(٦) الأمير طوخ (ت:٨١٢هـ/١٤٠٩م):" هو من مماليك الملك الظاهرى برقوق، وممن ترقى فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق حتى صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه الملك الناصر فرج خازنداراً كبيراً، وصار له أمر فى الدولة واستمر على ذلك الى أن توفى بالقاهرة فى آخر جمادى الآخرة سنة اثنى عشر وثمانمائة..." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٧٦؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٧، صـ ١١).

وكذلك نزل فى سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م السلطان لعيادة الأمير قراجا الظاهرى (ت:٨٧٢هـ/١٤٦٨م) فى مرضه مرتديا ثياب جلوسه[١] بدون تكلف[٢].

ولم تقتصر عيادة مرضى الأمراء فى العصر المملوكى على السلاطين فحسب بل كان الأمراء أنفسهم يقومون بعيادة بعضهم البعض فى مرضهم وفى بعض هذه الزيارات يتخذونها فرصة لمناقشة الأمور الخطيرة فى الدولة للانتفاع بنصائح الأمير المريض فيما همّوا على فعله، كما فعل الأمراء حين ركبوا فى سنة ٨١٤هـ/١٤١٢م لعيادة الأمير تغرى بردى[٣] نائب الشام فى مرضه وخاطبوه أثناء زيارتهم له بما هم عليه من الخلاف مع السلطان الناصر فرج بن برقوق وما همّوا عليه من الخروج عن طاعته، والذى أشار عليهم بعدم التسرع فى اتخاذ مثل ذلك القرار ولكن لم يذعن الأمراء لمشورة الأمير وكانت الفتنة التى انتهت بخلع الملك الناصر فرج بن برقوق وتولية الخليفة المستعين بالله السلطنة سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م[٤].

وكذلك قيام السلطان الملك الناصر فرج (٨٠٨-٨١٥هـ/١٤٠٥-١٤١٢م) بعيادة الأمير تغرى بردى – نائب الشام آنذاك– سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م أكثر من مرة ، وكان هذا الأمير يقدم للسلطان الناصر النصح وينهه عن قتال الأمراء ولكن دون جدوى، وصمم على قتالهم وصاروا ينتقلون من بلد الى أخرى، وهو فى أثرهم الى أن أنهزم منهم بدمشق وسلطن الأمراء الخليفة العباسي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م[٥].

ولم تقتصر عيادة السلاطين فى عصر سلاطين المماليك للمرضى على الأمراء فحسب، بل كان هناك بعض السلاطين أعتاد النزول من القلعة لكى يعود أو يزور أحد

---

(١) "أى مرتدياً ملابسه المنزلية غير الرسمية، حيث يدل بوضوح كل من التعبيرين " متخفف" و" ثياب جلوسه " على الطابع المألوف لثيابه المنزلية" انظر ل.ا ماير: المرجع السابق، صـ ١٣٧.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ٢٣٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٣٨٦.

(٣) الأمير تغرى بردى (ت:٨١٥هـ/١٤١٢م): " كان رومى الجنس، اشتراه الملك الظاهر برقوق فى أوائل سلطنته تقريباً وأعتقه، وجعله فى يوم عتقه خاصكياً، ثم صار ساقياً، وأنعم عليه فجعله رأس نوبة الجمدارية، وتنقلت به الأحوال الى أن ولى نيابة دمشق غير مرّة... (وهو والد المؤرخ أبوالمحاسن يوسف) توفى سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٣١– ٤٣؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٣م، صـ٥٧)

(٤) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٣٠٧ ؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٣٧).

(٥) ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٢٩، ١٣١.

العلماء فى مرضه مرة أو مرتين[١].

(د)عيادة السلاطين لزوجاتهم وزوجات الأمراء:-

حظيت المرأة فى المجتمع المملوكى بقسط وافر من الاحترام، ونظر المماليك الى نسائهم نظرة مليئة بالاحترام والتقدير، فخصصوا لهن الألقاب مثل خوند وخاتون، كما أضفوا عليهن فى مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل[٢].

وجرت العادة خلال العصر المملوكى أثناء مرض زوجات سلاطين المماليك تردد السلاطين على زيارتهن وكذا أعيان الدولة من الأمراء والقضاة وغيرهم، كما شهد أمر مرضهن إقامة أبنائهن عندها إقامة شبه دائمة فى بعض الأحيان منذ بدء مرضها حتى شفائها ليقوموا برعايتهن والاعتناء بهن فترة مرضهن، ففى سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م زار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير طغاى[٣] حين مرضت وكان السلطان يعودها مراراً[٤].

وأشارت المصادر التاريخية الى التزام السلاطين فى العصر المملوكى من معاودة الأمراء وزيارتهم ومعاودة زوجات الأمراء عند مرضهم والذى يظهر حين زار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الأمير سيف الدين طغاى الحسامى الناصرى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م فى مرضه ثم " مرضت زوجته – أي زوجة طغاى- فعادها ثم ماتت فأمر جميع الأمراء أن يشهدوها" مما يعكس لنا مدى اهتمام السلاطين بالحالة الصحية ليس الخاصة بالأمراء فحسب بل وزوجاتهم أيضاً[٥].

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك، صـ ٣٠.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١٧٨.

(٣) الأمير طغاى (ت: ٧١٨هـ/١٣١٨م):" طغاى بن عبدالله الناصرى، الأمير سيف الدين كان من أعظم مراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، لم يكن أحد فى محله ولا مرتبته وكان له مهابة فى قلوب الخاصكية توفى سنة ثمان عشرة وسبعمائة"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ ٤١١).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٥١٧.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٣٨٤.

كما اعتاد سلاطين العصر المملوكى عيادة أمهاتهم فى حالة مرضهن و الإقامة عندهن بضعة أيام للاطمئنان على حالتهن الصحية كما قام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين عيادة والدته خوند بركة[١] فى مرضها بالروضة فأقام عندها أياماً على شاطئ النيل حتى عاد الى القلعة فى ذى القعدة ٧٧٤هـ/مايو١٣٧٣م، وظلت مريضة حتى توفيت فى ذى الحجة من السنة المذكورة[٢].

وحرص سلاطين العصر المملوكى على استقرار الحالة النفسية لدى زوجاتهم حيث نرى فى أكثر من موضع أن سلاطين المماليك يسمحون لهن بالنزول الى بولاق ، حتى يتمتعن برؤية النيل بهدف "تغيير الجو"[٣]، وإذا سمع السلطان بمرض إحدى زوجاته أو بناته فانه لم يكن ليتردد فى معاودتها مراراً، أما إذا وجد حالتها تستدعى تغيير الجو فانه يسمح لها بالنزول الى بولاق حتى تتمتع برؤية النيل "ويذهب عنها الوخم"[٤]، ومنهن سورباى الجركسية (ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) إذ تشير المصادر الى إقامتها فى بولاق لما طال مرضها –أياماً– فى عهد السلطان الملك الظاهر جقمق ليذهب عنها الوخم فكانت منيتها ببولاق فى سنة ٨٥٢هـ /١٤٤٨م[٥].

ولقد حرص كبار رجال الدولة على مراعاة حرمة زوجات السلاطين حتى بعد موت أو عزل أزواجهن وعيادتهن فى مرضهن وتلبية مطالبهن الممكنة . مثلما حدث عندما قام الأمير يشبك[٦] الدوادار فى ربيع الآخر ٨٨٤هـ/ يونيو ١٤٧٩م فى عهد السلطان الملك

---

(١) بركة خوند (ت:٧٧٤هـ/١٣٧٣م):" بركة خاتون بنت عبدالله المولدة أم الملك الأشرف شعبان بن حسين ثم تزوجت بألجاى اليوسفى وماتت فى عصمته فى سلطنة ولدها فى ذى القعدة سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م....." (انظر ترجمتها فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٦، ٧ ؛ ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٣٥٥– ٣٥٧

(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٥٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٥٨.

(٣) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ٢٨٢.

(٤) أحمد عبد الرازق: المرأة فى مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، صـ٢٠.

(٥) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ج٢ ، صـ ١٣٥.

(٦) يشبك الصغير (ت: ٨٨٥هـ/١٤٨٠م): " كان ممن قام مع الأشرف قايتباى فى السلطنة وشدّ عزمه لقبولها وهو الرسول منه الى الظاهر تمربغا يأمره بالتوجه من القصر الى البحرة وحينئذ استقر به فى الدوادارية الكبرى عوضاً عن خير بك الظاهرى خشقدم ..." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ٢٧٢ – ٢٧٤) .

الأشرف قايتباى بعيادة خوند زينب[١] فى مرضها فسألته رؤية ولدها المؤيد أحمد قبل موتها فوعدها بتلبية مطلبها، فتكلم مع السلطان فى ذلك، الذى رسم بدوره بإحضار الملك المؤيد أحمد من ثغر الإسكندرية لرؤية والدته، فحضر فى تلك السنة ونزل "فى داره بالجسر الأعظم عند والدته"[٢].

وقد دأب السلاطين فى العصر المملوكى على معاودة زوجاتهم مراراً عند مرضهن، ويسمحون لهن بالنزول الى بولاق إذا استدعى الأمر ذلك " ليذهب عنها الوخم"[٣]، كما حدث عندما مرضت خوند زينب فى ربيع الآخر ٨٥٩هـ/ مارس ١٤٥٥م أنزلت الى بولاق، فأقامت فى القطينية التى ببولاق حتى تتمتع برؤية النيل[٤] وذكرت المصادر إقبال أعيان الدولة على زيارتها فى بولاق كما أشارت المصادر أيضاً ملازمة ابنها المقام الشهابى أحمد لها حتى انه " كان يتوجه يحضر الخدمة السلطانية بقلعة الجبل ثم يعود الى عندها "وإما إخوته زوجة الأمير يونس الدوادار الكبير[٥]، وزوجة الأمير برد بك الدوادار الثانى[٦] فقد لازمنها منذ بدء مرضها لا يفارقنها ويقومن برعايتها والاعتناء بها[٧].

ومن زوجات السلاطين من ابتليت بمرض مزمن انتابها مدة طويلة ظلت تعانى منه غاية المعاناة، منهن خوند فاطمة ابنة العلاى على بن خاصّ بك(ت:٩٠٩هـ/١٥٠٣م)

---

(١) خوند زينب (ت:٨٨٤هـ/١٤٧٩م): " هي زينب ابنة العلاء على بن العالم البدر محمد الحنفى الماضى أخوها خليل وجدهما وتعرف بابنة ابن خاص بك تزوجها إينال الأجرود فى إمرته فى حدود سنة خمس وعشرين وثمانمائة كما انفردت هى عن سائر الخوندات بالمزيد من نفوز الكلمة و وفور الحرمة وطواعية السلطان جداً لأوامرها حتى كان...."(انظر ترجمتها فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١٢، صـ ٤٤، ٤٥).

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٥٤، ١٥٥.

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ١٣٠.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣٢٤.

(٥) الأمير يونس الدوادار الكبير(ت:٨٦٥هـ/١٤٦١م):" هو الأمير شرف الدين يونس الأقبائى الدّوادار الكبير توفى بعد مرض طويل سنة ٨٦٥هـ/١٤٦١م "(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ٣١٣).

(٦) الأمير برد بك الدوادار (ت:٨٦٨هـ/١٤٥٤م) هو الأمير سيف الدين برد بك بن عبد الله الأشرفى الدوادار "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦ ، صـ٣٣٦).

(٧) ابوالمحاسن: حوادث الدهور، ج ٢، صـ٥٢٣، ٥٢٤.

التى ابتليت بآكلة[١] فى خدها ظلت بها مدة طويلة، ولما اشتد بها المرض توجهت الى بولاق فماتت هناك[٢].

(١) الأكلة: " هو تآكل وتعفن يعرض فى الأعضاء وسببها فساد الروح الحيوانى وامتناعه من الوصول الى الأعضاء ... " انظر حاجى باشا: مخطوط شفاء الأسقام ودواء الآلام، ورقة ٢٤١ب.

(٢) ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٦٤، ٦٥ .

(هـ) الأمراض الناتجة عن الحوادث:-

(١) السلاطين:-

ويعد الصيد والقنص أحب ضروب الترويح عند الخلفاء والأمراء والولاة وعامة الشعب ومن أحب ألوان التسلية عندهم، وكان الخروج للصيد فى عصر سلاطين المماليك (نزهة الملوك وقناعة الصعلوك)، أما الملوك، فقد اختصت بالصيد؛ لكونها قد رأت فيه: التنزه – من طول المقام بالمدينة الى البر والصحخ، وتنسم الهواء ونظر القضاء، وصحة الهواء، والرياضة[١]، ومن هؤلاء السلاطين الذين تعرضوا للإصابات أثنا ممارستهم للصيد.

ومن إشارات المصادر لتعرض السلاطين للإصابات الجسدية تلك الإصابات التى يتعرضون لها أثناء ممارستهم رياضتهم المفضلة الصيد، ولعين السبب قالت الحكماء: إن التوسط فى الخروج الى الصيد خير من الإكثار فيه؛ لأن فى الصيد يطرأ الخطأ والسقوط والجراح وغيرها[٢]، ومن هؤلاء السلاطين الذين تعرضوا للإصابات أثنا ممارستهم للصيد السلطان الملك الظاهر بيبرس إذ نزل فى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، قرب صيدا للصيد فتقنطر عن فرسه وتهشم وجهه فتحامل على نفسه من شدة الألم وواصل السير[٣].

وفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م حين عاد من الشام الى الديار المصرية متوجها الى الكرك، ينظر فى أحوالها، فلما وصل الى بركة زيزاء خرج للصيد، فسقط عن فرسه فكسرت ساقه فأقام بالكرك يتداوى حتى تمكن من ركوب المحفة عائدا الى القاهرة حتى وصل الى مسجد التبر(أو مسجد التبن) وعندئذ أبى أن يدخل القاهرة على هذا الحال- فأقام ليالي مريضا بمخيمه عند المسجد المذكور، وهناك شفيت ساقه واستطاع ركوب فرسه[٤]، وان كان اليافعى قد أشار أن ساقه لم تلتئم[٥].

---

(١) انظر نبيل محمد عبدالعزيز: رياضة الصيد فى عصر سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م ، صـ١١.

(٢) نبيل محمد عبد العزيز: نفس المرجع، صـ ٧٨.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ٩٧، ٩٨.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤١؛ بيبرس الدواداري: المصدر السابق، صـ ١٠٥، ١٠٦ذكرها سنة ٦٦٤هـ؛ اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٢٤.

(٥) اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٢٤.

وتعرض السلاطين فى العصر المملوكى لعدة حوادث أثناء ممارسة رياضتهم المفضلة كضرب الكرة مما أدى الى تعرضهم للكسر فى أنحاء متفرقة من أجسادهم، فيحتاج المجبرون فى بعض الأحيان لإسعافهم أمور خطيرة كإحداث كسر آخر كعلاج ولأجل الجبر بشكل صحيح– مثال ذلك– تعرض السلطان المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦–٦٩٨هـ/١٢٩٦ – ١٢٩٨م) سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م للكسر أثناء ممارسة رياضته المفضلة ضرب الكرة فانكسر أحد جانبي يديه فاحتاج المجبرون الى كسر عظم الجانب الآخر من يده " لأجل صحة الجبر"[١] فدخل عليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وذكر للسلطان انه تعرض لمثل هذا الكسر فاحتاج الى كسر الجانب الأخر، فضربه بدقماق من حديد، فانكسر ثم جبر، وأغلظ القول للسلطان وعامله باستخفاف، فأسر السلطان للأعسر ذلك فى نفسه، وتعتبر هذه الواقعة من أسباب حنق السلطان على الأمير سنقر حتى أدت الى القبض عليه، واستمر السلطان على التزم الدور السلطانية لتلقى العلاج من هذه الحادثة، الى أن أتم الله شفائه [٢].

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد شغف بالصيد الى حد انه لم يدع أرضاً تعرف بالصيد إلا وأقام بها صيادين مقيمين بالبرية أوان الصيد، وجلب طيور الجوارح من الصقور والشواهين والسناقر والبزاة، حتى كثرت السناقر فى أيامه[٣]، وذكر المؤرخون أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين عزم على الصيد بالوجه البحرى ربيع الآخر سنة ٧٣٠هـ/فبراير١٣٣٠م تقنطر عن فرسه فانكسرت يده اليسرى وغشى عليه فحمل الى القلعة، فجمع لعلاجه الأطباء والمجبرين[٤] فتقدم أحد هؤلاء المجبرين ويدعى ابن بوستة[٥] ووعد السلطان إن ترك له أمر مداواة يده بمفرده أن يتعافى قبل مضى شهر، فأزعن له السلطان لما أراد وتولى ابن بوسته علاجه وتوقف السلطان

---

(١) أيبك الدوادارى: المصدر السابق ،ج ٨ ، صـ ٣٧١ ؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٣٩٨.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٨١؛ النويرى: المصدر السابق، ج ٣١، صـ ٣٢٦.

(٣) المقريزى: السلوك،ج٣، صـ٣٠٧ ؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ١٧٠.

(٤) " أطباء العظام، وهم الذين عرفوا باسم المجبرين، فقد اشترط عليهم ألا يتصدى أحدهم لعلاج مرضى العظام والكسور إلا اذا كان يعلم عدد عظام الآدمى، وصورة كل عظم منها انظر على السيد على محمود: الرعاية الصحية فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٩٥م، مج ٣٨، صـ١٣٣.

(٥) ابن بوستة:(وقد ذكر أبوالمحاسن: إن الذى تولى علاج يد السلطان يعرف بابن بوسقة ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٩٣؛ بينما المقريزى فى السلوك " يعرف بابن بوستة).

عن مزاولة شئون الحكم بالمقر السلطاني سبعة وثلاثين يوما[١]، فشفى السلطان٤ فى جمادى الآخر ٧٣٠هـ/٢٥ مارس ١٣٣٠م[٢].

وتعرض السلطان الملك الأشرف قايتباى لحادث انكسرت من جرائه قصبة ساقه، إذ ذكر ابن إياس حين توجه السلطان فى محرم سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م من القلعة إلى شيبين القصر[٣]، ومعه الأتابكى أزبك[٤] إذ شبّ فرس الأتابك[٥] أزبك أثناء الطريق على فرس السلطان فركله، فجاءت الركلة فى قصبة ساق السلطان فانكسرت، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم فأرسل يطلب محفة من القلعة ليعود بها فكثر القال والقيل لعودة السلطان على هذا الوجه مما حدا بالسلطان الاضطرار الى الخروج والجلوس على الدكة ووقع المراسيم السلطانية، حتى يسكن ذاك الاضطراب وجّهزت المراسيم إلى البلاد الحلبية بسلامته[٦].

كما تعرض السلطان الملك الأشرف قايتباى فى ربيع الأول ٨٩١هـ/ابريل١٤٨٦م لحادث، انكسرت فيه رجله انكساراً بالغاً وسال منه الدم إذ شبّ به الفرس فى الحوش، وانقلب على السلطان، فسقط الى الأرض وإحدى رجليه تحت الفرس وقد تألم السلطان لها ألماً شديداً، وأغمى عليه فاضطربت القاهرة لهذا الخبر وحمل الخاصبكية السلطان الى قاعة الدهيشة.

ولما أفاق السلطان من إغمائه وعلم بما آل إليه الحال من الاضطراب أمر بإرسال المراسيم إلى حلب، ليطمئن الأمراء والعسكر من هذا العارض وفى ربيع الآخر سنة ٨٩١هـ/ مايو١٤٨٦م طلع القضاة إلى القلعة للتهنئة بالشهر فأذن لهم وكان متمرضاً

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ١٢٨؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٩٣، ٩٤.

(٢) ابن أيبك : المصدر السابق، ج٩، صـ ٣٥٣؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٣٠٢.

(٣) شبيين القصر:(من قرى الحوف بمصر، بين بلبيس والقاهرة) ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج٢، صـ ٨٢٤.

(٤) الأتابك أزبك (ت:٩٠٤هـ/١٤٩٩م):(وهو الأمير سيف الدين أزبك بن عبدالله من ططخ الأشرفى. رأس نوبة وصهر السلطان الملك الظاهر جقمق)(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٢، صـ٣٤٦، ٣٤٧)

(٥) أتابك العسكر : "الأتابك معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية وفى الاصطلاح مربى الأمير(أتابك العسكر)"انظر عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، صـ ٥٠ ؛

Van Berchem: Corpus Inscriptorum Arabicarum, Premiere partie , I, Egypt , Mifao ,t ,Le caire, 1894-1903,p.455

؛ Repertoir chronologique d'epigraphie arabe , III , Le Caire, 1931, pp. 27 , 37.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٦١، ٦٢؛ عبد الرحمن محمود عبد التواب: قايتباى المحمودى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م، صـ ٧٠.

بالقاعة التى بين الدهيشة وقاعة الحريم فوجدوه "على سرير، وقد مهدوا له الفرش تحته، ورجله قدّامه وهو لا ينام ولا يتحّرك" وكان كبار رجال الدولة يدخلون عليه كل يوم وهو جالس على السرير ويدعون له ثم ينصرفون(١).

(٢) الأمراء:-

ولم يقتصر التعرض للكسر على سلاطين المماليك فحسب بل تعرض الامراء أيضاً أثناء ممارستهم لرياضتهم المفضلة الصيد للإصابات مما يستدعى اهتمام السلاطين واعتنائهم بالأمراء المصابين وهو ما نلمسه حين ضرب السلطان الظاهر بيبرس حلقة بثلاثة آلاف فارس فى العريش فى سنة٦٦١هـ/١٢٦٣م فتقنطر الأمير شمس الدين سنقر الرومى- أثناء الصيد-عن فرسه والأمير سيف الدين قلاوون فأسرع إليهما السلطان لإسعافهما بالعلاج(٢).

وفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م أصيب القاضى زين الدين ابن عبد الباسط(٣)ناظر الجيش بضربة فرس على ساقه اليمنى، أثناء سيره مع السلطان الملك الاشرف برسباى عند جامع الماردانى(٤) خارج باب زويلة، فتحامل على نفسه لإخفاء الألم إلا انه من شدة الألم لم يتمالك نفسه طويلاً وألقى بنفسه عن الفرس عند وصوله ناحية أشفين من البلاد القليوبية، فحمل فى محفة، فظل فى داره ثلاثة عشر يوماً منقطعا للعلاج(٥).

وفى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م انكسرت يد الأمير طراباى(٦) رأس نوبة النوب(٧) أثناء

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) المقريزى: السلوك، ج١، صـ ٥٥٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١٩٤.

(٣) زين الدين عبد الباسط (ت:٨٥٢هـ/١٤٥٠م)" هو القاضى زين الدين عبدالباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقى الأصل والمولد والمنشأ المصرى الدار والوفاة ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية توفى بطالاً بها فى الثلاثاء رابع شوال بداره ومولده بعد التسعين وسبعمائة أو فى حدودها، ونشأ بدمشق(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٥، صـ ٥٥٢؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٧، صـ ١٣٦؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٢٢- ٢٧٠).

(٤) الجامع الماردانى:" هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، كان مكانه أولاً مقابر أهل القاهرة، ثم عمر أماكن . فلما كان فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ....." (انظر المقريزى: الخطط، ج٤، صـ١٠٩)

(٥) المقريزى: السلوك، ج٧ ، صـ ٣٠٢ – ٣٠٣ .

(٦) طراباى الشريفى: " تاريخ الوفاة غير معروف استقر أتابكاً فى سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م مؤقتاً، عزل فى سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، والوظيفة التى شغلها رأس نوبة النوب " محمد عبد الغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٦٩.

(٧) رأس نوبة: " وموضوعه الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم، وقد جرت العادة ان يكونوا أربعة أمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناة....." (انظر القلقشيندى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٩؛ حسن الباشا: المرجع السابق، صـ ٢٢٣- ٢٢٥؛ محمود نديم أحمد فهيم: المرجع السابق، صـ ٧٩).

ضربه الكرة مع السلطان الأشرف قانصوه الغورى مات فيها فرس الأمير طراباى، فأنعم عليه السلطان بغيره(١).

ومن جملة الأمراء الذين تعرضوا لحوادث الكسر أثناء ركوبهم الخيل مما يستدعى الأمر الانقطاع فى الدار مدة لمباشرة العلاج من خطر ذلك الكسر، ففى سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م تقنطر الفرس بالأمير خاير بيك كاشف الغربية أثناء سيره صحبة الأمير طومان باى نحو المطرية، فأصيب بكسور متعددة، فنقل محمولاً لشدة ما به من الكسر، فانقطع أياماً يتعالج من هذا الكسر حتى شفى بعد فترة طويلة(٢).

كما تقنطر الفرس بالأمير نوروز أخو يشبك الدوادار أحد المقدمين فى سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م فأغمى عليه وتألم لذلك تألماً عظيماً ونزل الى داره محمولاً لشدة ما به من الألم(٣).

(ثانياً)الأمراض النفسية:-

(أ) أمراض السلاطين النفسية:-

والحقيقة أن للظروف والضغوط النفسية التى يتعرض لها سلاطين العصر المملوكى أثرها البالغ فى حياتهم السياسية ويظهر هذا الدور فى التأثير على ما يتخذه هؤلاء السلاطين من قرارات سياسية سريعة مما توثر تأثيرا سلبيا على تلك القرارات وفيما يلي سوف نعرض أهم تلك المشاهد التاريخية ومدى تأثير العامل النفسى فى قرارات السلاطين فيها:-

ويؤدى سوء معاملة أحد الأمراء للسلطان قبل توليه الى أن يضمر سوء هذه المعاملة فى نفسه ويتحين الفرصة للانتقام لنفسه، كما هو الحال بالنسبة للسلطان الأشرف خليل حين انتقم لنفسه من النائب الأمير حسام طرنطاى(٤) بمصادرة أمواله وتعريضه للعقوبة

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٩٤.

(٢) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ١٦٥.

(٣) ابن اياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ١٨١، ١٨٢.

(٤) الأمير حسام الدين طرانطاى(ت:٦٨٩هـ/١٢٩٠م):" وهو الأمير حسام الدين أبو سعيد طرنطاى بن عبدالله المنصورى الأمير الكبير، كان أوحد أهل عصره، كان عظيم دولة الملك المنصور قلاوون؛ وكان المنصور قد جعله نائبه بسائر الممالك، وكان هو المتصرف فى مملكته .... توفى سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م ...." (انظر ترجمته فى ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، صـ ٣٧٤؛ ابن الجزرى: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ط.١، دار المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، صـ ٣١- ٣٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٨٣- ٣٨٤؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٦، صـ ٣٨٦؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٨٠)

الشديدة، وتركه بعد قتله ثمانية أيام فى محبسه –بمجرد توليه السلطنة– وقد ارجع المقريزى السبب الرئيسى من وراء هذه المعاملة الى" كراهة الأشرف له من أيام أبيه " وذلك لتجاهل طرنطاى جانب الأشرف، وإهابته لنوابه، وتفضيله لأخيه الملك الصالح علاء الدين على عنه[١].

وقد يدفع الوهم والقلق أحياناً–الذى يعد من العوامل النفسية– بسلاطين العصر المملوكى من اتخاذ قرارات ورسوم سلطانية بالنفي والقبض على الأمراء حتى يستريح خاطرهم، وهو الذى نلمسه حين رسم السلطان الملك الأشرف خليل بنفي الملك المسعود نجم الدين خضر[٢] والملك العادل بدر الدين سلامش[٣] ولدى السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م وأخرجهما ومعهما والدتهما الى القسطنطينية[٤]، فلما وصلا إليها أحسن إليهما ملكها وكان هذا النفي لمجرد " توهم السلطان من ولدى الملك الظاهر "[٥].

وقد أصاب السلطان الملك الأشرف خليل القلق وكثرة الهموم به سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م حين هرب حسام الدين لاجين[٦] ولم يعثر له على أثر حتى أركب سائر مماليكه للبحث عنه، حتى همّ بالبحث عنه بنفسه فمنعه بيدرا[٧] وأشار عليه بعدم القيام

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢١٩؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٨٠.

(٢) نجم الدين خضر(ت:٧٠٨هـ/١٣٠٨):(خضر بن بيبرس الملك المسعود ابن الملك الظاهر تملك الكرك بعد أخيه الملك السعيد ثم اقتضت الآراء إبعاده مع أخيه سلامش الى بلاد الأشكرى النصرانىّ فأقام هناك دهراً وتوفى أخوه سلامش وأحضر خضر وسكن مصر مدة فقيل انه سقى سنة ثمان وسبع مائه)(انظر الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١٣، صـ٢١٠)

(٣) العادل سلامش (ت:٦٩٠هـ/١٢٩١م):(سلامش بن بيبرس السلطان الملك العادل بن الملك الظاهر أجلسوه فى الملك عندما خلعوا أخاه الملك السعيد وخطبوا له وضربوا السكة باسمه ثلاثة أشهر ثم إنهم خلعوه وبقى خاملاً .. فمات هناك سنة تسعين وستمائة).(انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١٥، صـ ٢٠٣)

(٤) القسطنطينية:(كانت رومة فى القديم دار مملكة الروم نزلها من ملوكهم تسعة وعشرون ملكاً، ثم ملك بها قسطنطين الأكبر ثم انتقل الى بيزنطة)انظر الحميرى: المصدر السابق، ج١، صـ٤٨١)

(٥) ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، صـ٢٢٦؛ ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٧٧– ٧٨؛ ابن العيني: المصدر السابق، ج٣، صـ ٨٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٢٨٨.

(٦) حسام الدين لاجين(٦٩٨هـ/١٢٩٩م):(لاجين (المنصور) حسام الدين لاجين ابن عبدالله المنصورى من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام، وهو الحادى عشر من ملوك الترك، ويسمى " الروك " الحسامى ... توفى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م.." انظر ترجمته فى ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ٤٤٦).

(٧) بيدرا (ت:٦٩٣هـ/١٢٩٤م): (بيدرا بن عبدالله المنصورى، الأمير بدر الدين، نائب السلطنة بالديار المصرية فى الدولة الاشرفية خليل بن قلاوون، كان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وأعز أمرائه، ثم صار الى نيابة السلطنة بالديار المصرية فى دولة ولده الملك الأشرف خليل وكان بيدرا جليل القدر، ويرجع الى دين وعقل وعدل..)(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٤٩٣، ٤٩٤).

بذلك و" بقى السلطان فى قلق من جهته، فأقام ينظر خبره"–على حد قول العينى– حتى قبض على لاجين من صرخد[١]، حينئذ " فرح السلطان فرحاً عظيماً" وهذا الفرح يمثل لنا مدى شغل خاطر السلطان هذا الأمر وأقلقه– ولم يسترح حتى قبض على لاجين[٢].

ويبدو أن الضيق النفسى الذى يصيب السلطان فى العصر المملوكى أحد العوامل التى ساعدت على مقتله– أحياناً – من ذلك ما حدث للسلطان الملك الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م عندما أصابه القلق، فقصد الراحة وأمر الأمراء بالرحيل، و"ووجد فى نفسه ضيقاً، وثقلاً فى بدنه "، فقصد الركوب بمفرده ويطعم الطير[٣] لينشرح صدره مما أصابه من الضيق النفسى، فلما رآه الخاصبكية على هذه الصورة اتفقوا مع بيدرا (ت:٦٩٣هـ/١٢٩٤م) على قتله وحين ركب السلطان فى جماعة يسيرة بغير سيف الى تروجة[٤] للصيد[٥]، قصده المتآمرون وقتلوه فكان الضيق النفسى الذى انتاب السلطان والذى دفعه للخروج بمفرده ليستريح خاطره عاملاً ساعد على إتاحة الفرصة لسهولة قتله على هذا الوجه[٦].

وظهر أثر العامل النفسى السياسى واضحا جلياً لحد يصل الى اغتيال سلطان وتولية آخر وهو ما ظهر حين خالف السلطان الملك المنصور لاجين ما شرطه عليه الأمراء عند توليته بألا يعزل أحد منهم ولا يقدم مملوكه منكوتمر فخالفهم بتعيينه إياه نائب السلطنة بالديار المصرية فسار منكوتمر فى الناس أقبح سيرة ، فيقول ابوالمحاسن موضحا الحالة النفسية لدى الأمراء تجاه السلطان ونائبه "ونفرت منه القلوب ومن الملك المنصور؛ لا لسوء سيرته بل لبغض أورثه مملوكه منكوتمر فى قلوبهم" الأمر الذى أودى

---

(١) صرخد: (بالفتح ثم السكون، والخاء معجمة، والدال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة)(انظر البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد، ط.٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م، ج٣،صـ ٨٣١) .

(٢) العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٢٦، ١٢٧؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٥٢، صـ ١٦.

(٣) إطعام الطير:" وهى وظيفة الطعمدار وهو لقب يطلق على الذى يتصدى لإطعام الطير، وهو مكون من " طعم " وهو الحب الذى يلقى للطير، و" دار" ومعناه ممسك" انظر نبيل محمد عبد العزيز: المرجع السابق، صـ ٥٥.

(٤) تروجة: (بالفتح، ثم الضم، وسكون الواو، وجيم: قرية بمصر من كورة البحيرة، من أعمال الإسكندرية، أكثر ما يزرع بها الكمّون) (انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٢٧ – ٢٨).

(٥) أبو الفداء: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٩.

(٦) عطية القوصى: عصر سلاطين المماليك، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠٠٧م، صـ ٢١؛ صلاح سليم طايع: الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى ودوره السياسى خلال عهدى المنصور قلاوون والأشرف خليل(٦٧٨–٦٩٣هـ/١٢٧٩– ١٢٩٣م)، جامعة جنوب الوادى، مجلة كلية الآداب بقنا، العدد الحادى والثلاثون، ٢٠١٠م، صـ ١٤١– ١٤٢

بحياة السلطان المنصور لاجين وحياة نائبه منكوتمر وإعادة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مرة أخرى الى الحكم[١].

ومن صور الضيق النفسى الذى انتاب سلاطين العصر المملوكى التضييق النفسى الذى فرضه الأميرين بيبرس الجاشنكير[٢]وسلار[٣] على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون انه حين طلب وكيل أموال أملاك السلطان شهاب الدين أحمد بن عبادة[٤] دراهم حين نزل بتروجة للصيد سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م حتى يشترى بها هدية لنسائه وجواريه فلم يجد ابن عبادة فى خزانة السلطان ما يكفى من المال، فبعثه السلطان ليقترض من تجار الإسكندرية فاجتمع ابن عبادة بالوزير[٥] "وشكا له ما فيه السلطان من الضيق"[٦] .

ولما علم ابن الشيخى[٧] الوزير بما يعانيه السلطان من الضيق التقى به "فاستراح السلطان معه بالكلام وشكا إليه" وذلك بعد بلوغ السلطان من الضيق النفسى مبلغه فوجد منفساً لهذا التضييق بالتحدث مع ابن الشيخى"وشكا إليه ما هو فيه من ضيق مع الأمراء" فما كان من ابن الشيخى إلا أن استرضى السلطان وهون عليه أمر الأمراء وأعطاه ألفى

---

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ١٠٠؛ نفسه: مورد اللطافة، ج٢، صـ ٥٢، ٥٣.

(٢) المظفر بيبرس الجاشنكير(ت:٧٠٩هـ/١٣٠٩م):(أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجّية، وكان جركسى الجنس.. توفى سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م)(انظر ترجمته فى العصامى: سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود& على محمد معوض، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٤، صـ ٢٨).

(٣) سيف الدين سلار نائب السلطنة (ت:٧١٠هـ/١٣١٠م):" كان من مماليك السلطان الملك المنصور فى أيام إمرته، وهو من كسب التتار فى وقعة أبلستين فى أواخر الدولة الظاهرية. توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م "(أيضاً انظر ترجمة سيف الدين سلار فى محمد عبد الغنى الأشقر: سلار الأمير التترى المسلم نائب السلطنة المملوكية فى مصر(٦٦٠- ٧١٠هـ/ ١٢٦٠- ١٣١٠م)، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٠م، صـ ٢١- ٤٣).

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبادة (ت:٧١٠هـ/١٣١٠م):(هو احمد بن على بن عبادة، القاضى الرئيس شهاب الدين الأنصارى الحلبىّ نشأ بالدّيار المصرية)(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٢٩٧).

(٥) الوزير: " حبأ الملك، الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه، وقد استوزره وحالته الوزارة، والوزارة، والكسر أعلى وازره على الأمر، أعانه وقواه والأصل آزره " انظر عثمان عبد الحميد عشرى: نظم الحكم والإدارة على عصر سلاطين المماليك في مصر: الدولة الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، د.ت ، صـ ١٩؛ ابن شاهين: المصدر السابق، صـ ٧٨- ٨٢.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٣٧٣

(٧) ابن الشيخى (الوزير)(ت:٧٠٤هـ/١٣٠٥م):(استقر ابن الشيخى فى الوزارة يوم الإثنين تاسع عشر شوال ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م بغير رضا سلار إلا انه لم يجد بداً من ولايته ونزل فى موكب عظيم الى داره بجوار المشهد الحسينى من القاهرة وتعاظم على الناس تعظماً زائداً)(المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٣٧٣).

دينار فسرّ السلطان لذلك[١]، مما حدا بعد ذلك بتربص بيبرس بابن عبادة وضربه بالمقارع حتى مات سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م[٢].

ومن الأمور التى أدت الى تطور وتدهور حالة الملك الناصر محمد بن قلاوون النفسية سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وسنة٧٠٨هـ/١٣٠٨م حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت انه بلغ من تحكم الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار، أن السلطان حينما طلب بعض ما اشتهاه من حلوى وأوز فرد الأمير سلار على حامل الطلب " وإيش يعمل السلطان بالإوز؟ هو الأكل عشرون مرة بالنهار؟"[٣].

ثم كان من الطبيعي أن يترجم ذلك الضيق النفسى الشديد الى الصدام المسلح بينه وبين الأمراء وخاصة الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م فاستدعى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الامير بكتمر الجوكندار[٤] وهو أمير جاندار خفية وأعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار فاشتبك الفريقين بمعركة آل الأمر فيها فى آخر المطاف بأن " بعث الأمراء الى السلطان بأنهم مماليكه وفى طاعته ولابد من إخراج الشباب الذين يرمون الفتن"–على حد قول المقريزى– فامتنع السلطان غاية الامتناع، حتى اضطر فى النهاية الى الإذعان لمطلب الأمراء" وبات السلطان فى كرب وقلق" لإخراج مماليكه كما شق عليه غدر الأمير بكتمر الجوكندار وركوبه بجانب الأمير بيبرس الجاشنكير ورفاقه[٥].

ويجبر الضيق النفسي الذى يتعرض له السلطان من قِبل الأمراء فى بعض الأحيان الى إقدامه على اتخاذ قرارا بعزل نفسه من السلطنة ويناشد الإقامة بمعزل عن مقر الحكم وأهله ابتغاء راحة النفس والبال بعيدا عن شئون الحكم وهو ما حدث حين قام السلطان

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٣٧٣، ٣٧٤؛ العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٢٠– ٣٢٢.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٣٨٣.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤١٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١١٨، ١٤٨.

(٤) بكتمر الأمير سيف الدين المنصورى (ت: ٧١١هـ/١٣١١م):(وكان أولاً جوكندار وكان بكتمر فى أيام سلاّر والجاشنكير أحد أرباب الحلّ والعقد... توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م)انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٧٠٧ – ٧٠٨؛ ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٣٩٨– ٤٠١).

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين: مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ج١، صـ ٢٨١؛ عطية القوصى: المرجع السابق، صـ ٢٢).

الملك الناصر محمد بن قلاوون بعزل نفسه متبرماً لحجر سلار وبيبرس عليه حيث يقول أبوالمحاسن عن إصراره على عزل نفسه: "وتوجه الى الكرك متبرماً من سلار وبيبرس واعرض عن ملك مصر؛ فروجع فى ذلك، فأبى وصمم على الإقامة بالكرك فاتفق الأمراء على سلطنة بيبرس الجاشنكير وسلطنوه ولقبوه بالملك المظفر "حيث يصف أبوالمحاسن حالته النفسية بقوله:" وخلع نفسه ليستريح خاطره"[١].

وعلى صعيد آخر فلقد أدت الحالة النفسية التى انتابت السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) وكثرت توهمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون المخلوع الى سوء تصرفاته فى معاملة الأمراء ونفور قلوبهم منه ومن تلك التصرفات أشار إليها ابوالمحاسن – مثلاً – قبضه على جماعة تزيد على ثلاثمائة مملوك وإخراج أخبازهم لمماليكه، وقد بلغ من كثرة تخيله إخراجه لعدة من الأمراء المجردين ليمنه من عساه من الأمراء والمماليك يلجأ الى الملك الناصر، كما قبض على أحد عشر مملوكا وعزم القبض على آخرين، فاستوحش الأمراء من هذه التصرفات وهمّوا بالهرب واللجوء إلى الملك الناصر[٢]

ونتيجة لما سبق ذكره– وتضيق السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومطالبته بإرسال الأموال والمماليك، فكان من الطبيعى أن يبحث الملك الناصر عن مخرج من هذا التضييق المفروض عليه قبل وبعد تنازله عن السلطنة أن قام بدوره إرسال الملطفات الى نواب الشام بحلب وحماة وطرابلس وصفد فضلا عن الأمراء فى مصر– الذين نفرت قلوبهم عن الملك المظفر بيبرس لتصرفاته – وأخذ الملك الناصر فى تدبير أمره، " فقلق المظفر من ذلك وزاد توهمه، ونفرت قلوب جماعة من الأمراء "واتفق المنصورية والأشرفية والأويراتية[٣] على الحرب والتحق كثيراً منهم بالملك الناصر؛ وكانت النتيجة فى آخر المطاف عودة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الحكم وقتل الملك المظفر بيبرس الجاشنكير سنة

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ١٧٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ٢٣٠.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٥٥ .

(٣) الأويراتية: " قدم الأويراتية من بلاد التتار ومقدمهم طوغان فأكرمهم كتبغا وهم على دين الكفر وصاروا يأكلون جهاراً فى رمضان)انظر المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٦٥؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ٣٠٨.

٧٠٩هـ/١٣٠٩م فيبدوا من ذلك أن نفور قلوب الأمراء من المظفر بيبرس بجانب التضييق النفسى الذى مارسه المظفر ضد الملك الناصر الدافع الذى حرك الجيوش فأعادت الملك الناصر وقُتل المظفر[١].

ومن صور الانتقام التى ترجعها المصادر لأسباب نفسية سوء معاملة أحد الأمراء لأحد السلاطين العصر المملوكى ما فعله السلطان بالأمير بيبرس الجاشنكير بقتله وكانت هذه الأسباب تتمثل فى تضييق ذلك الامير على الناصر في أبسط أموره الشخصية مثل المصروف والمأكل والمشرب، وقد ذكرّه الناصر محمد بتلك الأمور مسردها إليه بقوله:" تذكر وقد صحت علىّ وقت كذا بسبب فلان ورددت شفاعتى فى حق فلان واستدعيت نفقة فى وقت كذا من الخزانة فمنعتها وطلبت فى وقت حلوى بلوز وسكر فمنعتنى، ويلك ! وزدت فى أمرى حتى منعتنى شهوة نفسى" وكان ذلك بمثابة اعتراف من الناصر محمد بما حوته نفسه التى ضاقت من تصرفات ذلك الأمير وكانت النتيجة ان أمر السلطان الناصر محمد بقتل الأمير بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م [٢].

ولعل من أسباب اشتداد مرض السلطان وتدهور حالته النفسية – فى بعض الأحيان– هو وقوع الخلاف والشقاق بين الأمراء، مثلما حدث سنة ٧٤١هـ/١٣٤٢م حين وقع الشقاق بين الأميران قوصون وبشتاك[٣] حتى كادا أن يقتتلا وما أن وقع خبر ذلك على مسامع السلطان–وكان مريضاً– زاد مرضه عليه وكثرت همومه من ذلك الأمر حتى استدعى السلطان الأميران عنده فما كان منهما إلا أن تنازعا بحضرة السلطان فأغمى عليه وقاما من عنده على ما هما عليه[٤].

ومثلت المواقف المرعبة والهائلة مرض بعض السلاطين[٥]، كما حدث حين أرسل السلطان الملك الصالح إسماعيل منجك اليوسفى الناصرى[٦]سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م لقتل

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٩٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٥٧.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٤٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٧٥؛عطية القوصى: المرجع السابق، صـ ٢٤.

(٣) بشتاك(ت: ٧٤٢هـ/١٣٤٢م) ذكره المقريزى بينما ذكره أبوالمحاسن بـ " بشتك".

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٠١؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٦٣، ١٦٤.

(٥) الصرع: "علّة تمنع الأعضاء النفسية (الروحية) لدى الفرد منعاً غير تاماً أما بالنسبة للتعريفات الحديثة فقد عرّف بعض الفسيولوجيين الصرع بأنه " إصابة متميزة بحدوث نوبات مفاجئة و متكررة ذات أشكال إكلينيكية مختلفة تحدث بسبب تفريغ مفرط Excessive dischange ومؤقت أو متزامن" انظر حاجى باشا: المصدر السابق، ورقة ٢٥أ – ٢٥ب؛ فيصل محمد خير الزراد: الصرع فى الطب وعلم النفس، دار المريخ، الرياض،١٩٩٠م، صـ ٢٤.

(٦) منجك اليوسفى الناصرى (٧١٤–٧٧٦هـ/١٣١٤–١٣٧٤م):(هو منجك بن عبدالله ، سيف الدين اليوسفى الناصرى)(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ١٣٣)

أخيه الملك الناصر أحمد المخلوع " من غير مشاورة الأمراء"، فوصل الى الكرك ودخل على الملك الناصر وقتله، وقطع رأسه، وقدمها للسلطان الصالح خلال ثلاثة أيام وعندما شاهد رأس أخيه مقطوعة حدثت له رجفة وقشعريرة أدت إلى مرضه(١).

كما أن تدهور الحالة النفسية لدى سلاطين المماليك– ولاسيما إذا كان صغيراً– كان من شأنها ليس قيام السلطان بعزل نفسه فحسب، بل واللجوء الى الفرار والاختباء لئلا يمسه مكروه– كما هو الحال– فى عهد سلطنة الناصر فرج بن برقوق إذ اضطره تضييق كبار رجال الدولة عليه ووقوع المنافسات بينهم الى القيام بعزل نفسه عن السلطنة والاختباء فى أحد البيوت، فاستقر رأى الأمراء على سلطنة أخيه عبدالعزيز ولقب بالمنصور سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م(٢).

أما السلطان الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر فقد كان به نوع من البله، مع خفة وطيش مما كان خلعه من الملك سهلاً على الأشرف برسباى(٣).

وعلى صعيد آخر لم يكن القلق والاكتئاب الذى ينتاب حياة السلاطين النفسية خلال العصر المملوكى مبعثه الأحداث السياسية فحسب فهناك فقد يصاب السلطان بالقلق والاكتئاب نتيجة حرصه على سلامة رعاياه والخوف عليهم من الهلاك وان يمسهم السوء– مثال ذلك– ما أصاب السلطان الملك الأشرف برسباى من الجزع والقلق العظيم عندما تواترت إليه الأخبار– حين عزم على غزو قبرص(٤) سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م– انكسار أربعة مراكب بالقرب من سواحل مصر غرق فيها نحو العشرة أنفس، وما كاد أن سمع الخبر حتى " انزعج "السلطان" غاية الانزعاج حتى كاد أن يهلك، وبكى بكاءً كثيراً، وصار فى

---

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٩٣؛
William Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt 1260–1517, London ,1896 .p. 91.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ١٤٣؛ حوادث ٨٠٨هـ؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٣١٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ٤١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٦٧؛ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٧م، صـ ١١٣؛ William Muir: Ibid, p. 125

(٣) ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٥٠.

(٤) قبرس:(جزيرة على البحر الشامى كبيرة القطر مقدارها عشر يوماً، وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواش، وبها معدن الزاج المنسوب اليها، ويتجهز به منها الى سائر الأقطار وبها ثلاث مدن...)(انظر الحميري: المصدر السابق، ج١، صـ ٤٥٣؛ البكرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٤٨١؛ ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٠٦؛ ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٠٥).

قلق عظيم "– على حد قول أبو المحاسن– واصفاً حالة السلطان النفسية حيال هذا الخبر حتى ضاقت عليه القلعة، وعزم من كثرة القلق والانزعاج عدم إرسال الغزاة، وأرسل من يتقصى الخبر إلا أن المُرسل وهو الامير جرباش[(١)] وجد ما حدث للمراكب المذكورة سهل ترميمه، وأصلح الصناع المراكب وسارت على بركة الله[(٢)].

ولقد أقلق السلطان الملك الأشرف برسباى خلال سنوات حكمه أمر جانى بك الصوفى[(٣)] (٨٤١هـ/١٤٣٧م)– الذى صار خبره أقلق فراش الملك الأشرف مدة طويلة فكثر توهمه لخبره، ولقد ترتب على ذلك القلق عدة أمور سياسية خلال سنوات حكمه ومنها.

فمن كثرة قلق السلطان الملك الأشرف برسباى من جانى بك قبض على بعض كبار رجال الدولة ونفى بعضهم الآخر ففى رجب ٨٣١هـ/ابريل ١٤٢٨م ألقى القبض على الأمير قطج بن تمراز[(٤)] أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، ثم الأمير جرباش الكريمى أمير مجلس فسجن قطج بالإسكندرية بينما أخرج جرباش بغير قيد الى ثغر دمياط كل ذلك" بسبب جانى بك الصوفى" وكثر توّهم السلطان منه[(٥)].

وفى أواخر ذى القعدة٨٣١هـ/أغسطس١٤٢٨م حين بلغ السلطان أن جماعة من مماليكه وخاصكيته يريدون قتله ألق القبض على جماعة منهم السيفى سنطباى الأشرفى[(٦)] وغيره، ونفى غيره الى الشام والى قوص وعاقب آخرون، وكان جميع ما وقع من القبض

---

(١) جرباش الكريمى (٨٦١هـ/١٤٥٧م):(هو الامير سيف الدين جرباش بن عبدالله الكريمى الظاهرى أمير سلاح وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق صار فى دولة الأشرف برسباى حاجب الحجاب بالديار المصرية مات سنة ٨٦١هـ ...) انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٨٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٨٩.

(٣) " واستمر السلطان ولم يكن عنده ما يشوش عليه فى جميع أشيائه الى ان كان يوم الجمعة سابع شعبان ورد الخبر على السلطان بان الامير الكبير جاني بك الصوفى فرّ من الإسكندرية الذى كان مسجوناً به، وخرج من الثغرّ المذكور ولم يفطن به أحد، فلمّا سمع السلطان هذا الخبر كادت نفسه ان تزهق، وقامت قيامته، ومن يومئذ حلّ بالناس من البلاء والعقوبات والهجم على البيوت.... " انظر ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٥٣.

(٤) الأمير سيف الدين قطج (ت:٧٤٣هـ/١٤٤٠م):(هو الأمير سيف الدين قطج بن عبدالله بن تمراز الظاهرى توفى بطالاً بالقاهرة فى يوم الاثنين ثامن عشرين شهر رمضان، وكان أصله من أصاغر مماليك الظاهر برقوق"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٥، صـ ٣١٧، ٤٧٨).

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤،صـ ٣١٩ .

(٦) سنطباى الأشرفى(ت:٨٦٠هـ/١٤٦٢م) انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣١٧.

والنفى وضرب جماعة من الخاصكية[(١)] كان " لسبب جانى بك الصوفى لا غير "– على حد قول أبو المحاسن– حتى صار خبر جانى بك الصوفى كمرض نفسى راود السلطان فى الحلم واليقظة حتى لما أشيع سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠م موت الأمير جانى بك الصوفى بالطاعون لم يصدّق" واستمر على ما هو عليه من القلق بسببه"[(٢)].

ومن تزايد قلق السلطان الملك الأشرف برسباى نجده سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م يقوم بعزل جماعة من النواب ممن يخشى منهم، كما تخوّف من قرقماس[(٣)] أيضاً تخوفاً عظيما، ومن جملة هؤلاء المعزولون عن ولايتهم، عزل الأمير قانصوه النوروزى[(٤)]عن نيابة طرسوس[(٥)] ونقله الى حجوبية حلب، عوضاً عن الأمير طوغان[(٦)] الذى نقله بدوره إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، وأقر الأمير جمال الدين يوسف ابن قلدر فى نيابة طرسوس، ويبدو مما سبق أن حركة التنقلات الواسعة هذه إجراءات لئلا احدهم " يميل الى جانى بك الصوفى"[(٧)].

وأخيراً انتهت أسطورة قلق السلطان الملك الأشرف برسباى من جانى بك الصوفى بموت الأخير سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م بالطاعون وما أن علم السلطان بذلك " فكاد يطير فرحاً وظن انه قد أمن"– على حد قول المقريزى[(٨)] وهذا الفرح الذى انتاب السلطان برسباى بهذه الصورة التى يمثلها لنا المقريزى يعكس لنا مدى تأثير أخبار جانى بك الصوفى على حياة ونفسية السلطان الملك الأشرف برسباى بصفة عامة وعلى حياته

---

(١) الخاصّكية:" فهم الذين يلازمون السلطان فى خلواته، ويسوقون المحمل الشريف ويتعينون بكوامل الكفّال، ويجهّزون فى المهمّات الشريفة، والمتعيّنون للإمرة والمتقّربون فى المملكة كان عدّتهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً ...." انظر ابن شاهين: المصدر السابق، صـ ٩٧ ؛ انظر:

Johnson: Dict. Pers. Arabic and English London 1852, p. 503.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٣٤٥.

(٣) قرقماس(٨٤٢هـ/١٤٣٨م):(كان أصله من كتابية الملك الظاهر برقوق ثم أخذه الملك الناصر واعتقه)(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٢٤؛السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ٢١، ٢٢٠).

(٤) قانصوه النوروزى(ت:٨٥٧هـ/١٤٥٣م):(هو الأمير سيف الدين بن عبدالله النوروزى أحد أمراء دمشق وكان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظى نائب الشام مات سنة ٨٥٧هـ)(انظر السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ١٩٩).

(٥) طرسوس: "مدينة بالشام حصينة ،عليها سوران بينهما فصيل" علية عبد السميع الجنزورى: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، صـ٣٧– ٦٢).

(٦) طوغان (٨٤٠هـ/١٤٣٦م):(هو طوغان بن عبدالله السيفى تغرى بردى)(السخاوى: الضوء اللامع، ج٤، صـ١٢).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٦٣.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٤٥؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٨٨.

السياسية بصفة خاصة.

ومما سبق نستخلص أن الملك الأشرف برسباى بات منغص العيش وفى غاية النكد من جهة الأمير جانى بك الصوفى من يوم فراره من سجنه بثغر الإسكندرية[١]الى أن مات[٢] سنة١٨٤١هـ/١٤٣٧م عانى فيها الأمراء والناس جراء قلق السلطان من الحبس والنفى والضرب بالمقارع وكبس البيوت غاية المعاناة[٣].

أما السلطان الملك الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٦هـ/١٤٣٨- ١٤٥٢م) فقد تنكدت عيشته وازداد قلقه لعصيان الأميران تغرى برمش[٤] وإينال الجكمى[٥] وان كان "الملك الظاهر جقمق قلق لعصيان تغرى برمش هذا أكثر من عصيان الأمير إينال الجكمى نائب الشام"[٦].

ويبدو مما سبق أن هناك مصدر من مصادر تنكد عيشة السلاطين خلال العصر المملوكى مما يؤثر بدوره على قراراته فى حياته السياسية ألا وهو عصيان الأمراء وانقلابهم العسكرى بين حين وآخر على السلطان فتغرى برمش[٧] انتهى أمره بمحاصرته لأهل حلب واقتتاله معهم قتالاً شديداً فانهزم من العسكر المصرى وقتل تغرى برمش[٨] فى

---

(١) ثغر الإسكندرية:" وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه ويشتمل على سورين محكمين، بها عدّة أبراج يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة، وللثغر عدّة أبواب محكمة" انظر ابن شاهين: المصدر السابق، صـ٣٦.

(٢) " وفى سابع عشر جمادى الأولى سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٦م وكان من خبره انه لما كبسه نائب دوركى فى شهر الله المحرم فر هو وابن دلغادر فمضى ابن دلغادر على وجهه يريد بلاد الروم وقصد الأمير جانى بك الصوفى أولاد قرايلك ونزل على محمد ومحمود ابنى قرايلك وأقام عندهم.... وذلك فى يوم الجمعة خامس عشرين ربيع الآخر فمات من الغد فقطع رأسه وحمل الى السلطان فكاد يطير فرحاً)(انظر المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٤٤، ٣٤٥) .

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١٠٩.

(٤) عصيان تغرى برمش(ت: ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م): " فى سنة ٨٤٢هـ وفيها عصى تغرى برمش التركمانى – نائب حلب وأراد القبض على الأمراء بحلب وان يملك القلعة، ففطنوا له فحاربوه، وأغلقوا القلعة، فحاصرهم فيها، وجاء الخبر بذلك الى السلطان فى الحادى عشر من رمضان، فأمر بتقليد نائب طرابلس النيابة بحلب، وارسل إليه تقليده وخلعته مع هجان ،.." (انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ١٠٥).

(٥) إينال الجكمى(ت: ٨٤٢هـ/١٤٣٨م):" وأصله من مماليك الأمير جكم وانتقل بعده الى الأمير شيخ المحمدى" (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٤٢٥، ٤٢٦)

(٦) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٢٨٥؛ نفسه: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٦٠.

(٧) وأصل تغرى برمش هذا من مدينة بهنسا وجفل هو وأخوه حسن وكان حسن الأكبر– من بهنسا فى كائنة تيمور لنك، وقدما بعد ذلك بسنين الى الديار المصرية..."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٧١؛ ابن العجمى: كنوز الذهب فى تاريخ حلب، ط.١، دار القلم، حلب، ١٩٩٦م، ج١، صـ٤١٧).

(٨) مقتل تغرى برمش: " ملخصه انه اظهر العصيان فى يوم الجمعة الثامن عشر من شعبان وحاصر القلعة ليملكها، فامتنع عليه نائبها فألح عليهم بالحصار الى يوم الثلاثاء شهر رمضان، فركب أهل حلب عليه ونزل الأمير حطيط نائب القلعة ومن معه وساعدهم من بالبلد من الجند والعامة فالتقى العسكران بقرب الرفاعى، فضربت عنق تغرى برمش(انظر ابن فهد: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، صـ ٢١٠) .

سابع عشر ذى الحجة سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م [١].

والمصدر الثانى لقلق السلطان الملك الظاهر جقمق فيتمثل فى إينال الجكمى[٢] نائب الشام وبقى السلطان فى قلق منه منذ أن علم أن أخا إينال الجكمى سودون[٣] انه قدم الى القاهرة، ليدعوا الناس الى أخاه سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م وكان السلطان يراعى خاطر إينال الجكمى ومن مظاهر ذلك انه لما تسلطن قد أرسل سودون المذكور الى سائر نواب البلاد الشامية، وكانت العادة أن يرسل لكل نائب أمير [٤].

وفى سنة٨٤٢هـ/١٤٣٨م انتهى قلق السلطان الملك الظاهر جقمق من إينال الجكمى بالقبض عليه بعد انهزامه من العسكر المصرى وفى السابع والعشرين من ذى القعدة وصلت رأس إينال الجكمى– نائب الشام– وطيف بها على رمح.

وتشير المصادر إلى أن الحالات النفسية التى كانت تنتاب أمراء العصر المملوكى كانت تتدخل– أحياناً– فى تغيير القرارات التى يتخذها السلاطين لترضية خواطرهم وأبرز الأمثلة لذلك هو قيام السلطان الملك الأشرف إينال (٨٥٧–٨٦٥هـ/١٤٥٣–١٤٦١م) بتغير وظائف الأمراء، حين بلغه "تغير خاطر المماليك السلطانية[٥] بسبب توليته لولده المقام الشهابى أحمد[٦] لاتابكية العساكر"[٧] فما كان منه إلا أن قام بإقرار الأمير تنبك[٨] المستقر قبل ذلك أتابكاً للعسكر، بدلاً من ولده، واستقر ولده على إمرة مائة وتقدمة ألف

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٠٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ١٠٧.

(٢) عصيان إينال الجكمى(ت:٨٤٢هـ/١٤٥٢م):" وفى العشر الأول من رمضان– عصى نائب الشام إينال الجكمى وكان قبل ذلك وصل إليه كتاب من تغرى برمش انه عصى هجم على الحاجب ليقبضه ففر منه الى حماة فحصر القلعة ورام الاستيلاء عليها ..."(انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ١٠٩).

(٣) سودون أخا إينال الجكمى(ت:٨٥٨هـ/١٤٥٤م):" سودون الجكمى أخو نائب الشام إينال الجكمى لأبويه فى آخرين هذا أصغرهم توفى سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م" انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٢٧٨.

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٢٨٧.

(٥) المماليك السلطانية: " ينسبوا جميعهم الى لقب الملك القائم بالملك وان لم يكونوا مشتراه على وجه الإطلاق ويتميزون فى أخبارهم وهم على ست مراتب، الخاصكية، الجمدارية، السلحدارية، السقاة، مماليك الخدمة الكتابية ..." (حاشية مخطوط زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تأليف بيبرس الدوادار، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٩، صـ ٣٣٨).

(٦) الشهابى أحمد (ت:٨٩٣هـ/١٤٨٨م) (هو أحمد بن إينال المؤيد الشهاب أبوالفتح بن الأشرف أبى النصر العلائى الظاهرى ثم الناصرى من ذرية الظاهر بيبرس فأمه ابنة ابن خاص بك) (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ٢٤٦؛ السيوطى: نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتى، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ج١،صـ ٤٠) .

(٧) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٤٢٦.

(٨) الأمير تنبك (ت:٨٦٢هـ/١٤٥٨م):" الأمير الكبير سيف الدين تنبك (بن عبدالله) البردبكى(الظاهرى) أتابك العساكر بالديار المصرية توفى سنة ٨٦٢هـ فى يوم الإثنين رابع عشرين ذى القعدة وقد ناهز التسعين من العمر..." (انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٩٥، ١٩٦) .

إرضاءً لخواطر الأمراء فى ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ/ مارس ١٤٥٣م فكان ذلك بمثابة " أول وهن وقع فى دولة الأشرف إينال"[١].

وأظهر السلطان الملك الأشرف إينال الشفقة على الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم حينما بلغه – أى السلطان – ظهور ابن الهيصم متمرضاً عند بعض أقاربه – وكان متخفياً– " فأمنه السلطان وأمره بلزوم داره "[٢].

أما السلطان الملك الأشرف قايتباى فقد أقلقه عند توليه السلطنة سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م الملك الظاهر تمربغا المعزول بفراره[٣] من ثغر دمياط[٤] " واضطربت أحواله، وضاق الأمر عليه من كل جانب"– على حد قول ابن إياس– وخاصة عند اتخاذ السلطان فى الأعداد لأمر احد الخارجين عن طاعته " شاه سوار بن ذلغادر" وقد ترتب على هذا القلق الذى انتاب السلطان وكثرت القيل والقال عن الظاهر تمربغا أن عين السلطان قايتباى الأمير يشبك الدوادار وأوكله بملاحقة الظاهر تمربغا من غزة، كما فرض حظر التجوال من بعد صلاة العشاء فحصل للناس فى ذلك "غاية القلق" حتى تمكن الأمير يشبك من القبض على تمربغا الذى علل خروجه من دمياط قاصدا من ذلك أن يصلح ما بين السلطان قايتباى وشاه سوار وإخماد الفتنة[٥].

ومن ناحية أخرى، فقد صارت المشاجرات التى تنشب بين الأمراء بعضهم البعض بين الحين والآخر مصدرا من مصادر نكد سلاطين المماليك وتنكد معيشتهم مما يعكس لنا مدى حرص السلاطين الحفاظ على تماسك الأمراء وترابطهم برابطة ودية لأن ذلك يعزز من منع الاضطرابات السياسية وتماسك الدولة كما يظهر ذلك حين تنكد السلطان

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦،صد ٦٢.

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٢، صد ٤٥٧ .

(٣) خلع الظاهر تمربغا وحبسه: " وأقام بعد خلعه بالبحرة الى ليلة الأربعاء ثامن رجب سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م سفر الى ثغر دمياط، ليقيم به على أحسن وجه، وكان سفره أيضاً الى دمياط فى النيل وليس معه مسفر من الأمراء هذا بعد ان أمعن السلطان فى إكرامه واحترامه ووداعه، واعتذر إليه عن وثوبه على السلطان وقيل الملك الظاهر تمربغا عذره وشكره على ما فعله معه من (إكرامه له)، وتفارقاً على ذلك " ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صد ١٨٣).

(٤) ثغر دمياط: " مدينة قديمة، بين تنيس ومصر، على زاوية بين بحر الروم والنيل مخصوصة بالهواء الطيب، وعمل الشرب الفائق، وهى ثغر من ثغور الاسلام، ومن شمالى دمياط يصب ماء النيل الى البحر المالح ..... " انظر ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج٢، صد ٥٣٦؛ ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٢، صد ٤٧٢ – ٤٧٣.

(٥) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صد ١٥.

الأشرف قايتباى سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٣م من تشاجر تغرى بردى ططر والاتابكى أزبك أثناء ممارستهم رياضة ضرب الكرة حتى تدخل أحد الأمراء بينهما.

وعلى صعيدٍ آخر كان لغضب سلاطين المماليك فى بعض الأحيان أثرا بالغا فى معاملتهم لهؤلاء الأمراء مما يعكس لنا أثر ذلك العامل النفسى فى قرارات السلاطين التى يتخذوها حيال ذلك حتى بلغ الأمر الى ضرب السلاطين هؤلاء الأمراء لأتفه الأسباب كضرب أحد الأمراء بسبب تفوقه على السلطان فى رياضتهم المفضلة ضرب الكرة والذى يظهر جلياً فى سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م حين ضرب السلطان الناصر محمد بن قايتباى الكرة بالحوش ولم يكن معه سوى بعض أمراء طبلخاناة(١) وعشرات(٢) ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى، وعند اللعب صار طومان باى يقتحم على أخذ الكرة من السلطان مما جعل السلطان يحنق منه ويضربه على ظهره بالصولجان أكثر من مرة، فكان ذلك مدعاة لحقد طومان باى على السلطان، مما يجعل من اللعب فى بعض الأحيان وازعاً لانتشار الأحقاد بين السلاطين والأمراء(٣) .

وذكرت المصادر عن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى حين جاءت الأخبار بعصيان نائب الشام آنذاك قصروه وخروجه عن الطاعة زاد تنكد السلطان، واضطربت أحواله، حتى بلغ به الحد أن شرع الخروج الى الشام بنفسه فى سنة ٩٠٥هـ/١٥٠٠م(٤).

وفى سنة ٩١٧هـ/١٥١١م يبدو أن المرض العضوى الذى يصاب به أحد سلاطين المماليك سبباً فى تغير معاملة السلطان مع أحد رجال دولته إذ غضب السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى على الرئيس كمال الدين بن شمس حين بلغه أن كمال الدين أخبر الأمراء والناس أن السلطان صار قيليط(٥) حين حصل له مرض فتولى علاجه منه(٦).

---

(١) أمراء الطبلخاناة:" هم الأمراء الذين يصلح أن تضرب الطبول على أبوابهم، ويكون فى خدمة الأمير منهم ٤٠- ٧٠ مملوكاً ويلى مقدم الألف فى الرتبة" انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٢٢؛ حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ ٢٣١- ٢٣٦.

(٢) أمراء العشرات:" رتبة عسكرية فى الجيش المملوكى ونصيب كل منهم فى الحرب أمرة عشرة فرسان، ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة " انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٢٢.

(٣) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ٢٥٥، ٢٥٦.

(٤) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٤٣٢.

(٥) قيليط: وَقِيلَ القَيْلَطُ: المُنْتفِخ الخُصْية، وَيُقَالُ لَهُ ذُو القَيْلطِ والقِيليطُ: الآدَرُ وَهُوَ القَيْلةُ. ابْنُ الأَعرابي: القَلْطُ الدَّمامةُ والقِليطُ: الْعَظِيمُ الْبَيْضَتَيْنِ."ابن منظور: لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت،١٩٩٣م، ج٧، صـ ٣٧٥).

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢١٢، ٢٥٤.

ومن بين السلاطين الذين تدهورت نفسيتهم جراء عصيان الأمراء الملك الأشرف قانصوه الغورى فحين كثرت الإشاعات فى ربيع الآخر سنة٩١٩هـ/١٥١٣م بالركوب عليه "اضطربت الأحوال على السلطان وضاق به الأمر حتى صار يدعو على نفسه بالموت" فيبدو لنا مما سبق كم أثرت مثل تلك الإشاعات فى أحوال السلاطين وتنكدهم وفى حياتهم السياسية[١].

ومن ضمن سلاطين العصر المملوكى الذين أصيبوا بضيق النفس مما اضطرهم الى إعلان خلع أنفسهم عن السلطنة السلطان الأشرف قانصوه الغورى الذى أثار عبث المماليك الجلبان[٢] وفسادهم فى البلاد غضبه فى الوقت الذى كان يهدد الدولة المملوكية الجركسية خطر العثمانين من الخارج الأمر الذى أزعجه وجعله ترك القلعة والاعتزال فى المقياس وقال للأمراء: "أنا ما بقيت أعمل سلطاناً، ولوا عليكم من تختاروه غيرى!"[٣].

(١) ابن إياس: نفسه، ج ٤، صد ٣١٣.

(٢) " ساهم الأجلاب بقدر كبير فى زعزعة الاستقرار والأمن الداخلى، مما أصاب الحياة السياسية الداخلية بالخلل والضعف فى عصر الجراكسة، ذلك أنهم فرضوا نفوذهم فى تولية السلاطين وعزلهم وتوجيه الانقلابات الداخلية بين السلاطين وفق مصالحهم وبين الأمراء وبعضهم البعض " انظر هدية إمام على عبد الرحيم: المماليك الجلبان و دورهم فى عصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤- ٩٢٢هـ/١٣٨٢- ١٥١٧م)،رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، صد ٢٢٩.

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المملوكى فى مصر والشام، صد ١٩٤- ١٩٥.

(ب) أمراض الأمراء النفسية:-

وكما أثرت حالة السلاطين النفسية على القرارات وحياتهم النفسية فقد أثر أيضاً ما يعانيه الأمراء من عوامل نفسية على حياتهم السياسية وهو ما نلمسه من خلال ما يأتى:

ومن الأمثلة أشارت إليها المصادر عن تغير قلوب الأمراء تجاه السلاطين بسبب قيامهم بالقبض على كبار رجال الدولة من الأمراء مما يؤدى بالتالى بتفكير الأمراء بالتخلص منهم بالقتل أو العزل، كما هو الحال حين قبض السلطان السعيد بركة خان فى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر[١]، والأمير بدر الدين بيسرى[٢]، واعتقلهما بالقلعة فيصف لنا المقريزى أثر ذلك الفعل على حال النفوس بين السلطان والأمراء قائلاً: "فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء" كما أضاف النويرى معبراً عن الحالة النفسية التى انتابت هؤلاء الأمراء تجاه فعل هذا السلطان بقوله: "فتغيرت لذلك قلوب الأمراء" حتى أدى شحن قلوب الأمراء حيال أفعال ذلك السلطان الى عزله وتولية أخيه العادل سلامش[٣].

وليس أدل على ذلك انه حين اتبع الملك السعيد بركة خان نهج السياسة التى تنطوى على تقريب المماليك الصغار وإقصاء الكبار بل وسجنهم بعث إليه الأمراء قائلين له " انك قد أفسدت الخواطر وتعرضت الى أكابر الأمراء فإما ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن"- على حد قول المقريزى- فكان ذلك بمثابة تعبيراً بما يضيق به صدورهم من أفعاله وتهديده حتى يرجع عنها[٤].

وكان لإيثار السلطان المنصور لاجين للأمير سيف الدين منكوتمر على سائر الأمراء دافعاً لشحن الغضب والبغضاء فى نفوس كبار رجال الدولة لتنصله عن العهد

---

(١) سنقر الأشقر(ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):" هو الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بن عبد الله الصالحى العلائى كان من الأمراء الأكابر، وممن ملك ولقب بالملك الكامل، وخطب له على منابر الشام وضرب الذهب والدراهم باسمه وكان يكتب على التوقيع: " سنقر الأشقر "....." (انظر ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ ١٦٠).

(٢) الأمير بدر الدين بيسرى (ت: ٦٩٨هـ/١٣٩٦م):" الأمير الكبير بدر الدين بيسرى بن عبد الله الشمسي، كان من أكابر الأمراء وأركان الدولة.. وكان قد انفرد بحمل الجتر على رؤوس الملوك توفى سنة ٦٩٨هـ/١٣٩٦م" (انظر ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٠٩؛ العمرى: المصدر السابق، ج٢٧، صـ٤٢٥.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١١٠؛ محمد حمزة إسماعيل: المرجع السابق، صـ ٢٠.

الذى أخذه على نفسه عند اعتلائه عرش السلطنة ألا يؤثر أحداً وكلهم عنده سواء من ناحية ومن سوء سيرة منكوتمر منذ توليه منصب نائب السلطنة من ناحية أخرى فكانت النتيجة أن يترجم استياء نفوس الأمراء إلى قتل السلطان المنصور لاجين ومملوكه منكوتمر معه سنة٦٩٨هـ/١٢٩٨م(١) وكان السبب المباشر لقتل السلطان المنصور لاجين استياء الأمراء من أفعال منكوتمر(٢).

أما السلطان الأشرف خليل فقد أدت تصرفاته التى تتصف بالغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الكلمة فى عهد أبيه الى استياء نفوس الأمراء وأثارت مخاوفهم منه خاصة حين غدر بنائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاى حين أوقع الحوطة على بيته وسائر حواصله فى سائر البلاد، وأقام ثمانية أيام فى محبسه ميتاً مما أدى ذلك فى نهاية المطاف الى وثوب الأمراء على السلطان الأشرف خليل وقتله فى سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(٣).

ومن الأمراء ما يصاب بتدهور حالته النفسية لهزيمة أصابت عسكره فى معركة من المعارك الحربية مما يجعل الأمراء والعسكر يلقون اللوم على سوء تدبيره فضلاً عن التوبيخ الذى يلقاه من السلطان مما يصيبه بالاكتئاب النفسى وضيق النفس حيال النفس، مما يستدعى تحرك السلطان لإصلاح نفسية ذاك الأمير ويطيب خاطره، بل يتصدق بجملة كثيرة من الأموال شكراً لله على عافيته كما حدث ذلك للأمير بدر الدين بيدرا(ت:٦٩١هـ/١٢٩٢م) حين توجه بالعسكر الى جبال كسروان فكسروه فحصل للأمراء والعسكر الألم لذلك وتذكر المصادر أن السلطان الأشرف خليل عنفه ووبخه وكاد أن يأمر بقتله لذلك لزم داره، ومرض بيدرا مرضاً شديداً حتى شفى على الموت فأرسل إليه السلطان من طيب خاطره فتماثل للشفاء، فتصدق السلطان لشفائه بصدقات كثيرة(٤).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٨٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٨، صـ ٩٥،٩٩.

(٢) النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٣٦٠.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢١٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٨٣ –٣٨٤؛ زبيدة محمد عطا: المرجع السابق، ج٩، صـ ٣٢٠ ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٠٧.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٣٤ يذكره فى حوادث سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٢٤٠ – ٢٤٢؛ صلاح سليم طايع: المرجع السابق، صـ ١٣٩.

وقد يبلغ خوف الأمراء والأعيان خلال العصر المملوكى من السلاطين حد الموت من شدة الفزع وهو الذى حدث لقاضى القضاة فخر الدين[١] المعروف بابن خطيب جبرين وولده وكان قد تولى قضاء حلب سنة ست وثلاثين، فطلبه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وطلب ولده، ففزعوا من خطابه لهما "لكلام أغلظه لهما"– على حد قول ابوالمحاسن – فنزلا مرعوبين حتى بلغ بهم الرعب المرض، فتمارضا بالبيمارستان المنصورى فمات ولده[٢] قبله ومات هو بعده بيومين[٣].

وكان من ضمن العوامل النفسية التى سيطرت على أفعال رجال الدولة فى العصر المملوكى هو عامل الخوف حيث أصبح الخوف دافعاً للأمراء فى بعض الأحيان على ترك الوظائف التى يخولها لهم السلطان بل والاختفاء لمجرد تخوفه من بطش نائب السلطنة– مثال ذلك– تهرب تاج الدين بن سعيد الدولة[٤] من تفويض السلطان له بالوزارة سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م وكان ذلك نتيجة:" انه توهم من الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة كراهة ذلك فخاف عاقبته "– على حد قول النويرى[٥].

وقد يتعرض الأمير فى العصر المملوكى لتدهور نفسيته فيمرض نتيجة نقمة السلطان عليه مما يجعل السلطان فعل قصارى جهده ليسترضيه ويطيّب خاطره ومن جملة هؤلاء الأمراء الأمير قوصون فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فحين تعرض ذلك الأمير سنة٧٣٦هـ/١٣٣٦م للإخراق والإهانة من قِبل السلطان انقطع عن الخدمة،" فقلق السلطان بسببه"– على حد قول اليوسفى– وأرسل إليه الأمير بشتك

---

(١) ابن خطيب جبرين (ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٩م):" هو قاضى القضاة فخر الدين عثمان بن زين الدين على بن عثمان، المعروف بابن الخطيب جبرين، قاضى حلب، وابنه كمال الدين، وقد طار لبه، وخرج وقد انقطع قلبه، وتمرض بمصر ولقد كان رحمه الله فاضلاً فى الفقه والأصول، والنحو والتصريف، والقراءات مشاركاً فى المنطق والبيان وغيرهما، وله الشرح الشامل والصغير..." (انظر ترجمته فى ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٢١٥، ٢١٦؛ الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ١١٢؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٦١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، صـ ٢٥٥؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، صـ ٣١٢،٢١٠) .

(٢) " محمد بن عثمان بن على كمال الدين ابن الامام فخر الدين ابن الخطيب جبرين الحلبى مات مع أبيه بالقاهرة فى أول سنة ٧٣٨هـ " انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، صـ ٢٩٣.

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٣٢٠.

(٤) تاج الدين ابن سعيد الدولة (ت:٧٠٩هـ/١٣٠٩م)"كان يقال له أحمد الكاتب وكان مقدماً عند المظفر بيبرس وعرض عليه الوزارة فامتنع فجعله مشيراً على الضياء النشائى وكان مشهوراً بالأمانة والعفة والضبط التام . وكانت وفاته فى أوائل رجب سنة ٧٠٩هـ "(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٥٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٥٩؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٨٠–٢٨٩).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٠٨؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٢٣؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ١٢٢.

لطيّب خاطره وكان قد أصيب بسخونة أقام لأجلها منقطعا عن الخدمة لثلاثة أيام، وحين استرضاه السلطان، دخل الخدمة واعتذر له السلطان وأقعده[١].

ولقد كشفت المصادر فى أكثر من موضع أن كثير من انقلابات الأمراء على السلاطين فى العصر المملوكى جاءت نتيجة ما يعتريه هؤلاء الأمراء من ضيق النفوس حيال أفعال هؤلاء السلاطين والذى منهم –على سبيل المثال– الملك المظفر حاجى حيث قام بالقبض على ملكتمر الحجازى – الذى قام بسلطنته– وعلى جماعة أُخر من أكابر الأمراء حتى شمل جماعة كثيرة من أولاد الأمراء مما أدى استياء نفوس الأمراء من هذه الأفعال ويعبر أبوالمحاسن عن حال نفوس الأمراء حيال ذلك بقوله " فنفرت القلوب منه" فكانت النتيجة لذلك خروج الأمراء عن طاعته وعزله وتولية السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد سلطنته الأولى (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م)[٢].

وقد يمرض احد الأمراء نتيجة حزنه واغتمامه على توليه أحد المناصب ليس لديه رغبة فيها من ذلك ما حدث حين فوضت نيابة المملكة الطرابلسية الى الأمير سيف الدين طنيال[٣] فتألم لذلك ومرض أياماً، وبعد ذلك شفى وتوجه الى المملكة الطرابلسية فى جمادى الآخرة سنة ٧٢٦هـ/ مايو ١٣٢٦م[٤].

ومن الأمراء الذين أصيبوا بالجزع والخوف الشديدين أودى بحياتهم لمجرد تهديد السلطان لهم وإنكاره عليهم الأمير بكتمر المؤمنى[٥] الذى حين حدثت الفتنة الكبرى بالقاهرة سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م بسبب المشالقين والتى انتهت بمقتلة عظيمة من العامة بفعل الأمراء الذين أنزلهم السلطان الملك الأشرف شعبان ليكفّوهم، فما بلغ السلطان ما فعله الأمير بالناس حتى أنكر عليهم وهدد الأمير بكتمر المؤمنى وتوعده فحصل لبكتمر

---

(١) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٣٠٦ ؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٠٢.

(٢) ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ٨٣.

(٣) الأمير سيف الدين طينال(ت:٧٨٩هـ/١٣٨٩م)(كان من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون أخرجه السلطان إلى نيابة طرابلس بعد الأمير شهاب الدين قرطاى..." (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١٦، صـ ٢٩٦؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٠٣).

(٤) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٥) بكتمر المؤمنى (٧٧١هـ/١٣٧٠م):" هو الأمير سيف الدين بكتمر بن عبدالله المؤمنى الأمير آخور الكبير بالديار المصرية، وتولى عدة وظائف ونقل فى الولايات، مثل نيابة حلب والإسكندرية توفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ١١٢).

جراء ذلك تدهور حالته النفسية للخوف الذى انتابه من السلطان وما زال منها مريضاً حتى مات[١].

وقد يبلغ الخوف بأحد الأمراء فى العصر المملوكى حد المرض النفسى وهو الذى نلمسه من خلال التغيرات الفسيولوجية التى يصورها لنا المؤرخون والتى تطرأ على الأمير من هؤلاء حيال سماع خروج السلطان قاصدا إياه بعد خروجه من الطاعة مما يؤثر على تصرفات ذلك الأمير بالسلب فى مثل ذلك الأمر الخطير، ومن أمثلة ذلك حين وقع الخلاف سنة ٨١٣هـ/ ١٤١١م بين الأمير شيخ المحمودى والسلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فبمجرد إبلاغ الأمير شيخ بخروج السلطان الناصر فرج من الديار المصرية متجهاً نحو صرخد قاصدا إياه نجده " تغير لونه واختلط كلامه" وانزعج وأراد صعود قلعة صرخد قبل أن يقاتل السلطان ومن شدة ظهور علامات الخوف عليه من السلطان لامه أحد خواصه انه من يفعل مثل تلك الأفعال هذا "لا يصلح له أن يعصى ويتطلب السلطنة".

ومن شواهد بلوغ الخوف ذروته لدى الأمير شيخ من السلطان الملك الناصر انه بمجرد سماع خبر اقتراب السلطان بالعساكر المصرية من دمشق "لم يثبت، وداخله الخوف" وترك دمشق بعساكره ومماليكه حتى اعترف الأمير شيخ(ت:٨٢٤هـ/١٤٢٠)نفسه بذلك الخوف الشديد من السلطان وإرجاع كافة تصرفاته فى هذه الفترة الحرجة الى ذلك الخوف قائلاً :"والله ما أريد السلطنة، وإنما غالب ما أفعله خوفاً من شر ذلك الرجل" أى السلطان الملك الناصر فرج ويتضح لنا مما سبق مدى تأثير المرض النفسى الذى يتمثل فى الخوف المفرط من السلطان على أفعال ذلك الأمير فى فترة الخلاف مما كان يعوقه فى اتخاذ القرارات السليمة فى اللحظات الحاسمة فى ذلك الصراع[٢].

ومن جملة العوامل النفسية التى وقعت فى العصر المملوكى هو التحاسد الذى كان يقع – غالباً– بين الأمراء بغية الاستئثار بتدبير أمور الدولة والذى بدوره يؤدى الى الصدام المسلح وينتهى بانتصار الأقوى وخير مثال على ذلك الصدام الذى وقع بين

(١) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٣٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج٤، صـ ٣٢٨.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ٨٤، ١٠٤.

الأمير برقوق[1] والأمير بركة سنة٧٨٢هـ/١٣٨٠م وكان ذلك "نتيجة التحاسد الذى لابد منه غالباً بين الشريكين"–على حد قول المقريزى– إذ قاما بتدبير أمور الحكم، وكان من طبع النفس الإنفراد بالمجد ومحبة الاستئثار بالملك[2].

وكذا الحال أيضاً فى سلطنة الملك الناصر فرج الثانية(٨٠٨–٨١٥هـ/١٤٠٥–١٤١٢م) حين خرج من الديار المصرية، مجرداً الى البلاد الشامية، لقتال نوروز وشيخ، وقد نفرت القلوب منه، وتغيرت عليه الخواطر؛ وذلك بسبب إسرافه فى القتل الأمر الذى أدى الى خروج الأمراء عن طاعته وعزله عن السلطنة وتولية الخليفة المستعين بالله أبوالفضل العباسى السلطنة (٨١٥هـ/١٤١٢م)[3].

كما ظهر لغضب سلاطين المماليك على الأمراء سبب من الأسباب فى بعض الأحيان وحافزاً للسلطان للإيضاع من رتبة الأمير مهما بلغت منزلته عنده من صور ذلك ما حدث عندما تغير خاطر السلطان الملك الظاهر خشقدم(٨٦٥–٨٧٢هـ/١٤٦١–١٤٦٧م) على الأمير تنبك حاجب الحجاب بسبب عبد القاسم الكاشف الذى اشتهر بالصلاح، فأخرجه إلى دمياط بطالاً[4].

ثالثاً: الأمراض الاجتماعية:–

ولقد تعددت الأمراض الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ولذا قام الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور بتقسيمها الى نوعين:(النوع الأول) وهو الفساد الخلقي مثل الزنا[5] والشذوذ الجنسي وتعاطى الحشيش والرشوة[6]، أما(النوع الثانى) فيتمثل فى

---

(١) الظاهر برقوق (ت:٨٠١هـ/١٣٩٨م):(هو برقوق بن آنص بن عبدالله الجركسى العثمانى، ذكر الخواجا عثمان الذى أحضره من بلاد الجركس انه اشتراه منه يلبغا الكبير واسمه حينئذ ألطنبغا فسماه برقوقاً لنتؤ فى عينيه فكان في خدمة يلبغا من جملة المماليك الكتابية...وانفرد برقوق بتدبير أمور المملكة . فجلس على تخت الملك سنة ٧٨٤هـ ولقب بالملك الظاهر توفى سنة٨٠١هـ)(انظر ترجمته فى السخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ج١، صـ ٢١٢، ٢١٣؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ١٦).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٨١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٥٥– ١٥٦.

(٣) ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٢٨.

(٤) ابوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٧٤.

(٥) "مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه " انظر ابن القيم الجوزى : الداء والدواء، ط.١، دار المعرفة، المغرب، ١٩٩٧م، صـ١٥٠.

(٦) الرشوة: "ما يعطى؛ لإبطال حق، أو لإحقاق الباطل" انظر الجرجانى: التعريفات، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، صـ١١١.

المعتقدات الباطلة، مثل الاعتقاد فى قدرة المشايخ والأولياء، والتطير والتشاؤم، والحسد والتعاويذ، وأيام السعد والنحس، والاعتقاد فى الجن والسحر والتنجيم والكيمياء[١].

(أ) معاقرة الخمر [٢]والمخدرات:-

وأشارت المصادر أن الأجانب- وخاصة الأرمن- هى أكثر الفئات ترويجاً للخمور فى المجتمع المصرى حتى بلغ الأمر بهم أنهم باعوها جهاراً مثلما حدث فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث ذكر المقريزى أن الأرمن الذين تم استجلابهم أسرى من بلادهم قد ملئوا خزانة البنود[٣] فعمرها السلطان مساكن لهم فعمروها وعصروا الخمور بحيث أنهم عصروا فى سنة واحدة اثنين وثلاثين ألف جرة باعوها جهاراً"[٤].

ومن سلاطين المماليك الذين اشتهر عنهم العكوف على الشرب السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر(٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤١م) حيث قيل عنه انه عكف فى قصره على الشراب مع ندمائه من الأمراء، حتى لا يكاد الواحد منهم يفيق ساعة واحدة! لذا أقبل الأمير قوصون على خلعه من الحكم وأرسله إلى قوص[٥].

وإذا كان بعض سلاطين المماليك قد أباحوا شرب الخمر وصناعته، فقد كان من المماليك من منعوا صناعة الخمر، فقد ذكرت المصادر التاريخية محاولة بعض سلاطين المماليك الحد من انتشار الخمور فى مصر دون جدوى وقد يكون ذلك فى بعض الأحيان لإعتراض نائبه على ذلك لما يعود من هذه الخمور من مكاسب مالية من هؤلاء السلطان الصالح إسماعيل عندما حاول منع الأجانب الذين اعتادوا إحضار الخمور بكميات

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري فى مصر والشام، صـ ٢٢٦- ٢٢٧.

(٢) "الخمر حرام بإجماع الأمة، والخمر هو عصير العنب والدليل على تحريمه قوله تعالى إنما الخمر والميسر إلى قوله فاجتنبوه وهذا تهديد وفيه دلائل أحدها أنه جعله رجسا وهو العين المحرم وجعله من عمل الشيطان وعمل الشيطان حرام وأشار إلى العلة في قوله إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر..." انظر الخوارزمى: مفيد العلوم ومبيد الهموم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٩٩٨م، صـ ١٤٣؛ محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٢٩.

(٣) خزانة البنود: "هي الرايات والأعلام، وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير، ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك، وباب العيد بناها: الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم عليّ بن الحاكم بأمر الله، وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع، وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة، وكان مشتغلا بالأكل والشرب، والنزه وسماع الأغاني....واستثمرت سجنا للأمراء، والوزراء، والأعيان إلى أن زالت الدولة، فاتخذها ملوك بني أيوب أيضا سجنا، تعتقل فيه الأمراء والمماليك " انظر المقريزى: الخطط، ج٢، صـ٣١٦ -٣٢٠.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٣٩٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٥٧.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٣٥.

ضخمة، فعارضه جمال الكفاة النائب لما يتحصل من هذه الخمور فى السنة نحو الأربعين ألف دينار[١].

كما كان شرب الخمر وسماع الآلات والزمور إحدى العوامل التى كان من شأنها عزل السلطان فى العصر المملوكى وتولية آخر ومن هؤلاء السلاطين السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى (٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م)عزل بسبب انشغاله عن أمور المملكة بشرب الخمور وسماع الآلات والزمور" وكان عنده جوقة مغان نحو عشر جوار، يزفون بالطارات عند الصباح وعند المساء"[٢].

ومن جملة سلاطين العصر المملوكى الذين أقبلوا على معاقرة الشراب السلطان برقوق حتى يذكر انه حين عزم سنة٨٠٠هـ/١٣٩٨م معاقرة الشراب مع الأمراء والمماليك فأشير عليه بترك هذا وخوّف منه فعاد إلى قصره[٣].

ولقد اعتاد بعض السلاطين فى العصر المملوكى على معاقرة الشراب والخمر فى الأعياد كأعياد النصارى كيوم النيروز حيث يذكر أن السلطان فرج بن برقوق اعتاد فى ذلك اليوم من معاقرة الشراب والخمر مع ندمائه[٤].

واعتاد بعض سلاطين المماليك تناول الخمور حتى السكر الشديد من هؤلاء السلطان الملك الناصر فرج حيث ذكر ابن حجر انه كان يشق شوارع القاهرة، ولا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر[٥].

كما كانت معاقرة الشراب من الأمراض التى لقيت اعتناء بها فى طبقة الأمراء فى العصر المملوكى من ذلك ما دعا إليه الأمير سيف الدين على بن سابق الدين قزل المعروف بالمشد(ت:٦٥٦هـ/١٢٥٨م) من معاقرة الشراب وحضور مجلس شرابه وطربه،

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٩٩؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٥٦.

(٢) المقريزى: السلوك، ج ٤، صـ ٢٦٧؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٢٢٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ٨؛ لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ١٣٤ – ١٣٥.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤١٧.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٠٣.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٤٨٦؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٢٦-١٢٧.

واصفاً إياها بأنها تخفف الهموم(١).

وشارك أمراء العصر المملوكى السلاطين فى الشغف بتعاطى الخمور بل بلغ الأمر ببعضهم التجاهر بتعاطيها أمام الناس، ومن هؤلاء الأمير بهادر المنصورى انه كان مولعاً بشرب الخمر، بل كان مرتبه "منه فى كل يوم خمسين رطلاً(٢)"(٣).

وبلغ من إسراف الأمراء فى تناول الأنبذة أن ارتبطت أسماء بعض أنواعها بالمماليك مثل التمربغاوى(٤) نسبة إلى الأمير تمربغا، والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك وأسرفوا فى تقديمها فى أفراحهم وولائمهم(٥).

أما فى المناسبات المختلفة فإن السلاطين والأمراء فى عصر سلاطين المماليك قد يلجئون لتوفير كميات كبيرة من الخمور الى استخدام أسلوب القسوة والبطش بصناعها وخاصة طائفتي اليهود والنصارى حتى تجبى منهم الكميات اللازمة لهذه المناسبة أو الظرف الطارئ كما حدث فى سنة٨١٦هـ/١٤١٢م حيث " أخذ الخمر من النصارى بالمقارع"(٦).

كما نجد أن معاقرة الشراب لم تقتصر على السلاطين والأمراء فحسب بل شاركهم فى ذلك نماذج من الصوفية(٧) والفلاسفة ومن هؤلاء قطب الدين عبد الحق بن سبعين المرسى الصوفى وكان فيلسوفاً (ت:٦٦٩هـ/١٢٧١م) كان يشرب الراح(٨) يستر شيبته بخضاب رأسه ولحيته(٩)؛ فضلاً عن أن كثيراً من أهل البلاد يتظاهرون بشربه(١٠).

---

(١) لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، صـ ١١٤، ولمعرفة أنواع الشراب انظر: لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، صـ ١١٥.

(٢) الرطل: " معيار يوزن به، وهو مكيال أيضاً والمقصود به رطل بغداد أو الرطل العراقى، ويساوى عند الحنفية ٤٠٦,٢٥ جراماً، وعند الجمهور يساوى ١٢٨ درهم وأربعة أسباع " إبراهيم على السيد القلا: المرجع السابق، صـ ١٦٥– ١٦٦.

(٣) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٨٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٣٢.

(٤) التمربغاوى: صفته ان يعمل لكل رطل زبيب أربعون رطل ماء ويدفن فى زبل الخيل الى أن يشتد... " انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٤٨٧.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٣١.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٣٥٦؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٣٢.

(٧) " التصوف لغة مشتق من الفعل الماضى "تصوف" أى لبس الصوف، على وزن تقمص إذا لبس " القميص"، وهو اصطلاحاً منهج مذهبى نهجته الحياة الروحية الإسلامية منذ بواكر نشأتها فى صدر الإسلام، وبهذا المعنى كان التصوف مرآة للحياة الروحية التى يخضع فيها المسلم نفسه لأنواع من الرياضة والمجاهدة " انظر عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧م، ج١، صـ ٣٩.

(٨) الراح: " وهى الخمر " انظر الجوهرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٦٨.

(٩) لطفي أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ١١٦

(١٠) schefer: le voyage d'outremer de jean thenaud, paris, 1864, p.47

أما عن تعاطى **المخدرات** فمن خلال الشواهد التاريخية في عصر سلاطين المماليك نلاحظ أن تفشى الحشيش لم يقتصر على الطبقات الدنيا من الشعب، بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات، حتى تناولها العلماء والقضاة، حتى وصل الحد بهم أن أجاز بعضهم أكلها(١).

كما كان من طبقة القضاة فى عصر سلاطين المماليك من كان مولعاً أيضاً بتعاطى الأفيون ومن هؤلاء عبد الغنى بن عبدالله بن أبى بكر بن عبدالله الزبيدي المكى الشافعى (٨٢٦-٨٨٦هـ/١٤٢٣-١٤٨١م) حيث يذكر ابن حجر انه كان قد " تولع بشجر الأفيون وظهر عليه كثيراً "(٢).

(١) السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ٣٣٥؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٩- ٢٣٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٢٥١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٣٠.

(ب)الرشوة:–

قال الله تعالى:" وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨)[(١)]"

لاشك أن الرشوة أصبحت من السمات المميزة لعصر سلاطين المماليك، فقد أصبحت الطريق الوحيد الذى يصل الى الوظائف الهامة فى الدولة، بعد أن أصبحت الجدارة والكفاءة لا وجود لهما أمام طوفان الأموال المبذولة[(٢)].

وكما وجدت الرشوة فى القرن السابع الهجرى/الثالث الميلادي، شاعت أيضاً فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادي وبصفة خاصة زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن السلطان نفسه كان يتعاطى الرشوة فى صورة الهدايا[(٣)] حتى كان عبد الوهاب النشو ناظر الخاص (ت:٨٤٠هـ/١٣٤٠م) فى سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون يطرح الأصناف والبيع على التجار العامة "المثل أضعافه "– على حد قول اليوسفى.

ويبدو شيوع ذلك المرض أيضاً فى رجال الدولة حتى يذكر حين كبس والى القاهرة أيدكين الأزكسى[(٤)] بمكان يجتمع به الناس للهو والسمر، نجده يسلب من يمسكه منهم ثيابه ويبيعها، ويستأثر بثمنها لنفسه، كما حقق المخلص– أخو النشو–ثروته من خلال "الرشوة "[(٥)].

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٨.

(٢) أحمد عبدا لرازق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م، صـ ٤٣.

(٣) أحمد عبدا لرازق أحمد: المرجع السابق، صـ ٢٦، ٢٨.

(٤) أيدكين الأمير علاء الدين الأزكسى:" كان أولاً برمح يسوق فى البريد من جملة بريدية مصر، وكان محذلقاً، توجه الى البلاد الشرقية وعاد فى مهم، فراج عند السلطان الملك الناصر محمد، وحكى له انه مرت به أهوال عظيمة فى سفرته وتحيّل بحيل كثيرة حتى نجا وكان السلطان قد ولاه بعدما عزل الأمير ناصر الدين محمد بن المحسنى فى شعبان سنة أربع وثلاثين وسبع مائة، وكانت من غرائب السلطان عزل مثل هذا، وكان قد عُزل من ولاية القاهرة فى حادى عشرى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبع مائة، وتولاها بعده سيف الدين بلبان الحسامى البريدى..." (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٦٥٥)

(٥) اليوسفي: المصدر السابق، صـ ٧٨.

وفى أيام السلطان الملك الصالح إسماعيل شاعت الفوضى ودب الفساد فى جميع أركان الدولة بسبب تمكن الخدام والجوارى من السلطان وصار الناس يقصدونهم بالهدايا لقضاء حوائجهم(١).

كما بلغ من تغلغل هذا المرض– الرشوة– بمؤسسة الدولة المملوكية الحكومية أن أنشأ لها ديواناً خاصاً يدير شئونها يعرف بـ "ديوان البذل" فى دولة السلطان الصالح إسماعيل، حتى صار من له حاجة فيما يرومه من الوظائف ويأتى الى صاحب الديوان المذكور ويبذل له الأموال(٢).

ولا تقف الرشوة عند الحصول على مال أو عدم دفع مال مستحق وإنما يتعدى ذلك الى الرشوة للحصول على مركز أو عمل أو موقع؛ فقد يرشو الشخص ليحصل على وظيفة ما من الوظائف، ويترتب على هذا النوع من الرشوة أن تشغل الوظائف بأفراد ليسوا على المستوى المطلوب ولا يتمتعون بالكفاية الإنتاجية اللازمة فهم بين فاقد للقدرة أو فاقد للأمانة والإخلاص والقيم المطلوبة(٣).

ومن الأهمية بمكان أن نشير الى أن هذه الظاهرة تفشت فى أوصال رجال الدولة، وبصفة خاصة ولاية الوظائف الدينية بالبذل، الأمر الذى دفع المقريزى أن يرجع أول أسباب وقوع الأوبئة والأمراض وما لحق بها من فساد فى الحرث والنسل ولاسيما أوائل سنة ٨٠٨هـ /١٤٠٥م إلى ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزراء والقضاء ونيابة الإقليم ... إلخ "**بحيث لا يمكن التوصل الى شئ منها إلا بالمال الجزيل**"(٤) الى حد أن المصادر المعاصرة تعاملت مع هذه الظاهرة باعتبارها جزءاً من السياسة المالية للنظام الحاكم وموردًا من موارد الدولة الاقتصادية اتخذ صفة الذيوع

(١) أحمد عبدالرازق أحمد: المرأة فى مصر المملوكية، صـ ٢٨.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٩٢.

(٣) حمد عبد الرحمن الجنيدل: جريمة الرشوة وأثرها فى إعاقة التنمية الاقتصادية، مجلة مركز البحوث، العدد الثانى، أكتوبر ١٩٨٣م، صـ ١٧.

(٤) المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: كرم حلمى فرحات، ط.١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧م، صـ ١١٧.

والانتشار[١] فإن بعض المعممين وصل إلى منصب قضاء القضاة عن طريق الرشوة، وذلك أوقات الفساد والانحلال وكانت الرشوة تقدم إما عن طريق وسيط، أو ليد السلطان مباشرة[٢].

وأمدتنا المصادر التى دونت زمن سلاطين المماليك ببعض النصوص التى تثبت وجود الرشوة فى العصر الأول، فإنها قد امتلأت بالأمثلة التى تؤكد أن الرشوة قد اكتسبت صفة الشرعية والرسمية زمن الجراكسة ويكفينا هنا أن نسجل بعض منها[٣].

ما اتصف به السلطان الملك الظاهر برقوق من أخذ الرشوة على المناصب والولايات[٤] كسعي بدر الدين بن أبى البقاء لتولية القضاء فى ٧٨٤هـ/١٣٨٢م وبذل المال لذلك فأجيب واستقر فى هذا المنصب[٥].

ومن تلك الأمثلة فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق سعى علاء الدين أبى البقاء لتولى منصب قضاء الشافعية بالأموال، فوصل مرسوم السلطان الى نائب دمشق أن يقبض من ابن أبى البقاء مائتى ألف درهم، والتى اعتاد القضاة بدمشق ان يعطوها للسلطان لتولية المناصب[٦].

فإن رشوة المناصب وإبعاد من يستحق ووضع من لا يستحق إهدار للتنمية وإعطاء فرصة غير مستحسنة بل غير مطلوبة فهو تغيير كامل التنمية وهدم لها، فإن وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب هو الوضع الصحيح، وهو أهم عوامل التنمية[٧].

الواقع انه من الصعب أن نجزم أن سلاطين المماليك قد وضعوا أسعاراً محددة لكل وظيفة، لسبب بسيط هو تنوع المبالغ التى بذلت على الوظيفة الواحدة وتفاوتها من شخص لآخر، ولكن من الواضح أن هذا الموضوع ترك غالباً لتقدير السلطان حسب وجهة نظره فى الشخص المتقدم للحصول على وظيفة بعينها[٨].

---

(١) علاء طه رزق: دراسات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط.١،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٨م، صـ٧٤.

(٢) حسن أحمد التطاوى: المرجع السابق، صـ ٥٠.

(٣) أحمد عبدا لرازق أحمد: المرجع السابق، صـ ٣١.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤٤٢.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٢٥٤.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٢٥٤.

(٧) حمد عبدالرحمن الجنيدل: المرجع السابق، صـ ١٧.

(٨) أحمد عبدا لرازق أحمد: المرجع السابق، صـ ١٣١.

(جـ) الزنا والأمراض الجنسية:-

قال الله تعالى " وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا(٣٢)[١]"

انتشرت جريمة الزنا، بين أفراد الطبقة الارستقراطية المملوكية وإن وجدت بمصر قبل ذلك، وساعدت البيئة على انتشارها، بما درجوا عليه من الانحلال، إذ تباينت فى الفاحشة أساليبهم، وبلغت من العنف والخطف والاغتصاب، باعتبارهم الفسق والمجون فى حياتهم[٢].

ولقد حاول العديد من السلاطين فى العصر المملوكى من الحد من البغاء فى البلاد نذكر منها محاولة السلطان الظاهر بيبرس حيث تتبع مصادره للقضاء عليه؛ كما تتبع البغايا وألزمهن بالزواج وألا يزيد مهرهن عن أربعمائة درهم تعجل منها مائتان وتؤخر مائتان لتيسير أمور زواجهن[٣].

ومن الضرائب التى كانت الدولة والتى كانت بمثابة إصباغ لهذه الأمراض بصبغة رسمية ضريبة تسمى بحقوق القينات ويعرفها المقريزى: " وهو ما يأخذه مهتار[٤] الطشتخاناه[٥] من البغايا ويجمعه من المنكرات والفواحش من أوباش مصر، وكانت الضريبة التى كانت تجبى من الجارية والعبد عند نزولهم فى الخانات الأمر الذى استدعى من الملك الناصر محمد بن قلاوون من إبطال مثل هذه الضرائب من الدولة[٦].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٣٢).

(٢) إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم: الأمراض الإجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٨٨م، صـ٩٩.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ١٠٠؛ السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧م، ج٢، صـ ٩٦.

٤) المهتار:" لفظ فارسى، وهو لقب يقع على كبير كل طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشراب خاناه ومهتار الطشت خاناه، ومهتار الركاب خاناه، أصل اللفظ:(مِهِ) بالفارسية وتعنى الكبير، و(تار) بمعنى أفعل التفضيل، فيكون المعنى الأكبر، والمهتارية نسبة للمهتار.." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٤٦.

٥) الطشتخاناه:" فهى التى بها الملبوس الشريفة والأقمشة، وتغسل فيها الثياب، وبها آلات كثيرة يطول شرح وصفها، و لها مهتار وعدّة طشتداريّة ورختوانيّة ... " انظر ابن شاهين الظاهرى: المصدر السابق، صـ ١٠٥.

(٦) المقريزى: الخطط، ج٢، صـ ٥٠٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٢٢٧.

وهكذا انتشر الداء بين أهل الدولة، وساهموا فى تمكنه من المجتمع بحمايتهم لتلك الجريمة، إذ كانت السمة الغالبة فى سلوكياتهم فى حياتهم هى السير على نهج الرذيلة، كل بطريقته وبأسلوبه فاتسمت تصرفاتهم فى ميولهم إلى النساء بالهزلية والتخبط، ولم يكن السلطان يتحرج من أن يعبر إلى مجتمع نساء الأمراء وقضاء الوقت فى هتك الأعراض والتسامر والرقص معهن، على صوت الأنغام، ويدعوهن بنفسه إلى مأدبته فى إحدى المناسبات ثم يفسق بهن(١).

كما شغف السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر بالجوارى السود وأقبل على النساء والمطربين حتى كان إذا ركب الى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م صحب أمّه مائتى امرأة الأكاديش بثياب الأطلس الملون وعلى رءوسهن الطراطير الجلد البرغلى المرصعة بالجواهر واللآلئ وبين أيديهن الخدم من القلعة الى السرحة بل والأدهى من ذلك تركب حظاياه الخيول العربية ويتسابقن ويلعبن الكرة، ويقمن بما شابه ذلك فى المواسم والأعياد وأوقات النزهة(٢).

ومن السلاطين الذين أصيبوا بهذا المرض السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م) حيث يذكر أبوالمحاسن عنه "أنه يفسق فى حريم الناس"(٣).

وابتلى المماليك بالشهوات، وفشا بينهم الشذوذ الجنسى، فابتلوا باللواط فى الشباب وعشق الصبية واقترن تاريخهم الاجتماعي بتفشي ذلك الداء فيهم سلاطين كانوا أم أمراء، بل وفى عائلات بأكملها من كبار موظفى الدولة لاستيلاء شهوة المردان الملاح على قلوبهم، ولا يعدو أن يكون مرجع انتشاره بينهم إلى حديث نفوسهم المريضة، ونظم حياتهم(٤).

---

(١) إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم: المرجع السابق، صـ١٠٢– ١٠٣.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٥؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، صـ ٩٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٣١؛ عبدالله كامل موسى: المرجع السابق، صـ ١٦٧.

(٣) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٣٦.

(٤) إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم: المرجع السابق، صـ ١٢٨.

ويعد الشذوذ الجنسى من أكثر الأمراض الاجتماعية شيوعا فى مجتمع سلاطين العصر المملوكى وقد أرجع أبوالمحاسن بداية ظهور هذا المرض فى الشرق الإسلامى منذ دخول الخراسانيين مع أبى مسلم الخراسانى إلى العراق سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م[١].

وفشا فى أهل الدولة محبة الذكران[٢](اللواط)، ولقد بلغ من تغلغل هذا المرض فى المجتمع الى أن تغمدت النساء ارتداء والتشبه بالذكران ليستملن قلوب الرجال[٣].

ويبدو أن معظم سلاطين المماليك كان لديهم ميل لمحبة الذكران والذى يتضح من حد قول أبو المحاسن عن قوله عن فترة حكم السلطان حسن الأولى (٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م) والثانية(٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م) حيث عرفه بحبه للنساء ونفى عنه الشذوذ بقوله:" لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله"[٤].

وعلى صعيد آخر فقد ساهم كثير من سلاطين المماليك فى حياة الفسق والمجون فمنهم – مثلاً- السلطان برقوق الذى وصفته المصادر بالخير والعلم ومحبة الفقهاء لم يتحرج من ارتكاب أعظم فاحشة وهى اللواط مع مماليكه الحسان[٥]، ووصف الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور هؤلاء السلاطين بازدواج الشخصية، حيث يظهر أحدهم الورع والتقوى أمام الناس، ثم فى حياتهم الخاصة لم يتحرجوا من ارتكاب اشد أنواع المنكر كالزنا واللواط[٦].

وأشارت المصادر إلى أن هذا المرض- الشذوذ الجنسى- كما انه انتشر وشاع عند السلاطين، فانه أيضا أصيب به عددا من أبناء السلاطين بل وعلى مرأى ومسمع من آبائهم السلاطين حتى بلغ الحد الى تلبية السلطان-الأب- الى حاجة ابنه فى هذا الأمر حتى يرضيه الأمر الذى حدث مع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث شغف

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٩٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٨.

(٢) محبة الذكران: ثبت عنه-صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «لعن الله من عمل قوم لوط، لعن الله من عمل قوم لوط، لعن الله من عمل قوم لوط» انظر ابن القيم: المصدر السابق، صـ ١٧٠.

(٣) المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ١٨٨؛ سعيد عبدالفتاح: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٨.

(٤) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٣١٥؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٨.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٢٣١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٦.

(٦) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٦.

ابنه الناصر أحمد بغلام يدعى "عثمان"، فحبس السلطان هذا الشاب، فهدده الناصر أحمد بالانتحار وامتنع عن الأكل والشرب حتى يأتيه فأفرج عنه[١].

كما أشار المقريزى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون قد استقدم ابنه الأمير أحمد من الكرك وكان سبب استدعائه من الكرك " للعبه وشغفه ببعض شباب أهل الكرك وإسرافه فى العطاء لواحد منهم اسمه الشهيب وكان جميل الصورة" وقد استطرد المقريزى كلامه بقوله: وقد هام به أمير أحمد غراماً وتهتك فيه[٢].

ويبدو أن ذلك المرض–الشذوذ الجنسى– قد أصاب بعض طبقة القضاة فى عصر سلاطين المماليك ففى عهد السلطان المنصور لاجين أشيع سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م حب القاضى بهاء الدين ابن الحلى[٣] بعض المماليك الخاصبكية فترصده النائب منكوتمر[٤]حتى هجم عليه وهو عنده فأخذوه والمملوك "وقبض على حواشيه وأحيط "– على حد قول المقريزى– وصرف نتيجة ذلك عن نظر الجيش[٥] وأخذ خطه ألف ألف درهم[٦].

ومن شواهد شيوع تلك الظاهرة– ظاهرة الإغتلام– بين كبار رجال الدولة فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون اعتراف احد الغلمان ويدعى "عمير" إثر القبض عليه انه " كان يعاشر أولاد القضاة وبعض القبط وأرباب السعادات " مما حدا بالسلطان من غضبه عليه بنفى ذلك الغلام إلى غزة[٧].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٣٤٨– ٣٤٩؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٢٢٨.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٥٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٨.

(٣) ابن الحلى (ت:٧١٠هـ/١٣١٠م):" القاضى الصدر الكبير الرئيس بهاء الدين ابن الحلى ناظر الجيوش بالديار المصرية كان من أعيان المصريين وصدورهم"(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ٦٥٧).

(٤) منكوتمر الحسامى (ت:٦٩٨هـ/١٢٩٩م) :" الأمير سيف الدين مملوك السلطان حسام الدين لاجين كان عند مخدومه جزءاً لا يتجزأ فسلك فى النيابة ما لا يجب، وترك كل أمير من الأكابر وقلبه من الخوف يجب ويجّسر أستاذه على إمساك جماعة، وهون عليه أمانيه وأطماعه، فتغشت الخواطر من الأمراء الأكابر، وتوحشوا بعد الأنس أيقنوا أن السجون لهم مقابر، فقتلوا السلطان، ومعه نائبه .سنة ثمان وتسعين وست مئة " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٣٠٢ ؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٥، صـ ٤٥٥ –٤٥٦).

(٥) وظيفة نظر الجيش: " وموضوعها النظر فى أمر الإقطاعات: ما يخرج منها وما يدخل إليها وتحرير جزئياتها" محمد حمزة اسماعيل: المرجع السابق، صـ ٣٧.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٨٦ .

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٩، صـ ١١٣؛ اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٧٨.

ولقد بلغ من شأن هذا المرض– الشذوذ الجنسى– أن صار سبباً فى إثارة المخاصمات والمشاحنات بين أمراء المماليك مما يعكس لنا مدى تفشى هذا المرض فى طبقة الأمراء ومن هذه المخاصمات– مثلاً – ما حدث فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين علم الأمير طيبغا القاسمى– وكان له مملوك جميل الصورة– وان هذا المملوك شغف به ولى الدولة وغيره من أخوة عبد الوهاب النشو، فهجم عليهم وهو معهم، الأمر الذى جعل النشو يشكو للسلطان تهمة تعشق طيبغا لمملوكه وهجم وهو سكران على بيته الأمر الذى انتهى بالسلطان أن أمر بنفى طيبغا ومملوكه الى الشام[١].

لم يقتصر الأمر على أبناء سلاطين المماليك وأمراء العصر المملوكى وبعض القضاة فى انتشار الشذوذ الجنسى بل انتشر بين رجال القلم إذ أشار ابن حجر العسقلانى أن بعض الكتاب والفقراء (الصوفية) بل القضاة شغفوا بالغلمان ومعاشرة الأحداث[٢].

(د) المعتقدات الباطلة:– التنجيم

وعمل بعض اليهود فى مهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة ، فقد ذكر ابن دقماق أن يهودياً كان يمتلك حانوتاً فى القاهرة يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد على الأربعين سنة حتى اشتهر المكان باسمه[٣]، كما أن الولع بالنجوم وأرباب التقاويم جعل السلطان المعز أيبك (٦٤٨–٦٥٥هـ/ ١٢٥٠–١٢٥٧م) يخاف على نفسه من غائلة شجر الدر بمجرد أن اخبره احد المنجمين أن " نهايته ستكون على يد إمراة " مما كان له اثر بالغ فى علاقته بها[٤].

وتعددت صور المعتقدات الباطلة في عصر سلاطين المماليك، أصيب ببعضها السلاطين والأمراء ومنها التنجيم الذى عُرف فى عصر سلاطين المماليك عدة طرق للتنجيم منها مراقبة النجوم وأبراجها، وفتح المندل، وضرب الرمل –وغير ذلك– ومن بين هؤلاء السلاطين السلطان الظاهر بيبرس حيث يقول أبوالمحاسن عنه "كان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم"[٥] وقد دفعه ذلك الاعتقاد انه حين أخبر انه يموت

---

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١١٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٢٨–٢٢٩.

(٢) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: على محمد عمر، ط.١، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، صـ ٢٣٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٢٤٧. ترجمة أحمد بن على بن عبادة.

(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ٩٦.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ٢٦؛ نفسه: الظاهر بيبرس، صـ٣٢.

(٥) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ١٧٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٤١.

بدمشق بالسم ملك فتأثر لذلك وقصد أن يصرف التأويل عنه، فدس السّم للملك القاهر بهاء الدين عبدالملك ابن السلطان الملك المعظم عيسى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[١].

وبلغ من ولع بعض سلاطين المماليك بالتنجيم أن منهم لا يخرج فى أسفاره إلا بعد ان يأخذ له منجمه الطالع حيث قص عن السلطان برقوق انه حرص على ألا يخرج الى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له منجمه الطالع بل اعتاد ابنه السلطان الملك الناصر فرج على ألا يتعدى فى أسفاره الوقت الذى عينه له المنجم[٢].

وبلغ الاعتقاد بالنجوم وأرباب التقاويم مبلغه حيث يحمل بعض السلاطين فى العصر المملوكى أحياناً على إظهار العدل وإبطال المكوس الجائرة، ومن بين هؤلاء السلاطين السلطان الأشرف قانصوه الغورى(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) الذى أخذ فى أسباب إظهار العدل بإبطال بعض المظالم فى سنة٩١٩هـ/١٥١٣م وكان ذلك جراء رؤيته فى المنام " بأن النجوم قد تساقطت من السماء الى الأرض، ثم بعد ذلك سقط القمر" فأوّل له أرباب التقاويم ذلك المنام أن النجوم العسكر، والقمر هو الملك، فتزايد توّهم السلطان لسماع ذلك الخبر[٣].

وكذا أصيب السلطان الأشرف قانصوه الغورى بهذا المرض إذ أدى به الاعتقاد بأرباب التقاويم الى عاقبة الأمور حين قدم له سيباى– نائب الشام– نصيحة وكشف له خيانة خاير بك إلا انه لم يكن الغورى يعمل حساباً إلا لسيباى المذكور، وذلك لقيام منجماً حاذقاً أخبره أن الذى سيخلفه فى الحكم هو من أول اسمه "حرف السين"، مما جعله يتخوف من سيباى نائب الشام ولا يثق فى نصحه وأخطأ فى تقديره واعتقد أن الخيانة من سيباى– نائب الشام –؛ وأما خاير بك فلم يحسب له حسابه " فجاءته الخيانة من حيث لا يحتسب"[٤].

وشارك الامراء السلاطين فى عصر سلاطين المماليك فى الاعتقاد فى التنجيم حيث كانوا يلجئون الى المنجمين ليطلعوا على النجوم أو يضربوا الرمل من سيتولى السلطنة

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٠٤؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ١٧٧؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ١٨٠؛ العمرى: المصدر السابق، ج٢٧، صـ ٤٢٣؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٣٨٣.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ١٣٠؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٤١.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٠٥ ، ٣٠٤.

(٤) ابن زنبل: آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ ٨٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ١٩٦.

بعد السلطان القائم بالأمر، من هؤلاء الأمير سيف الدين قطز الذى أمر– حين تسلطن استاذه الملك المعز المنجم أن يضرب الرمل، ليرى من يتسلطن بعد استاذه وذلك رغم شدة الوازع الدينى لدى المماليك الأوائل إلا أن منهم كان يعتقد فى مثل هذه المعتقدات الباطلة[١].

(هـ) السحر والالتجاء إليه:–

ومن الأمراض الاجتماعية التى سادت العصر المملوكى الاعتقاد فى السحر والالتجاء إليه إذ لم يكن السلاطين بأقل اعتقاداً فى السحر والشعوذة ومن مظاهر تفشى ذاك المرض لدى سلاطين المماليك أن قام أحدهم بتطليق إحدى زوجاته ظناً منه أنها قتلت خوند الأولى بالسحر[٢].

وكان أعظم ميادينه نساء السلاطين، حيث تمكنت الغيرة فى قلوبهن من بعض وأخذت كل منهن تسعى لتكيد لغيرها وتظهر عليها، ومن مظاهر هذا المرض انه إذا مات ابن السلطان اتهمت أمه إحدى ضرائرها بأنها سحرت له[٣].

ومن مظاهر الاعتقاد بالسحر لدى الحريم السلطانى انه إذا مرض السلطان تتهم أمه إحدى زوجاته بأنها سحرته فتوقع الحوطة على موجودها ليعترفن وكذلك تتهم أم السلطان إحدى ضرائرها بأنها سحرت ابنها إذا مرض كما فعلت أم السلطان الصالح إسماعيل حيث اتهمت أمه أم الأشرف كجك (٧٤٢–٧٤٣هـ/١٣٤١–١٣٤٢م)خوند أردو[٤] بأنها سحرته، وهجمت عليها، وأوقعت الحوطة على موجودها، وضربت عدة من جواريها ليعترفن عليها[٥].

---

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٨٥– ٨٦؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٢٤١.

(٢) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ١٧٠.

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٢٤٢.

(٤) أردو:" أردو أم الأشرف كجك الططرية قدمت مع أختها طولو فأعطى الناصر أختها طولو ليلبغا اليحياوى وعظمت منزلتها عند السلطان حتى أعطاها لما ولدت عصبة جوهر قومت بخمسين ألف دينار ولما خلع ابنها من السلطنة أحيط بموجود أردو وصودرت هى وجواريها "(انظر ترجمتها فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤١٢).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٨١؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٨١؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٢٤٢.

الفصل الثاني

أثر الأمراض على الحياة السياسية

- ❖ التظاهر والتحايل بالأمراض.
- ❖ التولية والعزل.
- ❖ القتل بالسم.
- ❖ الدسائس والمؤامرات.
- ❖ فى العمليات العسكرية.
- ❖ الفتن.
- ❖ مصادرة الأموال.
- ❖ آثار الأمراض على النواحى السياسية الأخرى.
- ❖ غرائب أمراض الأمراء ورجال الدولة.

الفصل الثاني

أثر الأمراض على الحياة السياسية

ولم تكن الاضطرابات التى عرضت لها البلاد فى عصر سلاطين المماليك منشؤها التنافس بين كبار الامراء حول منصب السلطنة أو غضب المماليك بسبب سوء التوزيع وغيرها من الأسباب السياسية الأخرى فحسب، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيراً ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات فى البلاد ذلك أن عدم التحكم فى زيادة النيل ونقصه ترتب عليه انتشار المجاعات والأوبئة عند انخفاض النيل، مما يؤدى الى فساد الزراعة وقلة المحاصيل، وتوقف النشاط المعماري[١]، وتنتشر على الفور المجاعات والأوبئة، ومن تلك العوامل أيضاً زحف الصحراء على الأراضى الزراعية عاماً بعد عام، وقيام العواصف الرملية وحمل الرياح للأتربة والأوبئة[٢].

أولاً: التظاهر والتحايل بالأمراض:-

فبالنسبة للسلاطين فقد اتخذوا فى هذا العصر من التظاهر بالأمراض وسيلة لمتابعة ومباشرة الحكم كما ظهر ذلك حين خطر ببال السلطان الظاهر بيبرس وهو بالشام التوجه الى الديار المصرية خفية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦م فكتم ذلك وأظهر ألم فى جسمه، واستدعى الحكماء الى الخيمة، ويصف المقريزى حاله بقوله:" وأصبح الأمراء فدخلوا عليه وشاهدوه مجتمعا على هيئة متألم" كان غرضه بهذا متابعة أحوال ولده الملك السعيد وسير الحياة السياسية فى غيابه[٣].

واتخذ التظاهر بالمرض فى الدولة المملوكية صورة أخرى حين لجأ إليه كبار رجال الدولة لإخفاء موت السلطان وذلك "حفظاً للمهابة" الدولة وحتى لا تضطرب الأحوال بالبلاد حيال موت السلطان وحتى يتسنى الوقت لتسليم ابن السلطان مقاليد الحكم، كما حدث حين قام الأمير بدر الدين الخازندار سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م حين مات السلطان

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ ٣٣٤- ٣٣٥.

(٢) نظير حسان سعداوى:صور ومظالم من عصر سلاطين المماليك،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،١٩٦٦م، صـ ٩٨.

(٣)المقريزى: السلوك ، ج٢، صـ ٥٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ١٤٥؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٤٤- ٤٦؛ اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٢٦؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس. ريتشارد، صـ١١٩ -١٢٠؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ١٦١وقد ذكره النويرى فى سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م.

الظاهر بيبرس بدمشق كتم وفاة السلطان وأشاع انه مريض حتى لا تضطرب الأمور على ولده الملك السعيد، ورتب الأطباء على العادة، وأخذ العساكر والخزائن، ومعه محفة محمولاً موهماً الناس بوجود السلطان فيها مريض وخرج من دمشق إلى الديار المصرية بالعساكر والخزائن وصعد الى القلعة وسلمها للملك السعيد بن السلطان الملك الظاهر بيبرس مظهراً وفاة السلطان الملك الظاهر بيبرس[١].

وفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م اتخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من التظاهر بالمرض حيلة للرجوع إلى الديار المصرية، وقد قارب عقبة أيله [٢] قاصدا حج بيت الله الحرام، وكان الذى حمله على ذلك ما بلغه من تآمر الأمير بكتمر الساقى[٣] مع عدة من المماليك السلطانية للفتك به، حينها وجد فى التحايل بالمرض وسيلة يتخذها ليبرر رجوعه الى الديار المصرية على هذا الوجه، فوافقه الأمراء جميعهم إلا بكتمر الساقى المذكور الذى شنع رجوعه، عندئذ اضطر السلطان على مواصلة السير وقد احترز على نفسه غاية الاحتراز، بإخفاء مبيته بانتقاله بالليل مراراً، ولا زال على ذلك حتى وصل الى ينبع[٤].

وقد كان من أهداف السلاطين العصر المماليكى من التظاهر بالمرض فى بعض الأحيان القبض على عدد من كبار رجال الدولة الذين يخشى شكيمتهم فى الدولة وتحكمهم فى السلطنة عند قيامهم بعيادته فيسهل عليه إلقاء القبض عليهم ويتخلص بالتالى من سطوتهم وهيمنتهم على أمور الحكم والسلطنة– مثال ذلك– سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م حين تظاهر السلطان الملك حسن بن محمد بن قلاوون بالمرض، ولازم الدور

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس.ريتشارد، صـ ١٦١.

(٢) عقبة أيله:" أيله، بفتح أوله على وزن فعلة، مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام، وأيله، أول حد الحجاز...."(انظر ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: أنور محمود زناتى، ط.١، دار مكتبة الثقافة الاسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨م، صـ ٩٧) .

(٣) بكتمر الساقى(ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م):"هو الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله الركنى الساقى الناصرى كان أصل بكتمر من مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير توفى بعد ابنه احمد بثلاثة أيام فى عاشر المحرم سنة ٧٣٣هـ واتهم الملك الناصر انه اغتالهما بالسم" (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن :النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٣٠٠– ٣٠١)

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٦٣ ينبع:" حصن وقرية غناء على يمين رضوى لمن كان منحدرا من أهل المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى"(انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٥، صـ ٤٥٠).

السلطانية بالقلعة للعلاج أياماً حتى يتسنى له القبض على الأمير طاز[١]، والأميران مغلطاى[٢]، ومنكلى بغا[٣] إلا ان حيلته باءت الفشل بعد ان علما انه أراد بإظهار مرضه القبض عليهم عند قيامهم بعيادته فركبوا بمماليكهم واعلموه بما أضمره من خلال تحايله بمرضه، فأرسل إليهم مماليكه ليترضاهم فما كان منهم إلا ان القوا القبض على مماليكه فشق ذلك على نفس السلطان وخلع نفسه سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م[٤].

واتخذ احد السلاطين فى العصر المماليكى من التحايل بالضعف وسيلة لإمساك أحد الأمراء الكبار الذى كان يخشى شوكته فى الدولة بنفسه إمساكا باليد بصورة مباشرة كما فعل السلطان الملك الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م حين تظاهر بالضعف، واتكأ على الأمير نوروز(ت:٨١٧هـ/١٤١٤م) متظاهراً بعدم استطاعته الوقوف على قدميه، ومشى متكئاً عليه من الإسطبل حتى باب القصر، فأدار السلطان فجأة يده حول عنق نوروز حتى استطاع خاصكيته القبض عليه وحبسه وكان مسك السلطان الظاهر برقوق للأمير نوروز لعدة أمور بدرت منه منها ممالأته لعلى باى الخارج عن طاعة السلطان بإغلاقه باب السلسلة فى وجهه يوم وقعة على باى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م[٥].

أما بالنسبة للأمراء فكما اتخذ السلاطين خلال العصر المماليكى من التظاهر بالأمراض وسيلة لتحقيق أهدافهم السياسية اتخذها أيضا الأمراء كوسيلة للضغط على السلطان لتحقيق مطالبهم المختلفة ولاسيما اذا كان للأمير منزلة عالية لدى السلطان، ففى

---

(١) الأمير طاز(ت:٧٦٣هـ/١٣٦٢م)" هو طاز بن عبدالله الناصرى، أحد أعيان الأمراء بالديار المصرية، ثم نائب حلب، أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون..."(انظر ترجمته فى ابن العراقى: الذيل على العبر فى خبر من غبر، تحقيق: صالح مهدى عباس، ط.١، بيروت، ١٩٨٩م، صـ ١٠٤) .

(٢) مغلطاى(ت:٧٥٥هـ/١٣٥٤م):"هو الأمير سيف الدين مغلطاى بن عبدالله الناصرى مات بطالاً فى عاشر شهر رمضان، وكان من أعيان ممالك الملك الناصر آخورية الكبرى ، ثم أمسك وحبس بعد أمور وقعت له ثم أطلق إلى الشام بطالاً فدام إلى ان مات رحمه الله سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٣٠٠).

(٣) منكلى بغا(ت:٧٧٤هـ/١٣٧٣م):" هو منكلى بغا بن عبد الله الشمسى أتابك العساكر بعد قتل اسندمر، وكان قبل ذلك نائب السلطنة بمصر......" (انظر ترجمته فى : ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٥٤– ٥٥).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٣٧ – ١٣٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٢٣٠ .

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ٩٢.

سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م أظهر الأمير عز الدين أيبك الأفرم[١] المرض ولاكتمال تحايله بالمرض طلب من طبيبه دواءاً يظهر للرائي انه مريضاً حقا ولاسيما عندما علم بقدوم السلطان الملك المنصور قلاوون لعيادته حينئذ تألم له مستظهراً المرض وكان غرضه من ذلك قضاء حوائجه من السلطان والتى منها ان يعافيه عن النيابة فقام السلطان بتلبية بعض مطالبه وأمر باستقرار الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى عوضاً عنه فى نيابة السلطنة[٢].

ويأتى التظاهر بالمرض كمرحلة أخيرة لمؤامرة أنسجها أحد الأمراء للوثوب على عرش السلطنة، وهو ما فعله الأمير زين الدين كتبغا سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م نائب السلطنة فى سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث شرع فى مدة نيابته يمهد لنفسه تولية السلطنة وتقرير الأحوال واستمالة الأمراء، ثم انقطع فى دار النيابة " وادّعى الضعف" وكان هذا الانقطاع " لتقرير أمر السلطنة" لنفسه[٣] فركب إليه السلطان الناصر محمد لعيادته،فاجتمع كتبغا بالأمراء بدار النيابة فى اليوم الثانى، وأقيم فى السلطنة وتلقب بالملك العادل زين الدين كتبغا[٤].

واتخذ بعض أمراء المماليك من التظاهر بالأمراض وسيلة حتى يتمكنوا يتخلصوا بها من إلقاء القبض عليهم لسبب من الأسباب وتجنب المكايد التى تحيك به، مثلما حدث فى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م حين استحث نائب السلطنة فى عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين منكوتمرالأمير بلبان الطباخى[٥] نائب حلب فى القبض على الأمراء فألح الحسامية على نائب حلب بالقبض على الأمراء عند حضورهم السماط يوم الموكب فحضر الأمراء

(١) الأمير عز الدين أيبك الأفرم (٦٩٥هـ/١٢٩٦م):" هو الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الأفرم الكبير أمير جاندار الملك الظاهر (بيبرس) والملك السعيد والملك المنصور قلاوون .. مات بالقاهرة، فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأول سنة ٦٩٥هـ ...." (انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٥٢، صـ ٢٤٩).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٢٣.

(٣) النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٢٨٢.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٥٩؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٢٨٢.

(٥) الطباخى (ت:٧٠٠هـ/١٣٠١م):" هو الأمير سيف الدين بلبان بن عبدالله الطباخى المنصورى أنشأه أستاذه الملك المنصور قلاوون، وجعله من جملة أمراء الديار المصرية، ثم نقله الى نيابة طرابلس، فباشر نيابتها إلى ان نقل الى نيابة حلب عوضاً عن الأمير قرا سنقر فى سنة إحدى وتسعين وستمائة وطالت مدته... توفى بالرملة بطريق دمشق فى سنة سبعمائة عن نيف وأربعين سنة..." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٤٢٢– ٤٢٣).

إلا بكتمر السلاح دار[1] الذى تظاهر فى عدم حضوره وتحايل بالمرض، لتفادى القبض عليه بعدما علم بما همّ عليه الحسامية من القبض على الأمراء، مما اضطر الحسامية تأجيل مؤامرتهم للقبض على الأمراء حتى يحضر الأمراء المتقاعسين عن الحضور الى الموكب الثانى، فتحجج الأمير بكتمر السلاح دار مرة أخرى وتحايل بمرض أصابه، فأرسلوا إليه الحاجب للمرة الثالثة يستحثه لضرورة الحضور بدار النيابة ليلاً لمناقشة بعض الأمور إلا انه اعتذر بألم أصاب قدمه، وقد اتفق الأمير بكتمر فى ذات الوقت مع عدد من الأمراء فى ليلتهم على ضرورة السفر الى حمص للعبور منها الى بلاد غازان فراراً من القبض عليهم، وبذلك نجح الأمير بكتمر فى الهروب من محاولة القبض عليه[2].

ومن الأمراء الذين اتخذوا من التظاهر بالمرض وسيلة للضغط على السلاطين فى العصر المماليكى لتلبية مطالبهم والإذعان لرأيهم الأمير منكوتمر ففى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عزم منكوتمر نائب السلطنة على تولية الأمير طغجى[3] تولية طرابلس قاصداً إبعاده عن الديار المصرية وعن زملائه تفادياً لمكرهم الذين اجتمعوا بالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين وطلبوا منه إبقاء الأمير طغجى وعدم تسفيره فأذعن السلطان لمطلبهم ،وما ان علم منكوتمر قبول السلطان الشفاعة فى أمر طغجى، امتنع عن الحضور الى مجلس حكم السلطان متظاهراً بالمرض احتجاجاً على ما فعله السلطان، ولقد فطن السلطان لاجين ان منكوتمر ليس به مرض وان انقطاعه كان لأمر طغجى، فأرسل إليه أمير المجلس آنذاك سيف الدين سلار المعروف بالحاج سلار، لمعرفة أسباب انقطاعه فى بيته ويسترضيه فأعلم منكوتمر الحاج سلار سبب انقطاعه بخوفه من عدة أمراء وعدد له أسمائهم وتربصهم لقتله وقتل السلطان – حتى ان منكوتمر ذكر للحاج سلار انه من بينهم – وعدم إذعان السلطان لرأيه فما كان من الحاج سلار إلا ان بلغ رسالته للسلطان، واجتمع بعد ذلك بالأمراء الذين ذكرهم منكوتمر له ليأخذوا

(١) بكتمر السلاح دار(ت:٧٠٣هـ/١٣٠٤م):" هو بكتمر السلاح دار الظاهرى ثم المنصورى أحد الأمراء الكبار بالقاهرة ومات بكتمر سنة ٧٠٣هـ "(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج ٢، صـ ٣٧٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ١٧، ١٨؛ ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٤٠٢) .

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٩٧، ٢٩٩ ؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٩٦.

(٣) طغجى(ت:٦٩٨هـ/١٢٩٨م)" هو الأمير سيف الدين طغجى بن عبد الله كان مملوك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وكان خصيصاً عنده الى الغاية قتل سنة ٦٩٨هـ /١٢٩٨م "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ١٨٣ ؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٦، صـ ٤١٤).

حذرهم، ويبادروا بقتل منكوتمر والسلطان قبل ان يبادر هو بالقضاء عليهم والتخلص منهم، وقد صدق ظن منكوتمر إذ كان قتل السلطان على يد طغجى هذا[١].

وفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م اتخذ الأمير اسندمر[٢] من المرض ساتراً يتظاهر به، لمنع الناس من الدخول عليه، حتى يتسنى له الركوب ليلاً بمماليكه الى حلب حين استدعاه قرا سنقر[٣] نائب حلب هو والأمير قبجق[٤] ليجتمعوا جميعاً فى بيت قرا سنقر والتشاور حول أمر الخروج عن طاعة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير(٧٠٩هـ/١٣٠٩م) واستدعاء الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وإعادته الى السلطنة[٥].

وكان من بين الأمراء من يقوم بملازمة بيته متخذا من التظاهر بالمرض والتحايل به وسيله لتفادى الفتك به وقتله من قِبل المتآمرين على قتله مثلما فعل الأمير سلاّر الذى انقطع بداره ولم يحضر مجلس السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وأخذ يحترس على نفسه وتظاهر بأنه لا يستطيع الحركة من موضعه لمرضٍ أصابه حين علم بإغراء البرجية[٦] للسلطان بيبرس الجاشنكير على قتله فوجد من التظاهر بالمرض سبباً لملازمة داره ليفدى نفسه من القتل[٧].

---

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٨، صـ ٣٧٧؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤٢٤ – ٤٢٥) .

(٢) اسندمر الكرجى(ت:٧١١هـ/١٣١١م):" هو الأمير سيف الدين اسندمر بن عبدالله الكرجى كان أولاً من جملة الأمراء بالديار المصرية، ثم ولى نيابة طرابلس، فلما وليها مهد بلادها، وسفك بها الدماء بأنواع القتل فى المفسدين... مات فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٢، صـ ٤٤٤).

(٣) قرا سنقر(ت:٧٢٨هـ/١٣٢٨م):" هو الأمير الكبير شمس الدين بن قرا سنقر بن عبد الله المنصورى الذى ولاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نيابته بدمشق فى العشرين من شوال سنة تسع وسبعمائة وكان نائباً بحلب ثم خشى من السلطان ان يمسكه فهرب وتوفى بمراغة فى السنة التى توفى فيها الشيخ تقى الدين ..... "(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٤، صـ ٨٧ –٨٩ ؛ القيسى: الرد الوافر، تحقيق: زهير الشاويش، ط.١، دار المكتب الاسلامى، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، صـ ١٢٤).

(٤)قبجق (ت:٧١٠هـ/١٣١٠م):" هو الأمير الكبير سيف الدين قبجق نائب دمشق وحماة وحلب وتوفى بحلب وهو نائبها أواخر جمادى الاولى سنة عشر وسبعمائة"(انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ٢٥)

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٣٨.

(٦) البرجية:" ويرجع أصل نشأتهم الى سيف الدين قلاوون الذى أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الآص والجركس، وجعلهم فى أبراج القلعة وسماهم البرجية"(انظر المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢١٨).

(٧)ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٧٠؛ محمد عبد الغنى الأشقر: سلار الأمير التترى المسلم، صـ ٣٦.

وفى سنة٧١٠هـ/١٣١٠م اتخذ الأمير سلار من التظاهر بالمرض مرة أخرى حيلة للاعتذار عن الحضور لدى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين بلغه قصد السلطان من القبض عليه فاعتذر بألم قد أصابه، وانه سوف يحضر بين يدى السلطان عندما يتم الله عليه بالشفاء حين ندب السلطان لإحضاره الأمير ناصر الدين محمد(١) بن أمير سلاح(٢) بكتاش الفخرى(٣).

ويبدو ان التظاهر بالأمراض قد شاع صيته فى العصر المماليكى وصار وسيلة متداولة لدى أعيان الدولة لتفادى الحبس والقتل الأمر الذى جعل مهنا(٤) شيخ العرب يشير على قرا سنقر ان يمكث فى دياره على صورة مريض يتعالج عنده ليتاح له الفرصة ويكاتب السلطان فى أمره، وذلك حين أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصدر الأوامر العسكرية لقوات بلغ عددها خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية للقبض على قرا سنقر عندما كان فى طريقه الى الحجاز حاجاً(٥).

ومن الأمراء الذين اتخذوا من التظاهر بالمرض وإظهار الضعف حيلة لعدم الخروج من ديارهم لتجنب القبض عليهم الأمير قوصون ففى سنة٧٤١هـ/١٣٤١م انقطع عن الصلاة وأظهر سبب عدم خروجه للصلاة لشدة الألم من مرض أصاب قدمه، حين علم بتآمر الملك المنصور ابوبكر بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون مع مماليكه للقبض عليهم لتضيقه عليهم وتعنيفه لهم، واتصل الأمير قوصون حينئذ بيبرس الأحمدي(٦) وعرفه

---

(١)محمد بن بكتاش(ت:٧٢٤هـ/١٣٢٤م):" الأمير ناصر الدين بن الأمير بدر الدين أمير سلاح توفى فى ثامن عشرى جمادى الآخرة سنة ٧٢٤هـ ودفن بتربة والده براً باب الناصر بالقاهرة . " (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٤، صـ ٣٤٨).

(٢) أمير سلاح:" هو لقب على الذى يتولى أمير سلاح السلطان أو الأمير" انظر القلقشندى: المصدر السابق، ج٥، صـ ٤٢٨؛ محمد احمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٢٠؛ حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ ٢٢٥– ٢٢٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٤٥٦؛ ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ١٧٦.

(٤) مهنا أمير العرب (ت:٧٣٥هـ/١٣٣٥م): " هو الأمير سلطان العرب حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا، أمير العرب بالشام، وخلف أولاداً ورثة وأموالاً كثيرة، توفى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م ...." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٩٢؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٤، صـ ١١٦؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٢٠٠).

(٥) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ٢١٩.

(٦) بيبرس الأحمدى (ت:٧٤٦هـ/١٣٤٥م): " هو الأمير ركن الدين بيبرس بن عبدالله الأحمدى المنصورى أمير جاندار وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، وأحد أعيان أمراء الديار المصرية، وهو الذى قوّى عزم قوصون على سلطنة الملك المنصور ابوبكر وكان جركسى الجنس، تنقل الى ان صار من أعيان الأمراء بمصر، ثم ولى نيابة صفد وطرابلس، وتولى أمير جاندار ..." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٤٣) .

بحاله مع السلطان ابوبكر ومماليكه واستحثه عن الخروج عن طاعة السلطان وعزله، كما اخذ قوصون فى استمالة المماليك السلطانية وواعدهم فى حالة الخروج على طاعة السلطان بالعروض المغرية[1].

ويعتبر الأمير أيدغمش[2] من الذين ادّعوا المرض سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م وامتنع نتيجة ذلك عن صعود القلعة أياما، وكان تظاهره بالمرض ليتفادى القبض عليه عندما بلغه من بعض مماليكه باتفاق الأمير قوصون مع الأمير برسبغا[3] للقبض عليه حين غفلة منه على ان الأمر اتضح لا يدغمش خاصة بعدما اتصل به قوصون به بعدما علم ما فيه أيدغمش من الاحتراز على نفسه وتصالحا[4].

وكذلك اتخذ الأميران حاجى[5]وحسين[6] ابنا الملك الناصر محمد بن قلاوون من التظاهر بالمرض حجة لعدم المثول بين يدى أخويهما الملك الكامل شعبان لما أحسا منه الغدر بهما وقتلهما حين ارسل إليهما الأميران أرغون العلائى والأمير الحجازى[7] لإحضارهما سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، فما كان من الأمير أرغون العلائى ان رجع الى السلطان بتحريض من نساء البلاط ليكف السلطان عن أخويه فغضب السلطان عليه وهمّ

---

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٣ .

(٢) أيدغمش (ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م):"هو الأمير الكبير علاء الدين أيدغمش بن عبدالله الناصرى الأمير آخور، ثم نائب حلب ثم نائب الشام مات فجأة فى بكرة يوم الأربعاء رابع جمادى الآخرة سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ١٦٥– ١٦٨).

(٣) برسبغا (ت:٧٤٢هـ/١٣٤٢م):" هو الأمير سيف الدين برسبغا بن عبد الله الناصرى الحاجب ولاه أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون الحجوبية، فكان دون الأمير بدر الدين مسعود بن الخطير فى الحجوبية...."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٢٨٢).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٤٥؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٣١.

(٥) حاجى بن محمد بن قلاوون(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م):" هو حاجى بن محمد بن قلاوون ولد وأبواه فى الحجاز سنة ٧٣٢هـ ..." (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١١، صـ ١٨٢ – ١٨٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٩٩– ١٠٠) .

(٦) حسين بن محمد بن قلاوون(ت:٧٦٤هـ/١٣٦٣م):" هو الأمير جمال الدين حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون..... توفى فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وسبعمائة...." (انظر ترجمته فى ابن العراقى: المصدر السابق، صـ ١١٢).

(٧) ملكتمر الحجازى (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م): " هو الأمير سيف الدين ملكتمر بن عبد الله الحجازى الناصرى مات قتيلاً فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ٧٤٨هـ وكان أصل الحجازى من مماليك شمس الدين أحمد بن يحيي بن محمد بن عمر الشهرزورى البغدادى، فبذل فيه الملك الناصر محمد بن قلاوون زيادة على مائة ألف درهم"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٨٤).

بقتله لولا ان نجا الامير أرغون منه بأعجوبة، وانقطع الأمير أرغون العلائى عن حضور الخدمة السلطانية متعللاً هو الآخر بالمرض بعد هذه الحادثة، مما كان لذلك أثره بزوال ملك السلطان الملك الكامل شعبان بقيام المماليك بعزله وسجنه سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م(١).

وادعّى الأمير حسين بن محمد بن قلاوون المرض واحترز عن نفسه غاية الاحتراز، وذلك حين بلغه سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م تآمر أخوه السلطان الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون عليه لقتله بأن أرصد عليه عدة خدّام ليقتلوه، فاتخاذ من التحايل بالمرض حجة ووسيلة لملازمة داره ويفادى نفسه من الهلاك(٢).

ومن الأمراء من يتخذ من التظاهر بالمرض حيلة لملازمة بيته بحجة تلقى العلاج وفى حقيقة أمره انه اتخذ من ذلك وسيلة لانتظار انشغال عددا من الأمراء للوثوب عليهم– لشوكتهم فى الدولة– نذكر منها ما حدث سنة٧٨١هـ/١٣٧٩م حين بلغ الأمير إينال اليوسفى(٣) بتآمر الأميران برقوق وبركة(٤)عليه، فلزم إينال فى داره متعللاً بالمرض مراراً الى ان بلغه خروج الأمير بركة لممارسة هوايته الصيد الى البحيرة، وتغيب الأمير برقوق عن القلعة، فاغتنم فرصة غياب الأميران وركب بمماليكه الى الإصطبل فملكه ونهب مماليكه بيت برقوق بعد ان استمال مماليك برقوق بالوعود والأموال، فأخذه المماليك السلطانية على حين غفلة وأوقعوا به ومماليكه الهزيمة أثناء اشتغالهم بالنهب، فانهزم الاينالية وأسر الأمير برقوق إينال اليوسفى وسجنه بالإسكندرية، ونودى للعامة بالأمان بعد انتهاء الفتنة(٥).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣١ –٣٢ ؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٣٦.

(٢) المقريزى: السلوك، ج ٤، صـ ٥٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، صـ ١٦٩.

(٣) إينال اليوسفى(ت:٧٩٤هـ/١٣٩٢م):" هو إينال بن عبد الله اليوسفى اليلبغاوى، أتابك العساكر أصله من مماليك يلبغا الخاصكى، وترقى بعد موت أستاذه إلى أن صار من جملة أمراء الديار المصرية فى دولة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان توفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م .... " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٢٨؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٥٥) .

(٤) الأمير بركة(ت:٧٨٢هـ/١٣٨٠م):" كان بركة من مماليك يلبغا وصار من بعده فى خدمة أولاد الملك الأشرف شعبان الى ان كان قتله الملك الأشرف شعبان، قام هو وخشداشه برقوق مع أينبك صار بركة هذا أمير مائة ومقدم ألف هو وبرقوق وأقام على ذلك مدّة .توفى مقتولاً بثغر الإسكندرية بيد صلاح الدين خليل بن عرام نائب الثغر المذكور"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٠٤).

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٩؛ المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٧١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ١١٩–١٢٠؛ حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، صـ ٤٧.

وعلى صعيد آخر كان من بين الأمراء من يفطن لما يدبره له الأمير المريض من مكيده بإدعائه المرض للقبض عليه عند قيامه بعيادته فيقوم لتفادى ذلك بإرسال من ينوب عنه فى هذه الزيارة ويرى من أمره ما سيئول عليه الحال، كما هو الحال فى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م، حين فطن الأمير الكبير الناصرى[١] بما يقصده الأمير منطاش[٢]من ادعائه المرض حيلة للقبض عليه عندما يقوم بزيارته، فقام الأمير الكبير الناصرى ليتجنب ذلك بإرسال الأمير ألطنبغا الجوبانى(ت:٧٩٢هـ/١٣٩٠م) نيابة عنه فتحقق ما كان يخشاه الأمير الكبير بأن قام منطاش بإلقاء القبض على الأمير ألطنبغا، ونزل بمماليكه بغيه أخذ الناصرى على حين غفلة منه فالتقى الجمعان وتقاتلا الى ان انتهت الفتنة بين منطاش والناصرى بانتصار طائفة منطاش وصعود منطاش للقلعة مظهراً الطاعة للسلطان حاجى بن الأشرف سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م[٣].

وفى سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م حين وقع الشقاق بين الأميران يشبك والأمير أيتمش[٤] فتحايل الأمير يشبك بتظاهر بالمرض ومكث فى بيته بحجة العلاج ففطن أيتمش والأمراء ان مرض يشبك حيلة للقبض عليهم اذا دخلوا لعيادته فاحترزوا على أنفسهم، وأخذوا أهبة الاستعداد للصدام المسلح مع الأمير يشبك ومماليكه وانتهى ذلك الصدام بانهزام أيتمش ومن معه من الأمراء وفروا هاربين الى الشام واستطاع يشبك أن يقبض

---

(١) يلبغا الناصرى:(ت:٧٩٣هـ/١٣٩١م):" هو الأمير الكبير يلبغا بن عبدالله الناصر اليلبغاوى مات قتيلاً بقلعة حلب، وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق التى خلع الملك الظاهر فيها من الملك وحبس بالكرك، وكان أصله من أكابر مماليك يلبغا العمرى أستاذ برقوق فى أيام أستاذه يلبغا إمرة طبلخاناة........ مات قتيلا سنة ٧٩٣هـ " (انظر ترجمته في ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٤٣١؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٥٤) .

(٢) منطاش(ت:٧٩٥هـ/١٣٩٣م):" وهو تمربغا بن عبد الله الأفضلى المدعو منطاش أصله من مماليك الملك الأشرف شعبان بن حسين ومن خاصكيته، ثم تأمر عشرة فى أيام أستاذه الى أن قتل الأشرف وتشتت مماليكه فى البلاد، نفى منطاش هذا إلى البلاد الشامية.....وكانت قتلته فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة.."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٩٤- ٩٩).

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٣٧٢ – ٣٧٣؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٢٨١- ٢٨٣؛ حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، صـ ٨١.

(٤) أيتمش(ت:٨٠٢هـ/١٤٠٠م) " هو الأمير الكبير أيتمش بن عبد الله الأسندمرى البجاسى الجرجاوى ثم الظاهرى أتابك العساكر بالديار المصرية، ذبح فى سجنه بقلعة دمشق توفى سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م.." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٢ – ١٣؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٥٦).

عليهم وحبسوا بقلعة دمشق حتى قتلوا عن آخرهم[١].

وفى سنة٨٢٤هـ/١٤٢٠م حين وقع الخلاف بين الأمير جانبك الصوفى وعددا من الأمراء استشار الأمير يشبك آخور فى أمرهم فأشار إليه ان يتظاهر بالمرض، حتى اذا نزل الأمراء لعيادته قبض عليهم، ففطن الأمراء المراد القبض عليهم بالمؤامرة وكان من بينهم الأمير برسباى[٢] ولم ينزلوا لعيادته فاضطر الأميران جانى بك ويشبك ومماليكهم إلى الخروج بكامل أسلحتهم بقصد القبض على الأمراء بالقوة حين بآت حيلتهم بالفشل إلى أن سكنت تلك الفتنة بتمكن الأمراء من القبض على الأميرين جانبك الصوفى ويشبك وقيدا، وأخذا أسيرين الى القلعة[٣].

واتخذ الامراء من إظهار المرض حيلة للتخاذل عن مساندة السلاطين فى أوقات الأزمات والفتن التى تمر بهم فى سلطنتهم كما حدث حين وقعت فتنة الأجلاب[٤] سنة ٨٧٢هـ /١٤٦٧م بعلم الأمير خاير بيك الدوادار[٥] الذى استدعاه السلطان الملك الظاهر تمربغا (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) للمشاورة حول الأوضاع المتأزمة من فتنة الأجلاب فما كان من الأمير خاير بيك إلا ان تحايل بألم أصابه فى قدميه ولم يطيل جلوسه عند السلطان وخرج الى خارج القصر فازداد هرج المماليك الجلبان الى ان انتهى الأمر بقبض الجلبان على السلطان الملك الظاهر تمربغا وسلموا النجمة والدرقة[٦] الى خاير بيك الذى سلطنوه بلا مبايعة ولا إجماع كلمة ولقبوه بالسلطان العادل[٧].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٩، ١٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٩٤ – ٩٦.

(٢) الملك الأشرف برسباى(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م):(هو الملك الأشرف برسباى بن عبدالله أبو النصر الدّقماقى الظاهر الجاركسى سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، الثانى والثلاثون من ملوك الجراكسة... توفى قبيل عصر يوم السبت ثالث ذى الحجة عن نيف وستين سنة"(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٢٥٥– ٢٧٦؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٣٤٧– ٣٤٩).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٥؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢١٧– ٢١٨.

(٤) الأجلاب:("طائفة من المماليك السلطانية، وكانوا كثيراً ما يتسببون فى إشاعة الفوضى والاضطراب وربما تعذر كبح جماحهم " انظر حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ ٢٥؛ هدية إمام على عبد الرحيم: المرجع السابق، صـ ١٣).

(٥) خاير بك الظاهرى(ت:٨٧٩هـ/١٤٧٤م):" هو خير بك الظاهرى خشقدم أصله من مماليك سودون قرقاش فاشتره الظاهر فى أيام إمرته وعمله بعد مدة خازنداره توفى سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م..... مات ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وثمانمائة "(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٢٠٨– ٢٠٩).

(٦) الدرقة: (وهى درقة كبيرة بكوابج من ذهب، يقولون إنها درقة حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها غشاء من حرير ويحملها فى الموكب أمير من أكابر الأمراء"(انظر القلقشندى: المصدر السابق، ج٣، صـ٥٤١).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٨٧.

ولم يقتصر الأمر فى التخلى عن السلطان فى ثورات الجلبان بل وصل الأمر بأن تظاهر الأمراء بالمرض لعدم رغبتهم فى السفر مع السلطان فقد ذكر ابن إياس بأن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى قد طلب من خليفة سيدى أحمد البدوى التجهز لمصاحبته الى حلب فى فتنة ابن عثمان فتظاهر بالمرض وطلب من السلطان إعفائه من السفر لمرضه فحنق السلطان ولم يقبل عذره وألزمه السفر معه وذلك فى ربيع الآخر ٩٢٢هـ/ مايو ١٥١٦م[١].

ثانياً: العزل والتولية:-

أما عن أثر المرض على التولية والعزل فمن حالاته عندما يستشعر المريض قربه من الموت، يكتب وصيته أو يلفظها، ويفهم فى الغالب ان الشعور بالموت يدفع الى قول أشياء لم يكن بالإمكان الإفصاح عنها فى حال الشعور بمزيد من الحياة، وتفهم الوصية على أنها شكل من أشكال الوداع الأخير فقط[٢]، ولقد كان من شأن أثر الأمراض على التوليه فى السلطنة ان الأمراء اذا أحسوا بدنو أجل السلطان فى مرض موته ان يقترحوا عليه ان يعهد بالسلطنة الى أحد أولاده بعد موته، وكان هذا الاقتراح يلقى غالباً قبولاً لدى سلاطين المماليك فيقومون بتنصيب أحد أبنائهم ولاية العهد، نذكر من ذلك وصاية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين مَرْض سنة٧١٧هـ/١٣١٧ بتولية الأمير سيف الدين طغاى الحسامى[٣] الناصرى السلطنة من بعده و" أن لا يختلف الناس عليه" فكان المرض فى هذا بمثابة حافزا دفعه بالتفكير فى ولاية العهد من بعده[٤] كما حدث أيضاً سنة٧٤١هـ/١٣٤١م حين دخل الأمير جنكلى[٥] وأكابر الأمراء على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، واقترحوا عليه ان يعهد لأحد من أولاده بالسلطنة من بعده،

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، صـ ٣٤.

(٢) عمارة الناصر: إيتيقا المرض: مقارنة هرمينوطيقية، مجلة ديوجين(مصباح الفكر)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الأول، يناير ٢٠١٤م، مج١، صـ ٢٣٧.

(٣) طغاى الحسامى الناصرى " كان من مماليك الناصر وأول ما أمره سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م وعظم محله عنده وتمكن منه حتى كان يعوده فى مرضه وكان قرره رأس نوبة فكان يشد بأسه على خاصيكية.....) انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٣٨٤.

(٤) النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ٢٨٣.

(٥) جنكلى (ت:٧٤٦هـ/١٣٤٥م)"هو الأمير الكبير المعظم الرئيس جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد الله العجلى...... وكانت وفاته فى ذى الحجة ٧٤٦هـ " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٢٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٨٩ -٩١ ؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ١١، صـ ١٥٤؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ١٦٣).

فأجابهم بدوره الى مطلبهم وجعل ابنه أبابكر سلطاناً من بعده وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به(١).

وكذلك حين أحس كبار رجال الدولة بدنو أجل السلطان الملك الصالح إسماعيل فى مرض موته سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م دخل عليه الأمير أرغون العلائى (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م) وعدد من الأمراء ليعهد بالسلطنة من بعده، فأوصاهم بتولية أخيه شعبان الذى لقب بالملك الكامل(٢).

أما السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١- ١٣٦٣م) فقد كان له شغفاً بالنساء الأمر الذى جعل الأمراء يقومون بعزله بمجرد أن حدثته نفسه بالاتصال بنساء الأمراء(٣).

ويبدو أن بعض سلاطين العصر المملوكى لم يكتف عند مرضه ان يعهد لأحد أبنائه بولاية العهد فحسب، بل يعقد الأيمان لثلاثة سلاطين من بعده بالتعاقب كما هو الحال فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٩م حين اشتد المرض بالسلطان الملك الظاهر برقوق وارجف بموته، فجمع أرباب الدولة فحدثهم فى ولاية العهد لأولاده من بعده فبايعوا على ان تكون السلطنة من بعده للأمير فرج بن برقوق ثم من بعده لأخيه عبدالعزيز ومن بعدهما أخويهما ابراهيم(٤)وتولى اخذ البيعة من رجـال الدولة على ذلك كاتب السر فتح الله(٥) (ت:٨١٦هـ/١٤١٣م)(٦).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٠١؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ١٣٣ ؛ انظر: **William Muir:Ibid.p.87.**

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١١٧.

(٣) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ١٧؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٦٦.

(٤) الأخوين عبد العزيز وإبراهيم ابنا برقوق(ت:٨٠٩هـ/١٤٠٧م):"فى حادى عشرين صفر من سنة تسع وثمانمائة فمات الملك المنصور هذا فى ليلة الاثنين سابع ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة المذكورة ، ومات أخوه إبراهيم بعده فى ليلته، فاتهم الملك الناصر فرج انه أمر باغتيالهما بالسم قبل سفره الى الشام.."(انظر ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ٤٧).

(٥) فتح الدين فتح الله (ت:٨١٦هـ/١٤١٣م): " هو فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودى التبريزى ولد سنة تسع وخمسين وباشر الطب بعد موت عمه بديع، ثم عالج برقوق فأعجبه واستمر فى كتابة السر بعده.. توفى سنة ٨١٦هـ " (انظر ترجمته في ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٣٠؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ١٦٥- ١٦٦).

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٤٩؛ حكيم أمين عبد السيد: المرجع السابق، صـ ١٠٧-١٠٨.

وفى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أثناء مرض السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى أشار عليه كبار رجال الدولة بإثبات ولاية عهد ولده أحمد من بعده لصغر سنه، فأثبت عهده قاضى القضاة، زين الدين عبد الرحمن التفهنى الحنفى بالسلطنة، فكان ذلك بمثابة طلب كبار رجال الدولة بإقرار رسمي من السلطان لولاية العهد لابنه أحمد لتفادى ما قد يحدث من فتنة لصغر سن ابن السلطان حين اشتد المرض بالسلطان الملك المؤيد شيخ وأرجف بموته[١].

وحين اشتد المرض بالسلطان الملك الظاهر ططر فى سنة ٨٢٤هـ/١٤٢٠م وأحس بدنو أجله، استدعى كبار رجال الدولة، وخاطبهم فى تولية ابنه فى السلطنة من بعده فأجابوه إلى ذلك، فعهد لابنه محمد بالملك من بعده، على أن يكون الأمير جانى بك الصوفى مدبر مملكته، وان يكون الأمير برسباى الدقماقى(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م) لالا[٢] السلطان والمتكلف بتربيته، فحلفوا على ذلك[٣].

وتمادى المرض بالسلطان الملك الظاهر جقمق شهراً، مما جعله يقوم بخلع نفسه من الملك فى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتفويض الملك لابنه عثمان[٤](٨٥٧هـ/١٤٥٣م)[٥]، وقال للخليفة والقضاة: انظروا فيمن تسلطنوه، وترك الخيار لهم لعلمه أنهم لا يعدلون عن ولده المقام الفخرى عثمان[٦].

أما السلطان الملك الأشرف إينال العلائى(٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦٠م) فقد مرض فى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م مرضاً لزم منه الفراش، فأخذ يحادث أهل الحل والعقد من

---

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٠٧.

(٢) لالا:" هو المربى" انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٣٣.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٠٦.

(٤) الملك المنصور عثمان(ت:٨٥٧هـ/١٤٥٣م):" هو عثمان (المنصو) بن جقمق (الظاهر) العلائى الظاهرى، أبو السعادات، فخر الدين، من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام والحجاز، بويع بالقاهرة قبيل وفاة أبيه سنة ٨٥٧هـ ومات أبوه بعد ١٢ يوماً بعد ولايته، فلم يلبث ان اضطرب أمره، وعصاه أمراء الجند، فقاتلهم وحاصروه فى القلعة، وقبض عليه زعيمهم إينال العلائى، فأرسله الى السجن بالإسكندرية، فكانت مدة سلطنته ٤٣يوماً ..... توفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م" (انظر ترجمته فى ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ ٦٨؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٤، صـ٢٠٤).

(٥) أبوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ١٦٠.

(٦) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٥٢؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج٤، صـ ٧٨ - ٧٩؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٤٢٥ - ٤٢٦؛ ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ ٦٦.

الأمراء فى تولية ولده من بعده وذلك تلميحاً لا تصريحاً ثم عوفى بعد أيام[(١)] ثم فى سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م حين مَرِض مرض الموت دعا الخليفة والقضاة الأربعة والامراء وأشهدهم على خلع نفسه من السلطنة، ثم اختلفت كلمة أهل الحل والعقد فيمن يتولى السلطنة، فقام الجميع لسماع كلام الملك الاشرف إينال فى ولاية العهد، فلم يستطيع الرد عليهم لمرضه، ثم كرروا عليه السؤال فرد عليهم بصعوبة باللغة التركية " أغلم، أغلم" أى "ابنى، ابنى" فقالوا إنها إشارة لتولية ابنه العهد، فحلف جميع الحضور للملك المؤيد أحمد بن إينال(٨٦٥هـ/١٤٦٠م) بالسلطنة[(٢)].

وكان لارتباط الأمراض والأوبئة باعتلاء أحد سلاطين العصر المملوكى أثراً سيئاً أدى الى تشاءم الناس وكراهيتهم لسلطنته مما كان له دور فى تخليهم عن التمسك بسلطنته لسوء طالعه– مثال ذلك– السلطان الملك العادل كتبغا (٦٩٤–٦٩٦هـ/١٢٩٤–١٢٩٦م) حيث جاء اعتلائه لعرش السلطنة مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء، حتى انتشرت المجاعة، وفشت الأمراض والأوبئة، وكثرت أعداد الأموات بين الناس[(٣)]، وقد كانت بداية هذه الحوادث المفجعة مع تولى السلطان كتبغا المنصورى ولاية الحكم فى دولة المماليك، ومن ثم بدأ يتردد على ألسنة الناس ان حكم كتبغا شؤم، وأيامه نحسات، الأمر الذى يدل على ظهور رد الفعل السريع عند مشاعر الناس نتيجة انتشار الوباء مع الأيام الأولى لعهد السلطان العادل كتبغا المنصورى[(٤)].

ومن الأمثلة التى توضح ان الوباء كان أحد أسباب كراهية الناس لبعض سلاطين المماليك عند اعتلائهم دست السلطنة السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨–٧٠٩هـ/١٣٠٨–١٣٠٩م) حيث صحب اعتلائه دست السلطنة انتشار الأوبئة وغلاء الأسعار لتوقف النيل عن الزيادة فكانت النتيجة " فتشاءم الناس بكعبه وأبغضته العامّة"[(٥)].

---

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٢٤– ١٢٥.

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٢١٨، ٢١٩؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ ١٨٥.

(٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٥٠٠؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ ١١٢– ١١٣.

(٤) حياة ناصر الحجى: المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك فى الفترة ما بين عام ٦٩٤–٦٩٥هـ/ ١٢٩٤–١٢٩٥م)، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السابع، ١٩٨٤م، صـ ١٥٠.

(٥) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٨٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ١٤٩.

وكثيراً ما تشير المصادر والشواهد الى ان مرض الموت كان حافزاً لكثير من سلاطين العصر المملوكى للتفكير فى تولية ابنه كولى عهده ليخلفه فى السلطنة ومن هذه الشواهد قيام السلطان الأشرف برسباى بمطالبة كبار رجال دولته "بأن يبايعوا لولى العهد ولده الملك العزيز يوسف(١) وعندما ساءت صحة السلطان الأشرف قايتباى ومَرِضَ مرْض الموت، تنازل عن السلطنة لابنه الملك الناصر محمد ثم توفى فى اليوم التالي مباشرة(٢).

وبالنسبة لرجال الدولة ذخرت المصادر التاريخية فى عصر سلاطين المماليك التى تصور لنا مدى ما وصلت إليه تأثير الأمراض على الحياة السياسية خاصة فى عزل وتولية الأمراء نذكر بعضها.

ويبدو أن لضعف الجسد الذى يصحب كبر السن حافزاً للعزل من المنصب فى العصر المملوكى لتولية القادر على إدارة شئون الوظيفة لدى الدولة المملوكية فى مصر، من ذلك سنة٧٠٥هـ/١٣٠٦م نتيجة لكبر سن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى(٣) وما صحبه من مرض الكبر وعدم قدرته عن أداء أعمال الإمرة سأل إعفائه للتقاعد فى داره، فأجابه السلطان لمطلبه وأذن بإقطاعه واستمرار صرف راتبه(٤).

ومن الحالات التى تذخر بها المصادر والتى توضح مدى تدخل المرض فى عزل الأمراء حتى يسأل الأمير منهم السلطان الإعفاء عن الإمرة مبدي عذره على ذلك لكثرة أمراضه فيجيبه السلطان الى مطلبه وينعم بإقطاعه على غيره من الأمراء، كما حدث سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٨م حين سأل الأمير كراى(٥) السلطان إعفائه عن الإمرة وان يقيم بطالاً بالقدس وذلك لكثرة أمراضه، فأجابه السلطان لمطلبه وأنعم بإقطاعه على الأمير سيف

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٥٦ –٣٥٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٧٨.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٣٢٣، ٣٢٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ١٨٨.

(٣) الأمير بد الدين بكتاش الفخرى(ت:٧٠٦هـ/١٣٠٦م)" أمير سلاح الصالحى النجمى أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وصل الى الملك الصالح نجم الدين أيوب فترقى فى الخدم حتى صار من أكبر الأمراء.." انظر الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١٠، صـ ١١٩؛ المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ٦٢).

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس.ريتشارد، صـ ٣٨٤– ٣٨٥.

(٥) كراى المنصورى(ت:٧١٩هـ/١٣١٩م): " هو الأمير سيف الدين كراى المنصورى مات معتقلاً بقلعة الجبل سنة ٧١٩هـ..مات سنة ٧١٩هـ..."(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٤، صـ ١٥٠ – ١٥٥؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ٣١١– ٣١٢) .

الدين بتخاص المنصورى[١](ت:٧١١هـ/١٣١١م)[٢].

ومن الأمراء الذين أعفوا عن الاستمرار فى أمور الدولة الأمير اشقتمر[٣] نائب دمشق، الذى كان يعانى من مرض فى قدميه عزل عن نيابة دمشق سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م واستدعى الأمير ألطنبغا الجوبانى نائب الكرك فتولى النيابة عوضاً عنه، ورسم الأمير اشقتمر بالإقامة فى حلب[٤].

كما اتخذ بعض الأمراء من المرض سبباً وحجة للامتناع عن قبول الوظيفة التى تعرض عليه توليها فى الدولة، كما عرض الأمير منطاش على الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى[٥] سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م تولية الوزارة فامتنع عن قبول المنصب لشلل أصاب يديه ورجليه وقد حضر إلى الأمير منطاش محمولاً لعدم قدرته على السير من شدة مرضه فقبل عذره واعفاه من ولايته[٦].

ومن الأمراء الذين طلبوا الإعفاء عن مناصبهم فى الدولة بسبب مرضهم الذى صحب كبر سنهم وعجزهم عن مباشرة أمور ولايتهم الأمير سودون الفخرى[٧] الذى أعفاه السلطان الملك الظاهر برقوق عن نيابة السلطنة سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م ورتب له رواتب ليتعايش بها وأقام بمنزله حين طلب ذلك لكبر سنه، وما صحبه من مرض ولم يولّ أحد غيره فى النيابة[٨].

---

(١) الأمير بتخاص المنصورى(ت:٧١١هـ/١٣١١م):"هو الأمير سيف الدين بتخاص بن عبد الله كان أولاً من جملة أمراء دمشق وهو من جملة البرجية، ولم يزل بالديار المصرية الى ان قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، فعزم على إمساكه فاعتقله توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م"(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٣).

(٢) ابى الفدا: المصدر السابق، ج٤، صـ ٥٤؛ المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤١٦؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٤١٤.

(٣) الأمير اشقتمر(ت:٧٩١هـ/١٣٨٩م):" هو الامير اشقتمر بن عبد الله الماردينى الناصرى، الأمير سيف الدين أحد أعيان الأمراء الأكابر فى عدة دول، أصله من مماليك صاحب ماردين توفى سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٣٨٧-٣٨٩؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٢، صـ ٤٥١ – ٤٥٣).

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٢١٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٣٨٤– ٣٨٥.

(٥) المقسى(ت:٧٩٥هـ/١٣٩٣م): " هو شمس الدين عبد الله بن المقسى كان يقال له " شمس " وهو نصراني، فلما أسلم لقب شمس الدين وسمى عبد الله، توفى سنة ٧٩٥هـ" (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٤٦٠)

(٦) المقريزى: السلوك، ج ٥، صـ ٢٥٦؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٢٩٠.

(٧) سودون الفخرى (ت:٧٩٨هـ/١٣٩٦م):" هو سودون بن عبد الله الفخرى الشيخونى كان من أتباع شيخون ثم تنقلت به الأحوال فى دولة حسن الى ان تزوج بنت استاذه وولى النيابة مدة، ومات فى جمادى الآخرة ...." (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٥١٧).

(٨) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٥٩٦.

ومن الأمراء الذين راسلوا سلاطين العصر المماليكى لإعفائهم عن مناصبهم التى يشغلوها فى الدولة للأمراض أصابتهم الأمير يلخجا بن مامش الناصرى فرج[١] الذى راسل السلطان الملك الظاهر جقمق سنة٨٥٠هـ/١٣٤٩م لإعفائه عن مباشرة نيابة غزة لطول فتره علاجه من مرض أصابه حتى شُل أحد جانبيه عن الحركة فأجابه السلطان لمطلبه، وأرسل إليه مرسوم بعزله عن النيابة[٢].

ونتيجة لطول فترة مرض الأمير برسباى الناصرى[٣] ولزومه الفراش أعفاه السلطان الملك الظاهر جقمق عن نيابة حلب سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م واستقر عوضاً عنه الأمير تنم[٤]بن عبد الرازق المؤيدى نائب حماة فى نيابة حلب[٥].

وكذلك استعفى الأمير ألطنبغا الظاهرى برقوق[٦] اللفاف أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية سنة٨٥٦هـ/١٤٥٢م عن الإمرة وذلك لضعف بدنه عن الحركة ولطول مرضه وأنعم بإقطاعه للمقام الفخرى عثمان بن السلطان الملك الظاهر جقمق[٧].

أما عن العزل ففى سنة٦٨٥هـ/١٢٨٦م قام السلطان الملك المنصور قلاوون بتولية الأمير عز الدين أيبك[٨] نيابة صفد بدلاً من الأمير سيف الدين قجقار المنصورى لمرضه، وتوجهه الى الديار المصرية لتلقى العلاج[٩].

---

(١) يلخجا من مامش الناصرى فرج(ت:٨٥٠هـ/١٣٤٩م):" هو الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله من مامش الناصرى، الرأس نوبة الثانى، ثم نائب غزة، كان أصلم من مماليك الظاهر برقوق، أخذه مع أبيه وأمه، ثم أنعم به على ولده الملك المنصور عبد العزيز.....توفى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٥١٧ – ٥١٨؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ٢٩١).

(٢) السخاوى: التبر المسبوك، ج١، صـ ٣٤١.

(٣) برسباى الناصرى(ت:٨٥٢هـ/١٤٤٨م):" هو الأمير سيف الدين برسباى بن عبدالله من حمزة الناصرى، نائب حلب... توفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م" (انظر ترجمته فى ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ٤٦).

(٤) تنم المؤيدى(ت:٨٦٨هـ/١٤٦٣م):"هو الأمير تنم بن عبد الله من عبد الرازق المؤيدى نائب الشام كان جركسى الجنستوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م"(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٤٤).

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١٧٨.

(٦) ألطنبغا الظاهرى(ت:٨٥٦هـ/١٤٥٢م):(ألطنبغا الظاهرى برقوق المعلم ويعرف اللفاف أقام دهراً خاملاً ثم صار فى الأيام الاشرفيه جملة معلمى الرمح فلما كانت الوقعة بين السلطان وقرقماس الشعبانى أصابته جراحات بل وتقنطر عن فرسه فعرف له السلطان ذلك....) (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، صـ ٣٢٠).

(٧) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٣٥٨.

(٨) الأمير عز الدين أيبك(ت:٦٩٨هـ/١٢٩٩م):" هو الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى نائب طرابلس والفتوحات الطرابلسية توفى مسموماً فى أول صفر، وكان من أجلّ الأمراء وله مواقف مشهورة..."(انظر ترجمته فى أبو الفدا: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٨) .

(٩) العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣٥٠– ٣٥١).

ومن جملة الأمراء الذين كان المرض السبب المباشر لعزلهم عن ولايتهم الأمير عز الدين طقطاى الناصرى[١] نائب الكرك فلما مرض سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م عزل عن نيابة الكرك، وتوجه الى دمشق لمتابعة العلاج فمات فى تلك السنة[٢].

ولما اشتد المرض بالأمير سودون الطرنطاى[٣] نائب دمشق اختل عقله وأصيب بالسرسام[٤]، عُزل فى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م عن منصبه وتولى النيابة بدلاً منه الأمير كمشبغا الأشرفى(ت:٧٩٥هـ/١٣٩٣م)[٥].

ومن الأمراء الذين عُزلوا عن مباشرة شئون ولايتهم بسبب مرضهم الأمير سيف الدين كزل بن عبدالله الأرغون[٦] نائب الكرك، فقد أصدر السلطان المؤيد شيخ مرسوماً بعزله عن نيابة الكرك وتولية إمرة طبلخاناة غير انه لم يستطيع مباشرة مهام عمله إذ توفى بعد عزله عن نيابة الكرك سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م بأيام[٧].

ومن الأمراء الذين كان المرض سبباً فى عزلهم الصاحب كريم الدين عبدالكريم بن كاتب المناخ[٨] الذى كان يتولى أمور الوزارة[٩] بالديار المصرية حيث "طول مرضه ولزوم

---

(١) طقطاى الناصرى(ت:٧١٨هـ/١٣١٨م):" هو الأمير عز الدين الناصرى الجمدار كان بدمشق أميراً من جملة أمرائها وكبيراً فى عداد كبرائها وميل الى أهل الفضل وركون، وجهز الى نيابة الكرك والقيام بما فيها من الدرك، فأقام بها مدة، ثم عاد وتوفى فى رابع عشر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمائة...." (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ٦١٣- ٦١٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٢٤٢).

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٢٤٢.

(٣) سودون الطرنطاى(ت:٧٩٤هـ/١٣٩٢م):" هو الأمير سودون بن عبد الله الطرنطاى أصله من مماليك الأمير طرنطاى نائب دمشق وتنقلت به الأيام الى ان صار من أعيان أمراء الملك الظاهر برقوق"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ ١١٠ – ١١١).

(٤) السرسام"وهو الهذيان وورم حاد فى إحدى جانبى الدماغ أو فيهما أو أكثر، وأعراضه: يفسد التفكير ويأخذ المريض الى الهذيان والتكلم بلا وعى" انظر حاجى باشا: المصدر السابق،ورقة١٤أ- ١٤ب انظر ملحق رقم (١).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٣٢٤؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٤٢٨.

(٦) كزل الأرغون شاوى (ت:٨٢٢هـ/١٤١٩م) :" هو كزل الأرغون شاوى وأرغون شاه أمير مجلس ترقى فى أيام المؤيد الى ان صار أمير " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٥١٢).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٥٧.

(٨) كريم الدين عبدالكريم(ت:٨٥٢هـ/١٤٤٨م) " هو الوزير الصاحب كريم الدين عبدالكريم ابن (الوزير) الصاحب تاج الدين عبد الرازق، بن شمس الدين عبدالله، المعروف بابن كاتب المناخات، بالقاهرة بطالاً بعد مرض طويل وقد تولى عدة مناصب" (انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٥٢٧).

(٩) الوزارة:" كانت الوزارة أرفع وظائف أرباب الأقلام، والمعروف ان هذه الوظيفة لم تكن مستحدثة، بل عرفها المسلمون منذ عصر الرسول– صلى الله عليه و سلم–، وإن لم يكن صاحبها يحمل لقب وزير وفى العصر الأيوبى ان الوزير كان يتم اختياره من أمهر حملة الأقلام ..." انظر حسن أحمد التطاوى: المرجع السابق، صـ ١٥- ١٦.

الفراش" تولى بدلاً منه الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم[١] ناظر الدولة الوزارة فى سنة ٨٥١هـ /١٤٤٧م، وكان هذا العزل للصاحب كريم الدين بحكم[٢].

وينضم الى قائمة الأمراء الذين عُزلوا عن مناصبهم بسبب المرض الأمير طوخ[٣] الذى عزل بحكم مرضه سنة٨٦٢هـ/١٤٥٧م وكان يشغل وظيفة أمير مجلس واستقر عوضه الأمير جرباش المحمدى[٤](ت:٨٧٧هـ/١٤٧٢م)[٥].

وليس أدل على أثر الأمراض السياسي فى العزل من قيام السلطان الملك الأشرف إينال بعزل الأمير سودون الأبوبكرى المؤيدى[٦]عن نيابة حماة، وكان يتولى تقدمة ألف بدمشق، وحين مرض مرضاً شديدا أخرج السلطان تقدمته للناصرى محمد بن مبارك، فلما عوفى حضر لطلب الرزق، فأنعم السلطان عليه بتقدمة ألف بطرابلس[٧] الى ان يعود إليه إقطاع"[٨].

وعزل السلطان الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م على ابى الفتح المنوفى نائب جدة، لما أصيب بمرض الماليخوليا، وولى مكانه الأمير شاهين الجمالى[٩] وأصدرت

---

(١) الصاحب أمين الدين إبراهيم ابن الرئيس مجد الدين عبدالغنى بن الهيصم (٨٠٠- ٨٥٩هـ/١٣٩٧- ١٤٥٥م) كان معدوداً من رؤوساء الدّيار المصرية، من بيت رئاسة وكتابة، وجدّهم الهيصم ينسب إلى المقوقس صاحب مصر توفى سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٥م (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ٦٧- ٦٨)

(٢) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ ١٥٥؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج٢، صـ ٢٥).

(٣) الأمير طوخ (ت:٨٦٢هـ/١٤٥٧م):" هو الأمير سيف الدين طوخ بن عبد الله من تمراز الناصرى أمير مجلس كان من مماليك الناصر فرج، وتأمر فى أول الدولة الأشرفية برسباى عشرة، وصار من جملة رؤوس النوب..... توفى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٩١ -١٩٢).

(٤) جرباش المحمدى (ت:٨٧٧هـ/١٤٧٢م):" هو جرباش بن عبد الله المحمدى الناصرى أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية، المعروف بكرد أصله من مماليك الملك الناصر فرج بن برقوق...." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٦٦؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٦٣).

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١١٤.

(٦) سودون الأبوبكرى(ت:٨٦٥هـ/١٤٦١م)(هو الأمير سيف الدين سودون بن عبدالله الأبوبكرى المؤيدى أتابك حلب بها فى أواخر شهر رمضان، وهو مناهز الستين من العمر" وأصله من عتقاء الملك المؤيد شيخ، وقد ولى أتابكية حلب غير مرة توفى سنة ٨٦٥هـ/١٤٦١م"(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٢٧٦).

(٧) طرابلس: بضم الباء الموحدة واللام، والسين مهملة: مدينة مشهورة على ساحل الشام بين اللاذقية وعكا..." ياقوت : المصدر السابق، ج١، صـ٢١٦؛" وهى تختلف عن طرابلس الغرب" ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج١، صـ ٩١.

(٨) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٥٠٠.

(٩) شاهين الجمالى " ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ولد تقريباً فى سنة ثمان وثلاثين واستقر به فى مشيخة الخدام بالمدينة وفى أثناء ذلك رسم بتوجهه لنيابة جدة وكان أمير الركب الأول فى سنة ست وتسعين.."(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٢٩٣).

الأوامر السلطانية بإرسال ابى افتح المنوفى الى البيمارستان غير ان السلطان ما لبث ان قبل شفاعة الأمراء فى ابى الفتح وأصدر أوامره بأن يقيم فى طبقة الزمام[1].

وعلى صعيد آخر فقد يظل رجال الدولة فى مباشرة أعمالهم الرسمية ولا يكون المرض سبباً فى عزلهم وتولية غيرهم فى حالات نادرة نذكر منها، كما هو الحال بالنسبة للأمير ركن الدين بيبرس التلاوى[2] استاد الدار العالية حيث ذكرت المصادر انه ابتلى بالأمراض الشديدة، إلا انه مع ذلك شغل وظيفته – شدّ دمشق – وهو مريض سبعة أشهر وأياماً[3].

ومن صور أثر المرض السياسى فى العزل ان يطلب الأمير بسبب المرض النقل من الجهة التى يباشرها الى غيرها تكون أقل أعمالاً وتتناسب مع حالته الصحية بدلاً من العزل مثلما حدث حين أرسل الأمير شمس الدين سنقر شاه[4] نائب صفد يسأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة٧٠٧هـ/١٣٠٨م الانتقال الى دمشق، فأصدرت المراسيم السلطانية بتولية الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار نائب الصبيبة نيابة صفد، ورسم لسنقر شاه المذكور بالتوجه الى دمشق[5].

وأشارت المصادر الى حقيقة أخرى هى إمكانية مزاولة الأمير منصبه عدة شهور وهو مريض ولكن سرعان ما يقوم السلطان بعزله وتولية غيره اذا تبين له عجز هذا الامير عن تسيير أمور الإمارة واستمرار تدهور حالته الصحية الى الأسوأ، ومن هذه الأمثلة ما حدث عندما مرض القاضى علاء الدين على ابن الأثير[6] سنة ٧٢٩هـ/

---

(١) ابن اياس: المصدر السابق،ج٣، صـ ٢٥٢-٢٥٣ .

(٢) الأمير ركن الدين بيبرس التلاوى (ت:٧٠٣هـ/١٣٠٣م) " وكان يلى شدّ دمشق، وكان فيه ظلم وعسف، وتولى عوضه شدّ دمشق الأمير قيران الدواداري"(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٤٨).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٣٧٤العينى: المصدرالسابق، ج٤، صـ ٣٤٠-٣٤١؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ٨٤.

(٤) سنقر شاه المنصورى (ت:٧٠٧هـ/١٣٠٨م):" أحد الأمراء الكبار كان أحد المشهورين بحب الصيد مرة من غابة ارسوف خمسة عشرة أسداً وولى نيابة صفد سنة ٧٠٤هـ ومات فى سنة ٧٠٧هـ قبل ان يبلغه العزل وكان موصوفاً بالبخل الشديد وخلف أموالاً لا تحصى كثرة ولم يخلف سوى بنت واحدة (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ٤٨٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢ ، صـ ٣٢٣).

(٥) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ١٤٨.

(٦) علاء الدين على ابن الأثير (ت: ٧٣٠هـ/١٣٣٠م) " هو على بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبى الأصل، ثم المصرى، كانت له حرمة ووجاهة وأموال وثروة ومكانة عند السلطان، حتى ضربه الفالج فى آخر عمره فانعزل عن الوظيفة وباشرها ابن فضل الله فى حياته "(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٣، صـ ٢٦٤؛ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ١٧١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ١٥- ١٧).

١٣٢٩م– صاحب ديوان الإنشاء[١]– فالج واستمر مع ذلك " حضور دار العدل بين يدى السلطان"، ولكن عندما اشتد به المرض وعجز عن النهوض وشلّ، فوّض السلطان الناصر محمد بن قلاوون القاضى محيي الدين العدوى[٢] بتولى ديوان الإنشاء، وولده شهاب الدين أحمد كاتب السر[٣].

وعلى صعيد آخر فكان من جملة الأمراء من يحرص على عدم إظهار الضعف خصوصاً إذا أصابه شدة المرض، فنرى الأمير منهم إذا أصابه المرض واشتد به نجده يتجلّد ويحرص على عدم إظهار ما به من ألم حتى لا يعلم السلطان ويقيله عن منصبه، كما حدث عندما استقر الأمير علاء الدين الجمالى[٤] سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م فى الأستادارية خاصة وهو ما زال مريضا، فأخذ مع ذلك يتحامل على نفسه حتى لا يشعر أحد بمرضه وكان يقف على عادة الأستادارية يسيراً[٥].

وقد بلغ من أثر المرض السياسى فى التولية والعزل ان يسعى رجال الدولة فى العصر المماليكى بكل ما لديهم لشغر إحدى وظائف الدولة بمجرد معرفتهم بمرض متوليها، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حين سعى شرف الدين موسى بن التاج[٦] فى نظر الجيش لما اشتد المرض بمتوليها آنذاك الفخر محمد بن فضل الله[٧] وقد

---

(1)Bjorkmann: Beitrage zur Geschichte der Staatskanzlei im Islamischen Aegypten, Hambourg1928,p36.

(٢) القاضى محيي الدين العدوى(ت: ٧٣٨هـ/١٣٣٨م)" هو أبو المعالى يحيي بن فضل الله بن المحلى بن دعجان بن خلف العدوى العمرى، ولد فى حادى عشر شوال سنة ٦٤٥هـ بالكرك .... وكانت وفاته بالديار المصرية، توفى سنة ٧٣٨هـ " (انظر ترجمته فى الذهبى: معجم الشيوخ الكبير، تحقيق: محمد الحبيب، ط.١، مكتبة الصديق، الطائف، ١٩٨٨م، ج٢، صـ ٣٧١؛ الفاسى: ذيل التقييد فى رواة السنن والأسانيد، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج٢، صـ ٣٠٥؛ ابن رافع: الوفيات، تحقيق: صالح مهدى عباس، بشار عواد معروف، ط.١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م، ج١،صـ ١٢٧ ذكره وفاته فى سنة ٧٣٧هـ.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، صـ١٩٥؛ ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ٣٢٢.

(٤) علاء الدين الجمالى(ت:٧٣٢هـ/١٣٣٢م)" وهو الوزير علاء الدين مغلطاى بن عبدالله الجمالى كان يلقب بخرز وكان أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون......" (انظر ترجمته فى ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، صـ ٢٨٧؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٦٠).

(٥) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٨٥.

(٦) موسى بن التاج(ت:٧٧١هـ/١٣٧٠م):" هو شمس الدين موسى بن التاج ابى إسحاق عبد الوهاب بن عبد الكريم ناظر الجيش وناظر الخاص ووزر وزارة دمشق غير مرة " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٢٨).

(٧) فخر الدين(٦٥٩– ٧٣٢هـ/١٢٦١–١٣٧٠م):" محمد بن فضل الله الملقب بفخر الدين كان قبطياً من كتاب دولة المماليك، وترقى الى ان ولى نظر الجيش، وعلا شأنه أسلم وحج وأكثر من التصدق وبنى عدة مساجد بمصر.. وتوفى بمصر سنة ٧٣٢هـ " (انظر ترجمته فى الزركلى: المصدر السابق، ج٦، صـ ٣٣٠ – ٣٣١).

استقر شرف الدين موسى بن التاج فى نظر الجيش بعد وفاة الفخر محمد[١].

وتشير الشواهد الى قلق السلطان المملوكى حيال مرض أحد نوابه بالنيابات ويبدأ فى التفكير بعزله وتولية غيره بالنيابة كما حدث سنة٧٣٧هـ/١٣٣٧م حين بلغ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون اشتداد المرض بالأمير ألطنبغا الماردانى نائب حلب، فتألم السلطان حزناً عليه، وبدأ يفكر فيمن يوليه أمر حلب ثم جاءت بعد أيام بشارة بعافية الأمير ألطنبغا ففرح السلطان وأرسل إليه المراسيم لتهنئته بالشفاء[٢].

وذخرت المصادر فى العصر المملوكى بحالات عديدة تكشف مدى أثر الأمراض وتحكمها فى تولية أو عزل الأمير عن وظائف الدولة نذكر منها ففى سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م فكان نتيجة لاشتداد المرض على الأمير ملكتمر السرجوانى[٣] نائب الكرك عُزل وعين بدلاً منه الأمير قبلاى[٤] فى نيابة الكرك [٥]، بينما فى سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م عين بدر الدين محمد بن علاء الدين على بن فضل الله العمرى[٦] فى كتابة السر بدلاً من أبيه بعد اشتداد المرض عليه[٧].

وهناك العديد من الشواهد التاريخية توضح لنا إرسال المراسيم السلطانية الى الأمراء بتولى النيابات فى الدولة وهم مرضى فيتوجهون الى مباشرة أعمالهم محمولون فى محفة ومن شدة ما يعانوه من الآلام المرض غالباً ما يموتون قبل وصولهم الى النيابات

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ١٨١؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٥٥.

(٢) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٣٥٦.

(٣) ملكتمر السرجوانى(ت:٧٤٧هـ/١٣٤٦م):" هو الأمير سيف الدين ملكتمر بن عبد الله السرجوانى نائب الكرك توفى فى يوم الأثنين مستهل المحرم سنة ٧٤٧هـ.."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٧٧).

(٤) قبلاى (ت:٧٥٦هـ/١٣٥٥م):" هو الأمير سيف الدين قبلاى بن عبد الله الناصرى وكان أصله من مماليك الناصر محمد " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٣٢١).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٨.

(٦) القاضى بدر الدين محمد(ت:٧٩٦هـ/١٣٩٤م):" هو القاضى بدر الدين محمد بن القاضى علاء الدين على بن القاضى محيي الدين يحيي بن فضل الله بن مجلي بن دعجان، كاتب سر الديار المصرية ورئيسها بدمشق باشر كتابة سر مصر نحو سبع وعشرين سنة، على انه انفصل فيها أولى وثانية توفى يوم الثلاثاء العشرين من شوال سنة ٧٩٦هـ" (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٤٠-١٤١).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣١٧.

المراد مباشرتها ومن هذه الشواهد سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م حين أرسل الأمير بيبغاروس[١] إلى الأمير سيف الدين طقزدمر الحموى–وكان بنيابة بدمشق– بعد وفاة الصالح إسماعيل لتولى نيابة السلطنة فتوجه طقزدمر وهو مريض محمولاً فى محفة، ولما دخل مصر أقام فى بيته خمسة أيام، ومات قبل ان يباشر نيابة السلطنة يوماً واحداً[٢].

وفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م نقل الامير أولاجا بن عبد الله الناصرى السلاح دار[٣] ليتولى نيابة صفد فتوجه إليها وهو مريض فى محفة، واستمر مريضاً حتى مات لم يباشر مهام ولايته[٤].

وأسردت المصادر التاريخية فى عصر سلاطين المماليك فى عرض ما وصلت إليه الأمراض فى عزل وتولية الأمراء عن وظائف الدولة نذكر من ذلك فى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م قيام السلطان حسن بتعين الأمير أرغون شاه[٥] بنيابة دمشق، فخرج من حلب وهو مريضاً، وكان الناس فى استقباله غير انه ما لبث ان مات بالاسهال قبل أن يصل الى إمارته[٦].

---

(١) بيبغاروس:(ت:٧٥٤هـ/١٣٥٣م): " هو الأمير بيبغاروس القاسمى أحد المماليك الناصرية توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو من خاصكيته فترقى حتى صار فى الأيام الصالحية إسماعيل أمير طبلخاناة وتمكن منه....... مات بدمشق سنة ٧٥٤هـ " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٨٨).

(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٤٦٥.

(٣) أولاجا بن عبد الله(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م): " هو الأمير سيف الدين أولاجا بن عبد الله كان هو وأخوه زين الدين قراجا حاجبين من قبل الملك الصالح إسماعيل ... بدمشق ، ثم نقل الى نيابة صفد مات فى سادس شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ١١٥ – ١١٦)

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٥١٦.

(٥) أرغون شاه (ت:٧٥٠هـ/١٣٤٩م):" هو الأمير أرغون شاه تزوج بنت آق بغا عبد الواحد، ثم ولى الأستادارية فى زمن المظفر حاجى توفى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م"(انظر ترجمته فى ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، صـ٥١١).

(٦) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٦٨١ – ٦٨٢.

وكذلك في ٧٦٨هـ/١٣٦٦م الأمير شهاب الدين أحمد الملقب بشنكل منكل[١] عندما أُعيد الأمير شهاب مرة أخرى الى ولاية حوران[٢] فقدم من مصر وهو مريض محمولاً فى محفة إلا انه ما لبث ان مات قبل مباشرة أعمال ولايته[٣].

وعلى صعيد آخر فان هناك بعض الحالات التى لا يمثل فيها المرض عائقاً يحول دون تولية الوظائف فى الدولة بل وقد ترسل الخلعة الى متوليها فى داره، وهو مريض فى حالة عدم مقدرته الحضور لمرضه كما هو الحال سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م حين تولى علم الدين يحيي نظر الدولة[٤] وهو مريض، فأرسلت إليه الخلعة الى بيته[٥].

ومن الشواهد التاريخية على ما سبق سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م حين أنعم على الأمير عمر بن بهادر الجمالى وتم ترقيته بإمرة عشرة وهو أعمى[٦].

وقد يدفع طول مرض أحد الأمراء المتولين أحد الوظائف بالدولة السلطان المملوكى ان يوعد ويمنى غيره من رجال الدولة بمنصب ذلك الأمير عند موته، كما فعل السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م حين وعد الأمير إينال الجكمى بنيابة دمشق لطول مرض نائبها قصروه[٧] حتى بلغ به الحد أن أرسل السلطان الى إينال يخبره انه متى بلغه موت قصروه ينزل دمشق ويتولى نيابتها ويرسل السلطان إليه بعد ذلك رسم تقليد حكمها[٨].

---

(١) شهاب الدين أحمد(ت:٧٦٨هـ/١٣٦٦م):" هو الأمير شهاب الدين أحمد والى حوران الملقب بشنكل منكل قدم من مصر على ولاية الولاة فى رجب سنة تسع وخمسين" (انظر ترجمته فى ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٢٩٧).

(٢) حوران: " بالفتح، كورة واسعة، من أعمال دمشق فى القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع قصبتها بصرى ..." (انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣١٧– ٣١٨).

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٢٩٧– ٢٩٨.

(٤) ناظر الدولة علم الدين يحيي(ت:٧٨٩هـ/١٣٨٧م)" هو ناظر الدولة علم الدين يحيي بن فخر الدولة المعروف بكاتب ابن الدينارى توفى فى يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع الآخر بالقاهرة.." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٣١١)

(٥) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ١٢٤.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ١٧٠ .

(٧) قصروه نائب الشام (ت:٨٣٩هـ/١٤٣٥م):" هو قصروه نائب الشام كان من بقايا مماليك الظاهر برقوق، تقدم فى دولة الأشرف مات سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م"(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ٣٢).

(٨) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٦٥.

واستقر السيفى قراجا الظاهرى[١] فى سنة٨٤٦هـ/١٤٤٢م خازنداراً كبيراً، وكان سبب تعينه مرض أصاب الأمير قانبك الأشرفى[٢] بداء الأسد[٣] فعزله السلطان الملك الظاهر جقمق لهذا السبب[٤].

وتبدو أهمية الأمراض فى الأمور السياسية خاصة التولية والعزل عندما يعلم الأمراء رغبة السلطان فى نقل إقطاعهم أو عزلهم عن وظيفتهم أو ولايتهم بسبب طول المرض، وهنا يتحامل الأمراء على أنفسهم حتى يظهروا للسلطان أنهم يتمتعون بصحة جيدة تجعلهم يمارسون مهام عملهم، وجميع ما يُكلف به من أمور الرعية والحكم.

حيث أشارت المصادر التاريخية انه عندما علم الأمير سيف الدين خير بك بن عبدالله المؤيدى[٥] سنة ٨٥٩هـ/١٤٠٠م بنقل إقطاعه للأمير قانم التاجر المؤيدى[٦] تحامل على نفسه من شدة المرض، وصعد الى القلعة وتظاهر أمام السلطان أنه قد عوفى من مرضه، وسأله أن يُعيد إليه إقطاعه، إلا أن المرض تغلب عليه أمام السلطان حتى أغمى عليه فى حضرة السلطان وحُمل الى داره، والغريب هنا أن الأمير سيف الدين خير بك حاول ذلك أكثر من مرة وفى كل مرة كان يحمل إلى داره مريضاً[٧].

أما عن القضاة لم تكن للأمراض أهمية فى التولية والعزل فحسب بل أثرت أيضاً فى سير شئون القضاة ويظهر ذلك من خلال ما تناولته المصادر التاريخية فى عصر سلاطين المماليك، فقد استشار الملك الظاهر بيبرس سنة٦٦٠هـ/١٢٦٢م الشيخ عز

---

(١) قراجا الظاهرى(ت:٨٧٢هـ/١٤٦٨م) " هو قراجا الخازندار الظاهرى جقمق ملكه فى إمرته ثم عمله فى سلطنته خاصكياً ثم خازنداراً صغيراً ثم أمير عشرة ثم خازنداراً كبيراً يعد قانبك الأبوبكرى ثم عينه لنيابة طرابلس وقتل سنة اثنين وسبعين ..." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ٢١٥).

(٢) قانبك الأشرفى(أحد أمراء العشراوات انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ ٥٤ ،٥٥.

(٣) داء الأسد: الجذام.

(٤) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ ٧١؛ نفسه: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٣٥٢؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٣٠٤.

(٥) خير بك المؤيدى(ت:٨٥٩هـ/١٤٥٥م):" وهو الأمير سيف الدين خير بك بن عبدالله المؤيدى الأجرود وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٧٦، ١٧٧) .

(٦) قانم المؤيدى:(ت:٨٧١هـ/١٤٦٧م): " هو الأمير قانم من صفر خجا المؤيدى، المعروف بالتاجر وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ "(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ٢٠٠،٢٠١).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٨٦؛ ابوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ٥٥٥.

الدين عبد العزيز بن عبد السلام[١] وهو فى مرض الموت لمن يصلح من أولاده ليتولى شئون القضاة فكان رد الشيخ بأنه "ليس فيهم من يصلح لشئ " فأعجب السلطان منه ذلك وحضر جنازته بنفسه[٢].

أما القاضى محيي الدين أبوالصلاح عبدالله(ت:٦٧٨هـ/١٢٧٩م) فقد عزل عن القضاة سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بسبب مرضه بالفالج منذ خمس سنوات وعجزه عن الكتابة[٣].

ومن جملة القضاة الذين عزلوا عن مناصبهم لمرض اعتراهم حيث عزل عن قاضى قضاة دمشق عن مذهب المالكية جمال الدين الزواوى[٤] وذلك بسبب انه:" عجز عن القضاة، واشتدت به الرعشة، وثقل لسانه"، وتولى مكانه قاضى القضاة المالكية القاضى فخر الدين أحمد بن القاضى تاج الدين سلامة بن سلامة الاسكندري[٥] وذلك سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م[٦]، كما امتنع الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين[٧] عن تولى منصب قاضى القضاة بالشام سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م بعد عزل جمال الدين الزرعى[٨] واعتذر " بالعجز والمرض"[٩].

---

(١) عز الدين بن عبد السلام(ت:٦٦٠هـ/١٢٦٢م):" هو عز الدين بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب، الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وجمع علوماً كثيرة وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق، فسار الى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق، وتوفى فى عاشر جمادى الأولى وقد نيف عن الثمانين، ودفن بسفح المقطم، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلقٌ كثير...."(انظر ترجمته فى اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ط.٢، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٢م، صـ ١٧٢؛ ابى الفدا: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢١٥).

(٢) اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١١٩.

(٣) النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٣٧٥.

(٤) الزواوى (ت:٧١٧هـ/١٣١٧م): " قاضى المالكية بدمشق ، من سنة سبع وثمانين وستمائة، قدم مصر من المغرب ..." (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات ، ج٣،صـ ١١٥؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ،ج٥،صـ ١٩٠).

(٥) القاضى فخر الدين (ت:٧١٨هـ/١٣١٨م):" فخر الدين أحمد بن تاج الدين بن أبى الخير سلامة بن أبى العباس أحمد بن سلامة السكندرى المالكى قاضى القضاة المالكية بدمشق ولد سنة ٦٤١هـ ومات مستهل ذى الحجة وكان مشكور السيرة بصيراً بالعلم ماهراً فى الأصول حشماً "(انظر ترجمته فى ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ١٠٥).

(٦) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٩٣؛ ابن حبيب: المصدر السابق، ج٢، صـ ٨٢.

(٧) برهان الدين ابن الشيخ تاج الدين (ت:٧٢٩هـ/١٣٢٩م):" هو ابراهيم بن عبدالرحمن بن ابراهيم بن سباع بن ضياء..."(انظر ترجمته فى الكتبى: فوات الوفيات، ط.١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، صـ ٣٢)

(٨) جمال الدين الزرعى(ت:٧٣٤هـ/١٣٣٤م):" ولد بإذرعات سنة ٦٤٥هـ وقدم دمشق وهو سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الشافعى" (انظر ترجمته فى الصفدى: وافى الوفيات، ج١٥، صـ ٢٥٤).

(٩) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٧٥.

وطلب قاضى القضاة بدر الدين محمد بن الشيخ برهان الدين ابراهيم بن جماعة الشافعى[1] من السلطان الناصر محمد بن قلاوون إعفائه عن منصبه وذلك بسبب ضعف بصره، ونزول الماء فى إحدى عينيه سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م فأجابه السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى ذلك وفوض أمر القضاء بعده لقاضى القضاة جلال الدين القزوينى[2].

كما من شأن المرض وأثره السياسى ان يجعل القاضى يقوم بالتنازل عن كافة وظائفه بالدولة لغيره لعدم استطاعته من مزاولة أعباء تلك الوظائف لمرضه.

كما تنازل الشيخ نجم الدين القحفازى[3] سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عن الخطابة بجامع تنكز[4] والتدريس بالظاهرية[5] للقاضى عماد الدين ابن العز الحنفى[6] وذلك نظراً لما يعانيه من المرض[7]، من قضاة العصر المماليكى من إذا أصابه المرض الشديد عجز عن مزاولة أمور القضاة طلب من السلطان فى هذه الحالة ولاية ولده عوضاً عنه، فيجيبه السلطان فى غالب الأحيان ويرسل تقليد القضاة لولده كما تقلد القاضى تاج الدين

(١) بدر الدين محمد(ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م):" بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموى توفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م"(انظر ترجمته في اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ٢١٥؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩،صـ٢٩٨).

(٢) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ٣٢٢؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٩٨؛ وذكرها ابن عماد سنة ٧٢٧هـ /١٣٢٧م)؛ جلال الدين القزوينى(٧٣٩هـ/١٣٣٩م) " جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزوينى الشافعى، صار بعد التسعين وستمائة إمام الدين فى تربة أم الصالح وأعاد جلال الدين بالبادرائية عند الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين شيخ الشافعية.."(انظر ترجمته فى أبو الفدا: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٢٨).

(٣) القحفازى(٦٦٨-٧٤٥هـ/١٢٧٠- ١٣٤٤م) " هو على بن داود بن يحيي بن كامل بن يحيي بن جبارة الشيخ نجم الدين أبوالحسن القحفازى الزبيري القرشى الأسدى ولد فى جمادى الأولى سنة ثمان وستين وستمائة، ومات فى رابع عشرى رجب سنة خمس وأربعين وسبعمائة "(انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ١٣٥).

(٤) جامع تنكز: " وفى صفر سنة ٧١٩هـ شرع فى عمارة الجامع الذى أنشأه ملك الأمراء تنكز نائب الشام ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق، على نهر بانياس بدمشق ، وتردد القضاة والعلماء فى تحديد قبلته فاستقر الحال فى أمرها على ما قاله الشيخ تقى الدين بن تيمية فى يوم الأحد الخامس والعشرين منه..... "(ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٩٢- ٩٣).

(٥) التدريس بالظاهرية فى دمشق" وفى صفر سنة ٦٧٧هـ أديرت المدرسة الظاهرية بدمشق، ولم تكن كملت عمارتها، وكانت قبل ذلك دار إمرة، وتعرف بدار العقيقى، فاشتريت، فدرس للشافعية الشيخ رشيد الدين الفارقى، ودرّس للحنفية الشيخ صدر الدين سليمان "انظر ابن حجر: تبصرة المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق: محمد على النجار، دار المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ج٣، صـ ١٠١٤.

(٦) عماد الدين بن أبو العز الحنفى (٧٠٠ -٧٨٣هـ/١٣٠١- ١٣٨٣م): " هو إسماعيل بن محمد بن ابى العز بن صالح بن ابى العز، قاضى القضاة عماد الدين أبو الفدا بن شرف الدين ابى البركات الحنفى الدمشقى المعروف بابن ابى العز "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٢، صـ ٤٢٤-٤٢٥).

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٢٤٧؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٤١٢.

السبكى[١] سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م قضاء الشافعية بتنازل والده له عقب إصابته بمرض شديد حزناً على ولده القاضى حسين وإجابة لمطلب والده من السلطان ذلك[٢].

ومن صور أثر المرض السياسى في التولية والعزل ان يأتى كسبب غير مباشر فى التولية كمكافأة لما قدمه أحد رجال الدولة من نجاحه فى علاج السلطان المملوكى من مرض أصابه كما ولى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م الشيخ جار الله الحنفى[٣] قضاء الحنفية بعد عزل شرف الدين من منصور نفسه[٤](ت:٧٨٢هـ/١٣٨٠م)[٥].

وعلى صعيد آخر فان هناك بعض الحالات التى أشارت إليها المصادر يرفض فيها السلطان المملوكى قبول اعتذار القضاة عن مباشرة أعمالهم لمرض انتابهم، ومن هؤلاء القاضى برهان الدين الصنهاجى[٦] الذى رفض الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م قبول اعتذاره للإعفاء عن تولى قضاء المالكية لضعف البصر ومرضه، ولم يفده اعتذاره وألزم بقبول قضاء المالكية عوضاً عن ابن القفصى[٧] فقبلها رغما عنه[٨].

---

(١) تاج الدين السبكى(ت:٧٧١هـ/١٣٧٠م):" هو تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين على بن عبد الكافي بن على بن تمام السبكى الشافعى، قاضى قضاة دمشق بها، له تصانيف منها طبقات الشافعية الكبرى..." (انظر ترجمته فى ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٣٧٨ – ٣٧٩؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٨٤).

(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٧٦ – ٧٧.

(٣) جلال الدين جار الله (ت:٧٨٢هـ/١٣٨٠م): "هو الشيخ العلامة جلال الدين محمد المعروف بجار الله بن الشيخ قطب الدين محمد، توفى بعد ان حكم خمس سنين وكانت ولايته بعد ابن منصور (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٠٣ ؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٥٣٧).

(٤) شرف الدين بن منصور(ت:٧٨٢هـ/١٣٨٠م) :" هو احمد بن على بن منصور بن ناصر الحنفى الدمشقى، شرف الدين بن منصور، ولد سنة سبع عشرة، واشتغل الى ان ولى قضاء دمشق عوضاً عن صدر الدين بن العز، وكان طلب الى مصر ليتولى القضاء بعد موت ابن التركمانى فقدمها ......" (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٢٢١ – ٢٢٢).

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ١٢٧.

(٦) برهان الصنهاجى (ت:٧٩٦هـ/١٣٩٤م):" هو القاضى المالكى ابراهيم بن عبد الله بن عمر الصنهاجى ولد سنة سبع عشرة وسبعمائة، وولى قضاء دمشق غير مرة فباشرها ثلاث سنين، ثم صرف ومات فى ربيع الآخر فجأة "(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٤٧٧– ٤٧٨؛ السيوطى: بغية الوعاة، ج١، صـ ٤١٦).

(٧) ابن القفصى(ت:٨٠٥هـ/١٤٠٣م):" هو محمد بن محمد بن محمد الدمشقى المالكى علم الدين بن ناصر الدين القفصى ولى قضاء دمشق إحدى عشرة مرة فى مدة خمس وعشرين سنة...." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٩٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٢٥٢؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ١٣).

(٨) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ١٩١؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ١٨٢.

وكان لطول المرض الذى يعترى القاضى سبباً لعزله وتوليه غيره وذلك حفاظاً على حُسن تيسير الشئون القضائية وعدم اضطرابها لمرض متوليها كما هو الحال فى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م حين أعيد القاضى على بدر الدين محمود العينتابى[١] الى منصب قاضى قضاة الحنفية، فباشر بذلك القضاء والحسبة[٢] ونظر الأحباس[٣]، وذلك نظراً لطول فترة مرض القاضى زين الدين عبد الرحمن التفهني(ت:٨٣٥هـ/١٤٣٢م)[٤].

ومن جملة القضاة الذين طلبوا الإعفاء عن وظائفهم التى رسم لهم بمباشرتها وامتنعوا لشدة مرضهم قاضى القضاة شهاب الدين احمد بن الكشك[٥] عندما أرسل إليه السلطان برسباى فى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٤م يكلفه بكتابة السر ببلاد الشام غير ان القاضى شهاب الدين احمد بن الكشك اعتذر عن قبول ذلك المنصب وذلك بسبب ضعف بصره وشدة الآلام التى تعتريه، فأجابه السلطان لذلك ورسم للوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ بكتابة السر[٦].

وكان لضعف الجسد الذى يصحب كبر السن حافزاً للعزل من منصب القضاة فى العصر المملوكى لتولية القادر على إدارة شئون الوظيفة لدى الدولة المملوكية فى مصر

---

(١) العينتابى(ت:٨٥٥هـ/١٤٥١م):"هو أبو محمد بدر الدين محمود ابن القاضى شهاب الدين احمد محمود العينتابى الحنفى، قاضى قضاة الديار المصرية. توفى فى ليلة الثلاثاء رابع ذى الحجة٨٥٥هـ ."(انظر ترجمته فى السيوطى: نظم العقيان فى أعيان الأعيان، ج١، صـ ١٧٤؛ عبد الحي الكتانى: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، دار الغرب الاسلامى، بيروت، ١٩٨٢م، ج٢، صـ ٨٣٩؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨٢م، ج١٢، صـ ١٥٠).

(٢) الحسبة: "الحسبة هى إحدى الوظائف التى وجدت منذ أواخر العصر الأموى فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك من عام(١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤- ٧٤٣م) على وجه التحديد، وأصبحت ذات شأن كبير فى الولايات الإسلامية بعد ذلك فى مطلع القرن الرابع الهجرى...." انظر سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة فى مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٦م، صـ ٤١.

(٣) نظر الأحباس: " الناظر فى أرزاق الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا والمدارس من الأراضى المفردة لذلك، وما هو من ذلك القبيل على سبيل البر والصدقة لأناس معينين." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٥٢.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٣٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٣٥٧.

(٥) القاضى أحمد بن الكشك(ت:٨٣٧هـ/١٤٣٤م):" هو احمد بن محمود بن احمد بن إسماعيل– بن محمد– بن أبى العز، الدمشقى شهاب الدين الحنفى المعروف باب الكشك انتهت إليه رئاسة أهل الشام فى زمانه.... وكانت وفاته ليلة الخميس سابع ربيع الأول بالشام"(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٥٢٠ – ٥٢١).

(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٣٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٣٦٠.

سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م استعفاء شيخ الاسلام[١] سعد الدين بن الديرى[٢] نظرا لمرضه وكبر سنه عن رئاسة قضاة الحنفية بالديار المصرية واستقرار القاضى محب الدين بن الشحنة[٣] عوضاً عنه[٤].

وفى سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م عزل قاضى القضاة زين الدين زكريا[٥] نفسه لضعف بصره، فعين السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى بدلاً منه القاضى محيي الدين عبد القادر بن النقيب[٦](ت:٩٢٢هـ/١٥١٦م)[٧].

---

(١) شيخ الإسلام: " وأطلق هذا اللقب على كبار العلماء ولم يكن صاحبه مقيداً بوظيفة أو منصب وإنما ارتبط بأصحاب الشهرة الدينية والعلمية الواسعة." انظر حسن أحمد التطاوى: المرجع السابق، صـ ١٤٠.

(٢) شيخ الاسلام سعد الدين بن الديرى(ت:٨٦٧هـ/١٤٦٣م)" هو قاضى القضاة شيخ الاسلام سعد الدين سعد ابن قاضى القضاة شيخ الاسلام شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد الديّرى المقدسى الحنفى مولده ببيت المقدس فى شهر رجب سنة ثمان وستين وسبعمائة...مات سنة ٨٦٧هـ"(انظر ترجمته فى السيوطى: نظم العقيان، ج١، صـ ١١٥).

(٣) محب الدين بن شحنة(ت:٨٩٠هـ/١٤٨٥م):" هو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازى بن أيوب بن محمود بن الشحنة، قاضى القضاة محب الدين أبو الفضل، المعروف بابن الشحنة ولد يوم الجمعة ثانى عشر رجب سنة أربع وثمانمائة... وألف "طبقات الحنفية" مات فى المحرم سنة تسعين وثمانمائة....."(انظر ترجمته فى السيوطى: نظم العقيان، ج١، صـ ١٧١ – ١٧٢).

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٢٧١.

(٥) زين الدين زكريا(ت:٩٢٥هـ/١٥١٩م):" هو شيخ الاسلام قاضى القضاة زين الدين الحافظ زكريا بن محمد بن احمد بن زكريا الأنصارى السنيكى ثم القاهرى الأزهري الشافعى ولد سنة ست وعشرين وثمانمائة بسنيكة من الشرقية ونشأ بها وحفظ القرآن ثم تحول الى القاهرى سنة إحدى وأربعين فقطن فى جامع الأزهر وكمل واستمر قاضياً مدة ولاية الأشرف قايتباى، ثم بعد ذلك الى ان كف بصره فعزل بالعمى...." (انظر ترجمته فى نجم الدين الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، صـ ١٩٨– ٢٠٠؛ العيدروس: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، صـ ١١١؛ شمس الدين ابن الغزى: ديوان الاسلام، تحقيق: سيد كسروى حسن، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م، ج٢، صـ ٢٦٦).

(٦) عبد القادر ابن النقيب القاهرى(ت:٩٢٢هـ/١٥١٦م):"هو قاضى القضاة محيي الدين عبد القادر، المعروف بابن النقيب القاهرى الشافعى، قرأ على جماعة من الأعلام، منهم الكمال بن أبى شريف وكان بيده مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء..." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٤، صـ٢٨٠–٢٨١).

(٧) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤٤٨.

ثالثاً: الأمراض عن طريق السم:-

ولقد بلغ الأمر بسلاطين المماليك كعادة الأيوبيين القيام بتعيين أمير جاشنكير وكانت مهمة هذا الأمير ان يأكل قبل السلطان خوفاً من أن يدس عليه السم فى أكله أو شربه، كما كانت العادة فيمن قبلهم من الملوك الأيوبيين[١]، وهذا ان دل على شئ فانه يدل عن روح الشك وعدم الثقة التى سيطرت على عصر المماليك[٢].

وقد يحمل سوء التصرف والتدبير السلاطين فى عصر المماليك التخلص من أحد الأمراء قتله بدس السم له، لعظم شوكة ذلك الأمير، أو كثرة الوهم منه وقد وافاتنا المصادر التاريخية بالعديد من حوادث القتل بدس السم ومن ذلك.

وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار[٣] سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م حيث تشيد المصادر بدوره فى تولية السلطان الملك السعيد بركة خان(٦٧٦-٦٧٨هـ/١٢٧٧-١٢٧٩م) أمور السلطنة بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس حيث اتهم الملك السعيد بركة خان بسمه، بإعطائه "هناباً" فيه مشروباً، فشرب منه جرعتين، وأعاده فى الثالثة لكثرة إلحاحهم عليه، وتوجه الى داره فحصل له قولنج فمات[٤].

ولجأ السلاطين فى العصر المملوكى فى بعض الاحيان الى قتل أحد الشخصيات البارزة فى الدولة بالسم لا لنفوذه فى الدولة بل لصرف تأويل أرباب التقاويم والنجوم فى بعض الأحيان، ومن هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس عندما أشيع فى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م عن أرباب التقاويم انه سيموت فى هذه السنة ملك بالسم، فلجأ السلطان الملك الظاهر بيبرس لكى يصرف عنه ذلك التأويل الى غيره، بدعوة أحد أولاد الناصر داود الايوبى، وأحضر قمزاً مسموماً وأمر السقاة بسقى الملك القاهر فمات عقب ذلك ثم شرب الظاهر

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٦٤.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١٩٠.

(٣) الخزندار: " بكسر الخزندار: لقب للذى يتحدث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما، وهو مركب من خزانة، وهى ما يخزن فيه المال، وكلمة دار معناها ممسك، والمقصود ممسك الخزانة ..." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ٦٨؛ حسن الباشا: المرجع السابق، صـ ٢١١- ٢١٥.

(٤) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٨، صـ ٢١٠، ٢١١؛ ابن فضل العمرى: المصدر السابق،ج٢٧، صـ ٤٢٥؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٣٧١؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٧، صـ ٦١٣.

بيبرس من ذلك " الهناب" الذى به آثار السم خطئاً فمرض أياماً ثم مات[١].

ويلاحظ كما اشرنا من قبل خلال العصر المماليكى كثرة الاتهامات التى توجه الى السلاطين بقتل الشخصيات البارزة التى يخشى منها الوثوب على السلطنة ولاسيما عند موت أحد السلاطين المخلوعين فجأة دون اى مبررات فسرعان ما توجه أصبع الاتهام الى السلطان القائم فى السلطنة بدس السم له لاغتياله ويأمن غائلته .كما هو الحال فى سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م حين مرض الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس لمدة يسيرة ثم مات، حيث اتهم السلطان الملك المنصور قلاوون انه دس السم لاغتياله، وذلك لما سمع كثرة استخدامه وشرائه للمماليك مما أقلقه وأراد التخلص منه باغتياله بالسم[٢].

ويبدوا ان الاتهام بدس السم قد يكون أحد الأسباب فى جعل السلاطين فى العصر المماليكى لا يقوم بتوقيع ولاية العهد لابنه لمجرد اتهامه بدس السم لأخيه– مثال ذلك– حينما توفى السلطان الملك المنصور قلاوون دون أن يوقع كتاب العهد لابنه خليل وكان من ضمن الأسباب التى أدت الى ذلك، اتهام الأشرف خليل بدس السم لأخيه الصالح علاء الدين على حين مات من دوسنتاريا كبدية[٣].

واهتم بعض سلاطين المماليك بصناعة السموم القاتلة مما حذا بصانعيها التقرب إليهم بتركيبها لهم، ومن أمثلة ذلك حين عثر سنة٧٤٧هـ/١٣٤٦م على صندوق بداخله قارورات بها سموم قاتلة عرفت بمعرفة الأطباء وقد نسب ذلك الصندوق الى المزين[٤] المغربى الذى تقرب الى الكامل شعبان سنة حكمه بتركيب السموم له حين كان فى قوص، وقد قدم معه لما تسلطن فأقامه الكامل شعبان رئيس الجراحية وقد ركب تلك

(١) " وكان المذكور من أولاد الملك الناصر داود يسكن البر و تزوج من العرب وأقام بينهم يسير معهم حيث ساروا وإذا غزوا غزا معهم ..." انظر زبيدة محمد عطا: مخطوط زبدة الفكر، ج٩، صـ ١٤٧؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ١٨٠؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ١٧٧؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٣٨٣.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٢٧٢.

(٣) زبيدة محمد عطا: مخطوط زبدة الفكر، ج٩، صـ ٣٠٨– ٣٠٩؛ ابن أيبك: المصدر السابق، ج ٨، صـ ٢٨٢؛ المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٠٧؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٤) المزين:" فثمة إشارة واضحة تفرق بين "المزين" و" الحلاق" أن المزين كان يقوم بختان الأطفال أما الحلاق فكان يتولى قص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون ..." انظر قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ١٤٤.

السموم التى عثر عليها فى الصندوق بين يدى السلطان الكامل[١].

وقد يصاب سلاطين المماليك بالقلق حيال تدهور حالتهم الصحية مما يجعله يقدموا على القيام بأفعال تنفر منها النفوس ويدب الشك فى قلوبهم حيال الأمراء ويشكوا فى وضعهم السّم لهم، مثلما نقم السلطان الملك برسباى(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م من الأمير الطواشى فيروز الرومى الساقى[٢] واتهمه بأنه دس له السم، وكان تخيل منه عندما لم ينصحه الأطباء بالعلاج، فتقدم له الأمير فيروز المذكور "بمغلى ليشربه" فأشار إليه السلطان بأن يشرب منه القليل قبله، فامتنع بأنه كان صائماً، حينئذ تحقق السلطان ما كان ظنه به، واتهمه فيمن تهمه إلا ان السلطان وافاته المنية قبل ان يعاقبه[٣]" فلزم فيروز داره مترقباً للتوسيط الى ان مات الأشرف"[٤].

وفى حادثة غريبة أشارت اليها احد المصادر وهى إقدام السلطان المملوكى الى اغتيال ابنه بالسم لنفور ذلك السلطان من أفعال ابنه التى دفعته الى ان يدس السم لابنه حقداً عليه ثم سرعان ما يندم السلطان على فعله ولكن دون جدوى مع تمكن السم من جسد ولده فمات وهو ما حدث فى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م حين استقر السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى من تمنى ولده الصارم ابراهيم له الموت، وأخذ يعد الأمراء المواعيد الحسنة عند تولية السلطنة، فاندفع السلطان ودس بعض خواصه يسقى ولده الصارمى سماً تأثيره طويل المدى فلما شربه أحس الصارمى ابراهيم بألم فى معدته وعكف الأطباء لعلاجه حوالي نصف شهر حتى اذا اشرف على الشفاء دسوا عليه من سقاه ثانياً دون علم أبيه فعاوده المرض الشديد حتى مات ولقد حزن المؤيد شيخ حزناً شديداً وندم على ما فعله مع ابنه وظل السلطان مريضاً لمدة ستة أشهر توفى بعدها[٥].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٦.

(٢) فيروز الرومى الساقى(ت:٨٤٨هـ/١٤٤٤م)" هو الأمير الطواشى فيروز بن عبدالله الجركسى الرومى الساقى الزّمام، بطالاً بالقاهرة، فى يوم الأربعاء رابع عشر شعبان ودفن بمدرسته التى أنشأها بالقرب من داره، عند سوق القرب (بالقرب من الحارة الوزيرية) بالقاهرة توفى سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م-على حد قول ابن حجر وأبوالمحاسن-" (انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ٢٣١؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ١٧٦).

(٣) أبوالمحاسن: حوادث الدهور،ج١، صـ ١١٤.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ١٧٦.

(٥) ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٢٣٢ – ٢٣٣.

وأصبح القتل بالسم فى عصر سلاطين المماليك وسيلة للتخلص من الأمراء الذين يخشى عاقبة أمرهم لكثرت أتباعهم ومماليكهم مما يعزو بأحد رجال الدولة القيام بدعوة الأمير المراد التخلص منه لشوكته فى الدولة الى مائدة طعام مسموم ليتناول منه فيمرض أياماً ثم يموت جراء فعل السم كما حدث سنة٦٩٣هـ/١٢٩٤م حين عظم أمر الأمير بدر الدين بكتوت العلائى[١] فى دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى كان يجلس فوق أكابر الأمراء مع كتبغا[٢] والتفت حوله جماعة من الأشرفية فخشي كتبغا من عاقبة أمره بتقرب الأشرفية إليه، فدبر عليه مؤامرة للتخلص منه بأن دعاه لطعام مسموم (وقيل) سقاه فى مشروب، فمرض العلائى أربعة أيام ومات[٣].

ومن كبار رجال الدولة الذين احترفوا دس السم للتخلص من طائفة يخشى عاقبة أمرها فى الدولة الأمير منكوتمر(ت:٦٩٨هـ/١٢٩٨م) نائب السلطنة فى عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين الذى تحايل على قتل أمراء الدولة الأشرفية، بدس السم لهم فى الطعام، وبعضهم الآخر بدس السم له فى الشراب وكان من بين هؤلاء الأمير سيف الدين طقطية(ت:٦٩٨هـ/١٢٩٨م) حين أرسل الى بلده سمنود[٤] بدستور، فسير إليه منكوتمر من يدس السم له فى طعامه، فشعر بالألم ونزل فى الحراقة وتوفى فور وصوله إلى سمنود[٥].

وفى سنة٧٠٩هـ/١٣٠٩م كان السبب المباشر لخروج الأمير قرا سنقر(ت:٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) نائب حلب عن طاعة السلطان المظفر بيبرس وعدم إذعانه بالسمع والطاعة

---

(١) بكتوت العلائى(ت:٦٩٣هـ/١٢٩٤م):" هو الأمير بدر الدين بكتوت بن عبد الله العلائى كان أولاً من أعيان أمراء دمشق، ثم انتقل الى القاهرة، وعلت رتبته بها فى الدولة الأشرفية خليل بن الملك المنصور قلاوون توفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة." (انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٥٢، صـ ١٧٥).

(٢) كتبغا(ت:٧٠٢هـ/١٣٠٣م): " هو كتبغا بن عبد الله المنصورى، الملقب بالملك العادل، من ملوك المماليك البحرية أصله من سبى التتار من عسكر هولاكو أخذه الملك المنصور قلاوون فى وقعة حمص الأولى (٦٥٩هـ) وجعله من مماليكه، فنسب إليه (المنصورى)...." (انظر ترجمته فى الزركلى: المصدر السابق، ج٥، صـ ٢٦٩).

(٣) العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٥٣.

(٤) سمنود:" وهى على شاطئ النيل كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبرى ثلاثة فراسخ.." (ابن بطوطة: المصدر السابق، ج١، صـ ٢٤؛ المقريزى: الخطط، ج١، صـ ٣٣٩).

(٥) العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤٨٩ – ٤٩٠.

للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عند خروجه من الكرك ان بيبرس كان قد قتل ابنه محمداً بن قرا سنقر بان تحيل عليه من دس له السم فمات، وحين تحقق قرا سنقر من ذلك الأمر أخذ يحابيه ويرابيه، وفى ظن بيبرس عدم معرفة قرا سنقر أمر اغتيال ابنه بالسم(١).

كما لجأ بعض السلاطين فى عصر المماليك أحياناً لإغتيال احد الأمراء بوضع السم له بعد ان علم تآمره على قتل السلطان على حين غفلة منه ومن هؤلاء السلاطين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى اتهم فى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م بقتل الأمير بكتمر الساقى وولده بالسم وخبر ذلك حين بلغ السلطان الناصر محمد أثناء طريقه لأداء مناسك الحج تآمر الأمير بكتمر الساقى مع عدد من الأمراء عليه لقتله فأراد السلطان الرجوع متظاهراً بمرض أصابه بعد وصوله الى عقبة أيلة فوافقه جميع الأمراء إلا بكتمر الساقى الذى شنع على السلطان رجوعه وأشار عليه بموصلة السفر، فاضطر السلطان موافقته واحترز على نفسه غاية الاحتراز وخوفاً على حياته فقد ظل ينتقل من مكان إلى آخر فى الليلة الواحدة خوفاً على حياته فما لبث ان مرض بكتمر الساقى وولده عقب ذلك، فمات ولده أحمد فى ٧محرم ٧٣٣هـ/٢٨سبتمبر١٣٣٢م ثم تبعه والده بعد بيومين فى ١٠ محرم٧٣٣هـ/ ١أكتوبر١٣٣٢م(٢).

وعلى صعيد آخر يبدو ان الاغتيال بالسم قد شاع صيته فى العصر المملوكى حتى صار اذا مات أحد من الأعيان أو السلاطين لسبب من الأسباب سرعان ما يشار بأصابع الاتهام الى أحد السلاطين أو الأمراء باغتياله بالسم، ذلك ما حدث فى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م حين اتهم السلطان الملك الظاهر برقوق باغتيال الامير سيف الدين بطا بن عبد الله الطولوتمرى الظاهرى(٣) بدس السم له بعد توليه نيابة الشام بأيام قليلة(٤).

---

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ١٨٠.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٧٠، ١٧١؛ اليوسفى: المصدر السابق، صـ ١٦٢.

(٣) بطا الطولوتمرى(ت:٧٩٤هـ/١٣٩٢م): " هو الأمير سيف الدين بطا بن عبدالله الطولوتمرى الظاهرى الدوادار، ثم نائب دمشق اشتراه الملك الظاهر برقوق فى سلطنته وجعله من خواصه، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة عند زوال ملكه فى وقعة الناصرى"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٢٩؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٣٧٥).

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٢٩.

كما اتهم الأمير سنقر الرومى المستأمن[١] بدس السم للصالح إسماعيل وأخيه الكامل شعبان فقبض عليه ونفى مدة بعد حكم المظفر حاجى ثم احضر بعد ذلك وانعم عليه بإمرة[٢].

وكذلك اتهام الملك الناصر فرج سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م باغتيال أخويه ابراهيم وعبد العزيز فى ثغر الإسكندرية بدس السم لهما[٣]، واتهم الملك الناصر فرج سنة ٨١٤هـ/١٤١١م حين مرض الأمير تغرى بردى مرض الموت فلهجت الناس ان السلطان الناصر قد اغتاله بالسم بينما نفت خوند فاطمة[٤] زوجة السلطان الملك الناصر فرج وابنة الأمير تغرى بردى تلك الإشاعات، عند سماع مرض والدها وذكرت ان السلطان كان يرى فى أبيها انه من دعائم استقرار حكمه[٥]، وفى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م حين مات الأمير خاير بيك نائب غزة بسجن الإسكندرية، توجهت أصابع الاتهام للسلطان الناصر فرج باغتياله بالسم[٦].

ومن جملة الاتهامات القتل بالسم اتهام السلطان الملك الأشرف برسباى سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م بدس السم للأمير جانبك الحمزاوى حين مات بقرب بعلبك، وكان قد امتنع عنها امتناعاً كليا فألزمه السلطان توليتها كرهاً فبدر من أفعال الأمير حيال إلباسه الخلعة ما يفيد إضماره السوء للسلطان، وحين بلغ السلطان فقال حتى يصل الى غزة متواعدا له فمات بالقرب من بعلبك الأمر الذى جعل الناس يلهجون باغتيال جانبك بالسم بفعل السلطان[٧].

---

(١) سنقر الرومى (ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :" هو سنقر الرومى المستأمن قدم فى زمن الناصر رسولاً فاسلم وأقام بالقاهرة فأعطى أمرة عشرة وكان عارفاً بالنبات والعقاقير والفلك فداخل الأمراء فى ذلك وتمكن منهم حتى حصل له مال مات بالطاعون عام ٧٤٩هـ " (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٩٥؛ ابن حجر:الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٣٢٥).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٩٥.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ١٧٥ ؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٣، صـ ٤٧؛

William Muir: Ibid, p. 125

(٤) خوند فاطمة (ت:٨٤٦هـ/١٤٤٢م) " هى خوند فاطمة زوجة الملك الناصر فرج ، ومولدها خمس وتسعين وسبعمائة ...... " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٤٢).

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٢٧.

(٦) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٢٩.

(٧) ابوالمحاسن: المصدر السابق، ج١٥، صـ ٣٣.

ومن أمثلة الاتهامات بدس السم لأعيان الدولة فى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى وقد شهدت سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م أن اتهم أبوبكر دوادار بُرد بك الجمقدار[١] بدس السم لأستاذه بُرد بك، فشاعت الأقدار بموت أبوبكر قبل برد بك بأيام[٢].

وفى٨٨٤هـ/١٤٧٩م نسب المماليك الجلبان وفاة الأمير جانم[٣] اغتياله بالسم بمؤامرة من الأمير يشبك(ت:٨٨٥هـ/١٤٨٠م) فتواعده المماليك الجلبان وحاولوا اغتياله أكثر من مرة، فكان لتزايد ترص المماليك الجلبان لاغتياله ان انقطع عن الخروج من القلعة أياماً حين كثر الاتهام الموجهه فى حقه بسبب ذلك[٤].

ويبدو ان دس السم فى العصر المملوكى لم يقتصر على الطعام والشراب فحسب بل تعدى ذلك عن طريق وضعه فى الملبس السلطان أو الأمير من ذلك ما حدث فى سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م قتل الأمير كرتباى الأحمر[٥] مسموماً بأن وضع أحد غلمانه السم له فى زيق الكوفية[٦] فلما ارتداها الأمير كرتباى وعرق فيها تسرب السم فى جسده فتورم وجهه حتى وصل الورم الى قلبه فمات[٧].

وعلى صعيد آخر لم يقتصر دس السم لقتل رجال الدولة على السلاطين والأمراء فحسب بل يبدو ان بعض طوائف الشعب قد شاركوا فى دس السم للأعيان الدولة مثلما حدث سنة ٧٨٦هـ حين أشيع ان المزين الذى تولى علاج القاضى تقى الدين بن القاضى

---

(١) بُرد بك (ت:٨٧٥هـ/١٤٧٠م):"هو بُرد بك المشطوب اليشبكى، أحد الأمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثانى وأصله من مماليك يشبك نائب حلب. توفى سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م"(انظر ترجمته فى ابن اياس:المصدر السابق،ج٣ ، صـ ٥٢).

(٢)ابن إياس : نفسه، ج٣،صـ ٥٢.

(٣)جانم الشريفى (ت:٨٨٤هـ/١٤٧٩م): " هو الأمير جانم الشريفى قريب السلطان، أحد المقدمين وكان قد تزوج بأخت خوند زوجة السلطان " (انظر ترجمته فى ابن إياس: نفس المصدر، ج٣، صـ ١٥٣-١٥٤).

(٤) ابن اياس: نفس المصدر، ج٣، صـ ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨.

(٥) كرتباى الأحمر (ت:٩٠٤هـ/١٤٩٨م) " هو الأمير جركسى كرتباى بن عبد الله، نائب دمشق كان حسن السيرة بالنسبة الى غيره من الأمراء، وكان يكره المناحيس والمفسدين، وله عليهم سطوة زائدة ثم مات فى عاشر ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة رحمه الله تعالى ....." (انظر ترجمته فى نجم الدين العزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج١، صـ ٣٠١).

(٦) الكوفية:" هو نسيج من حرير أو نحوه يلبس على الرأس تحت العقال أو يدار حول الرقبة "(انظر ابراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق، ج٢، صـ ٨٠٥).

(٧) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٤٠٦.

محب الدين ناظر الجيش[1] بعد ان ضربه السلطان الملك الظاهر برقوق ثلاثمائة عصاه بسبب إقطاع زامل[2] أمير العرب فأشيع ان المزين قد جعل فى اللصق التى كان يلصقها عليه سم، وكان ذلك بدسيسه من بعض الأقباط[3].

أما النساء فيبدو أنهن شاركن الرجال فى دس السم خلال العصر المملوكى ومن شواهد ذلك انه فى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م توفى القاضى زين الدين عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن[4] مسموماً بدسيسه من زوجته أم ولده ونتيجة الغيرة النسائية لزواجه بأخرى[5].

---

(١) تقى الدين بن محب الدين(ت: ٧٨٦هـ/١٣٨٤م): " هو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم التيمى الحلبى الأصل ، ناظر الجيش، ولد سنة ست وعشرين وسبعمائة، ولى نظر الجيش استقلالاً بعد أبيه، ومات فى حادى عشر جمادى الأولى" (انظر ترجمته فى ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٥٠١؛ عمر كحالة: المرجع السابق، ج٥، صـ ١٩٣).

(٢) إقطاع زامل أمير العرب: " وكان الأمير زامل بن على لا تزال الفتنة بينه وبين الأمير عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضبة بن فضل بن ربيعة فلما طلعت العساكر الى الشام مع الأمير طيبرس قبضوا على زامل بن على بالبلاد الحلبية وحمل الى قلعة عجلون، ثم نقل الى القاهرة واعتقل ثم أفرج عنه وحضر الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا وأحمد بن حجى والأمير هارون وأصلح السلطان بينهم وبين زامل إقطاعه وإمرته وأذن لهم فى السفر..."(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٥؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ١١٥).

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ١٣٥.

(٤) القاضى زين الدين التفهمنى (ت:٨٣٥هـ/١٤٣٢م): " هو قاضى القضاة عبدالرحمن بن على بن عبدالرحمن بن على بن هاشم التفهمنى .. ثم قرأ تدريس الصرغتمشية، مات – قيل – مسموماً فى شوال سنة خمس و ثلاثين وثمانمائة..." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٤٠ –٢٤١؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، صـ ٤٧٣).

(٥) ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٣١١.

رابعاً: دور الأمراض فى الدسائس والمؤامرات:-

أما عن الدسائس والمؤامرات فقد كانت من أشر الآفات التى وابتليت بها مصر خلال عصر سلاطين المماليك، تلك الفتن المحتدمة والمؤامرات المستعرة الواسعة التى دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر، أو دبرها بعض الأمراء ضد سلطانهم أو قام بها بعض المماليك ضد سادتهم من سلاطين أو الأمراء، وقد ادى ذلك طريقة الحكم المتبعة، التى غرست الآمال الواسعة فى نفوس الأمراء للوصول الى العرش أو الاستحواذ على المال والجاه والنفوذ، فأثاروا الفتن ابتغاء ان يكون الورقة الرابحة من نصيبهم[١].

واتخذ الأمراء فى العصر المملوكى- كما تشير المصادر- من الإدّعاء بالمرض ساتراً للانقطاع فى الدار والتدبير على السلطان حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة يظهرون بكل شراسة للوثوب على السلطان- ومن هذه الشواهد- عندما تمكن الخلاف بين السلطان الملك الناصر محمد بن والأميران سلار وبيبرس الجاشنكير سنة٧٠٧هـ/١٣٠٧م وقرروا إشعال الفتنة، حين خرجا من مجلس الملك الناصر لاستعطافه بالعفو عنهما، فما لبثوا ان خرجوا اظهرا ما أضمرا فى نفسيهما وأعلنا الخروج عن الطاعة فيظهر لنا على مسرح الأحداث الأمير شمس الدين سنقر الأعسر[٢] وكان قبل ذلك "انقطع فى داره، وادعّى المرض"، فلما كانت هذه الفتنة نجده أول من ركب فى جماعة من مماليكه مظهرين السلاح وانتهت تلك الفتنة" ان بادروا بالصلح مع السلطان على ان يسلم بعض الخاصكية الذين أوغروا قلب السلطان ضدهم" فما وسع السلطان إلا إخماد هذه الفتنة الثائرة فسيّرهم إليهم[٣].

ومن المؤامرات السياسية التى تسردها لنا المصادر والتى يكون المرض فيها أحد أركانها الرئيسية حين يتخذ فيها الأمير المتآمر من المرض خطوة أوليه لنجاح تلك

---

(١) محمد عبد الغنى الأشقر: الملحمة المصرية عصر سلاطين المماليك الجراكسة ورد الاعتبار فى عهد برسباى(٧٦٧-٨٢٩هـ/ ١٣٦٥- ١٤٢٦م)، ط١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٢م، صـ ٤٤.

(٢) سنقر الأعسر(ت:٧٠٩هـ/١٣٠٩م) " كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام، وجعله دواداره، فباشر الدودارية لأستاذه بدمشق..)انظر ترجمته في المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ١٥٣-١٥٤).

(٣) النويرى: نفس المصدر، ج٣٢، صـ ١٢٩.

المؤامرة لتسهيل الفتك بالسلطان من خلالها، وذلك من خلال إظهار المرض ليقوم السلطان بزيارته فى بيته فيتمكن من الفتك به بسهولة دون معاناة من وجهة نظره.

ومن تلك المؤامرات التى شهدها العصر المملوكى، مؤامرة على باى[١] سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م حين لزم داره مظهراً المرض، وكان فى باطن أمره الفتك بالسلطان الملك الظاهر برقوق لعلمه ان الظاهر برقوق اذا نزل لفتح الخليج كعادة من سبقوه من سلاطين المماليك يزوره فى مرضه كعادته مع غيره من الأمراء، ولنجاح تلك المؤامرة أخلى على باى إسطبله من الخيل وداره من حريمه وأعد عدة أجناد من مماليكه المختارين ليتهيئوا للفتك بالسلطان فور دخوله لعيادته، إلا ان السلطان الملك الظاهر برقوق قد فطن لما دبره عليه من أحد المماليك اليلبغاوية، فتحايل السلطان عند عودته من فتح الخليج بإخفاء مظاهر موكب السلطان حتى يتمكن من العودة الى القصر لضمان نجاح تلك الحيلة ارسل السلطان لعلى باى الأمير أرسطاي[٢](ت:٨١١هـ/١٤٠٨م) يوهمه انه فى طريقه لعيادته حتى اطمئن على باى وظن ان حيلته قد تمت غير انه فوجئ بعد ذلك بنجاة السلطان من المكيدة التى دبرها له فخرج ومعه نحو الأربعين فارساً من رجاله يقصدون اللحاق بموكب السلطان، فنزلت إليه طائفة من المماليك السلطانية لقتاله، فقاتلهم حتى انهزم ومن معه ثم قتل سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م[٣].

---

(١) مؤامرة على باى(ت:٨٠٠هـ/١٣٩٧م) سبب مؤامرة على باى لاغتيال السلطان الملك الظاهر برقوق:" ان نكباى(شاد شربخاناه على باى) هذا كان تعرّض لجارية من جواري الأمير آقباى الطرنطاى؛ وصار بينهما مشاكله، فبلغ ذلك آقباى، فمسك نكباى المذكور وضربه ضرباً مبرحاً حتى أطلقه ، فحنق على باى من ذلك، وشكا آقباى للسلطان، فلم يلتفت السلطان إليه، وأعرض عنه، وكان فى زعمه ان السلطان يغضب على آقباى بسبب مملوكه، فغضب على باى من ذلك، ودبّر هذه الحيلة الباردة، فكان فى تدبيره تدميره.." (انظر ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ٨٥).

(٢) ارسطاى الظاهرى(ت:٨١١هـ/١٤٠٨م):"هو الأمير سيف الدين ارسطاى بن عبد الله الظاهرى، نائب الاسكندرية وهو من مماليك الملك الظاهر برقوق، توفى فى سنة ٨١١هـ....."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٢، صـ٢٩٨).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤١٧-٤١٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٢، صـ١١- ١٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ٨٢-٨٣.

خامساً: دور الامراض فى العمليات العسكرية(الفتوحات):–

وكشفت المصادر التاريخية ما كان للأمراض من دور هام فى الفتوحات والعمليات العسكرية فى عصر سلاطين المماليك كما حدث فى فتوحات السلطان الملك الظاهر بيبرس حين قتل أهل قارا[١] وسبى زراريهم سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م حيث يذكر ابن أيبك فى تاريخه أن سبب ذلك ركابيا من ركابية الديار المصرية، حصل للركابى مرض فانقطع قريباً من قارا، فضايفه رجلين من أهل قارا، فأقام عندهم ثلاثة أيام حتى تعافا، فأسروه فباعوه بأربعين ديناراً صورية، فاشتراه أحد تجار دمشق فأطلقه، فخدم ركبداراً مع بعض الأجناد، فلما نزل السلطان على قارا، اتصل الركابى بالأتابك فقص عليه حاله، فذكرها الأتابك للسلطان، فلما تحقق السلطان من الأمر وأمسك بالقارى الذى أسر الركابى ذكر له أن ذلك " كان من فى هذه البلد يفعل ذلك" فقصد السلطان ديار أهل قاراً فقتل جميع من بها ونهبها، فكان مرض ذلك الركابى بمثابة شعلة أشتعل لهيبها حتى أدت الى فتح قارا فى النهاية[٢].

كما يلاحظ تدخل الأمراض فى بعض الأحيان فى تأخير الفتوحات العسكرية التى تقوم بها الدولة المملوكية بشكل غير مباشر من ذلك حين أخذ السلطان الملك المنصورسيف الدين قلاوون فى رجب٦٨٨هـ/أغسطس١٢٨٩م أهبة الاستعداد العسكري طالباً بلاد الشام إلا انه تعوّق لمرض ابنه الملك الصالح[٣]فأقام على رعاية ابنه أثناء مرضه حتى سنة٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م الى ان مات الملك الصالح وحزُن عليه الملك المنصور عليه حزناً شديداً[٤].

كما تشير الشواهد التاريخية إلى أنه كان أمراض والأوبئة أثراً كبيراً فى الفتوحات العسكرية لدرجة تصل الى إجبار القيادة العسكرية الى رفع الحصار عن إحدى القلاع المحاصرة التراجع عنها والعودة بالجيوش، بل واتخاذ تلك الجيوش كافة استعداداتها

---

(١) قارا :(بين دمشق وحمص).

(٢) أيبك الدوداري: المصدر السابق، ج٨، صـ ١١٩؛ العمرى: المصدر السابق، ج٢٧، صـ ٤٠٩.

(٣) الصالح بن قلاوون(ت:٦٨٨هـ/١٢٨٩م):" هو الملك الصالح على ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون توفى فى شعبان سبع وثمانين وست مائة "(انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١، صـ٢٥٩).

(٤) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٨، صـ٢٨٢.

العسكرية لمواصلة الغزو والعودة مرة أخرى بعد انقضاء الأوبئة وهو ما أشارت إليه المصادر حين كتب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى نائبه بحلب الأمير ألطنبغا الماردانى(ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م) بمهاجمة بلاد الأرمن[١] لنقض متملكها الهدنة وتعدى نوابه على التجار المسلمين الوافدين على بلاده فصادف الأمير ألطنبغا أثناء محاصرته لقلعة النقير[٢] إحدى قلاع الأرمن وقوع وباء اضطره الى رفع الحصار والعودة بالعسكر إلى بلاده، وكاتب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سبب تراجعه بالعسكر بسبب انتشار الوباء، ووعده بمواصلة الغزو بعد انقضاء الوباء عن تلك البلاد وذلك حرصاً على حياة الجند من الهلاك والموت ولما انحصر الوباء عاد ألطنبغا وفرض حصاراً عنيفاً على قلعة النقير[٣] حتى انتهى أمر غزو بلاد الأرمن بتسليم متملكه مفاتيح القلاع مقابل رد ما سبى ونهب من بلاده وبالفعل تم التسليم وردت السبايا وما أراد ملكها فى سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م[٤].

ومن المعروف ان الجيوش فى العصر المملوكى كانت تنسحب بالدرجة الأولى على مقدار ما تمتلكه القوات المحاربة من الجمال[٥] التى تحمل فوق ظهورها الماء والزاد فى الحملات العسكرية سواء فى الداخل(جنوب مصر) والخارج(بلاد الشام)، إذ كانت الإبل تمثل جزءاً رئيساً من تشكيل القوات والكفاءة القتالية للجيش كوسيلة لنقل التموين والوقود والعتاد، ناهيك عن الغنائم والأسلاب التى كانت عنصراً مهما فى الأهداف القتالية للمماليك والتى كان منوطاً بالجمال حملها من مختلف أقاليم مصر الى القاهرة[٦].

---

(١) بلاد الأرمن:" وبلاد الأرمن الكبار خمسة وهى اياس وسيس والمصيصة وادنة وطرسوس ومملكة الأرمن صغيرة مسيرة أربعة أيام فى مثلها بالتقريب وبها قلاع كثيرة أكثر من مائتي قلعة وهى تسمى بلاد الجوف" ابن الشحنة: الدّر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تقديم: عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربى، دمشق، ١٩٨٤م، صـ ١٨٧.

(٢) النقير:" موضع بين هجر والبصرة" انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٥، صـ٣٠١؛ ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٣٨٧؛ المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٢٨٩).

(٣) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٩٦.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٢٣٠.

(٥) " ومن وسائل النقل والمواصلات فى هذا العصر الإبل والجمال بما عرف عنها من القدرة على تحمل السفر الشاق فى مجاهل الصحراء دون أن يصيبها ظمأ أو مخمصة بما لديها من قدرة على تحمل العطش واكتفاء غذائى ذاتى " انظر علاء طه رزق: المرجع السابق، صـ ١٢٥.

(٦) علاء طه رزق: المرجع السابق، صـ ١٢٨.

وكانت الأمراض فى بعض الاحيان السبب المباشر فى بطئ تحركات الجيوش وتعّوق حمل أثقالهم والآلات الحربية من خلال أصابتها للدواب التى تحمل تلك الأثقال بمرض قاتل مما يؤدى الى حدوث صعوبة حمل تلك المعدات ويؤدى الى إبطاء حركة الجيوش، كما حدث حين رجع السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م بعدما أتم فتح قلعة الروم فأقام بحلب بقية رجب وشعبان، حيث أصاب الجمال خلالها مرض مميت، فأباد أكثرها حتى لم يبق للعسكر ما يحملون عليه أثقالهم فحملوها على البغال مما أبطئ من حركة الجيوش السلطانية فى الرجوع الى الديار المصرية[١].

وفاضت المصادر التاريخية بموت أعداد كبيرة من الجند سنة٨٦١هـ/١٤١٣م، من مرض انتشر بينهم كالوباء من مدينة الرملة[٢] ولم يُعلم سبب ذلك المرض، مما له الأثر البالغ فى تدهور القوة العسكرية لحفظ البلاد وملاقاة أى دخيل على البلاد[٣].

أما عن رجال الدولة والامراء فكان من شأن الأمراض فى العصر المملوكى أن تعوق الأمراء من حضور الحروب والوقائع العسكرية فى بعض الأحيان، ومن الأمراء الذين تخلفوا عن مصاحبة الجيوش فى الفتوحات بسبب الأمراض واقتضى الأمر رجوعهم محمولين فى محفات لتلقى العلاج حتى يتم شفائهم الأمير أزبك بن عبد الله الحلبى[٤](ت:٦٧٩هـ/١٢٨٠) الذى خرج فى جملة عسكرية الى بعلبك[٥] فأصابه مرض حال دون مشاركته في الحملة واقتضى الأمر رجوعه فى محفة فى دمشق، فمات بها فى سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م[٦].

---

(١) العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ١٢٥.

(٢)الرملة:" مدينة بفلسطين، كانت قصبتها، وكانت رباط للمسلمين، وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً ، وهى كورة منها " انظر اليعقوبى: المصدر السابق، ج١، صـ ١٦٦؛ ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج٢، صـ٦٣٣).

(٣)ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١١٠.

(٤)أزبك بن عبد الله الحلبى(ت: ٦٧٩هـ/١٢٨٠م):" هو أزبك بن عبدالله الحلبى العزى كان من أعيان أمراء دمشق وأكابرها."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٤٤؛اليونينى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٥٤).

(٥) بعلبك:"هى مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرّخام لا نظير لها فى الدنيا، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل: اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل"(انظر بدر الدين الغزى: المطالع البدرية فى المنازل الرومية، ج١، صـ٣٩– ٤٠).

(٦)ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٤٤.

كما أشارت المصادر التاريخية إلى عودة الأمير الطواشى حسام الدين جلال المغيثى الجلالى(١) من دمشق الى الديار المصرية لمرض ألّم به، وكان قد خرج صحبة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والعساكر المصرية لملاقاة التتار فى البلاد الشامية مما اضطره المرض من العودة من دمشق ولم يشهد الوقعة ومات بمنزلة السوادة، ودفن فى قطيا(٢).

وفى الفتوحات العسكرية خلال العصر المملوكى قد يؤدى تعرض الأمير لحادث تحول دون مشاركته فى القتال مثلما حدث للأمير علم الدين سنجر الدوادار(٣) حين أرسل على رأس حملة عسكرية لغزو سيس(٤) وغيرها سنة٦٩٧هـ/١٢٩٨ ففتحت تل حمدون وتل باشر(٥) وغيرها إلا ان الأمير علم الدين سنجر أصيب فى قدمه فحالت دون مشاركته فى مواصلة القتال(٦).

وفى سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عند ملاقاة التتر بالبلاد الشامية، وفى يوم القتال اعتزل الأمير بيبرس الجاشنكير(ت:٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) القتال وذلك لإصابته بالإسهال الشديد ولم يستطيع بسببه ان يثبت على فرسه فاعتزل القتال وحُمل فى محفة(٧).

---

(١) الأمير الطواشى حسام الدين جلال المغيثى الجلالى(ت:٦٩٩هـ/١٢٩٩م)" بلال المغيثى الطواشيى الأمير الكبير أبو الخير الحبشى الصالح، توفى بعد الهزيمة بالرملة، وهو فى عشر المائة " (الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٣، صـ ٣٩٧؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٧، صـ ٧٧٩).

(٢) النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٤٠٨؛ قطيا: (قطية)" قرية فى طريق مصر فى وسط الرمل قرب الفرما " ياقوت: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٧٨.

(٣) الأمير علم الدين سنجر الدوادار(ت:٦٩٩هـ/١٣٠٠م):" كان من أكابر الأمراء الألوف بالديار المصرية..." (انظر ترجمته فى الذهبى: معجم الشيوخ الكبير، ج١، صـ ٢٧٣ –٢٧٤؛ ابن رافع: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٢٦).

(٤) سيس:" سيسية وعامة أهلها يقولون سيس: بلد أعظم مدن الثغور الإسلامية بين أنطاكية وطرسوس على عين ذرية وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمن" انظر ياقوت: المصدر السابق،ج٣، صـ ٢٩٧–٢٩٨؛ ابن شاهين: المصدر السابق، صـ ٤٥.

(٥) تل باشر:" قلعة حصينة، وكورة واسعة فى شمالى حلب، وبينها وبين حلب يومان"(انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٤٠؛ ابن الشحنة: المصدر السابق، صـ ١٦٩).

(٦) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٨٩.

(٧) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٣١٩ ؛ العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ١٣.

وعندما جُردت العساكر الى بلاد سيس سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م؛ بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح(ت:٧٠٦هـ/١٣٠٦م)، وعند وصول العسكر الى حلب أصيب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى بمرض منعه من الدخول الى سيس؛ فأقام بحلب "فسار ابنه بالعساكر إلى سيس فأحرقوا مزارعها وخربوا الضياع حتى فتحت وأخذوا منها ستة ملوك من ملوك الأرمن[١].

كما منع المرض سيف الدين طغريل الإيغانى[٢] من متابعة جيشه حين أرسله السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير بصحبة أربعة آلاف مردفاً للأمير سيف الدين برلغى[٣] لمحاربة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى الشام حيث "مرض طغريل فرجع ومات فى أواخر سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٤].

كما أن المرض كان عائقاً حال دون دخول الأمير بدر الدين بكتوت الشمسى سيس حين خرج مجرداً مع العسكر من دمشق، وكانت وفاته بحلب سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م[٥]، ومن الأمراء الذين تخلفوا عن مصاحبة الجيوش لمرض أصابهم الأمير قانى باى المحمدى[٦] الذى تخلف بدمشق فى سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م لمرض أصابه حين خرجت أطلاب السلطان الملك الناصر فرج والأمراء من دمشق قاصداً حلب لقتال شيخ ونوروز والأمراء الذين أعلنوا الخروج عن طاعته[٧].

وأخيرا فان هناك من الشواهد التاريخية التى توضح لنا ان المرض قد لا يمثل أحياناً عائقاً يحول دون إرسال السلاطين للحملات العسكرية، فقد شهد عصر سلاطين المماليك من يتحامل على نفسه مجاهدا شدة ألم المرض لقضاء مصالح رعاياه وخاصة من الناحية

---

(١) العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٠٢؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ٧٧.

(٢) الامير سيف الدين طغريل(ت: ٧٠٩هـ/١٣٠٩م):"وكان من كبار الأمراء وأعيان الديار المصرية" (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٥٢؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ١٦٢).

(٣) الامير سيف الدين برلغى(ت:٧١٠هـ/١٣١٠م)(كان برلغى صهر المظفر بيبرس الجاشنكير زوج ابنته ومن إلزامه) (انظر ترجمته فى المقريزى: الخطط، ج٢، صـ ٣٤٤).

(٤) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٥٩– ٢٦٠؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ١٤٧.

(٥) النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ٣٢٥.

(٦) الأمير قانى باى المحمدى(ت:٨١٨هـ/١٤١٥م):" كان أصل قانى باى هذا من مماليك الظاهر برقوق وأعيان خاصكيته، توفى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م...." (انظر ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٣٥).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٠٥.

العسكرية من ذلك رغم بلوغ المرض والألم بالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٨٤١هـ/١٣٤١م ذروته إلا انه تحامل على نفسه للجلوس ورسم بتجهيز العسكر، ليتوجهوا صحبة الرسل صاحب العراق ومعجم الشيخ حسن الكبير[١] مؤازرة لهم على الشيخ حسن بن تمرتاش[٢](ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م)[٣].

ومن سلاطين المماليك الذين أصروا على تتبع حركات الجيوش وأصداره للأوامر العسكرية السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى فقد شهدت سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م خروج المؤيد شيخ محمولاً على الأعناق لمرض أصابه فى رجليه لقتال قرا يوسف[٤]، وقد أصدر أوامره الى الأمراء للتأهب للحرب والتجهيز بالآلات الحربية والجنود، وقد قام بترتيب تلك الأمور وهو لا يستطيع النهوض والركوب وإنما ينتقل من مكان للآخر إلا على المحفة[٥].

كما تشير المصادر الى إصرار بعض الأمراء على المشاركة فى الفتوحات العسكرية رغم مرضه الشديد ابتغاء نيل الشهادة فى سبيل الله، ومن هؤلاء الأمير أيدمر الشمسى القشاش[٦] الذى رغم ألآمه الشديدة التى يعانى منها بسبب مرض أصابه فى قدمه أصر على الخروج لغزوة شقحب[٧] محمولاً فى محفة، ولما كان يوم القتال، ركب فرسه وتزود بسلاحه وهو فى غاية ألألم من رجله فقاتل حتى استشهد سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م[٨].

---

(١) حسن الكبير(ت:٧٥٧هـ/١٣٥٦م):"سلطان بغداد حسن بن أقبغا بن إيلكان بن خربيدا بن أرغون بن هلاكو المعلى، ويعرف بحسن الكبير تمييزاً له عن حسن بن تمرتاش وكان حسن الكبير ذا سياسة حسنة، وقيام بالملك أحسن قيام "(انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١١، صـ ٣٠٦– ٣٠٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ١١٤– ١١٥.

(٢) حسن بن تمرتاش(ت:٧٤٤هـ/١٣٤٣م):"هو الشيخ حسن بن تمرتاش(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ١٠٧).

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ١٣١.

(٤) قرا يوسف (ت:٨٢٣هـ/١٤٢٠م): " هو السلطان قرا يوسف بن محمد قرا التركمانى ملك العجم كان فى أول أمره من التركمان الرحالة النزّالة ، فتنقلت به الأحوال الى ان استولى بعض اللنك على عراق العرب والعجم، ثم ملك تبريز.. توفى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م ..." (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٢٣٠ – ٢٣١)

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٩٣– ٩٤.

(٦) الأمير أيدمر الشمسى القشاش(ت:٧٠٢هـ/١٣٠٣م):" تأمّر فى أيام المنصور قلاوون ثم الغربية وكان شديداً على المفسدين يقال انه قتل زيادة على اثنى عشر ألف نفس فلم يزل على ولايته الى ان حدث له وجع المفاصل فطلب الإعفاء "(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ٥١١).

(٧) شقحب:" قرية شقحب من عمل دمشق"(انظر محمد كرد على: خطط الشام، ط٣، مكتبة النورى، دمشق، ١٩٨٣م،ج١،صـ ٢٧٦).

(٨) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ٢٠٥؛ العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٩٣.

وشهدت سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م خروج الأمير جركس الخليلى[١] على رأس المماليك السلطانية لقتال يلبغا الناصرى وهو مريض بداء الفيل[٢]، فقتل فى الواقعة بظاهر دمشق فى ربيع الآخر ٧٩١هـ/ابريل ١٣٨٩م[٣].

ومن الامراء الذين خرجوا وهم مرضى فى محفات صحبة الجيوش المصرية الأمير سيف الدين آقبردى المؤيدى المنقار[٤] الذى خرج فى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م وهو محمولاً فى محفة صحبة السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى فى التجريدة العسكرية الى بلاد الشام فمات فى بلاد الشام[٥].

وفى سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م سافر الأمير نوكار الزردكاش[٦] وصحبته عدة من الرماة والنفطية وغيرها من آلات الحصار وهو مريض مدداً للجيش الذى أرسل لقتال ابن قرمان[٧].

---

(١) جركس الخليلى (ت:٧٩١هـ/١٣٨٩م):" هو جركس بن عبد الله كان تركمانى الأصل، أصله من مماليك يلبغا، وتقدم عند الظاهر، وكان حسن الشكل مهيباً وولاه الملك الظاهر أمير آخور بتقدمة ألف، وقرره مشير الدولة وخلف أموالاً كثيرة جداً، وكان بإحدى رجليه داء الفيل، فقتل فى المعركة بالربوة بظاهر دمشق .... "(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٢٧٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٣٨٥).

(٢) داء الفيل: "هو زيادة فى القدم والساق حتى تشبه رجل الفيل وسببه إما دم غليظ اسود أو دوالى يصنب الى القدم وهو الأكثر، وعلاجه استخدام الأدوية القابضة واجتناب المشى" انظر حاجى باشا: المصدر السابق، ورقة ٢٠٨أ، ٢٠٨ب.

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٣٠٨.

(٤) الأمير آقبردى المؤيدى(ت:٨٢٠هـ/١٤١٧م):" هو الأمير سيف الدين آقبردى بن عبد الله المؤيدى المنقار أحد أمراء الألوف بالديار المصرية وهو أحد أعيان مماليك الملك المؤيد شيخ، وهو أول من حكم ممن ولى هذه الوظيفة توفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م" (انظر ترجمته المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٥٦).

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٤٦.

(٦) الأمير نوكار الزردكاش(ت:٨٦١هـ/١٤٥٧م):" هو الأمير سيف الدين نوكار بن عبدالله الناصرى، أحد أمراء العشرات كان من مماليك الناصر فرج ثم صار حاجباً ثانياً، إلى أن ولاه الملك الأشرف إينال الزردكاشية فاستمر على ذلك الى ان مات...." انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٨٧ – ١٨٨).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٠٦.

سادساً: أثر الأمراض فى الفتن والاضطرابات الداخلية:-

وكان من آثار الأمراض السياسية إثارة الفتن وإشعال الاضطرابات الداخلية فى البلاد نظراً لانشغال السلاطين بأمراضهم مما يدعو الطامحين الى السلطنة فى الوثوب على السلطان منتهزين فرصة انشغال السلطان بمرضه خاصة عند انقطاعه بالدور السلطانية لتلقى العلاج، ومن شواهد ذلك لما علم الأمير رمضان(١) بمرض أخيه الملك الصالح إسماعيل(٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) تحدث مع طائفة من المماليك لإقامته سلطاناً واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان وانتهاز فرصة مرضه لتحقيق أهدافهم، وما ان علم الملك الصالح إسماعيل بخبر أخيه رمضان وخروجه فى جمع من الجند ومعه جماعة من العامة يريد السلطنة، نهضت همة السلطان وقام من فراش مرضه من شدة انزعاجه من خبر أخيه رمضان وقد سكنت الفتنة بالقبض على الأمير رمضان وحبس مماليكه(٢).

واستغل الأمير نوروز مرض السلطان برقوق فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٨م وأراد الوثوب على السلطان غير أن أصحابه أشاروا عليه بالصبر حتى ينتظر ما يصير إليه مرض السلطان، فإن مات حصل له ما قد قصد دون تعب، وان كانت الأخرى- أى الشفاء- فليفعل من أمره ما يشاء، فما ان بلغ السلطان ذلك احترز على نفسه، ودّبر على نوروز حتى تمكن من القبض عليه وحبسه بالإسكندرية(٣).

ومن جملة الأمراء الذين كانوا يتحينون فرصة انشغال السلطان بمرضه وانقطاعه لتلقى العلاج للوثوب على السلطنة خلال العصر المملوكى، الأمير آقباى المؤيدى(٤)

---

(١) رمضان بن الملك الناصر(ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م):" هو رمضان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى كان شاباً جميلاً حسن له بعض خدمة طلب الملك وجمعوا حوله جماعة من المماليك وخرجوا به الى قبة النصر فلم يجتمع عليهم كبير أحد وأخرج إليه العسكر فانهزم الى جهة الكرك ليلحق بأخيه أحمد فقبض عليه فى الطريق وهلك ف سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م..." (انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ٢٤١).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٨٥-٣٨٦؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٣٠٨- ٣٠٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٨٢- ٨٤.

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٤، صـ ٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ٩٣.

(٤) آقباى المؤيدى(ت:٨٢٠هـ/١٤١٧م):" هو آقباى بن عبد الله المؤيدى نسبته الى معتقه الملك المؤيدى أبى النصر شيخ، اشتراه فى حال إمرته وأعتقه وصار بخدمته ومن خواص مماليكه، الى ان تسلطن، أمره وقربه، وجعله خازنداراً، ثم ولاه الدوادارية الكبرى بعد انتقال الامير جانبك المؤيدى الى نيابة دمشق، فباشر المذكور الدوادارية الى ان ولاه استاذه المؤيد نيابة حلب فباشرها الى سنة عشرين..." (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ١٤٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٤٧؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، صـ٣١٤).

الذى وشى به الأمير شاهين أرغون شاوي(ت:٨٢٢هـ/١٤١٩م) عند السلطان الملك المؤيد شيخ سنة٨٢٠هـ/١٤١٧م أنه يترقب مرض السلطان إذا عاوده ألم المفاصل وان تحركاته تدل على شق عصا الطاعة، فما ان بلغ السلطان الملك المؤيد شيخ ذلك أصدر أوامره بإلقاء القبض على الأمير آقباى، وولى بدلاً منه نائب دمشق الأمير تنبك العلائى(١)(ت:٨٢٦هـ/١٤٢٣م)(٢) وحين مرض السلطان الملك الاشرف قايتباى فى ٩٠٠هـ/١٤٩٥م، اتهم قانصوه خمسمائة (٣) بتطلعه إلى تولية السلطنة، فمنع من الدخول على السلطان أثناء مرضه(٤).

وتشير العديد من الشواهد التاريخية الى حقيقة ان غالباً ما يصحب مرض السلاطين خلال العصر المملوكى من تدهور أحوال البلاد وكثرت الفساد واشتعال ثورات العربان وما يصحب ذلك أيضاً من غلاء الأسعار نتيجة تلك الاضطرابات، والتى سنتناول أهم تلك الشواهد التاريخية.

فحين أُشيع مرض السلطان الملك المنصور قلاوون فى سنة٦٨٩هـ/١٢٩٠م وردت الأخبار باندلاع ثورة العربان ببلاد الصعيد، فجرد إليهم السلطان النائب طرنطاى قراقوش الظاهرى(ت:٦٨٩هـ/١٢٩٠م) على رأس حملة عسكرية وإخماد تلك الثورة(٥).

كما شهدت القاهرة الاضطرابات وأغلقت الأسواق فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٩م حين أشيع مرض السلطان الملك الظاهر برقوق بإصابته بحمى، واندلعت الإشاعات المغرضة بركوب الأمراء وكثر الفساد فى البلاد(٦).

---

(١) تنبك العلائى(ت:٨٢٦هـ/١٤٢٣م):" هو الامير سيف الدين تنبك بن عبدالله العلائى الظاهرى المعروف بتنبك ميق نائب الشام بها أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق وترقى بعد موته الى ان صار أمير مائة ومقدم ألف فى دولة الملك (المؤيد) شيخ، ثم سار رأس نوبة النوب ثم أمير آخور كبيراً، ثم ولاه نيابة دمشق بعد مسك آقباى المؤيدى ثم عزله بعد سنين ......" (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١١٧).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ٤٤٩ ؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ٥٩.

(٣) قانصوه خمسمائة(٩٠٢هـ/١٤٩٦م):" الأشرف طراباى مات فى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م استقر اتابكا فى ربيع الآخر ٩٠١هـ/ديسمبر١٤٩٥م وعزل فى جمادى الأولى سنة ٩٠١هـ/ يناير ١٤٩٥م تزوج من ابنة الأتابك أزبك، ثم تزوج من حفيدة الملك الظاهر جقمق" محمد عبد الغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٦٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٣، صـ٣٠٩.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢١٧؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ٣٢٥.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٤٩.

وفى سنة٨٢٤هـ/١٤٢٠م اضطربت أحوال الناس بالقاهرة، وكثر عبث أرباب الفساد فى البلاد، حين اشتد على السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى عليه ألآلام التى تعتريه وصار أحوال الناس فى اضطراب حتى موته(١).

ومن الشواهد التاريخية على الاضطرابات السياسية التى تنشب فى البلاد نتيجة لمرض السلطان ما حدث سنة٨٤١هـ/١٤٣٨م حين اشتد المرض بالسلطان الأشرف برسباى، حتى منعوا دخول كافة رجال الدولة من شدة ما به من المرض فصحب ذلك انتشار الزعر والخوف بين الناس خوفاً من وقوع الحروب ومن النهب، وكثر عبث المفسدين فى البلاد وقطاع الطرق فى مصر والشام، وسرعان ما نشبت مسألة ولاية العهد اذا قدر موت السلطان فى مرضه هذا حتى صار العسكر منقسما على نفسه حتى انتهى الأمر بتولية الملك العزيز خلفاً لأبيه برسباى وأن يكون الأمير جقمق متولياً تدبير المملكة(٢).

ومن آثار الأمراض على الحياة السياسية فى عصر سلاطين المماليك انه قد يدفع المرض بعض السلاطين أن يصدرون قرارات غريبة بدون وعى من ذلك ومن ذلك انه عندما اعترى السلطان برسباى "ماليخوليا"– أى ارتباك فى قواه العقلية – جعله يصدر قرارات غريبة كأمره بنفى جميع الكلاب الى بر الجيزة، ونادى بألا يلبس فلاحاً ولا عبداً زنطاً أحمر، ومنع ألا تخرج النساء خلف الجنازة مطلقاً(٣).

ومن صور تأثر أحوال البلاد الداخلية بمرض السلطان ولاسيما عند طول فترة تلقى العلاج أثناء المرض مما ينعكس بالسلب على أحوال البلاد المصرية والشامية والحجازية على السواء وذلك من خلال توقف أحوال أرباب الحوائج من كافة الأقطار الخاضعة لحكم المماليك بمصر أثناء فترة مرض السلطان، واندلاع ثورات العربان، وعبث المفسدين وقطاع الطرق وغيرهم بالبلاد المصرية والشامية حيث شهدت فترة مرض السلطان الملك الظاهر خشقدم كثرة الثورات الداخلية بشكل ملحوظ فى سنة٨٧٢هـ/١٤٦٧م حيث ادى

(١) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ١٠٩.
(٢) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٣٥٩.
(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٣٥٩؛ نظير حسان سعداوى: المرجع السابق، صـ ٩٦.

طول فترة مرض السلطان الظاهر الى زيادة تدهور أحوال البلاد الداخلية للبلاد المصرية والشامية وكثرت الثورات الداخلية ففى البلاد الشامية خرج جميع نواب البلاد الشامية الى البلاد الحلبية لقتال شاه سوار بن دلغادر[١]وإخماد ثورته وفتنته بينما خرج نائب صفد ونائب غزة الى جهة العقبة لقتال مبارك شيخ عرب بنى عقبة[٢] مما له أثره بغياب النواب وانشغالهم لإخماد الفتن بخلوا الجو للمفسدين وقطاع الطرق ان يعيثوا فى فساداً بالبلاد المصرية والشامية أما على صعيد البلاد المصرية فقد كثرت الفتن بأسفل مصر الشرقية والغربية وكذا أعلاها بالصعيد الأدنى والأعلى[٣].

وعندما أصيب السلطان الملك الأشرف قايتباى فى سنة٨٨٢هـ/١٤٠٠م بمرض حاد وهو فى حماة فلما اشتد به المرض وحُمل فى محفة الى دمشق، فلما وصل خبر ذلك الى القاهرة تدهورت أحوال القاهرة وأشيع موت السلطان فاضطربت أحوال الأمراء، وأظهر كل واحد منهم ما فى نفسه من السلطنة حتى أشيع اتفاق برد بك الفقيه الأمير سلاح مع طائفة المماليك الخشقدمية على سلطنة جاني بك الفقيه اذا صح خبر موت السلطان[٤].

وفى سنة٨٩١هـ/١٤٨٦م لما تعرض السلطان الملك الأشرف قايتباى لحادث انكسرت منه ساقه حتى أغمى عليه وحُمل فى محفة، وقد اضطربت القاهرة، وسارع رجال الدولة إلى السلطان، وطلبوا منه إرسال المراسيل السلطانية الى البلاد الشامية لطمأنة

---

(١) سوار بن دلغادر(ت:٨٧٧هـ/١٤٧٢م):" هو سوار بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر التركمانى ويسمى فيما قيل له شاه سوار نائب الابلستين ومرعش خرج عن الطاعة ومشى على بعض البلاد الحلبية محتجاً بأنه لآبائه وأجداده فقرر الظاهر خشقدم فى سنة إحدى وسبعين عوضه أخاه شاه توفى سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م....." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٢٧٤–٢٧٥).

(٢) مبارك شيخ بن عقبة(ت:٨٧٢هـ/١٤٦٧م):" أمسكه الأمير أزبك رأس نوبة النوب من تجريده العقبة، بعد أن أمسك مبارك شيخ بنى عقبة، الذى قطع الطريق على إقامة الحجاج ورسم بتسمير مبارك شيخ بنى عقبة ورفقته، وكانوا أزيد من أربعين نفراً، فسمّروا الجميع، وطيف بهم الشوارع، ثم وسطوا فى آخر النهار عن آخرهم..." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٦٠).

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٠٢– ٣٠٥.

(٤) ابن الجيعان: القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الاشرف، تحقيق: عمر عبد السلام تدمرى، ط.١، منشورات جرّوس– برس، لبنان، ١٩٨٤م، صـ ٧٦؛ عبد الرحمن محمود عبد التواب: المرجع السابق، صـ ٧٧– ٧٨؛ جاني بك الفقيه(ت:٨٨٣هـ/١٤٠١م):" توفى الأمير جاني بك الفقيه أمير سلاح فى جمادى الأولى بالمدرسة الخاتونية بعد حضوره الى القدس من شهر المحرم حين عوده من الحجاز الشريف ودفن بالقلندرية بماملا.." (العليمى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد، دار مكتبة دنيس، عمان، د.ت، ج٢، صـ ٣٢١).

الأمراء والعسكر بسلامة السلطان، فكتبت فى الحال وأرسلت على جناح السرعة وكان الغرض من إرسال تلك المراسيل على هذا الوجه تفادياً لوقوع الشائعات بمرض السلطان وما يترتب عليه من المفاسد والاضطرابات فى البلاد[١].

وكذلك فى سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م أثناء مرض السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى الذى أصابه في عينيه اضطربت الأحوال فى البلاد، واندلعت ثورة العربان وكثرت الإشاعات باشتعال الفتن، ونتيجة لذلك قام السلطان بإلغاء الاحتفال بمولد سيدي أحمد البدوى فى تلك السنة[٢]، ولما اشتد مرض السلطان الملك قانصوه الغورى الذى أصاب عينه كثرت الإشاعات بعمى السلطان، وصار الحجاب لا يدخلون عليه أحداً عدة أيام أثناء مرضه فتعطلت أحوال الناس لقلة التوقيع السلطانى على المراسيم والمحاكمات، وكثر الفساد فى البلاد[٣].

وليس أدل على ما يلحق مرض السلطان من اضطرابات وعدم استقرار الأمن ان السلطان الأشرف قانصوه الغورى أمر والى القاهرة بالنداء بالأمان وان يطوف بالشوارع والطرقات حتى يبث الطمأنينة فى نفوس الناس، كما أمر الناس بعدم الخروج بعد العشاء لذلك قام والى القاهرة يطوف القاهرة ومعه جماعة من الخاصكية بلغ عددهم مائتى جندى مسلحين يطوفون الحارات والأزقة ويلقون القبض على من يمشى بعد العشاء ولا يتبع تعليمات الأمن بعدم الخروج بعد العشاء[٤].

سابعاً: مصادرة الأموال والإقطاع:-

وقد جنحت السلطات كثيراً إلى المصادرات، فى نهبهم للأموال، واتخذت سمة بارزة فى نزعاتهم الأرستقراطية، وإحدى وسائلهم للتمول التى ذاعت بالعصر وخافها العام والخاص، ولم يكن أحد فى منأى من أن ينكب بها، ولم يكن هناك معقباً لرؤيتهم فى ذلك الصدد لحاجتهم الى الأموال[٥]، ويمكن القول أن المصادرات غدت فى هذا العصر من أهم سماته العامة، وكانت جملة هذه المصادرات تؤول الى ديوان الخاص السلطانى،

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٢٢٧.
(٢) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ٣٠٩ .
(٣) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٣١١، ٣١٢.
(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣١٤.
(٥) إسماعيل عبد المنعم محمد قاسم: المرجع السابق، صـ ٦٦.

وبالتالى لا تستفيد منها الدولة، بل أنفقها السلاطين على حاجاتهم، بينما البعض الآخر كان يذهب الى بيت المال واعتبر من موارد الدولة.

كما يلاحظ ان هذه المصادرات كانت تأتى للدولة بمبالغ طائلة تفوق بعض مواردها ان لم يكن يتم مصادرة إلا الأثرياء من ذوى المال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، لذلك كان أكثر الأشخاص الذين تعرضوا للمصادرة مباشرى ديوان النظر، وأكابر رجال الدولة[١].

وقد مثلت الأمراض المعدية التى تصيب الحيوانات والطيور، آثاراً شديدة الخطورة على الأموال التى تماثلها الأنفس، إذ كان المرض يمكن ان ينتقل من الحيوان أو الطير الى الإنسان وترجع خطورتها الى ان الأمراض منها ما لا ينفع معه علاج، خصوصاً اذا وصل المرض الى مرحلة متقدمة، ومنها ما يصعب علاجه، وفيه كلفة على مالكه أولاً، والدولة ثانياً ، ومن الحيوانات والطيور ما يمكن ذبحه والانتفاع به[٢].

ومن آثار الأمراض السياسية فى عصر سلاطين المماليك مصادرة الأموال ونقل إقطاعات[٣] الأمراء المرضى الى غيرهم من الأمراء، وقد كان القائم بتنفيذ حكم المصادرة هو "شاد الدواوين"[٤].

ونذكر منها ما ظهر فى سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٩م حينما حل الوباء بالبلاد فقد وقع للأجلاب أمور شنيعة أثناء الوباء من أخذهم إقطاعات الأجناد، حتى صاروا كلما سمعوا ان أحداً من أرباب الإقطاعات والأجناد ما زال صحيحاً معافى من الوباء، تمنوا مرضه لينالوا إقطاعه وإن كان مريضاً ينتظرون موته حتى فعلوا ذلك مع بعضهم البعض مما

---

(١) البيومى اسماعيل: النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب(فرع الصحافة)، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ ٢٠٦.

(٢) بلال حامد ابراهيم: أثر المرض المعدى على المعاملات المالية(دراسة مقارنة)، دورية كلية الآداب، جامعة دمنهور، ع٣٧، ٢٠١١م، صـ١٢٣.

(٣) " ولقد كان الإقطاع فى العرف المملوكى، وفى عرف الدولة الإسلامية، أمراً شخصياً بحتاً لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان للتمتع فعلاً به وإيراداته فقط" محمود نديم أحمد فهيم: المرجع السابق، صـ ٥٧.

(٤) البيومى اسماعيل: المرجع السابق، صـ ٢٠٧.

يوضح لنا مدى أثر الأمراض والأوبئة على مصادرة أموال الناس أحياءاً وأمواتاً سواء أعيان الدولة أو أجنادها[١].

وتشير المصادر التاريخية ان السلطان الأشرف إينال العلائى أخرج فى سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م إقطاع[٢] الأمير طوخ من تمراز الناصرى(ت:٨٦٢هـ/١٤٥٧م) لطول مدة مرضه، وأنعم بإقطاعه على الأمير برسباى[٣] البجاسى حاجب الحجاب[٤].

ومما لا شك فيه ان ديوان المواريث الحشرية فى عصر سلاطين المماليك قد جنى أرباحاً طائلة للدولة ولعل مرجع ذلك الى كثرة الأوبئة والطواعين التى انتشرت فى تلك الحقبة من الزمن والتى خلفت ورائها كما لا حصر له من الأموات والتركات[٥].

ثامناً: آثار الأمراض السياسية الأخرى:-

وقد يستدعى المرض فى بعض الأحيان توقف أحد رسل السلطان المملوكى الى أحد ملوك الدول الأخرى نظرا لمرض ذلك الرسول، منها ما حدث حينما عاد الفقيه مجد الدين لمرض أصابه وكان السلطان الظاهر بيبرس قد أرسله الى الملك بركة خان سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م[٦].

ومن الأمراء الذين عاقهم المرض عن أداء رسالتهم الذين تكلفوا بها الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبدالله المغربى[٧] وكان قد توجه صحبة رسل الملك أبى سعيد فى

---

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٤٢- ١٤٣.

(٢) الإقطاع:" نظام يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم يقضى بأن يملك الأولون الآخرين قطائع من الأرض على سبيل المنحة لهم ولأولادهم وكل نظام يمكن المالك من ان يتحكم فى الأرض ومن فيها من الناس"(انظر الخوارزمى: مفاتيح العلوم، تحقيق: ابراهيم الأبيارى، ط.٢، دار الكتاب العربى، القاهرة، د.ت، صـ٨٦؛ الفيومي: المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير، دار المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ج٢، صـ٥٠٨).

(٣) برسباى البجاسى(ت:٨٧١هـ/١٤٦٦م):"هو برسباى البجاسى أصله من مماليك تنبك البجاسى نائب الشام الخارج على الأشرف برسباى فى سنة سبع وعشرين وقتل بها وخدم بعد القاهرة .. مات بها فى صفر سنة إحدى وسبعين...." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ٣٥٢؛ نفسه: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٢٧٩؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ٨٠٧).

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١١٣.

(٥) البيومى إسماعيل: المرجع السابق، صـ ١٦٩.

(٦) المقريزى: السلوك، ج١، صـ ٥٤٩؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٦٥.

(٧) سيف الدين قطلوبغا(ت:٧٢٧هـ/١٣٢٧م):"الأمير سيف الدين قطلوبغا بن عبدالله المغربى الحاجب بالديار المصرية فى ثامن رمضان، وكان مقرباً عند الملك الناصر"(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك،ج٣، صـ ١٠٤؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٢٦٩؛ ذكره المقريزى ضمن وفيات سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م بينما ذكره ابوالمحاسن والنويرى فى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م.

السادس عشر من رجب فأصابه مرض أثناء سفره، مما اضطره الى العودة، محمولاً فى محفة فوصل القاهرة فى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م[١].

وظلت القلعة قاعدة الحكم فى البلاد بالرغم من أن بعض السلاطين قد تملكتهم نزوات طارئة لسكنى جزيرة الروضة[٢]، وقد تلجئ الأمراض والأوبئة السلاطين والأمراء فى العصر المماليكى فى بعض الأحيان إلى ترك مقر السلطنة والحكم للفرار والنجاة بأنفسهم من براثن الموت، كما هو الحال عندما حل بمصر الوباء الأسود سنة٧٤٩هـ /١٣٤٨م فى سلطنة الملك الناصر حسن الأولى عندئذ اضطر هذا الوباء السلطان الملك الناصر حسن بالركوب الى سرياقوس، والإقامة بها عشرين يوماً من رجب، وحينما أراد العودة منها الى القلعة أشار عليه الأمراء وكبار الدولة أن يستمر بإقامته بسرياقوس حتى انقضاء شهر رمضان[٣].

وفى سنة٨٥٧هـ/١٤٥٣م نتيجة للانشغال السلطان الملك الظاهر جقمق بمرضه اتسع نفوذ ابنه الملك المنصور عثمان حتى صار بيده مقاليد الحكم ويعزل ويولى من يشاء، مع ازدياد مرض والده السلطان الملك الظاهر جقمق[٤].

وقد يسترجع قاضى القضاة فى العصر المماليكى أحد الأحكام وهو مريض ولكن لشدة المرض الذى يعانيه يدفعه لأن يستنيب عنه من يقوم بمباشرة عمال القضاء مثال ذلك حين صدر قرار من قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى[٥]بنفى ابن تيمية[٦] الى الشام سنة٧٠٧هـ/١٣٠٧م وكان قاضى القضاة زين الدين المالكى فى ذلك الوقت

---

(١) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٤٧.

(٢) أولج فولكف: المرجع السابق، صـ ٩٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٨٦؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ١٦٤؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٢٠٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ ١٣٤؛ سعاد حسن على الضوينى: الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٩م، صـ٣٠.

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ٤٥٣.

(٥) بدر الدين جماعة (ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م)" القاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموى الشافعى فى حادى عشر جمادى الاولى وهو معزول بعدما عمى. مولده بحماة فى سنة تسع وثلاثين وستمائة " (انظر ترجمته السبكى: طبقات الشافعية، تحقيق : محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح الحلو، ط.٢، دار هجر، ١٩٩٢م، ج٩، صـ١٣٩- ١٤٠؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٧٠).

(٦) ابن تيمية(ت:٧٢٨هـ/١٣٢٨م):" أحمد بن عبدالرحيم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبى القاسم بن الخضر بن محمد ابن تيمية الحرانى ولد يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحران "(ترجمته انظر ابن رجب الحنبلى: ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ط.١، دار مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥م، ج٤، صـ ٤٩٣- ٤٩٥).

"فى حال شديدة من المرض وقد أشرف على الموت "فلما بلغه أمر ابن تيمية طلب ان يعاد الى القاهرة وأرسل الى نائبه القاضى نور الدين الزواوى نتيجة لمرضه فحضر مجلس قاضى القضاة بدر الدين وحررت الدعوى عليه فى أمر اعتقاده[١].

ويمكن القول ان المرض قد يصبح السبب المباشر فى تخفيف السلطان الحكم على الأمير اذا كان محكوما عليه بالعزل والنفي وذلك من باب الرأفة والشفقة عليه فقد أصدر السلطان الملك الظاهر جقمق فى ربيع الأخر سنة ٨٥٦هـ/مايو١٤٥٢م مرسوماً على الأمير يشبك الصوفى[٢]– وكان منفياً إلى ثغر دمياط– بالتوجه الى القدس الشريف ليقيم به، وأعطاه الحرية فى الإقامة ما شاء في القاهرة لقضاء مصالحه وكان ذلك نتيجة لمرض الأمير يشبك الصوفى[٣].

كما قام السلطان الملك الظاهر جقمق الموكب لرسل صاحب الحبشة[٤] بالحوش السلطانى من القلعة بدلاً من القصر السلطانى وذلك لمرضه[٥].

والملاحظ في عصر سلاطين المماليك أن الغالبية العظمى من السلاطين كانوا يحبذون الظهور بمظهر القوة اذا أصابهم مرضٌ وذلك لما يترتب عليه من تدهور الأوضاع السياسية بالبلاد فنجدهم يصرون على حضور الخدمة بالدهيشة، ويعلَّمون على المراسيم، بل ويقومون بزيارة أقاربهم حتى لا يشعر الناس بالناس بضعفه ومرضه، ومن هؤلاء السلطان الملك الظاهر جقمق فنجده عندما لهج الناس بموته، بعد سقوطه يوم الجمعة ٢٤من ذى الحجة سنة٨٥٦هـ/٥ يناير١٤٥٣م مغشياً عليه، ما أن سمع بما يردده الناس، أصر على حضور الخدمة فى الدهيشة، ثم قام بزيارة ابنته زوجة الأمير أزبك بن ططخ الظاهرى[٦]، ولم يطل الجلوس عندها وعاد الى القلعة يوم الأحد فى ٢٦ ذى

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤١٨؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٢، صـ ١١٩.

(٢) يشبك الصوفى(ت:٨٦٣هـ/١٤٥٩م)" كان من صغار مماليك الملك المؤيد شيخ، وصار خاصكياً بعد موت استاذه..مات سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٩م) (انظر ترجمته فى ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ ٨٤١).

(٣) أبوالمحاسن: حوادث الدهور،ج٢، صـ ٣٦١، ٣٦٢؛ نفسه: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٤٠.

(٤)الحبشة: "هى أرض واسعة شمالها الخليج البربرى، ووجنوبها البر، وشرقها الزنج، وغربها البحة وأكثر أهلها نصارى يعاقبة، والمسلمون بها قليل(انظر الإصطخرى: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، صـ ١١).

(٥) أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ٣٦٨، ٣٦٩.

(٦) أزبك بن ططخ(ت:٩٠٤هـ/١٤٩٨م): "أزبك من ططخ الأشرفى ثم الظاهرى... " (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، صـ ٢٧٠؛ محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٦٦).

الحجة٨٥٦هـ/٧ يناير ١٤٥٣م[١].

أما فى الإدارة والحكم فان سلاطين المماليك منذ نشأة دولتهم اهتموا الى حد كبير بنظم الحكم والإدارة[٢] ومن آثار الأمراض على السلك الإداري ان لمرض الأمراء وخاصة النواب الأثر البالغ فى ظهور الفساد الإداري بالدولة وذلك لعدم مقدرتهم نتيجة لآلام المرض على متابعة ومراقبة الموظفين مما يؤدى الى انتشار المقايضات والرشوة كما حدث حين مرض الأمير قبلاى نائب السلطنة بألم المفاصل، فلم يستطيع مباشرة النيابة واكتفى بأن يجلس فى شباك النيابة والحكم بين الناس مما كان له أثره على ازدياد فساد الأجناد من جراء كثرت المقايضات والتنازلات عن الإقطاعات فى ولايته وكثرة تعاطى الموظفين للرشوة حتى بلغ بالأمر الحد ان ظهرت طائفة نحو ثلاثمائة رجل عرفوا "بالمهميين" يطوفون على الأجناد ويبذلون لهم الأموال والعطايا للتنازل لهم عن اقطاعاتهم[٣].

فكان من آثار مرض السلطان المملوكى فى الحكم ان يضطر السلطان الى ملازمة الفراش لتلقى العلاج من مرضه وبالتالى لا يستطيع النهوض لحضور مجلس الحكم الذى يقيمه بعض السلاطين للحكم بين الناس، ومن هؤلاء السلاطين السلطان الملك الظاهر برقوق الذى عاد فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٩م الى الحكم بين الناس فى يومى السبت والثلاثاء بعد ان ترك ذلك فترة تلقيه العلاج من مرض أصابه[٤].

وكان وباء الطاعون ذا اثر سلبي كبير على الحياة السياسية والعلمية في القاهرة في العصر المملوكي، فعلى صعيد الحياة السياسية كانت الفوضى السياسية والفتن تنتشر، بسبب الفساد الإداري، فيضطر السلطان إلى استبدال الموظفين والأمراء غير الكفوئين بآخرين أو انتقال سلطات ذلك الموظف إلى السلطان ذاته، وهذا ما حدث عندما قام السلطان بتقييد سلطات محتسب القاهرة، الذي عزل عن من لدن السلطان المؤيد في أثناء طاعون سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م، وانتقلت صلاحياته إلى السلطان شخصياً إلى درجة أنه لم

(١) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٣٨٠، ٣٨١؛ نفسه: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤٤٩.
(٢) علاء طه رزق: المرجع السابق، صـ ١٢٠.
(٣) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٥٤.
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٤١.

يدع له أي سلطة تذكر بسبب سوء تدبيره، فضلاً عن قيام السلطان بعزل جميع نواب القضاة الأربعة البالغ عددهم مائة وستة وثمانين قاضياً في القاهرة وحدها، وجعل لكل قاض من قضاة المذاهب الأربعة ثلاثة نواب فقط، كما أن وفاة الكثير من الأمراء والموظفين الكفوئين بسبب الإصابة بالطاعون جعل مناصبهم شاغرة.

أما الحياة العلمية فكانت تتأثر كثيراً نتيجة لتوقف الدروس والحلقات بسبب عدم إمكانية التجمع، خشيةً من الإصابة بالطاعون من ناحية، وتوقف الرحلة في طلب العلم من والى البلد الموبوء من ناحية أخرى[١].

أما عن أثر الأمراض على الترقيات خلال العصر المملوكى فمن شأنه تأخير ترقيات رجال الدولة إذا أصابهم المرض الذى يؤثر بالسلب على أدائهم الوظيفى تجاه مناصبهم، ومن ذلك حين حجب السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين سنة٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م التقدمة عن الأمير أسندمر المظفرى(ت:٧٧٠هـ/١٣٦٩م) وعوضه عنها بالطبلخاناه، وكان السبب المباشر لذلك لعدم قدرة ذلك الأمير من أداء واجبه الوظيفى جراء مرضٍ أصابه[٢].

ومن آثار الأمراض على ترقيات الأمراء ان السلطان فى العصر المملوكى اذا رأى فى أحد رجال الدولة أصابه مرض يصرف الترقية عنه لغيره ففى سنة٨٩١هـ/١٤٨٦م أنعم السلطان الملك الأشرف قايتباى بإمرة عشرة على أصباى السيفى بدلاً من قرقماس الشعبانى نظراً لمرضه، وكذلك فى تلك السنة أنعم السلطان الملك الاشرف قايتباى بإمرة قراكز بحكم مرضه على قانم أبو شعرة بإمرة عشرة[٣].

أما عن حركة التنقلات التى تحدث خلال العصر المماليكى ويكون المرض السبب المباشر لها حيث يلجأ السلطان المملوكى فى بعض الأحيان اذا رأى من أحد رجال دولته عدم استطاعته القيام بمهامه الوظيفية نتيجة لما أصابه من ضعف المرض فيقوم بنقله

---

(١) فتحى سالم حميدى: وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة فى العصر المملوكى، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج ١٢، ع٤، ٢٠١٣م، صـ ٤٦٩.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٣٠؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٣٥٢.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٣٦.

من إقطاعه الى إقطاع آخر يستطيع القيام بمهامه شفقة له بدلاً من عزله، كما فعل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م لما رأى من الأمير أيتمش(ت:٧٣٦هـ /١٣٣٦م) ما يعانيه من شدة ما ألمّ به من المرض فأثر بالتالى على أداء مهامه الوظيفية فكتب بنقله على إقطاع أخيه أرقطاى بصفد، وإحلال أخيه أرقطاى محله فى مصر، وشرع كل منهم فى تجهيز أمره، وركب أرقطاى من صفد إلى مصر فأكرمه السلطان[١].

أماعن تأثير الأمراض والطواعين على النواحى الاجتماعية فقد أدى التدهور الاقتصادي إلى انخفاض مستوى معيشة السكان، وبالتالى التخلى عن العديد من العادات التى كانت متبعة آنذاك، مثل الأعياد القومية والمواسم وما يعمل بها من الاحتفالات[٢].

<u> غرائب أمراض الأمراء ورجال الدولة:-</u>**

ومن صور تلك الغرائب والتى وافاتنا بها المصادر خلال العصر المملوكى حالتين(الأولى) الأمير عز الدين ازدمر[٣] الأعمى الذى ظل اثنى عشر سنة وهو أعمى ولم يعلم أحد من الأمراء بأمره فكان يركب الخيول ويغزو ويحضر الخدمة السلطانية وكان يقوم بذلك لملازمة مملوك له يعلمه بما يريد وإذا رأى أحداً يريده يسلم عليه كأنه يراه وإذا جلس للحكم اعلمه ذلك المملوك بما ينبغي ان يفعله، وقد ظل على ذلك مدة بعد تمرنه وهو يخفى على أكثر الناس عماه حتى أنعم عليه بإمرة طبلخاناة[٤].

ومن تلك الغرائب أيضاً من أمراض الأمراء، وتتمثل فى الوزير الصاحب موسى بن التاج[٥] الذى كان يعانى من العديد من الأمراض المزمنة منها الربو[٦] وضيق النفس، كما

---

(١) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٢٨٧– ٢٨٨.

(٢) سعاد حسن على الضوينى: المرجع السابق، صـ ٥٠.

(٣) الكاشف ازدمر الأعمى(ت:٧٥٥هـ/١٣٥٤م):" هو عز الدين مملوك إلياس فى الخدم السلطانية وتوجه الى اليمن، وولى البهنسا وغيرها..."(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤٢٢).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٢٢٠.

(٥) موسى بن التاج(ت:٧٧١هـ/١٣٦٩م):" هو موسى بن إسحاق ويدعى عبد الوهاب بن عبد الكريم المصرى القبطى ولما أطلق موسى المذكور من الاعتقال وكان ولى نظر الخاص"(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٦، صـ١٣٨).

(٦) الربو: " علة فى الرئة لا يوجد معها نفس متوازى ويشبه نفس المتعب سببه فيكون الضيق فى أول النفس، أو خلل فى أجزاء الرئة .... " انظر حاجى باشا: المصدر السابق، ورقة ٨٩أ، ٨٩ب.

كانت تلازمه الحمى الصالبة[١] بالإضافة الى نحافة جسده وقد أجرى عليه من العذاب ألواناً حين أمر بمصادرته النشو، ومن صور العقوبات التى أنزلت عليه السعط بالماء والملح والخل والجير، حتى يظن انه مات، فما يلبث ان يفيق، وضرب بالمقارع حتى ظن انه مات، فما يلبث ان يفيق مرة أخرى وحرم الأكل والشرب لليومين والثلاث حتى صار لا يعي من شدة الضرب والعقوبة حتى قيل مجموع ما ضرب نحو ستة عشر ألف سوط، واستمر فى ذلك العذاب أشهراً حتى مات عبد الوهاب النشو دون تحقيق غرضه من قتل موسى حتى تركوا موسى بعد ان أعياهم أمره ومن غريب الاتفاق انه لما أطلق شفى مما كان فيه من الأمراض المزمنة القديمة[٢].

(١) الحمى الصالبة:"هى الحمى خلاف الناقصة وهى التى فيها رعدة وقشعريرة"(حاشية ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ١١).

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ١١١- ١١٢.

الفصل الثالث

الاحتفالات بالشفاء عند سلاطين المماليك

- الاحتفالات بشفاء السلاطين :-

أ- الزينة.　　　　　　　　ب- إغداق الصدقات.

جـ - الإفراج عن المساجين.　　　د – الخلع.

هـ - رد الظلم.

- الاحتفالات بشفاء زوجات السلاطين .
- الاحتفالات بشفاء الأمراء:-

أ- الزينة. ب - إغداق الصدقات. جـ - الإفراج عن المسجونين

الفصل الثالث

الاحتفالات بالشفاء عند سلاطين المماليك

(أولاً) الاحتفالات بشفاء السلاطين:-

لا شك أن الأعياد والاحتفالات مؤشر هام وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة ما يتمتع به من استقرار اقتصادي وسياسي وتماسك اجتماعي[١]، فقد اعتاد الناس أن يظهروا لملوكهم وسلاطينهم ابتهاجهم وفرحهم إذا منّ الله عليهم بالشفاء بعد مرض ألم بهم إذ كانت تقام الاحتفالات بمناسبة شفاء سلاطينهم أو أمرائهم[٢].

ومن مظاهر تلك الاحتفالات فى العصر المملوكى أن ترسل البشائر إلى الأقطار، كما تقوم زوجات السلاطين بتوزيع البنود[٣] والحرير الأصفر على الخدم والخاصكية وأعيان الناس، كما جرت العادة فى المناسبات التى تقام احتفالاً بعافية السلاطين أن توزع الصدقات من الخبز والملابس والأموال، وعمل النفط بسوق الخيل تحت القلعة بحضور السلطان، فتشارك كافة طوائف المجتمع الابتهاج بهذه المناسبة باللعب واللهو، وكانت تخلع على الأمراء بهذه المناسبة الخلع العظيمة حتى بلغ "نصيب مهتار الطبلخاناة ثمانين ألف درهم"[٤]، وتستمر مظاهر الحفل سبعة أيام شاملة سائر بيوت الأمراء والأعيان، كما يقوم الأهالي بإقامة الزينات[٥].

أما الأهالي فى العصر المملوكى فقد تمتد الأفراح الشعبية لديهم عشرة أيام بمناسبة عافية السلطان من مرضه بل وقد بلغ بهم الحد إلى التفنن فى أنواع الترف بهذه

---

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعي، القاهرة، ١٩٨٣م، صـ ٩٣.

(٢) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبي، دار الحمامى، ١٩٦٥م، مج٢، صـ ٣٣٢.

(٣) البنود: " هي الرايات والأعلام، وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير، ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك، وباب العيد بناها: الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم عليّ بن الحاكم بأمر الله، وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع، وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة، وكان مشتغلا بالأكل والشرب، وسماع الأغاني.... واستثمرت سجنا للأمراء، والوزراء، والأعيان إلى أن زالت الدولة، فاتخذها ملوك بني أيوب أيضا سجنا، تعتقل فيه الأمراء والمماليك" انظر المقريزى: الخطط، ج٢، صـ٣١٦ - ٣٢٠.

(٤) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٦٢؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ١٩٤، ١٩٥.

(٥) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٩٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ١٩٤.

المناسبة[١].

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه فى مثل تلك الاحتفالات أحياناً تجهيز شراب الليمون والسكر فى أحواض كبيرة وسقى الناس منها أو تفريق لون من اللبن على الحضور أو مد موائد الأطعمة الشهية، وذلك لكسب ود الرعية وتقرباً إلى الله تعالى[٢].

وكانت تضرب المدن بالبشائر لعافية السلطان عند قدومه لتلك المدن فقد زينت مدينة بلبيس لمقدم الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وتلقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلى، فركب السلطان فرسه وضربت البشائر بعافيته[٣].

والحقيقة أن الاحتفالات التى كانت تقام عقب شفاء السلاطين فى العصر المملوكى تعكس لنا أحياناً مدى حب الناس لسلاطينهم والذى يظهر فى المبالغة فى مظاهر فرحهم وابتهاجهم لشفائه، ومن تلك الشواهد حين دقت البشائر بشفاء السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين في سنة٦٩٧هـ/١٢٩٧م من كسر يده كان قد لازم الدور السلطانية لتلقى العلاج مدة شهرين؛ فزينت القاهرة وسائر البلاد المصرية وكتبت بشائر الشفاء الى سائر الأقاليم المملوكية ومن شدة محبة الناس لهذا السلطان، فقد أتوا من كل مكان لرؤيته ولشدة إقبال الناس من كافة الأقطار لرؤية السلطان بعد شفائه، استأجر القادمون البيوت بأموال جزيلة، كما أخذ أصحاب الحوانيت[٤] أجرة جلوس كل شخص لرؤية السلطان بلغ مقدارها نصف درهم لكل شخص[٥] وظل الاحتفال بعافية السلطان سبعة أيام[٦].

وقد جرت العادة أن يقوم السلطان عقب شفائه من مرضه بدخول الحمام، وذلك

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٢٨.

(٢) محمود رزق سليم: المرجع السابق، مج٢، صـ ٣٤٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤١؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ١٣٣.

(٤) الحانوت:" مكان الخمار ومحل التجارة (ج) حوانيت "انظر زين الدين الرازي: مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط.٥، دار المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م، ج١، صـ ٨٦؛ ابراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق، ج١، صـ٢٠١؛ أحمد مختار: المرجع السابق، ج١، صـ٤٣١).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٨٣؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ٣٩٩.

(٦) ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٨٧.

إعلاناً بشفائه[١] بل كما أقبل بعض السلاطين على حلق رأسه فيتأسى به كافة الأمراء والمماليك قاطبة فيحلقون رؤوسهم عن آخرهم أسوة بسلطانهم، وهنا تشير المصادر التاريخية أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لما شفى من المرض الذى ألم به فى سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م دخل الحمام ثم أقبل على حلق رأسه وقد اقتدى به كافة الأمراء والمماليك الناصرية وحلقوا رؤوسهم ومنذ ذلك الحين منع العسكر من إرخاء شعورهم مما له بالتالي الأثر على الحياة العسكرية ثم نظر فى أمور المساجين وأفرج عنهم[٢].

كما جرت العادة فى العصر المملوكى أن تكتب البشائر بشفاء السلطان إلى سائر أقطار الدولة المملوكية، فيغدق نواب الولايات الأموال الجزيلة والأقمشة الفاخرة والخيول على الأمير حامل بشارة السلطان، كما ينعمون عليه الخلع الكاملة[٣] المزخرفة بحوائص الذهب ابتهاجا بشفاء السلطان نذكر منها حينما أُرسل الأمير قطلوبغا المغربى (ت:٧٢٧هـ/١٣٢٧م) بكتب البشارة بشفاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى كافة الولايات المملوكية، فأغدق عليه أصحاب الأعمال من الأمراء الأموال والخيول والخلع والأقمشة ما بلغ قيمته ستة آلاف دينار وثلاثون فرساً وثلاثمائة قطعة قماش وست خلع كاملة بحوائص ذهب[٤].

وحينما أُرسل الأمير آقبغا بن عبدالواحد(ت:٧٤٤هـ/١٣٤٤م) إلى البلاد الشامية سنة٧٣٠هـ/١٣٣٠م حاملاً البشائر شفاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فأقيمت الأفراح فى كافة ممالك الشام وأغدق عليه من سائر أصناف المال من ذهب وفضة وغيره ما قيمته نحو مائة ألف دينار[٥].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٩٥– ٩٦؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ١٤٦

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٥٠٦.

(٣) الخلعة الكاملة: " كان ثوب التشريف يقتصر على" قباء" أو "عباءة" كما كان يشتمل غالباً على متنوعات من ملابس الأمراء كالأحزمة أو القلانس التى كان يشار إليها على التخصيص بوصفها أشياء مضافة الى الخلعة، وأحياناً أخرى كانت الخلعة تشتمل على أجزاء من الثياب، بل وفى بعض الظروف كانت تتضمن أسلحة وفى بعض الحالات الاستثنائية أيضاً كانت تحتوى على درع فارس وكسوة جواد مزركشة ... " ل.ا ماير: المرجع السابق، صـ ١٠٣– ١٠٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٧٤.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ١٢٩.

ولما شفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من كسر يده اليسرى نتيجة لتقنطر الفرس به فى سنة٧٣٠هـ/١٣٣٠م وأُقيمت الزينة بالقاهرة وضواحيها، وأرسلت البشائر بعافية السلطان وصحته إلى النواب فى سائر الممالك السلطانية صحبة الأمير سيف الدين آقبغا عبد الواحد الجمدار(١) فأغدق عليه أصحاب النيابات بالهدايا النفيسة– على حد قول المقريزى وابوالمحاسن–، كما زفت البشائر بباب الإسطبل السلطانى، وعلى أبواب الأمراء بقلعة الجبل والقاهرة ، وكانت أيام مشهودة من كثرة الازدحام حتى غصت مدينة القاهرة بالناس(٢).

وذكر ابن بطوطة فى رحلته ما رآه من مظاهر احتفال أهل القاهرة عند شفاء الملك الناصر محمد بن قلاوون من كسر يده حيث قام أهل السوق بتزين أسواقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير واستمرت هذه الزينة معلقة لعدة أيام(٣).

ومن مظاهر الاحتفالات التى كانت تقام بمناسبة شفاء السلاطين أن تقام الدعوة لأرباب الملاهي إلى القلعة، ويقوم الأمراء بإقامة الولائم لإطعام الناس المشاركين فى مظاهر الاحتفال والأفراح سروراً لشفاء السلطان، كما يكون السلطان على رأس تلك الاحتفالات كما يشارك فى تلك الاحتفالات كافة عناصر المجتمع كالأمراء والعربان حتى الكلابزية(٤) وطائفة العتالين الذين تغدق عليهم الهبات والأموال من الأمراء ابتهاجاً لشفاء السلطان كما حدث فى سنة٧٤١هـ/١٣٤١م حيث نودى فى القاهرة ومصر بالزينة لشفاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مرض أصابه.

---

(١) الأمير سيف الدين آقبغا عبد الواحد الجمدار(ت:٧٤٤هـ/١٣٤٤م):" هو آقبغا الأمير سيف الدين الناصرى المعروف بأقبغا عبدالواحد تنقلت به الأحوال من الجمدارية الى ان صار أمير مئة مقدم ألف، أستادار السلطان، مشد العمائر، مقدم المماليك، أمير منزل خمس وظائف .."(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٥٤٨– ٥٥٠؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٤١٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤٦٥)

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٢٩ ذكرها فى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٩٤؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٣٠٣.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج١، صـ ٢٥؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، صـ ١٩٤، ١٩٥.

(٤) الكلابزية: " وهو الذى يتصدى لخدمة الكلاب، ويركب بها فى الصيد مع السلطان أو الأمير" (انظر السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد على النجار، أبو زيد شلبى، محمد أبو العيون، ط.١، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٤٨م، صـ ١٤٥؛ نبيل محمد عبد العزيز: المرجع السابق، صـ ٥٥.

وشارك الأمراء فى هذه المناسبة بإقامة الولائم والأفراح كلاً على قدر رتبته، حتى عمل الأمير ملكتمر الحجازى(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م) فى ذلك الاحتفال نفطاً فى سوق الخيل بحضرة السلطان، ودعا أرباب الملاهي إلى القلعة، كما قدمت عربان الشرقية بخيولها ولعبوا بالرماح تحت القلعة، كما شارك فى هذا الحفل الكلابزية وطائفة العتالين والحجارين الذين حضروا إلى سوق الخيل ثم انتقلوا إلى بيوت الأمراء الذين أغدقوا عليهم الأموال الجزيلة حتى وصل نصيب مهتار الطبلخاناة منها ما قيمته ثمانون ألف درهم بالإضافة إلى ما حققه أرباب الملاهي فى هذا الحفل من المكاسب الطائلة[١].

كما شهدت الاحتفالات التى كانت تقام ابتهاجاً بشفاء السلاطين خلال العصر المملوكى مشاركة اليهود والنصارى فى الاحتفال بشفاء السلطان، الذين يخرجون حاملين التوراة والإنجيل، والشموع موقدة، يدعون للسلطان بدوام العافية كما هو الحال فى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م حيث زينت مصر والقاهرة ابتهاجاً لشفاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مرض أصابه، فخرج اليهود والنصارى حاملين التوراة والإنجيل موقدين الشموع داعين للسلطان بدوام العافية، وقد ظلت الزينة معلقة مدة عشرة أيام[٢].

كما دقت البشائر مدة ثلاثة أيام متتالية وعلقت الزينة وأقيمت الأفراح بقلعة الجبل عقب شفاء السلطان الملك إينال العلائى(٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م) في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م وبعد ملازمته للدور السلطانية لتلقيه العلاج من مرض أصابه، فلما شفى خرج إلى قاعة الدهيشة[٣].

وكان من جملة مظاهر الاحتفالات بشفاء السلاطين فى العصر المملوكى أن يتزين الخدم السلطاني بالملابس المعطرة بالزعفران[٤]، كما تزف السلاطين المغانى فرحاً وابتهاجاً

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٩٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٦١- ١٦٢.

(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ١٢٩.

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١١٦.

(٤) الزعفران:" الزعفران، هذا الصبغ، المعروف وهو الطيب ومن خواصه المجربة ما ذكره الأطباء فى كتبهم انه (إذا كان فى بيت لا يدخله سام أبرص)، كما صرح به المتكلمون فى الخواص"(انظر الزبيدي: المصدر السابق، ج١١، صـ٤٢٨)؛ "يطلق اسم الزعفران safran على مباسم زهرة الكروكس ساتيفس crocus sativus المجففة كان هذا النبات منتشراً فى العصور الوسطى فى كل أنحاء آسيا و أوروبا، " ح. هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ج٤، صـ ١٧٦-١٧٨.

لشفائهم مثلما حدث فى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م حين ركب السلطان الملك الأشرف قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) لصلاة الجمعة بعد شفائه من كسر أصابه فى قصبة ساقه، وحين شفى تزين له الخدم السلطاني متعطرين بالزعفران ابتهاجاً لشفائه، كما لاقته المغانى من باب جامع القلعة[١].

ومن مظاهر الاحتفالات التى أقيمت لشفاء السلطان المملوكى أن يخرج للصلاة يوم الجمعة فى جامع القلعة راكباً صهوة جواده من باب الدهيشة الى باب القلعة فيزين الخدام السلطاني له متعطرين بالزعفران.

كما تشارك زوجات السلطان الفرحة بشفائه، ومن مظاهر مشاركتهن لمظاهر الاحتفال أن تقمن بتفرقة البنود الحرير الأصفر على الناس وأعيان الدولة مثل مقدم المماليك، والحجاب ورؤوس النوب، ونقيب الجيش[٢] وغيرهم.

كما نثرن على رأس السلطان الذهب، وفرشن له الشقق الحرير تحت حافر فرسه؛ ولم تبخل علينا المصادر التاريخية بوصف ما تقوم به نساء سلاطين المماليك ونساء الأمراء من احتفالات بعد شفاء سلاطين المماليك نذكر منها ما قمن به حينما كسر ساق السلطان الأشرف قايتباى فى سنة٨٩١هـ/١٤٨٦م[٣] ولما شفى الحمام، ثم خرج قاصداً صلاة الجمعة راكبا فرسه من باب الدهيشة إلى جامع القلعة، فتزين له الخدام وتطيبوا بالزعفران، كما أظهرت خوند زوجة السلطان قايتباى فرحها لشفائه ففرقت البنود الحرير الأصفر على الناس وأعيان الدولة فوضعها الخدام والخاصكية فى أواسطهم، وعند رجوع السلطان من الجامع لاقته المغانى ونثرت خوند على رأسه خفائف الذهب والفضة، كما فرشت له الحرير تحت حافر فرسه، وقد أنعم السلطان على الأطباء والمزينين الخلع السنية الجليلة، وكانت قد بلغت فترة انقطاع السلطان لتلقى العلاج فى الدور السلطانية لهذا المرض قرابة ثلاثة وخمسين يوماً[٤].

---

(١) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٦٢- ٦٣.

(٢) نقيب الجيش: " هو الذى يتكلف بإحضار ما يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم، والنقيب فى اللغة العربية: العريف...... " انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٥٢.

(٣) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٢٢٧.

(٤) ابن اياس: نفس المصدر، ج٣، صـ٢٢٩.

وإذا كان هناك من سلاطين المماليك قد بالغوا فى الاحتفال بشفائه فإنه وجُد منهم من لم يكترث ولا يلقى بالاً فى الاحتفال بشفائهم من الأمراض فتشير المصادر التاريخية أن السلطان قنصوه الغورى لما شفى من المرض فى سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م سار نحو المطرية لكشف تطورات التى أنشأها هنا فدعاه الزينى بركات موسى المحتسب إلى مائدة فخمة شملت سائر الأطعمة، وكان الناس قد أقاموا الزينة ابتهاجاً بشفائه وظنوا دخول السلطان طريق عودته إلى القلعة لرؤية مراسم الاحتفال، إلا انه عاد إلى القلعة عبر الترب دون أن يلقى اهتماماً لما أقامه الناس من مظاهر الاحتفال بشفائه[١].

(١) الزينة فى احتفالات شفاء السلاطين:-

وكما ظهر فى أكثر من موضع يشيد بإقامة الزينة ابتهاجا بعافية السلاطين من الأمراض التى أصابتهم من ذلك إقامة الزينة بمصر والقاهرة فى سنة٧١٧هـ/١٣١٧م لم يشهد مثلها من قبل لشفاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون[٢]، وما أشاد به الرحالة ابن بطوطة حين زار مصر فى عصر المماليك سنة٧٢٩هـ/١٣٢٩م حيث حضر بها مرة أحد الاحتفالات بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزينت الأسواق وعلقت الحلل والحلى وثياب الحرير وبقى ذلك أياماً[٣].

وفى ذلك الاحتفال بشفاء السلطان محمد بن قلاوون زينت القاهرة والديار المصرية بزينة لم يعهد بمثلها من قبل وتفاخر الناس فيما بينهم وظلت تلك الزينة معلقة أسبوعاً تفنن فيها الناس بأنواع الترف والبذخ، كما شاركت خوند ست حدق[٤] مظاهر الاحتفال ونزلت فى عدة من الخدم والجوارى لمشاهدة تلك الزينة، وأقيمت الأفراح بالقلعة وقصور الأمراء أسبوعا كما أقام الأهالي الملاهى فى عدة أماكن بمختلف آلات المغنى، وبمناسبة

(١) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ٣٢٥.

(٢) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٩، صـ ٢٩٢.

(٣) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ٢٨٩.

(٤) الست حدق: " هى ست حدق القهرمانية الناصرية التى كانت لها نفوذ كبير على نساء الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان يقال لها ست مسكة .... " انظر ترجمتها فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ١٨٨؛ المقريزى: الخطط، ج٢، صـ ٢٧٨؛ انظر :

Amalia,L: Aturning point in Mamlouk History, leiden , 1995, pp. 49- 86.

ذلك الاحتفال أنعم السلطان وخلع على كثير من أرباب الوظائف وكبار رجال الدولة[١].

كما كان يصحب تلك الاحتفالات إقامة الزينة حيث تعلق فى المدن عقب شفاء السلاطين مباشرة، وما تبعها من إشعال الشموع والقناديل وإغداق الصدقات على الفقراء والمحتاجين وقد تظل هذه الزينة مدة ثلاثة أيام أو أكثر كما ينثر على السلطان الذهب والفضة، ومن الأمثلة التى توضح هذا المعنى.

ففى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م صلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين الجمعة عقب شفائه من مرضه، فدقت البشائر لشفائه ثلاثة أيام وزينت القاهرة ومصر زينة عظيمة كما تبع خروج السلطان إلى صلاة الجمعة نثر عليه الذهب بكثرة ابتهاجاً لشفائه، إلا انه سرعان ما عاوده المرض مرة أخرى بعد يومين[٢].

وفى عهد السلطان الملك الظاهر برقوق الجركسى فقد زينت لشفائه دمشق فى سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م من مرض أصابه، مما يوضح لنا أن إقامة الزينة لشفاء السلاطين كانت تشمل البلاد المصرية والشامية ولم تقتصر على أحدهما دون الأخرى[٣].

وكذلك دقت البشائر لشفائه فى سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م عقب شفائه من مرض أصابه فزينت له القاهرة ومصر لهذه المناسبة زينة عظيمة[٤]، وظلت تلك الزينة قائمة أسبوعاً كاملاً[٥].

كما أقيمت له الزينة عقب شفائه فى سنة٨٠٠هـ/١٣٩٨م من مرض ألمّ به حيث كان قد تزايد به المرض أثناء فتنة على باى فلما شفى من مرضه زينت له مصر والقاهرة كما تصدق بجملة من المال على الفقراء[٦].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ١٢٨.
(٢) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٦.
(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٤٦٨.
(٤) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤٠٢
(٥) ابن شهبة: المصدر السابق، ج٣، صـ ٦٢٣.
(٦) المقريزى: المصدر السابق، ج٥، صـ ٤٢١.

وفى عهد السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق ففى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م زينت مصر والقاهرة لشفائه من مرض أصابه زينة عظيمة وقد استمرت تلك الزينة قائمة من ١٣رجب ٨٠٨هـ/ ٤ يناير ١٤٠٦م حتى ١٥رجب ٨٠٨هـ /٦ يناير١٤٠٦م وتوجه الأمير يشبك الموساوى(١) إلى بلاد الشام حاملاً إليها البشارة بشفاء السلطان(٢).

ويبدو أن بعض سلاطين المماليك كان له شغف لرؤية الزينة التى تقام لشفائهم فينزلون من القلعة ليس لديهم غرض من النزول سوى رؤيتها كما فعل الملك المؤيد شيخ المحمودى سنة٨١٧هـ/١٤١٤م حيث ركب من القلعة بعد شفائه فى سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وشق القاهرة لرؤية الزينة، ثم عاد مرة أخرى إلى القلعة وقد أمر بهدمها(٣)، وكذلك أقيمت الزينة للسلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى بمصر والقاهرة بمناسبة شفائه من مرضه مرتين سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م،(الأولى) فى جمادى الأولى ٨٢٣هـ/مايو ١٤٢٠م حين خرج من القاهرة عبر باب النصر عقب شفائه من مرضه فزينت له القاهرة سروراً لشفائه كما أوقدت الشموع والقناديل(٤) حتى سار إلى القلعة(٥).

والثانية كانت فى ٢٩شوال٨٢٣هـ/٦نوفمبر١٤٢٠م حيث دخل السلطان الحمام عقب شفائه من مرض أصابه فزينت له القاهرة ومصر ابتهاجاً لشفائه فتصدق بجملة من المال على الفقهاء والفقراء(٦).

وقد تقام الزينة فى الديار المصرية والسلطان خارجها حين تأتى البشائر بشفائه من مرض أصابه أثناء سفره فتبدأ على الفور مظاهر الاحتفال ويتعطر الخدم بالزعفران وتصدر الأوامر بإقامة الزينة فى القاهرة كما هو الحال عندما جاءت المكاتبات من بلاد

---

(١) يشبك الموساوى(ت:٨١٤هـ/١٤١١م):" هو الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله الموساوى الظاهرى، المعروف بالأفقم، أحد مقدمى الألوف بالديار المصرية بعد أن ولى عدة أعمال... قتل سنة ٨١٤هـ/١٤١١م... " (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ١٨٥).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ١٣٧.

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ٢٣.

(٤) القناديل:" مصباح كالكوب فى وسطه فتيل يملأ بالماء والزيت ويشعل(ج) قناديل"(انظر إبراهيم مصطفى وآخرون: المرجع السابق، ج٢، صـ ٧٦٢؛ أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ج٣، صـ١٨٦١).

(٥) المقريزى: المصدر السابق، ج٧، صـ ١٠-١١.

(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ١٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ١٠٦.

الشام على يد أحد خاصكية السلطان الأشرف قايتباى لرجال الدولة تخبر شفائه من مرض أصابه فى رمضان ٨٨٢هـ/ديسمبر ١٤٧٧م أثناء سفره فى البلاد الشامية، فضربت البشائر بشفاء السلطان، وتزين الخدام بالزعفران ونودى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ابتهاجاً بشفاء السلطان[١].

ومن مظاهر الاحتفالات التى تقام لشفاء السلاطين فى العصر المملوكى أن ينزل أرباب الدولة من القلعة مرتدين الحرير الأصفر ابتهاجاً لشفاء السلطان يطوفون القاهرة وأمامهم الحكام وعليهم الخلع التى أنعم بها السلطان عليهم لشفائه، وينادى فى الناس بإقامة الزينة وتزين المنازل، وتدور الطبول والزمور لتهنئة أعيان الناس بشفاء السلطان وتقام الزين الحافلة فى أسواق القاهرة الشهيرة.

ولم يقتصر أمر الاحتفال بشفاء سلاطين المماليك على مشاركة الأمراء وكبار رجال الدولة بل تذكر المصادر التاريخية مشاركة الخليفة مراسم الاحتفال نذكر من ذلك انه لما شفى السلطان الملك قانصوه الغورى فى شعبان ٩١٩هـ/أكتوبر ١٥١٣م قام خليفة المتوكل على الله محمد العباسى بتزين بابه–ابتهاجاً لشفاء السلطان– بستور ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها، حتى بلغ الحد إلى قيام القضاة بتزين أبوابهم بالبشاخين المحمل كما تضرب الكوسات[٢] على أبواب الأمراء كما هو الحال عند أتم الله شفاء السلطان الملك قانصوه الغورى فى سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م[٣].

إذ نزل الزينى بركات بن موسى ومعه سائر أرباب الدولة فى موكب سار أمامه الحكماء مرتدين الخلع التى أنعم بها عليهم السلطان ونودى بالزينة فى القاهرة فخرج الناس وقد زينوا منازلهم، ودارت الطبول والمزامير لتهنئة أعيان الناس بشفاء السلطان[٤].

وفى٥شعبان ٩١٩هـ/٤أكتوبر ١٥١٣م تزينت سائر أسواق القاهرة بالزينة الحافلة ابتهاجاً لشفاء السلطان مثل سوق الشراب وسوق الحاجب وسوق الفاضل كما زينت مصر

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ١٣٧.

(٢) الكوسات: " الطبول، وفسرها بعضهم بأنها صنوج من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر، ويدعى من يضرب بها الكوسى.." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٣٢.

(٣) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٣٣.

(٤) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٣٣٣.

العتيقة والقاهرة حتى زينوا أسواق الخانكاه وزينت حارة زويلة وخان الخليلى وغيرها من أسواق القاهرة[١].

أما الأمراء وسائر أرباب الوظائف بالدولة فقد زينوا أبوابهم بالصناجق والخيام الهائلة وكذلك طبقة القضاة شاركت فى مظاهر تلك الاحتفالات بان قام قاضى القضاة بتزين أبواب المدارس وأبوابهم بالحرير، وقد أسرف القضاة وغالوا فى إظهار الزينة ابتهاجاً لشفاء السلطان حتى كان ذلك مبعثاً للإنكار الناس عليهم، ولاسيما القاضى عبد البر بن الشحنة[٢] الذى أسرف فى الزينة وزين بابه بالبشاخين المزركش والعنبر[٣].

ولعل كان أهم الأسباب لاتساع الزينة إلى هذا الحد كان لإبطال الشائعات التى أشيعت فى سائر البلاد الشرقية والغربية بعمى السلطان، فأراد السلطان إظهار هذه الزينة حتى يعلم القريب والدانى بخبر شفائه من مرض عينيه الذي أصابها[٤].

<u>(٢) إغداق الصدقات:-</u>

ولقد اتخذ سلاطين المماليك فى العصر المملوكى من إغداق الصدقات وتفرقة الأموال على الفقراء والمساكين قربة إلى الله ليمن عليهم بالشفاء من الأمراض سواء التى أصابتهم أو أصابت أولادهم أو الأمراء وينبغي أن نلاحظ أن هذا التصرف من قبل سلاطين المماليك كان يصدر عن تصور ديني يجعل منه إحساناً وصدق للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس فى أوقات الأوبئة والشدائد والمجاعات فضلاً عن تخفيف ما يلحق بهم من الآلام الأمراض التى تنتابهم، ولم يكن يصدر عن موقف تلتزم به الدولة برعاية الناس وتقديم الخدمات العامة لهم بل إن هذا التصرف الأخلاقي الطابع نكاد نجزم

---

(١) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٣٣٤.

(٢) القاضى عبد البر بن الشحنة (٨٥١-٩٢١هـ/١٤٤٨-١٥١٥م):" هو أبو البركات عبد البر بن محمد بن محمد ،سرّى الدين، المعروف بابن الشحنة قاض فقيه حنفي له نظم ونثر ولد بحلب، وانتقل الى القاهرة وتولى قضاء القاهرة، وصار جليس السلطان الغورى وسميره وصنف كتباً منها(غريب القرآن) و(تفصيل عقد الفرائد) شرح به منظومة ابن وهبان فى فقه الحنفية، و(الذخائر الاشرفية فى ألغاز الحنفية) توفى فى القاهرة سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م...."(انظر ترجمته فى ابن العماد: المصدر السابق، ج١٠، صـ١٤١- ١٤٤؛ نجم الدين ابن الغزى: المصدر السابق، ج١، صـ ٢٢٠؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٧٢- ٢٧٣؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج٥، صـ ٧٧- ٧٨).

(٣) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٣٣٤.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٣٥.

انه تلاشى فى عصر الجراكسة وحل محله موقف متناقض تماماً، فقد كان السلاطين وكبار رجال الدولة يحتكرون الغلال فى شونهم، ويشترونها حين يكون سعرها منخفضاً ويخرجونها وقت الأزمة فيبيعونها بسعر يحقق مكاسب كبيرة(١)، ومن شواهد ذلك.

حين أصيب السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بمرض فى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م فأعطى الفقراء الأموال الجزيلة وأغدق عليهم بالصدقات تقرباً إلى الله لينعم عليه بالشفاء(٢).

ومن الشواهد التاريخية التى تشير فى أكثر من موضع إلى إقدام السلاطين خلال العصر المملوكى أثناء مرضهم على إغداق الصدقات على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات، ومن هؤلاء السلاطين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين مرض بالإسهال فى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م تصدق خلال مرضه بأموال جزيلة على الفقراء والمساكين(٣).

وكذلك السلطان الملك الصالح إسماعيل مرض فى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م أمر بتفرقة الصدقات الجزيلة على الفقراء وأمر بالإفراج عن المسجونين من الأمراء وعين جماعة لقراءة صحيح البخاري(٤).

وقد تصدق السلطان الملك الظاهر برقوق فى مرضه سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م بصدقات عظيمة حتى قدر ما تصدق به من الذهب عين نحو ٢٥٠ ألف دينار غير الأموال والغلال، ولم تقتصر صدقاته على الأموال والذهب والفضة فحسب، بل شملت الصدقات أيضاً توزيع الملابس حيث كسا أيتام الكتاتيب بسائر البلاد المصرية والقاهرة والقرافتين(٥).

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ١٧٥.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٢٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٢٩٨.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ٩٤.

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٦٦٦.

ومن أمثلة سخاء السلطان الظاهر برقوق فى توزيع الصدقات اذا مرض ما أنفقه من صدقات حين مرض فى ذى الحجة٨٠٠هـ/أغسطس ١٣٩٨م ما مقداره مائتا ألف وخمسون ألف مثقال من الذهب والفضة والأموال والغلال والقماش وغيرها[١].

وعلى صعيد آخر فان توزيع تلك الصدقات كان يصاحبها فى بعض الأحيان مساوئ نظراً لعدم تنظيم عملية توزيع تلك الصدقات وتنسيقها، والقيام بتوزيعها بشكل عشوائى مما كان له الأثر السلبي بوقوع الضحايا من الرجال والنساء والأطفال من الفقراء وكثرت الموت فيهم نتيجة اندفاعهم للحصول على تلك الصدقات مما يؤدى إلى وقوع القتلى نتيجة ذلك الاندفاع.

كما حدث فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٨م حين أصيب السلطان الملك الظاهر برقوق بمرض الإسهال، أمر بتفرقة الصدقات على الفقراء حتى بلغ مقدار ما تصدق به فى هذا المرض أربعة عشرة ألف دينار وتسعة وتسعين ديناراً[٢]، كما كان يشهد للسلطان برقوق كثرة إغداق الصدقات على الفقراء ولاسيما إذا مرض[٣]، فاجتمعوا تحت القلعة بأعداد غفيرة من الفقراء والمساكين للحصول على تلك الصدقات، فمات من شدة الازدحام نحو سبعة وخمسون شخصاً ما بين رجل وإمراة وصغير وكبير[٤].

أما السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق حين اشتد به المرض حتى أرجف بموته من شدة مرضه فى محرم ٨٠٨هـ/يونيو١٤٠٥م باع فرساً بمائتي ألف درهم وتصدق بثمنه على الفقراء والمساكين[٥].

وحين مرض السلطان الملك الأشرف برسباى فى جمادى الآخرة٨٣٧هـ/ يناير ١٤٣٤م بعث بمال جزيل ليفرق على الفقراء وذوى الاحتياجات[٦] وكذلك حين مرض مرة أخرى فى شعبان٨٤١هـ/يناير١٤٣٨م أخرج أموالاً تصدق بها على جماعة من الناس

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٢٠.
(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٤٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ١٠٤.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٦٨؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ١٧.
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٣٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ٩١.
(٥) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ١٣٧.
(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٦٥.

وتصدق على أهل القرافتين[١].

أما السلطان الملك الظاهر خشقدم(٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦٠-١٤٦٧م) فحين اشتد به المرض فى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م عرض فرساً من الإسطبل السلطانى للبيع على الأمراء حتى بيع بألف دينار فتصدق بها عن نفسه وكذلك كانت عادة من سبقوه وأما عن كيفية بيع الفرس الذي يتصدق به السلطان فكان ينزل أمير آخور[٢] رابع من باب السلسلة، وهو راكب الفرس فيمر به على الأمراء، فيبدأ بالأمير كبير[٣] أولاً، ثم ببقية الأمراء فيشتريه من أقرب إلى السلطان من الأمراء[٤].

وقد ينيب السلطان عنه من يتولى أمر تفرقة الصدقات نظراً لما يعانيه من شدة المرض كما حدث حين فرق السلطان الملك الأشرف قايتباى من الأموال ما بلغ قدره ألف دينار على يد قطب الدين الخيضرى[٥] أثناء تلقيه العلاج من كسر أصاب ساقه اليسرى فى ٨٩١هـ/١٤٧٧م[٦].

وإذا تصدق السلاطين خلال أمراضهم بالأموال عن أنفسهم فهناك ما يشير إلى إقبال السلاطين أيضاً بإغداق الصدقات عن أبنائهم إذا أصابتهم الأمراض كما يقبلون أيضاً على استدعاء الصالحين والفقراء ليدعوا لأبنائهم بالشفاء ويبعثون بالأموال الجزيلة لكبار المشايخ لتوزيعها على الفقراء فكان من هؤلاء المشايخ من يقبلها ويطلبها من السلطان ومنهم من يرفض قبولها ويرده الى السلطان.

(١) المقريزى: المصدر السابق، ج٧، صـ٣٤٧؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ٩١.

(٢) أمير آخور: "هو المشرف على اصطبل السلطان و خيوله ويسكن بإصطبل السلطان " محمد احمد دهمان: المرجع السابق، صـ٢٠؛ محمود نديم أحمد فهيم: المرجع السابق، صـ ٨٠؛ حسن الباشا: المرجع السابق، ج١، صـ ١٧٤- ١٨٦.

(٣) أمير كبير:" رتبة عسكرية فى الجيش المملوكى من مقدمى الآلاف، وقد يتولى نيابة السلطنة أو أتابكية العسكر، ويلى الأتابك بالرتبة، وهو رئيس السلاحدارية ..." انظر محمد احمد دهمان: المرجع السابق، صـ٢٢.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٢، صـ ٤٥٢- ٤٥٣.

(٥) قطب الدين الخيضرى(ت:٨٩٤هـ/١٤٨٩م) :" هو محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر، قطب الدين أبو الخير ابن الخيضرى الزبيدي الدمشقى الشافعى، قاضى من العلماء بالتراجم والأنساب والحديث أصله من عرب البلقاء ولد فى بيت(لهيا) من قرى دمشق وقرأ بدمشق وبعلبك والقدس ومصر ومكة وولى قضاء الشافعية وكتابة السر بدمشق توفى بالقاهرة له كتب منها (الاكتساب فى تلخيص كتب الأنساب) الأول منه، بخطه فى البصرة، و(اللفظ المكرم بخصائص النبى الأعظم) و(شرح ألفية العراقى) و(طبقات الشافعية)...... " (انظر ترجمته فى الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٢، صـ ٢٤٥-٢٤٦؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٧، صـ ٥١-٥٢؛ عمر كحالة: المرجع السابق، ج١١، صـ ٢٣٧).

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٢٢٨.

كما هو الحال حين مرض الملك الصالح بن الملك المنصور قلاوون مرض الموت سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م حيث أكثر السلطان المنصور من إغداق الصدقات عن ابنه على الفقراء والمساكين، كما استدعى الصالحون والفقراء الدعاء لابنه بالشفاء كما بعث إلى الشيخ محمد المرجانى يدعوه للحضور كما دعا غيره من المشايخ فلما أبى الحضور أرسل إليه الطواشى بجملة مال قدرها خمسة الآلاف درهم ليفرقها على الفقراء فرفض قبولها وردها للسلطان بينما صعد الشيخ عمر[١] خليفة الشيخ أبى السعود إلى السلطان حين دعاه ليدعوا لابنه الصالح، فأشار على السلطان أن يتصدق على فقرائه بالمال حتى يسألوا الله ويدعوه لابنه الصالح بالشفاء فأعطاه السلطان خمسة آلاف درهم[٢].

وأظهر سلاطين العصر المملوكى اهتماما بالغاً لعافية الأمراء من أمراضهم ومن مظاهر هذا الاهتمام تصدق السلاطين بالأموال والصدقات الكثيرة، وإطلاق المساجين من السجون كما حدث حين شفى الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م من مرض ألّم به فتصدق السلطان الأشرف خليل بن قلاوون(٦٨٩- ٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) لعافيته بجملة كثيرة من الصدقات، وأطلق جماعة كثيرة ممن كان فى السجون كما تصدق الأمير بيدرا نفسه أيضاً بجملة، ورد كثيراً مما كان اغتصبه من أملاك الناس[٣].

ويلاحظ أن الصدقات التى يخرجها السلاطين فى عصر المماليك لشفاء أحد مماليكه من الأمراء قد تتخذ صوراً عدة من هذه الصور على سبيل المثال قيام السلطان المملوكى بإخراج الأموال الجزيلة من الخزائن السلطانية ليفرج بها عن المسجونين بسبب الديون بدفع ما عليهم من تلك الديون، كما لا يبخل السلاطين عن الإغداق على أمرائهم بالذهب والفضة عند شفائهم، مما يدل على مكانة الأمير المغدق عليه عند السلطان.

---

(١) الشيخ عمر:" هو احمد بن محمد بن عمر بن أبى بكر بن على بن عمر الشهاب أبو البقا بن المحب خليفة الشيخ أبى السعود بن أبى الغنائم وشيخ الطائفة السعودية ولد قريباً من سنة ثمان عشرة فقد كان ختانه فى سنة ثمان وعشرين، ونشأ على طريقة غير مرضية بحيث أتلف كثيراً من جهات الزاوية التى لهم بالقرافة ونحوها وآل أمره إلى أن افتقر وانقطع فيها قائماً بسبب العادة وفقرائه ...." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، صـ١٥٩).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٢٠٧.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٣٤؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ٢٤١-٢٤٢.

كما هو الحال حين قام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م ابتهاجاً بشفاء مملوكه الأمير يلبغا اليحياوى بإخراج مبالغ مالية جزيلة بلغت نحو ثلاثين ألف درهم، ليفرج بها عن المديونين من أرباب السجون، كما أخرج للأمير المذكور ذاته ما قيمته مائتى ألف درهم، وحياصة[١] ذهب مرصعة بالجواهر الثمينة[٢].

وأشارت المصادر التاريخية إلى أن السلاطين أحيانا كانوا يتولون تكلفة الصدقات على أمرائهم فيبعثون بها إلى الأمراء المرضى الذين يقومون بدورهم على تفريقها على الفقراء والمساكين، ومن ناحية أخرى قد يشارك بعض زملائهم من الأمراء إغداق الصدقات عليهم، مما يعكس لنا مدى علو منزلة ذلك الأمير المريض عند السلاطين ورجال الدولة ومن أمثلة ذلك حين مرض الأمير أرغون الكاملى[٣] فى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م قلق السلطان الملك الكامل شعبان لمرضه وبعث إليه فرساً وثلاثين درهم تصدق بها عنه كما تصدق عنه أيضاً الأمير أرغون العلائى(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م) بمقدار من المال بلغ عشرة آلاف درهم كما أفرج عن أهل السجون[٤].

وكما أغدق سلاطين العصر المملوكى الأموال الطائلة والصدقات فى مرضهم وأمراض أبنائهم فهناك صورة أخرى للإغداق مثل تلك الصدقات خاصة عند وقوع الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية التى كانت تحل بالبلاد، ولا شك أن سلاطين

---

(١) " أما حزام العسكريين الذى يسمى "منطقة" وأطلق عليه فيما بعد اسم "حياصة" Hiyasa فكان يصنع من معدن ثمين، أفخمها ما كان من "الفضة المطلية بالذهب" وكما صنعت أحياناً من الذهب الخالص المرصع بحجر اليشم وكان السلطان هو صاحب الحق الوحيد فى منح الأحزمة الى الأمراء العظام، كجزء من ثياب التشريف، وكان من المألوف أن ترصع بالأحجار الكريمة . وأن الحياصة هى القطعة الوحيدة من ملابس الرجال التى أباحتها الشريعة الاسلامية ، وسمحت بعضها من- الفضة أو الذهب...... " انظر ماير: المرجع السابق، صـ ٤٧- ٤٨؛

Quatremère :Ibid , p. 138.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩ ،صـ١٤٥.

(٣) أرغون الصغير الكاملى(ت:٧٥٨هـ/١٣٥٧م):" هو أرغون الصغير الكاملى كان أحد مماليك الصالح إسماعيل رباه وهو صغير السن حتى صيره أميراً، وزوجه أخته لأمه هى بنت أرغون العلائى وكان جميلاً جداً ولما ولى الكامل حظي عنده، وكان يدعى أرغون الصغير فصار يدعى أرغون الكاملى، ثم ولاه الناصر حسن نيابة حلب فباشرها مباشرة حسنة، وخافه التركمان والعرب، ثم ولى نيابة دمشق فى أول دولة الصالح صالح ثم اعتقل بالإسكندرية، ثم أفرج عنه، وأقام بالقدس بطالاً، وعمر له فيها تربة حسنة، ومات بها فى شوال.." (انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ١٧٥؛ الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ٤٦٦-٤٧٦؛ المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٢٣٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ٤١٨ – ٤١٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ٣٢٦؛ نفسه : المنهل الصافى، ج٢، صـ ٣١٩-٣٢٣؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ٣١٦).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٢٥؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ١٢٧.

المماليك كان لهم دور كبير فى أثناء وقوع الأزمات الاقتصادية، وقد تفاوت ذلك الدور من سلطان إلى آخر فإن كان السلطان قوياً استطاع التحكم فى الأزمة بتوفير احتياجات الشعب وتحكمه فى الأسعار، أما إذا كان السلطان ذا شخصية ضعيفة أو لا يهتم بشعبه فإن الأزمة تستفحل، بل كان هناك بعض السلاطين يستغلون هذه الأزمات لزيادة أرباحهم(١).

ومن أمثلة تلك الصدقات التى يخرجها السلاطين للحد من عظم الأوبئة وما يصحبها من مجاعات وأمراض أن يقوم السلطان بتوزيع الفقراء وذوى الحاجات على الأمراء كلٌ على قدر استطاعته فيرسل مثلاً إلى أمير المائة مائة فقير والى أمير الخمسين خمسين، وقد تفاوت الأمراء فيما بينهم فى صورة العطاء الذى يخرجونه لفقرائهم فمنهم من يعطى فقرائه لحم البقر مثروداً فى مرقة الخبز، يمده لهم على هيئة أسمطة عظيمة(٢) يأكلون منها جميعاً، ومنهم من يكتفى بإعطاء فقرائه خبزاً، ومنهم من يفرق على فقرائه الكعك مما كان لذلك أثراً من التخفيف على الناس أثناء تلك الأزمات(٣).

ومن جملة الصدقات التى أغدقها السلاطين وأشارت إليها المصادر التاريخية، ففى وباء سنة ٦٦٢هـ/١٢٢٥م وانتشار الأمراض بين الناس وحدوث المجاعة فى عصر السلطان بيبرس إذ قام إزاء تلك المحن بأن أمر بإحصاء عدد الفقراء والمساكين والتزم بإطعام عدد منهم، وألزم كبار رجال الدولة بإطعام عدد من الفقراء والمساكين كلاٌ على حسب مقدرته، كما ألزم التجار والأغنياء أيضاً بإطعام طائفة من الفقراء مدة ثلاثة أشهر، ولم يقتصر الأمر الى هذا الحد بل أمر أن يفرق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم مائة إردب بعد صناعته خبزاً ليتم توزيعها على الفقراء والمساكين، وشرع الناس فى فتح المخازن وتفرقة الصدقات حتى أمكن اجتياز تلك الأزمة(٤).

---

(١) عثمان على محمد عطا: الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والأقتصادى والاجتماعي(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م)، ط.١، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢، صـ ١٥٩.

(٢) " اعتاد معظم سلاطين المماليك على مد الأسمطة، فى مختلف المناسبات، فهناك أسمطة تمد بالقلعة خاصة سلاطين المماليك أنفسهم، وأسمطة تقام فى المناسبات الاجتماعية العائلية كزواج، أو ولادة، أو ختان وغير ذلك، بالإضافة الى الاسمطة الخاصة بالمناسبات الدينية منها سماط المولد النبوى...." انظر ماجدة مصطفى: المرجع السابق، صـ ١٢٨.

(٣) المقريزى: إغاثة الأمة، صـ ١٠٩.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٢١٣.

وحين اشتد الغلاء وكثر انتشار الأمراض بين الناس سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م حتى بلغت عدتهم من أطلق من الديوان سبعة عشر ألفاً وخمسمائة سوى الغرباء والفقراء حتى أكل الناس الميتة قام السلطان الأشرف خليل بتفريق الفقراء على أرباب الأموال كلاً بقدر استطاعته ليتكلفوا إطعامهم كما ألتزم بتوزيع الصدقات على المساكين وإطعام عدد منهم(١).

وفى عصر السلطان برقوق سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م لما اشتدت الأمراض فى الناس وكثر الموت بينهم لقلة الطعام أمر بتفرقة الخبز على الفقراء وألزم عامله ابن الطبلاوى بتولى توزيعها على فقراء القاهرة ومصر وأهل السجون كافة وتم تنفيذ ذلك بالفعل حتى أمكن اجتياز الأزمة حتى اغتنى بعض هؤلاء الفقراء والمساكين من كثرة تفرقة دنانير الذهب والفضة والطعام(٢).

وفى سنة٨١٩هـ/١٤١٦م بلغ ما أنفقه السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى لما اشتدت الأمراض الوبائية بين الناس فى كل يوم ستة الآلاف رطل أى نحو اثنى عشر ألف رغيف وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين(٣).

(٣) الإفراج عن المساجين:-

وأشارت المصادر التاريخية إلى إقدام السلاطين خلال العصر المملوكى أثناء مرضهم على الإفراج عن أرباب السجون مما كان له اثر سلبي على أمن البلاد مما أظهره هؤلاء المساجين من فساد وقطع الطرق والقتل وإظهار الزعر بين الناس، ومن تلك الشواهد التى تشير إلى قيام بعض سلاطين المماليك بالإفراج عن المساجين أثناء مرضهم على سبيل التقرب إلى الله ليمن عليهم بالشفاء.

ولما تمثلت صحة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للشفاء سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م أفرج عن أهل السجون وأقيمت الزينة بالقاهرة وسائر الديار المصرية ابتهاجا بشفائه(٤).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٦٣.
(٢) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٣٨٤.
(٣) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٠٧.
(٤) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٥٠٦.

وفى أيام الغلاء وفتك الأمراض بالناس سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م أفرج السلطان الناصر محمد عن أهل السجون حتى أرباب الجرائم من السارقين وقطاع الطرق، وألزم القضاة والولاة ألا يسجنوا أحدا، فغلقت السجون جراء ذلك ولم يبق بها مسجون، إلا أن ذلك الأمر لم يستمر طويلاً وسجن من يستحق السجن[١].

وأصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بالإفراج عن المعتقلين فى سجون القضاة فى سنة ٧ذى القعدة٧٤١هـ/١٤ ابريل١٣٤١م قربة إلى الله ليمن عليه بالشفاء كما أفرج عن نيف وتسعين مسجوناً بسجن القلعة[٢] وكذلك قام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين مرض بالإسهال فى مستهل ذى الحجة٧٤١هـ/ مايو١٣٤١م أصدر القرارات السلطانية بالإفراج عن المساجين بسجون القضاة والولاة بالقاهرة وسائر أعمال الدولة المملوكية[٣].

وكذلك السلطان الملك الصالح إسماعيل حين مرض سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م كتب بالإفراج عن المساجين فى كافة أعمال الدولة، كما أمر بتفرقة الصدقات[٤].

وعلى صعيد آخر فقد يترتب عن إقبال سلاطين المماليك إلى الإفراج عن المسجونين أثناء مرضهم إلى انتشار السارقين والمفسدين فى البلاد مما يؤدى إلى زيادة الاضطرابات الداخلية بالبلاد وكثرة الجرائم، كما هو الحال حين أمر السلطان الملك الأشرف برسباى فى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م–حين فشا الوباء بالبلاد– بإخراج أرباب الجرائم وأصحاب الديون من السجون، ورسم بإغلاق سائر السجون، وأصدر الأوامر السلطانية بإبطال الحبس فى كافة السجون، فأغلقت السجون فى مصر والقاهرة، وانتشر السارقين وأرباب الجرائم والمفسدين وعاثوا فى البلاد فساداً، وامتنع كل من له مال من المطالبة به، مما زاد من تدهور البلاد مع كثرت الموت فى الناس من الطاعون[٥].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٠٥.
(٢) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ١٢٨– ١٢٩.
(٣) المقريزى : السلوك، ج٣، صـ٢٩٨.
(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٣.
(٥) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٥٠– ٣٥١؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٥، صـ ٩٤.

كما كان يشمل الإفراج عن المساجين فى بعض الأحيان الإفراج أيضاً عن الأمراء المحبوسين سياسياً كالتآمر على السلطان المملوكى والخروج عن طاعته حيث يصدر السلطان أثناء مرضه بالإفراج عنهم كما فعل ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين أفرج سنة٧٤١هـ/١٣٤١م فى مرض موته عن الأميرين طيبغا حجى[١] والأمير ألجيبغا[٢] وكذلك الإفراج عن خزندارية تنكز، وكان قد ألقى القبض عليهم فى ٢٣محرم٧٤١هـ/١٩ يوليو ١٣٤٠م[٣] بتهمة موافقتهم لأستاذهم الأمير تنكز فى الخروج عن طاعة السلطان[٤].

ومن الطريف أن بعض السلاطين كان يبالغ فى إظهار الرحمة والعدل خوفاً من شر المستشرى، فيمنع سجن أحد حتى ولو كان مذنباً، ففى سنة ٧٨٤هـ أمر السلطان برقوق بألا يحبس أحد بسبب ديونه، وأطلق سراح المسجونين، "وصار من له عند أحد حق لا يصل إليه، وانتشر السراق فى البلاد"، كما حدث فى سنة ٩٠٩هـ أن أمر السلطان الغورى بمنع الفقهاء من الجلوس للحكم فى القضايا وأمر ألا يشتكى أحد أحداً" إلا من الشرع الشريف"[٥].

(٤) الخلع:-

ويبدو أن السلاطين خلال العصر المملوكى كانوا ينعمون على الأمراء المرضى عقب شفائهم فى بعض الأحيان بخلعة العافية، كما اعتاد سلاطين العصر المملوكى الخلع على أرباب الدولة وكانت تمنح هذه الأوسمة للأطباء ابتهاجاً لتوفيقهم بعلاج

---

(١) طيبغا حاجى(ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م):" هو الأمير علاء الدين طيبغا حاجى وهو رأس نوبة الجمدارية، ثم إنه خرج من دمشق، واختص بالأمير سيف الدين تنكز، وكان يقربه ويدنيه، ولما أمسك تنكز، وحضر بعده بشتاك، أمسك الأمير علاء الدين طيبغا حاجى والأمير سيف الدين ألجيبغا العادلى، وأودعا قلعة دمشق فى الاعتقال، ولم يزالا حتى مرض السلطان مرض الموت، وعوفى قليلاً فأفرج عنهما..... توفى فى جمادى الأولى ٧٤٣هـ ... " (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ٦٢٩- ٦٣٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ ٣٩٥).

(٢) ألجيبغا (ت:٧٥٤هـ/١٣٥٣م): " هو الأمير سيف الدين ألجيبغا بن عبد الله العادلى، كان من أكابر الأمراء أقام أميراً نحو ستين سنة، وكان قد أصابته ضربة سيف فى وقعة أرغون شاه بدمشق بانت منها يده اليمنى، واستمر على إمرته و تقدمته الى ان مات فى سنة ٧٥٤هـ ...." (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ٥٩٨؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤٨٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، صـ٢٩٢).

(٣) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٢٢٠.

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ١٣٤.

(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ١٧٧- ١٧٨.

السلاطين أو للأمراء ابتهاجا بشفائهم من أمراض أصابتهم فان السلطان ورجال دولته يخلعون الخلع النفيسة على ذلك الطبيب، ويكون ذلك من حسن طالعه(١).

فقد ذخرت المصادر التاريخية بتلك الشواهد التى تشير إلى ذلك ومنها حين شملت مظاهر الاحتفالات التى كانت تقام لشفاء السلاطين الإنعام على المعالجين بالأموال والأوسمة، بل وقد يفرض السلطان المملوكى –أحياناً– بمرسوم سلطاني على الأمراء أن يفيضوا بالخلع على المعالج والذين بدورهم لا يتأخرون فى الإنعام على المعالجين بالخلع القيمة، وإعطائهم الأموال الجزيلة كما حدث حين شفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة٧٣٠هـ/١٣٣٠م من كسر يده فأنعم عقب شفائه من كسر أصاب يده على ابن بوسقة الذى تولى علاجه بجملة مال قدرها عشرة آلاف درهم، كما أفاض عليه الأمراء بالخلع والمال وكل ما يجل وصفه ابتهاجاً بشفاء السلطان مما حقق ذلك المعالج المكاسب الطائلة جراء تلك الإنعامات من قبل السلطان والأمراء وغيرهم من رجال الدولة(٢).

ومن هؤلاء الصاحب علم الدين الذى انعم عليه السلطان الملك الظاهر برقوق الجركسى سنة ٧٠٩هـ/١٣٨٨م بخلعة العافية عقب شفائه من مرضه(٣).

وجرت العادة أن سلاطين عصر المماليك لا ينسون فضل من قاموا برعايتهم أثناء مرضهم بل يشملونهم بالعطايا والخلع بعد تعافى هؤلاء السلاطين من مرضهم وشفائهم– ومن الأمثلة التى تبين ما سبق– إنعام السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة ٨٠٨هـ /١٤٠٥م على كاتب السر بالعطايا والخلع لقيامه أثناء فترة مرضه على خدمته، كما أخلع السلطان الملك الناصر فرج أيضاً على رئيس الأطباء(٤).

كما قام السلطان الملك الأشرف برسباى فى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م بالإنعام على الأطباء بخلع الشفاء لشفائه من مرض أصابه(٥) وكذلك أنعم عليهم مرة أخرى بخلعة

(١) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٩٤.
(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٩٣– ٩٤.
(٣) المقريزى: السلوك، ج٥،صـ ٢١٠ .
(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٤، صـ ٤٦٠.
(٥) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٦٥.

العافية حين أتم الله عليه الشفاء من مرض أصابه فى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م(١).

ومن جملة السلاطين الذين أنعموا على معالجيهم من الأطباء بالخلع الجليلة السلطان الملك اينال العلائى الذى أنعم فى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م على الحكماء بالخلع العظيمة عقب شفائه من مرضه(٢).

وشملت الخلع التى أنعم بها السلاطين فى العصر المملوكى عقب شفائهم السقاة وأرباب الوظائف الأخرى بجانب الأطباء، كما حدث مع السلطان الملك الظاهر خشقدم سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م الذى أنعم بالخلع على الأطباء والسقاة وغيرهم(٣).

ومن السلاطين الذين أنعموا بالخلع على الأطباء الذين تولوا علاجهم أثناء مرض السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى الذى أصيب فى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٩م بإسهال شديد منعه الخروج من الدور السلطانية أياماً لتلقى العلاج، ولما أتم الله عليه بالشفاء أنعم على الحكماء الذين تولوا علاجه أثناء مرضه بالخلع الجليلة ابتهاجاً لشفائه(٤).

وهناك العديد من الشواهد التاريخية التى تلقى الضوء على قيام أعيان الدولة عقب شفائهم من أمراضهم بالصعود إلى السلاطين فى القلعة الذين بدورهم ينعمون عليهم بالخلع التى يطلق عليها "خلع العافية" والتى من صورها كاملية بسمور ثم ينزل الواحد من هؤلاء فى موكب حافل مرتدياً الخلعة التى أنعم عليه بها السلطان، وأحيانا يتقدمه فى هذا الموكب القضاة الأربعة وأعيان المباشرين.

كما حدث فى عهد السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فمن أعيان الدولة الذين أفاض عليهم بالخلع والإنعام:-

القاضى كاتب السر محمود بن أجا(٥) ففى ذى القعدة٩١١هـ/ابريل١٥٠٦م أخلع

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٤٧.

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٦، صـ١١٧.

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٢٧٤.

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٤٩.

(٥) محمود بن أجا(٨٥٤-٩٢٥هـ/١٤٥٠-١٥١٩م): " هو محمود بن محمد بن محمود بن خليل، أبو الثنا التدمرى الأصل، ثم القاهرى، الحنفى، المعروف بابن أجا، كانت الأسرار الشريفة بالممالك الإسلامية ولد بحلب، وولى قضائها(سنة ٨٩٠هـ) وحج، وطلبه السلطان الغورى الى مصر، فتولى كتابة السر(سنة ٩٠٦هـ) واستمر الى آخر الدولة الجركسية توفى بحلب سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م...." (انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، صـ٣٠٣- ٣٠٥).

السلطان قانصوه الغورى وأنعم عليه، حين صعد إليه بالقلعة، وكانت له مدة طويلة يتلقى العلاج من مرض أصابه، ثم نزل من القلعة فى موكب حافل يتقدمه فيه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين قاطبة(١).

كما أنعم السلطان قانصوه الغورى مرة أخرى على القاضى محمود بن أجا وأخلع عليه بكاملية بعد أن تم شفائه من مرض أصابه فى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٧م ونزل من القلعة أيضاً فى موكب حافل(٢).

ومن الأمراء الذين أنعم عليهم السلطان الملك قانصوه الغورى وأخلع عليهم الخلع الجليلة لمناسبة شفائهم من أمراض لحقت بهم الأمير خاير بيك الخازندار(ت:٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) الذى مرض مرضاً خطيراً أشرف فيه على الموت، فلما أتم الله شفائه فى جمادى الأولى ٩١٨هـ/ يوليو١٥١٢م صعد الى السلطان بالقلعة فأنعم عليه بكاملية(٣) سمور، فنزل إلى داره فى موكب حافل وصحبته الأمراء، كما زينت القاهرة لشفائه(٤).

وأخلع السلطان الملك قانصوه الغورى أيضاً فى سنة٩٢٠هـ/١٥١٤م أيضاً بكاملية مخمل أحمر بصمور من الملابس السلطانية على الجناب الشرفى يونس ولد الاتابكى سودون العجمى بالقلعة، فنزل من القلعة فى موكب حافل أمامه سائر الأمراء على رتبهم، كما زينت له حارته عند قنطرة آق سنقر(٥) وكان ذلك لشفائه من مرض خطير قد أشرف فيه على الموت(٦).

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٩١.

(٢) ابن إياس: نفس المصدر، ج٤، صـ١٠٨.

(٣) كاملية:" ضرب من الملابس" دوزى: المرجع السابق، ج٩، صـ ١٤٢؛ محمل:" متوسط القامة"(دوزى: نفس المرجع، ج٤، صـ٢١٢؛ " نسيج ذو أهداب شبه القطيفة".

(٤) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ٢٧١.

(٥) قنطرة آق سنقر: "هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من خط قبو الكرمانى، من حارة الأربعين التى تعرف اليوم بالحبانية، ويمر من فوقها الى بر الخليج العربى، وعرفت بالأمير آق سنقر شاد العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية، ومات بدمشق سنة أربعين وسبعمائة ......" (انظر المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ٢٦١؛ القلقشيندى: المصدر السابق، ج٣، صـ٣٣٣).

(٦) ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٧٠.

(٥) رد الظلم[١]:-

أما عن النظر فى المظالم، فهي نوع من العدل، يرمى إلى منع الظلم الذى يأتى من التعدي أو الفساد فى الدولة الذى يعجز القضاة النظر فيه، فيرفع أمره رأساً إلى صاحب السلطة العليا؛ فهو أشبه بمحكمة الاستئناف فى الوقت الحالي، وكان الذى يقوم به بالضرورة هو السلطان[٢]، وقد أقبل سلاطين العصر المملوكى أثناء مرضهم على رد المظالم وإعطاء كل ذى حقٍ حقه.

ومن الشواهد التى توضح لنا إقبال سلاطين المماليك أثناء مرضهم على رد الأموال إلى أربابه والتى أُخذوها من الناس ورجال الدولة دون وجه حق، ومن هؤلاء السلاطين السلطان الملك الأشرف برسباى حيث دفعه المرض الذى أصابه فى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م إلى رد ما أخذه من أجناد الحلقة[٣] وكان قد أخذ تلك الأموال منهم عن أقطاعاتهم بسبب تجريدة شاه رخ بن تيمور لنك[٤] ولما بطل أمر التجريدة وحصل للأشرف برسباى المرض رد لأجناد الحلقة ما أخذه منهم[٥].

أما السلطان الملك قانصوه الغورى فان مرض عينيه الذى أصابه فى سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م دفعه لرد المظالم وإحقاق الحق وإبطال الباطل لأبعد الحدود ومن مظاهر ذلك.

ففى جمادى الأولى ٩١٩هـ/ يوليو١٥١٣م شرع السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فى إرضاء العسكر وأجناده فيما بدر منه فى حقهم من مظالم ووعدهم بإعطاء كل

(١) " وقد كانت عادة السلاطين الجلوس فى الإيوان بدار العدل بالقلعة كل اثنين وخميس من كل أسبوع طوال السنة، خلا شهر رمضان، مستعيناً بكبار رجال الدولة، كقضاة القضاة ووكيل بيت المال وناظر الحسبة وغيرهم ، وكان السلطان يعقد فى يوم الاثنين، الجلسة العامة التى يحضرها جميع أعضاء دار العدل للنظر فى بعض القضايا..... " انظر ماجدة مصطفى نادى: المرجع السابق، صـ ٣٣.

(٢) عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، ج١، صـ ١٠٦- ١٠٧؛ لجلوس المظالم انظر ص١٠٩ حتى صـ١١٤.

(٣) أجناد الحلقة: " هم الجنود المرتزقة من غير مماليك السلطان، ولكل أربعين جندياً يقدم عليهم واحد منهم، ليس له حكم إلا إذا خرجوا إلى الحرب أو السفر فحينئذ يقودهم مقدمهم " (انظر ابن شاهين: المصدر السابق، صـ ٩٨؛ محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٠؛ محمود نديم أحمد فهيم: المرجع السابق، صـ ١٠٥).

(٤) شاه رخ بن تيمور لنك(ت: ٨٥١هـ/١٤٤٧م):" هو شاه رخ بن تيمور لنك هو القان معين الدين، سلطان هراة، وسمرقند، وشيراز، وما والاهم من بلاد العجم وغيرها ملك البلاد بعد ابن أخيه خليل ابن أميران شاه بن تيمور واستقل بممالك العجم وعراقة وراسلته ملوك مصر، الى ان تسلطن الملك الأشرف برسباى، ووقع بينهما وحشة بسبب طلب شاه رخ هذا ان يكسو البيت الشريف، فأبى الأشرف وخشن له الجواب وترددت الرسل بينهم مراراً..." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ ١٩٩-٢٠٣؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ٢٩٣؛ السيوطى: نظم العقيان، ج١، صـ ١٩٨؛ ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ ٤١).

(٥) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٣٢٠-٣٢١.

ذى حقٍ حقه ثم نادى للعسكر فى الميدان بالنفقة كلً على رتبته بان رسم لكل مملوك ثلاثون ديناراً حتى شمل من ذلك المصريين؛ والأمراء المقدمين لكل واحد منهم ألف دينار، والأمراء الطبلخاناة لكل واحد مائتا دينار، والأمراء العشرات لكل واحد منهم مائتا دينار، والأمراء العشرات لكل واحد منهم مائة دينار حتى رضى العسكر عن آخرهم وضجوا له بالدعاء ولعل سبب تلك النفقة لما أشيع عقب مرض السلطان بعمى عينه، وترشح أسماء كبار أمراء السلطنة عوضه[١].

ومن صور إقبال السلطان قانصوه لإظهار العدل ورد المظالم بان أرسل إلى الخليفة المستمسك بالله يعقوب[٢] المنفصل نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطباى، واسترضاه وسأله الدعاء وان يقبل اعتذاره مما بدر منه حقه[٣].

كذلك كان بعض سلاطين المماليك يتظاهرون بالعدل خوفا على أرواحهم أثناء انتشار الأوبئة، فيعلنون عن إلغاء الكثير من الضرائب "المغارم والمظالم والكلف"، وبمجرد أن يزول الخطر ويقل الخوف تعود الضرائب الفادحة لتفرض على الناس "كما كانت وزيادة"[٤].

ومنهم السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى لم يستمر على نهج تلك السياسة برد المظالم وإظهار الحق حيث بمجرد شفائه من مرضه فى سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م سرعان ما عاد إلى سابق عهده فى ظلم العباد، وبعد إلغائه لأشياء كثيرة من المكوس مما كان على القمح والبطيخ وغير ذلك، فلما شفى وشق المدينة فشكوه الناس من النقود الجديدة التى أصدرها، غضب ورسم بإعادة كافة المكوس التى أبطلها أثناء مرضه وأخذ يطالب كل من

---

(١) ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، صـ٣١٩.

(٢) المستمسك بالله(٨٥١- ٩٢٧هـ/١٤٤٧-١٥٢١م):" هو يعقوب (المستمسك بالله) بن عبدالعزيز (المتوكل بالله) محمد العباسى أبو النصر من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر وهو الخامس عشرة منهم بويع له بعد وفاة أبيه (سنة ٩٠٣هـ) أقام فى الخلافة (إحدى عشرة سنة وتسعة أشهر)، وحمدت أخلاقه وسيرته، ثم صرف عن أعمالها (سنة ٩١٤هـ) وقاسى محناً وشدائد، وضعف بصره وتوفى القاهرة كان رجلاً مباركاً لين الجانب متواضعاً وهو هاشمي الأب والأم، قال ابن اياس: لم يل الخلافة من هو هاشمي الأبوين غير أربعة "انظر ترجمته فى الزركلى: المصدر السابق، ج٨، صـ ٢٠٠).

(٣) ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، صـ٣٢٤.

(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، صـ ١٧٧.

عليه من المال وندم على ما فعله من إظهار العدل أيام مرضه، وعاد كل شئ إلى ما كان عليه من وجوه المظالم مما يوضح لنا أن الأمراض كانت سببا مباشراً فى تغير سياسات السلاطين تجاه رعاياهم خلال عصر المماليك أحياناً(١).

(ثانياً) الاحتفالات بشفاء زوجات السلاطين:-

وأما بالنسبة لزوجات السلاطين فإن الاحتفالات التى تقام بشفاء زوجات السلاطين فى العصر المملوكى لم تكن بأقل من تلك الاحتفالات التى تقام ابتهاجا بشفاء السلاطين فخلال تلك الاحتفالات يتردد عليها أعيان الدولة باختلاف مراتبهم لتهنئة الخوند على الشفاء، حيث يجتمع على بابها أرباب الزمور والطبول، ومن مظاهر هذا الاحتفال أن تعمل فى النيل مرامى النفط والصواريخ، وتزف الخوند إلى القلعة وحولها نساء الأمراء حيث يقام لها بالقلعة حفلة هائلة(٢).

وخير دليل على ذلك ما روته المصادر لمظاهر الاحتفال التى أُقيمت ابتهاجاً لشفاء خوند زينب الخاصبكية (ت:٨٨٤هـ/١٤٧٩م) زوجة السلطان الملك الأشرف اينال إذ تصف المصادر تلك المظاهر بتردد الناس على بابها لمشاهدة مرامى النفط والألعاب النارية واندفعوا إلى ساحل بولاق حتى ضاقت شوارع بولاق بالناس من شدة الازدحام كما شارك النساء فى تلك الاحتفالات حتى صارت أعدادهن أضعاف أعداد الرجال ومع ذلك لم يخلوا هذا الاحتفال من وقوع " القبائح والمفاسد والأمور الشنيعة"(٣).

أما عن توزيع الصدقات فحين مرضت زوجة الأمير سيف الدين طغاى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م أكثر زوجها من توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين حتى مات من شدة الازدحام اثنا عشر شخصاً(٤).

---

(١) ابن اياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣٢٨- ٣٢٩ .

(٢) ابن اياس: نفس المصدر، ج٢، صـ ٣٢٤؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ١٣٠.

(٣) ابوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ٥٢٤.

(٤) المقريزى: السلوك،ج٢، صـ ٥٢٣.

(ثالثاً) الاحتفالات بشفاء الأمراء:-

وبالنسبة للاحتفالات بشفاء الأمراء فكانت تقام أيضاً ابتهاجاً لشفاء الأمراء من أمراضهم، فمن مظاهر الاحتفالات التى تقام لشفاء الأمراء على سبيل المثال أن تقام ختمة شريفة بأحد الجوامع المشهورة كما حدث حين شفى الأمير بدر الدين بيدرا (ت:٦٩٣هـ/١٢٩٤م) من مرض أصابه سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م، فعملت له ختمة شريفة بالجامع الأموي(١).

واهتم السلاطين بأمراض أمرائهم اهتماما بالغا إلى حد أنهم يعكفون بجوارهم ويقومون على خدمتهم وقضاء مصالحهم كما حدث لما مرض الأمير يلبغا اليحياوى(ت:٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) سنة٧٤٠هـ/١٣٤٠م فاشتغل خاطر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لمرض الأمير المذكور حتى امتنع عن الخروج إلى دار العدل عشرين يوماً لملازمة الأمير يلبغا أثناء مرضه حتى شفى، فقام السلطان بإقامة الولائم الفاخرة دعا إليها سائر الأمراء ورجال الدولة، وجميع صوفية الخوانق(٢) والزوايا وسائر طوائف المجتمع المصرى ابتهاجاً لشفاء الأمير يلبغا اليحياوى(٣).

وفى سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م لما شفى الأمير صرغتمش(٤) من مرض أصابه، نزل بعد شفائه من القلعة إلى اصطبله فتلقاه سكان الصليبة بالشموع الموقدة والسرور والمغانى ابتهاجا لشفائه وتصدق لمناسبة شفائه بأموال جزيلة(٥).

---

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، ج٨، صـ٣٣٤.

(٢) الخانقاة: "هى بيت الصوفية كانت أشبه ما تكون بالمدرسة، لأنها كانت فعلاً مدرسة العامة ممن نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف، سواء كانوا من أبناء الشعب أو من أرباب الحرف والصناعات الذين عملوا على حمل مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الطرق والأسواق، فتشابهت الخانقاة بذلك مع المدرسة من حيث الشكل والوظيفة " عاصم محمد رزق: المرجع السابق، جـ١، صـ ٢٢؛ نظير حسان سعداوى: المرجع السابق، صـ ٧٧- ٧٨ .

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ١٤٥.

(٤) الأمير صرغتمش(ت:٧٥٩هـ/١٣٥٨م):"هو الأمير صرغتمش بن عبد الله الناصرى، صاحب المدرسة بالصليبة أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون مات ٧٥٩هـ/١٣٥٨م "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٦، صـ٣٤٢).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ١٧٧.

ومن مظاهر تلك الاحتفالات أن جرت العادة خلال العصر المملوكى أن يخلع السلاطين على الأمراء ابتهاجا بشفائهم "بخلعة العافية"[١] بمقلب سمور، فقد أخلع السلطان الملك الأشرف اينال على الأمير يونس الدوادار(ت:٨٦٥هـ/١٤٦١م) بعد شفائه بكاملية[٢] بمقلب سمور، واحتفل أهل الصليبية بعافيته عقب نزوله وعلقوا الزينة وضربوا الزمور[٣].

ومن الأمراء الذين أخلع عليهم السلاطين العصر المملوكى بخلعة العافية الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيوش المنصورة(٨١٩-٨٦٢هـ/١٤١١-١٤٥٨م) حيث ذكر أبوالمحاسن انه انقطع فى داره لمرض لازمه من شهر رمضان حتى شهر شوال واشتد به المرض وكان اعتراه الذَّرب وقد أخلع عليه السلطان الملك الأشرف اينال بخلعة العافية لشفائه[٤].

(١) خلعة العافية: " وإذا استقبل السلطان أميراً فى مجلسه بعد تغيبه لمرضه، كان يمنح ثوباً للتشريف يطلق عليه "خلعة العافية" للدلالة على شفاء الأمير..." انظر ل.ا ماير: المرجع السابق، صـ ١٠٩- ١١٠.

(٢) كاملية: نوع من الملابس الخارجية كالعباءة، ولعلها مما أحدثه الملك الكامل الأيوبى .." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٢٨.

(٣) ابوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٥٨٨.

(٤) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٥٩٤؛ نفسه: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٩٨، ٩٩.

(١)الزينة:-

وكما كانت الزينة تقام بمناسبة شفاء السلاطين فى العصر المملوكى من أمراضهم فى كافة نيابات الدولة فقد كانت تقام أيضاً تلك الزينة وتدق البشائر لعدة أيام متوالية لشفاء كبار رجال الدولة ليعكس لنا ذلك علو مكانة ذلك الأمير فى الدولة أو عند السلطان مما يزيد من تخوّف السلاطين على السلطنة من أمثال هؤلاء ويكون مبعثاً لحقد السلاطين عليهم فى بعض الأحيان.

ما حدث سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م حين شفى كريم الدين الكبير من المرض الذي ألّم به إذ زينت القاهرة له أحسن زينة، الأمر الذى دفع النويرى لتمثيل تلك الزينة بتلك التى تقام للسلطان عند عودته من الغزوات المنصورة والفتوحات، ومن مظاهر هذا الاحتفال نصب الأبراج من الخشب، ولبست الأطلس والذهب وغيره(١).

كما بلغ من عظم قدر كريم الدين الكبير أن فى أحد مرات مرضه زينت له مصر والقاهرة وأوقد له من الشموع قرابة ألفاً وسبعمائة شمعة ونثر عليه تجار الكارمية الذهب والفضة ابتهاجا لتماثله للشفاء من مرض أصابه(٢).

كما حدث ذلك لما شفى الأمير تغرى بردى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م من مرض أصابه، حيث زينت البلاد الشامية حتى حلب وطرابلس وتوالت عليه الرسائل من قِبل الأمراء لتهنئته بالشفاء مما فازداد غضب السلطان الملك الناصر فرج من مظاهر تلك الاحتفالات التى لا تقام إلا لمثله من السلاطين(٣).

(٢) إغداق الصدقات:-

ومن جملة الأمراء الذين أغدقوا الأموال الجزيلة على الفقراء ابتهاجا بشفائهم الأمير كريم الدين الكبير(ت:٧٢٤هـ/١٣٢٤م) الذى تصدق فى المدرسة المنصورية(٤) ببين

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٧٥.

(٢) الشوكانى: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٧٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، صـ ٢٠٤.

(٣) ابوالمحاسن: المصدر السابق، ج١٣، صـ١٢٧.

(٤) المدرسة المنصورية: " هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة ، أنشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان، الملك المنصور قلاوون الالفى الصالحى، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، ورتب بها درساً أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرساً للطب، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي ، ودرساً لتفسير القرآن الكريم ، وميعاداً، وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعتبرين..." (انظر المقريزى: الخطط، ج٤، صـ٢٢٦).

القصرين بمال فقتل من شدة الازدحام للحصول على الصدقات المشار إليها ستة أنفس(١) وأشارت المصادر إلى إرسال السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليه سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م الأموال ليتصدق بها فى مرضه، ولما أتم الله عليه الشفاء أمر كريم الدين الكبير بالتصدق بقمصان بالبيمارستان من وقفه، فازدحم الفقراء للحصول على تلك الصدقات، فمات من شدة الازدحام قرابة ثلاثة عشر رجالاً ونساءا.

كما تزينت القاهرة ابتهاجاً لشفائه كما تزين للفتوحات الجليلة، وبات الناس بالأسواق، ومن مظاهر ذلك الاحتفال أن نصبت له فى بعض الجهات أبراج من الخشب، وأقيمت الملاهى ابتهاجاً بشفائه فى القاهرة والأسواق، وبظاهر القبة المنصورية، وأقيمت له مثل تلك الاحتفالات ابتهاجاً بشفائه أكثر من مرة(٢).

ولقد تعددت أشكال الصدقات التى يخرجها الأمراء عقب شفائهم فضلاً عما يتركه المرض من آثار طيبة على شخصيتهم فتحمد سيرتهم لما يفعلونه من سبل الخير والبر فيقومون بتشييد المساجد وتعميرها ومن ذلك الأمير ألطنبغا الماردانى(ت:٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) حين مرض سنة٧٣٥هـ/١٣٣٥م وأتمّ الله عليه بالشفاء، انعكس تأثير ذلك المرض على شخصيته فحمدت سيرته من خلال الإكثار من أفعال الخير والبر التى منها تعميره للأماكن المباركة، خاصة الآثار النبوية التى كساها بالبسط؛ كما قام بزيارة الفقراء والصالحين وكذلك تعميره لجامع تقام فيه الخطبة أطلق عليه "جامع الماردانى"، تخير مكانه مقابل ربع الأمير سيف الدين طغجى(ت:٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وشراء أماكن أخرى استعملها فى أفعال الخير(٣).

واستمر توزيع مثل تلك الصدقات ليس فقط فى مرض الأمير، بل إذا وافته المنية يتكلف أهله بتوزيعها كما فعلت أم الأمير آنوك بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مرض الأمير آنوك لمدة طويلة إذ قامت بعد وفاته أيضاً سنة٧٤١هـ/١٣٤١م ببيع ثيابه

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٣٠ .
(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٦٠ .
(٣) اليوسفى: نزهة الناظر، صـ ٢٦٥ – ٢٦٦.

وتصدقت بها على الفقراء[١].

ومن جملة الأمراء الذين أغدقوا الصدقات على الفقراء والمساكين تقربا إلى الله ليمن عليهم بالشفاء الأمير صرغتمش حين اشتد به المرض سنة٧٥٤هـ/١٣٥٣م فتصدق بأموال جزيلة على الفقراء وكما أفرج عن المساجين[٢].

وحين أتم الله الشفاء على الأمير علم الدين بن زنبور[٣](ت:٧٥٥هـ/١٣٥٤م) تصدق أثناء مرضه بأموال جزيلة بلغت ثلاثين ألف درهم وأفرج عن جماعة من أرباب السجون سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م[٤].

وأمر الأمير كرتباى الأحمر(ت:٩٠٤هـ/١٤٩٨م) فى مرضه بتفرقة ألفى دينار على الفقراء والمساكين بالجامع الأموي تقرباً إلى الله ليمن عليه بالشفاء[٥].

(٣) الإفراج عن المسجونين:-

ولم يقتصر أمر الإفراج عن أرباب المساجين على أمراض السلاطين فحسب بل شاركهم الأمراء فى ذلك ابتهاجاً بشفائهم كما أفرج عن جماعة من المسجونين، فلما أصيب الأمير أرغون الكاملى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بمرض أرسل إليه السلطان الكامل شعبان بفرس وثلاثين ألف درهم ليتصدق بها على الفقراء والمساكين فى مرضه، كما أمر السلطان بالإفراج عن المساجين حتى أخرج الأمير أرغون عشرة آلاف ليتصدق بها عن نفسه[٦].

---

(١) المقريزى: السلوك،ج٣، صـ ٢٩٥.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٧٧.

(٣) علم الدين عبد الله بن زنبور(ت:٧٥٥هـ/١٣٥٤م):" هو عبد الله بن أحمد بن إبراهيم ابن زنبور علم الدين ابن القاضى تاج الدين أول ما ظهر من أمره ان ولى إستيفاء الوجه القبلى ثم كتب فى الاصطبلات سنة ٧٣٧هـ ثم ولى استيفاء الصحبة سنة ٧٤٢هـ ثم نظر الخاص بعد موفق الدين فى سنة ٧٤٦هـ ثم صرف ثم أعيد سنة ٧٤٨هـ ثم أضيف إليه نظر الجيش بعد أمين الدين ثم أضيف إليه الوزارة بعد إمساك منجك سنة ٧٥١هـ فجمع الوظائف الثلاثة وهو أول من جمعها واستمر فيها إلى أن اخرج الصالح صالح إلى الشام لسبب ببيغاروس فخرج معه فلما رجعوا فى سنة٧٥٣هـ تنكر له صرغتمش إلى أن صادره فأخذ له الأموال ما يفوق الوصف وبقى تحت العقوبة زماناً فشفع فيه شيخو وجهزه الى قوص فأقام بها الى ان مات فى شهر ربيع الأول سنة ٧٥٥هـ ..." (انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ١٦٤؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٢، صـ ٦٥٢- ٦٥٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، صـ ٩٠٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ٢٩٩؛ المنهل الصافى، ج٧، صـ ٦٩-٧١).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٢٥؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ١٢٧.

(٥) نجم الدين بن العز: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٠١.

(٦) المقريزى: السلوك،ج٣، صـ٤٢٧.

ولما شفى الأمير علم الدين عبدالله بن زنبور(ت:٧٥٥هـ/١٣٥٤م) كما أخلع عليه بخلعة العافية وأفرج عن جماعة من المسجونين ابتهاجاً بشفائه سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م[١].

كما شارك الفقهاء كغيرهم من أعيان الدولة السلاطين والأمراء فى إغداق الصدقات على الفقراء والمساكين أثناء مرضهم كما أشادت بعض المصادر بقيام بعض هؤلاء الفقهاء بتوزيع وإغداق الصدقات بسخاء حتى يبلغ الحد التصدق بكل ما يملك من مال أثناء مرضه ابتغاء مرضات الله، وخير مثال على ذلك الفقيه الشافعى إسماعيل بن حاجى[٢] الذى أنفق بسخاء أثناء مرضه حتى بلغ به الأمر أن تصدق بما يملكه فى مرض موته، كما أوقف قاعته التى عند الرحبية دار قرآن[٣].

---

(١) المقريزى: السلوك،ج٣، صـ٤٢٧.

(٢) إسماعيل بن حاجى(ت:٧٩٢هـ/١٣٩٠م):" هو إسماعيل بن حاجى الهروى الفقيه كان من العلماء الشافعية ببغداد فى المستنصرية، ودرس فى الحاوى، ثم قدم دمشق فى حدود السبعين، فأفاد بها بالجامع وغيره ودرس بالمعينية " انظر ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٤٠٤.

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٣٥٣ (ذكره ابن شهبة ضمن علماء الحنفية).

الفصل الرابع

الأطباء والبيمارستانات

- ❖ الطب وتدريسه.
- ❖ الأطباء.
- ❖ البيمارستانات:-

أ-البيمارستان القيمرى .		ب – بيمارستانات مكة والمدينة.

جـ - بيمارستانات صفد .		د – بيمارستانات غزة.

هـ - بيمارستان طرابلس		و – البيمارستان المؤيدى.

ز – بيمارستان أرغون الكاملى.

حـ - البيمارستان المنصورى.

- ❖ الأدوية .

الفصل الرابع

الأطباء والبيمارستانات

ولقد دعا الإسلام بالعلم بوجه عام بما فى ذلك بالطبع ما يتصل بأمور الطب، لم يقف منه موقف العداء كما وقفت بعض العقائد ليس فقط فى العصور القديمة بل أيضاً فى العصور الوسطى فقد أطلق الإسلام العلم من عقاله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة وبين السحر؛ وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكي وغيرها مما حققت فائدته تجارب الأولين ودعا الناس إلى طلب العلاج والتداوى والعناية بأبدانهم، وكان ذلك منذ نشأة الاسلام الأولى وفى "الصحيحين" عن عطاء، عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء"[١].

أولاً: تدريس الطب:-

إن المفكرين المسلمين حرصوا على دراسة الطب من المصادر اليونانية والهندية، وأضافوا إليها خلاصة تجاربهم، وعالجوا المرضى علاجات صحيحة من الأمراض المختلفة، وأجروا العمليات الجراحية، وأقيمت البيمارستانات لعلاج الأمراض الخطيرة، ووجد المرضى عناية كبيرة وعلاجاً سليماً من أطباء المسلمين الذين نبغوا فى علم الطب، وتوصلوا إلى الدواء الصحيح للعلاج وصنفوا الكتب القيمة فى الطب، ونظرياتهم فى الطب أثبت العلم الحديث صحة الكثير منها[٢].

وقد ظهر لهم فيه مؤلفات نفيسة، كالقانون لابن سينا، وكتاب الحاوي للرازي، وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى ولقد استفاد الإفرنج من هذا الكتاب فى نهضتهم الحديثة فائدة كبرى، وبقيت بعض المؤلفات الطبية العربية تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر للميلاد[٣].

ومما يشار إليه هنا أن تعليم الطب عند المسلمين لم يكن يتم بطريقة عشوائية ودون

---

(١) محمد كامل حسين: المرجع السابق، صـ ٢٣٧.

(٢) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامي، ط١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٧م، صـ ٣٧٢.

(٣) قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب، مكتبة مصر، د.ت، صـ ١٥.

تنظيم، بل كان يتم حسب شروط وضوابط دقيقة يشرف على تنفيذها ولاة الأمر فى كثير من الأحيان، مما كان له أثر واضح فى تطور الدراسات الطبية وازدهارها[١].

كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب وكان يتلقى الطلاب فيها علومهم ويتعلمون كل ما قاله أبو قراط وجالينوس وما جاء به أساتذتهم العرب الكبار أنفسهم[٢] كما نلاحظ أن تدريس الطب لم يقتصر على البيمارستانات فقط بل كان يدّرس الطب أيضاً فى المساجد[٣].

أما عن الإجازات العلمية التى كان يحصل عليها طالب الطب، فإنه متى أتم دراسته فى فن من فنونه، أو كتاب معين فيه، تقدم إلى رئيس الأطباء وطلب من إجازة للاشتغال بالطب، والتى يمنحها له بعد اجتيازه الامتحان اللازم[٤] وكان لابد من توقيع خاص بتدريس الطب، وقد أورد القلقشندى مرسوماً بتعين الطبيب مهذب الدين بن الموفق (ت:٦٧٩هـ/١٢٧٠م) وتفويض تدريس الطب له بالبيمارستان المنصورى وقد استهل المؤلف هذا التوقيع بالمقدمة التقليدية المعروفة فى نثر هذا العصر، وتحدث من خلال ذلك عن العلماء الأعيان والأخبار من أهل العلم بالطب، وأبرز الوصايا والواجبات الملقاة على عاتق المدرس فى البيمارستان المنصورى[٥].

ولقد ساهم ابن النفيس فى علم الطب بكتب قيمة انتفع بها أهل الطب حتى أزمنة غير بعيدة ومن أبرز هذه الكتابات كتابه المعروف "بشرح تشريح القانون"[٦] ومن الكتب التى ساهم بها ابن النفيس فى علم الطب أيضاً كتاب "الموجز فى الطب" موجز القانون

---

(١) إبراهيم محمد حمد المزينى: المدارس الطبية المتخصصة فى الحضارة الإسلامية، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع ١٣، ابريل ١٩٩٥م، صـ ٣٦٤.

(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق: مارون عيسى الخورى، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقى، بيروت، ١٩٩٣م، صـ ٢٣٤.

(٣) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ١٦٠.

(٤) محمد أحمد على: نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك(٦٥٨- ٩٢٣هـ/١٢٦٠- ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٩٠م، صـ ٢٦٦.

(٥) القلقشندى: المصدر السابق، ج١١، صـ ٢٥٠- ٢٥٢؛ إبراهيم محمد حمد المزينى: المرجع السابق،صـ ٣٦٦.

(٦) وللإطلاع على مباحثه انظر عامر النجار: فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، ط.٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ ١٤٩-١٥٦)؛ قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب، صـ ٢٠٤.

وهو الكتاب الذي قسمه إلى أربعة الفنون[١] وهو شرح مقتضب تناول كل أجزاء القانون فيما عدا التشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذى جعله سهل التناول ومحبوباً من الوجهة العملية لممارسى الطب[٢].

واتبع فى دراسته المشاهدة والتجربة، وكانت داره منتدى أهل الطب، يناقشهم ويناقشونه، وكان لا يصف دواءاً ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا يصف دواء مركباً ما دام هناك بديل عن الدواء المفرد[٣].

وتختلف طرائق تدريس الطب عن غيره من العلوم التجريبية التى ينبغى ان تعتمد فى تعلمها على الناحيتين(النظرية) التى تعنى بدراسة مادة الطب من مصادرها الأساسية و(العملية) التى تعنى بمتابعة المرضى داخل البيمارستانات وتشخيص أمراضهم ومعالجتها وتدوين ما يلاحظ فى ذلك[٤].

كما أقبل سلاطين المماليك إلى وقف البلاد والمدن لصرف رواتب العلماء والإنفاق على المؤسسات الخيرية والعلمية، حفاظا منهم على استمرارية إلقاء دروس العلم ومن تلك العلوم علم الطب، كما أوقف السلطان الملك المنصور لاجين منية أندونه[٥] سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م على الجامع الطولوني[٦] الذي جدد عمارته لصرف رواتب أهل العلم للإلقاء دروس التفسير والحديث النبوى حتى شملت تلك الدروس التى تلقى فى الجامع درساً للطب[٧].

ومن مظاهر حرص السلاطين فى العصر المملوكى على استمرار مزاولة مهنة تدريس الطب أنهم لا يسمحون لأحد من الجهات الحكومية التدخل فى شئونها المالية أو

---

(١) للإطلاع عليها انظر عامر النجار: المرجع السابق، صـ ١٥٧، ١٥٨.

(٢) يول غليونجى: ابن النفيس، القاهرة، ١٩٨٩م، صـ ١٠٢.

(٣) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: المرجع السابق، صـ ٣٦٥.

(٤) ابراهيم محمد حمد المزينى: المرجع السابق، صـ ٣٦٧.

(٥) منية أندونه:" هى إحدى قرى الجيزة، عرفت بأندونه، كانت أحمد المدائنى الذى كان يتقلد ضياع موسى بن بغا، التى بمصر.... " (انظر المقريزى: الخطط، ج١، صـ٣٨٤).

(٦) الجامع الطولوني:" هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر وابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بناء القطائع، فى سنة ٢٦٣هـ قال جامع السيرة الطولونية فلما أراد بناء الجامع قدّر له ثلاثمائة عمود، فقيل له ما نجدها، أو تنفذ الى الكنائس فى الأرياف والضياع والخراب...."(انظر ابن دقماق: المصدر السابق، صـ١٢٢؛ المقريزى: الخطط، ج٤، صـ٣٨).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٧٩؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ٣٦٠.

الأوقاف التى ترتب عليها والذى يظهر لنا حين عزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[١] ناظر أوقاف الجامع الطولونى وإحلال القاضى كريم الدين عبد الكريم ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها– مكانه، حين عزم القاضى بدر الدين على قطع درس الطب وغيره حين ضاق الوقف عن المرتب عليه، مما كان من مدرس الطب علم الدين الشوبكى القيام فى هذا الأمر بالشكوى للسلطان؛ "ففوض النظر فيه وفى أوقافه لوكيله المشار إليه"[٢].

ثانياً: الأطباء:–

وكان للطب والأطباء مكانة كبيرة فى العصر المملوكي، فقد حظيت صحة رجال الدولة من السلاطين والأمراء بقدر كبير من العناية، إذ أن بقاء الأمر فى يد السلطان، وتمكنه من التأثير فى مجريات الأحداث يتطلب قدراً غير قليل من العناية بالنواحى الصحية، لذلك فقد كان الأطباء يستعان بهم كوسيلة من وسائل العلاج وكان لرأيهم أهمية كبرى[٣].

ويبدو أن الأطباء كانت أجورهم فى متناول اليد فى عصر سلاطين المماليك، ويبدو أيضاً انه كانت هناك رواج لمهنة الطب، وبخاصة بين الطبقات الغنية، وكان الطبيب إلى جانب عمله فى البيمارستان يجلس لطب الناس بحانوته الخاص، وكان يتراوح أجره فى اليوم ما بين٤٠ إلى ٥٠ درهماً ولشهرة الطبيب ومكانته العلمية دوراً كبيراً فى تحديد أجره، حيث كان هناك أطباء موثرين من جراء عملهم لمهنة الطب[٤].

وكان للأطباء على وجه العموم من لدن الخلفاء والملوك والأمراء الإحسان الكبير والأفضال الغزيرة، والجامكية الوافرة والصلات المتواترة، وكانت تطلق للأطباء مع الجامكية الجراية وعلوفة الدابة التى يركبونها[٥].

(١) انظر ترجمته فى ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٣٦٣.
(٢) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ١٥.
(٣) محمد عبد العظيم الخولى: العلماء فى مصر فى العصر المملوكى، ط.١، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠١٤م، صـ ٢٠٨– ٢٠٩ .
(٤) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٧٦.
(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٧٩؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ٣٦٠.

والواقع أن رواتب الأطباء والمساعدين والممرضين وصانعى الأسرّة والخدم كانت تدُفع من الريع المخصص للمستشفى وكان القيمّون عليها يسجلون كل شئ فى سجلات خاصة تُقيّد فيها المصروفات جميعاً فى ترتيب بديع[١].

ويبدو أن أطباء العصر المملوكى قد تمتع بعضهم برغد العيش والثروة مما يجعل رجال الدولة أحياناً ينشدون اقتراض الأموال منهم لحل ضائقة مالية حلت بهم وهو ما يتضح لنا حين بعث ناظر الخاص[٢] وزير السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون "النشو" إلى رئيس الأطباء جمال الدين إبراهيم المغربى[٣] يطلب منه مائة درهم لاستضافة أحد الواردين عليه بها[٤].

ومن ناحية أخرى إذا كانت الأوبئة مصدر بلاء على الناس، فإنها كانت مصدر ثراء للأطباء، والعطارين ففى عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م انتشر الموت فى الناس وفشت الأمراض فى مصر وطلبت الأدوية للمرضى، ومن قسوة الوباء لجأ الناس إلى الأطباء وبذلت لهم الأموال، وكثر تحصيلهم[٥].

وعلى صعيد آخر قد يلجأ بعض الذين يمارسون الطب فى بعض الأحيان إلى تغيير هذه المهنة بسبب الفاقة وقلة المورد ومن هؤلاء ما ذكره ابن إياس فى بدائع الزهور عن ابن دانيال(ت:٦٦٥هـ/١٢٦٧م) يصفه بأنه شاعراً ماهراً من ذلك ما قاله عن حرفته الأولى وهى الكحالة[٦] الأمر الذى جعله يقوم بتغيير حرفته الكحالة إلى فنه التمثيلى الذى

---

(١) زيغريد هونكه: المرجع السابق، صـ ٢٣٣.

(٢) ناظر الخاص:" هذه الوظيفة أحدثها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٣هـ/١٣١٣م، وتولاها أرباب الأقلام وجعل أصحابها مختصاً بمال السلطان، والخزانة السلطانية بقلعة الجبل، وعاونه من الموظفين مستوفى الخاص وناظر الخزانة الخاصة..." انظر حسن أحمد التطاوى: المرجع السابق، صـ ٢٣.

(٣) جمال الدين إبراهيم ابن المغربى(ت:٧٥٦هـ/١٣٥٥م):" هو الرئيس الكبير جمال الدين، رئيس الأطباء بالديار المصرية، المعروف بابن المغربى...... توفى أواخر ذى القعدة سنة ست وخمسين وسبعمائة...." (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ٥٤؛ نفسه: الوافى بالوفيات، ج٥، صـ٢٠٧-٢١٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ١٦؛ ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٥، صـ٢٠٧-٢١٠).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٧١؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٣٧؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ٧٩؛ اليوسفى: المصدر السابق، صـ ١٢١).

(٥) المقريزى: إغاثة الأمة، صـ ١٠٩؛ مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ١٠٧.

(٦) " من التخصصات التى برع فيها الأطباء المصريون فى عصر سلاطين المماليك الكحالة(طب العيون) وذلك التخصص من التخصصات الصعبة لذلك يجب المحافظة على العين أثناء إجراء معالجتها لأنها أشرف الحواس الخمس.." (مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ٥١).

تفوق فيه ووسع صيته به[١] "خيال الظل" وهو من وسائل التسلية التى شاعت فى مصر خلال العصر المملوكى بوجه خاص، الذى قيل انه انتقل من الهند إلى الصين ومن الصين إلى بلاد العالم الإسلامي[٢].

ويمكن القول أن أطباء العصر المملوكى لم يكونوا بمنأى عن التعرض للظلم والجور والمصادرات الذى تتعرض له سائر أرباب الصنائع الأخرى كما حدث سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م فى عهد السلطان المعز أيبك(٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) حين كثر الظلم بالديار المصرية وعظم الجور والمصادرات وأخذت أموال الأوقاف والأيتام حتى صودر أرباب الصنائع كالأطباء والشهود وغيرهم[٣].

وهكذا كانت مصر متقدمة فى الطب والأطباء ومجال صناعة العقاقير، ذلك التقدم الذى لم تصل إليه أى من الدول المعاصرة لدولة المماليك حتى أنهم كانوا يرسلون إلى سلاطين المماليك الرسل والسفراء تطلب الأطباء المصريين والعقاقير[٤].

وأما عن شهرة أطباء العصر المملوكى فى مجال الطب فى الداخل والخارج ففى الداخل قد بلغ من تفوق الأطباء فى مصر أن يطلب مشاهيرهم فى مجال الطب بالاسم ليقوموا بعلاج الأمراء فى البلاد الشامية فيخرج الطبيب المشار إليه منهم على البريد لمداواة الأمير المراد علاجه بكافة أدواته الطبية ومستلزماته، كما هو الحال جين طلب الأمير ألطنبغا الماردانى نائب حلب سنة٧٤٤هـ/١٣٤٣م إرسال الطبيب ناصر الدين محمد بن صغير[٥] على البريد إلى حلب ليعالجه من مرض أصابه، فأُخرج الطبيب

---

(١) إبراهيم حمادة: خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣م، صـ ٩٢- ٩٣؛ لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ٣٤٠؛ حيث يقول ابن انيال:

يا سائلي عن حرفتي فى الورى ** ** وضيعتي فيهم وإفلاسي

ما حال من درهم انفـــــاقه ** ** يأخذه من أعين النـاس

(2) paul kahle: the Arabic sahadaw playin Egypt, ,London, 1940,p. p.31- 34

(٣) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ٢٣.

(٤) محاسن الوقاد: مصر فى العصر المملوكى(دراسات حضارية)، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٦م، صـ ٥٣.

(٥) الطبيب ناصر الدين محمد بن صغير(ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م):" هو الطبيب المصرى محمد بن محمد بن عبد الله ..وهو من أطباء السلطان توجه مع الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الحجاز سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.... توفى فى ذى القعدة بالقاهرة بالطاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة....." (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج١، صـ٢٠١؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٥، صـ١٨٠- ١٨٣).

المذكور على البريد إلى أن وصل وقت احتضار الأمير المذكور وتوفى فعاد ابن صغير بعد يومين من حلب(١).

وقد بلغ من تقدم الطب والمقيمين عليه فى مصر أن تكون مقصداً لتلقى العلاج من الأمراض من مختلف الأقطار وقد ذخرت المصادر التى تذكر إقدام الناس ومشاهيرهم لتلقى العلاج بمصر من أمراض أصابتهم، ومن أشهرهم سراج الدين عمر بن أحمد بن طراد الخزرجى(٢)(ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م) خطيب المدينة وقاضيها وخطب بالمدينة أربعين سنة، وكان قد قصد مصر للتداوى من مرض أصابه فأدركته المنية بالسويس(٣).

شيخ الإسلام تقى الدين السبكى(٤) الذى توجه إلى الديار المصرية فى ربيع الآخر ٧٥٦هـ/ابريل ١٣٥٥م لتلقى العلاج من مرض أصابه(٥).

قاضى القضاة بدر الدين إبراهيم بن أحمد الشهير بابن الخشاب(٦) ومن الشخصيات البارزة التى قصدت الديار المصرية لتلقى العلاج إلا أنها سبقتها المنية قبل وصولها إلى مبتغاها وقد ولى قضاء المدينة المنورة وخطابتها مدة، فأصابه مرض فسار قاصداً الديار المصرية لتلقى العلاج فعاجلته المنية فى الطريق بالقرب من الأزلم فدفن بجزيرة هناك(٧).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٣٩٨.

(٢) سراج الدين عمر بن أحمد بن طراد الخزرجى(ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م):" هو خطيب المدينة وقاضيها المفتى سراج الدين عمر بن أحمد بن طراد الخزرجى المصرى الشافعى ثم سافر إلى مصر ليتداوى فأدركته المنية بالسويس..... "(انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ٧٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ١٧٧– ١٧٨).

(٣) ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ١٢٩.

(٤) شيخ الإسلام تقى الدين السبكى(ت:٧٥٦هـ/١٣٥٥م) :" هو شيخ الإسلام تقى الدين على بن عبد الكافى بن على بن تمام السبكى الأنصارى الخزرجى ولد فى سبك (من أعمال المنوفية بمصر) وولى قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ واعتل فعاد الى القاهرة فتوفى فيها، من كتبه "الدر النظيم "فى التفسير لم يكمله..... مات سنة ٧٥٦هـ" (الموافق ١٣٥٥م)........"(انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ١٦٤؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، صـ ٣٢١– ٣٢٨).

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ٧٨.

(٦) قاضى القضاة بدر الدين إبراهيم بن أحمد الشهير بابن الخشاب(٦٩٨–٧٧٥هـ/١٢٩٨–١٣٧١م):" هو إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن نشوان، قاضى القضاة بدر الدين أبو إسحاق المخزومى المصرى الشافعى الشهير بابن الخشاب مولده فى ١٤ شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ، توفى فى ربيع الآخر٧٧٥هـ/ أكتوبر١٣٧٣م ودفن بالقرب من منزلة الأزلم بطريق الحجاز....."(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٦٤؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٤٠٩).

(٧) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة،ج٢، صـ ٤٣٧.

الإمام الشيخ شمس الدين محمد بن سالم الدمشقى[١] وكان مقيماً بالشام فلما أصيب برمد حتى نزل من عينيه ماء فقصد مصر فى سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م لتلقى العلاج من مرضه[٢].

الشيخ شرف الدين موسى بن عبدالله البهوتى الشافعى وقد جاء إلى القاهرة لتلقى العلاج من مرض أصاب عينيه فأدركته المنية بها فى ٤ شوال٨٥٤هـ /٩ نوفمبر ١٤٥٠م[٣].

أما فى الخارج فقد بلغ من تفوق الأطباء المصريين فى مجال الطب أن ذاع صيتهم فى الدول المجاورة آنذاك كما يبدو أن بعض المصريين ممن له معرفة بمهنة الطب فى العصر المملوكى قد استقروا فى السودان الغربى وهذا ما يفهم من خلال ابن بطوطة فى رحلته حيث أشار إلى ذلك عندما مرض فى مدينة مالى بقوله: "وطلبت من بعض المصريين دواءاً مسهلاً" فأسعفه بإعطائه الدواء اللازم حتى شفى من مرضه[٤] مما يشير إلى ذيوع صيت الأطباء المصريين إلى خارج مصر فى ذلك المجال.

كما أن تفوق الأطباء المصريين فى هذا المجال جعل ملوك الدول المجاورة إرسال السفارات إلى سلاطين العصر المملوكى ليطلبوا منهم إرسال طبيباً من أطباء القاهرة ليداوى أحد هؤلاء الملوك –كما هو الحال– حين أرسل السلطان العثمانى أبى يزيد بن مراد بيك العثمانى[٥] سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م الرسل إلى السلطان الظاهر برقوق يطلب منه

---

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن سالم الدمشقى(ت:٧٧٧هـ/١٣٧٥م):" هو الإمام العالم المفتى محمد بن سالم بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الدمشقى المصري كان مقيماً بالشام فحصل له رمد ونزل بعينه ماء فتوجه الى مصر يتداوى ونزل فى مدارس الحنابلة وحصل له تدريس فى مدرسة السلطان الملك حسن وتوفى يوم السبت ١٦شعبان٧٧٧هـ/٩ يناير١٣٧٦م)......" (انظر ترجمته فى ابن مفلح: المقصد الارشد فى ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن بن سلمان، ط.١، دار مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٠م، ج٢، صـ٤١٧).

(٢) ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٤٣٨– ٤٣٩.

(٣) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، دار الكتب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج٣، صـ١٤٩.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج٢، صـ٥٢٩؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ٢٥٦.

(٥) السلطان العثمانى أبى يزيد (ت:٨٠٥هـ/١٤٠٣م):" هو أبو يزيد بن مراد بيك بن أردخان بك بن على بن سليمان بن عثمان اتسعت مملكته الى ان ملك سيواس بعد برهان الدين أحمد.. ثم قصده اللنك(تيمور لنك) فمات فى أسره، وقسم اللنك البلاد على من كانت بيده قبل استيلاء ابن عثمان عليها، ثم رجع الى بلاد الشرق ..... مات فى شوال ٨٠٥هـ/مارس ١٤٠٣م).." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٩٤).

تجهيز طبيباً حاذقاً ليداويه من مرض ألمّ به، فكان أن أرسل إليه السلطان برقوق إليه الطبيب شمس الدين محمد بن محمد الصغير[١] ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفى لعلاجه[٢].

كما يعزى لأطباء العصر المملوكى المشاركة فى بعض الأعمال الإنشائية والمعمارية بالدولة وذلك من خلال تشيدهم لبعض الإنشاءات المعمارية وخاصة الدينية منها ومن هؤلاء الأطباء الطبيب صلاح الدين يوسف المعروف(بابن المغربى) (ت:٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الذى ينسب إليه إنشاء جامع ابن المغربى[٣] بشاطئ الخليج الناصرى[٤].

ويبدو أن أطباء العصر المملوكى قد أتيحت لهم الفرصة فى مزاولة مناصب أخرى فى الدولة المملوكية غير رئاسة الطب منها على سبيل المثال كتابة السر كما تولاها رئيس الأطباء فتح الله بن معتصم بن نفيس[٥] عوضاً عن بدر الدين محمود الكلستانى[٦] فى سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م بحكم وفاته[٧].

وكان للمحتسب أيضاً السلطة والإشراف على أصحاب الوظائف الصحية كالأطباء، والكحالين، والمجبرين، والجراحيين، وكان المحتسب يشترط فى القائم بها شروطاً خاصة، وكان يعقد لهم المحتسب اختبارات وامتحانات، فمن كان كفؤاً بحيث يجتاز هذه

---

(١) الطبيب شمس الدين محمد بن صغير(ت:٨٢٣هـ/١٤٢٠م):" هو الطبيب المشهور شمس الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد ولد فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٧٤٥هـ/٢٣ سبتمبر ١٣٤٤، وكان أبوه فراشاً، فاشتغل هو فى الطب وحفظ الموجز وشرحه وتصرف فى العلاج فمهر مات بعد مرض طويل فى ١٠ شوال ٨٢٣هـ/ ١٨ أكتوبر ١٤٢٠م).." (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ٢٣٣؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ٢٣٥).

(٢) الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشى، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠م، ج١، صـ ٣٦٥- ٣٦٦؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المملوكى، صـ ٢٦٩.

(٣) جامع ابن المغربى: "هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط مطلّ على الخليج الناصرى أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر وعمل به درساً وقراء ومنبراً يخطب عليه فى يوم الجمعة" انظر المقريزى: الخطط، ج٤ ، صـ ١٤١).

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ١٠١؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢ ، صـ٤٧٧.

(٥) فتح الله بن معتصم بن نفيس (ت:٧١٦هـ/١٤١٣م):" كان إماماً فى الطب كثير الحفظ لمتونه، جيد التدبير ولد سنة تسع وخمسين وسبعمائة..." (انظر ترجمته فى ابن العماد: المصدر السابق،ج٩، صـ ١٨٠).

(٦) محمود الكلستانى(ت:٨٠١هـ/١٣٩٩م):" هو محمود بن عبد الله الكلستانى السيرامى الحنفى وولى تدريس الظاهرية مات فى سنة٨٠١هـ/١٣٩٩م "(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٨٨-٩١).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٤٣٤؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٤، صـ١٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ٩٨.

الاختبارات بنجاح يسمح له المحتسب بممارسة المهنة وأعطى بذلك بإمضاء نقيب الأطباء بعد أن تتوفر لديه جميع الآلات والأدوات اللازمة لمهنته على حين من أعوزته الكفاءة لم يبح له الممارسة، ويمنعه المحتسب من التعرض إلى أعين الناس إذا كان كحالاً ومن التعرض لدواب الناس إذا كان بيطرياً(١).

وعلى صعيد آخر فهناك ما يشير أن عدم توفيق الأطباء فى العلاج يكون أحياناً سبباً فى هلاكهم ولاسيما فى علاج السلاطين بان يكون فى اعتقاد السلطان من هؤلاء أن سبب تأخر شفائه من مرضه نتيجة لتقصير الأطباء فى مداواته فيدفعه ذلك الاعتقاد أن يأمر بقتل أطباءه المعالجين ومن شواهد ذلك ما فعل السلطان الملك الأشرف برسباى حين استبطأ شفائه من مرض أصابه سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م فاعتقد أن سبب ذلك هو تقصير من طبيبيه العفيف(٢) وزين خضر(٣) وأنهم أخطئوا تدبير علاجه فأمر بتوسيطهما، فوسطا وحملا الى أهليهما بالقاهرة(٤).

ومن السلاطين الذين ظنوا أن سبب تأخر شفائهم ناتج عن تقصير الحكماء فيواعدونهم بالسوء السلطان الملك الظاهر خشقدم الذى ظن حين مرض فى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م أن سبب تأخير شفائه تقصيراً من أطبائه، فغضب عليهم وواعدهم بالتوسيط كما فعل السلطان الملك الأشرف برسباى بطبيبه الريس خضر، وابن العفيف، مما حدا بأحد رؤوساء الطب يدعى محب الدين الهرب خوفاً من بطش السلطان الظاهر خشقدم، إلا انه أمسك وسجن ببرج القلعة، إلى شفع في ابن العينى، فأطلق سراحه واستقر بداره بطالاً(٥).

وبجوار كبار الأطباء والمهتمين بالشئون الصحية لأبناء الطبقة الحاكمة، كان لصغار الأطباء دورهم، خاصة عند الأزمات، وتفشى الوباء حيث يكثر مرضاهم(٦).

---

(١) سهام مصطفى أبو زيد: المرجع السابق، صـ ٢١٣.

(٢) العفيف(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م):" هو رئيس الطب شمس الدين أبى البركات بن عفيف بن وهبة بن يوحنا بن وفا حلب ...." (ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ٧٣؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج١١، صـ٢٦١).

(٣) زين الدين خضر الإسرائيلي(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م):"هو خضر زين الدين الإسرائيلي الزويلى الحكيم كان يتعانى الطب وليس فيه بالماهر" (انظر ترجمته فى السخاوى : الضوء اللامع ،ج٣،صـ١٨٠- ١٨١)

(٤) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٩٥.

(٥) ابن إياس: المصدر السابق، ج٢، صـ ٤٥٢.

(٦) محمد عبد العظيم الخولى: المرجع السابق، صـ ٢٠٩.

ويمكن القول أن الطب فى العصر المملوكى لم يقتصر على طبقة الأطباء فحسب بل تشير الشواهد التاريخية أن هناك من كان له معرفة بعلم الطب من غير الأطباء، ومن هؤلاء الشيخ المعتقد الصالح برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم[١] بن الجعبرى(ت:٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) حيث يشهد له المشاركة فى العلوم ومن تلك العلوم الطب والحديث والشعر[٢].

كما ظهر من بين طبقة الفقهاء من كان له علم بممارسة الطب، ومن هؤلاء الفقهاء المحقق جمال الدين أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقى[٣] من الفقهاء الذين اشتهروا بمهارتهم فى مجال الطب، واشتغل بالفقه على مذهب الشافعية وكان قد مارس صناعة الطب على قاعدة الأطباء، وعاد المرضى فى البيمارستان النورى[٤] كما شهد له بالمشاركة فى فنون كثيرة[٥].

الفقيه الشيخ الإمام العلامة صدر الدين أبو عبد الله محمد الشهير بابن المرحل الشافعى[٦] فبجانب اشتغاله بالفقه والتفسير والنحو، فقد اشتغل فى آخر عمره فى الطب وكان عارفاً به علماً وعلاجاً[٧].

ومن الذين اتصفوا بمعرفتهم للطب الشيخ الإمام الفاضل أبو الفضل محمد بن ابى القاسم المشدالى(ت:٨٦٥هـ/١٤٦١م) حيث كان إماماً فى عدة علوم منها النحو والمنطق وعلم المعانى والأصلين والطب والحكمة[٨].

---

(١) برهان الدين الجعبرى(ت:٦٨٧هـ/١٢٨٨م):"هو الشيخ الصالح العابد إبراهيم بن ماجد الجعبرى"(انظر ترجمته فى ابن الملقن: طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبه، ط.٢، دار مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١، صـ٤١٢- ٤١٣).

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٧٤.

(٣) الشيخ جمال الدين المحقق(ت:٦٩٤هـ/١٢٩٥م):" هو أحمد بن عبد الله بن الحسين الفقيه .. وبارع فى معرفة الطب توفى سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م."(انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٥٢، صـ ٢١٢).

(٤) البيمارستان النورى: "أشهر البيمارستانات فى نيابة دمشق الذى أسسه نور الدين محمود(٥٤١- ٥٦٩هـ) عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م، ويقع غربى سوق الخياطين ......" انظر محمد أحمد على: المرجع السابق، صـ ١٦٢- ١٦٣.

(٥) العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٩١؛ النعيمى: المصدر السابق، ج١، صـ١٢٩.

(٦) الفقيه ابن المرحل (ت:٧١٦هـ/١٣١٧م) :" هو الشيخ الصدر بن الوكيل بن مكى بن عبد الصمد المعروف بابن المرحل وبابن الوكيل شيخ الشافعية ولد فى شوال سنة خمس وستين وستمائة توفى بكرة نهار الأربعاء ٢٤ ذى الحجة ٧١٦هـ/٩ مارس ١٣١٧م "(انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ٤٥).

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ٢٣٤؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٥، صـ١٤.

(٨) ابوالمحاسن: المصدر السابق، ج١٦، صـ ٣١١.

كما ظهر من الصوفية من اشتهروا بالبراعة فى العلوم العقلية ومن بينها الطب ومن هؤلاء الشيخ إبراهيم بن أحمد الرقى الحنبلى(١) الواعظ شيخ الصوفية فقد كانت له مشاركة فى العلوم كالتفسير والحديث والفقه والأصلين(٢)وخبرة بالطب(٣)، والشيخ على بن عبدالله اليمنى الشافعى(٤)(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م) من الصوفية الذين اشتهروا بمعرفتهم للطب وله مشاركة فى عدة علوم من بينها الطب والفقه(٥)، والشيخ على بن عبد القادر المراغى(٦)(ت:٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م) الدمشقى الذى مهر فى الفقه والأصول وكان بارعاً فى الطب وتفوق فى العلوم العقلية والنجوم(٧).

ومن الماهرين فى الطب عبدالواحد بن عبد الله المغربى المعروف بابن اللوز(ت: ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) الذى كان فاضلاً وماهراً فى الطب والهيئة(٨)، وكذلك فى الفلك والتاريخ(٩)، ومن هؤلاء من كان له دراية بالطب أيضاً شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق المالكى(ت: ٨٠٤هـ/١٤٠٢م) مهر فى العلوم العقلية حتى انشغل بالفقه وكذلك الطب، ومهر فى الفنون والشعر(١٠).

وكذلك الشيخ غياث الدين محمد بن إسحاق بن أحمد الابرقوهى(ت:٨٠٥هـ/١٤٠٢م) نزيل مكة وكان عارفاً بالطب وله فيه تصنيف(١١).

(١) الشيخ إبراهيم الرقى الحنبلى(ت:٧٠٣هـ/١٣٠٣م): "هو القدوة الزاهد العلامة بركة الوقت، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالى بن محمد بن عبد الكريم الرقى، نسبة الى الرقة بلد على الفرات الحنبلى ولد سنة ٦٤٧هـ بالرّقة توفى ليلة الجمعة ١٥ محرم،.." (انظر ترجمته فى الذهبى: المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة ، ط.١، دار مكتبة الصديق، الطائف، ١٩٨٨م، صـ ٥٢).

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٣٤.

(٣) اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ١٧٩.

(٤) انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ٢٨٠؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٥، صـ١٨٥.

(٥) اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٣٣؛ ابن العماد: المصدر السابق،ج٨، صـ٢٢٧.

(٦) شرف الدين المراغى(ت:٧٨٨هـ/١٣٨٦م):" هو شرف الدين على بن عبد القادر المراغى الصوفى اشتغل فى بلاده ومهر فى الفقه والأصول والطب والنجوم وفاق فى العلوم العقلية... وتوفى فى ربيع الآخر وقد جاوز الستين سنة ٧٨٨هـ..." (انظر ترجمته فى السيوطى: بغية الوعاة، ج٢، صـ ١٧٦؛ النعيمى: المصدر السابق، ج٢، صـ ١٢٦).

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٣٢٥؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٢٠٠.

(٨) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٣٥٩؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٥٣٧.

(٩) ابن شهبة: المصدر السابق ،ج٣ ،صـ٢٥٥.

(١٠) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٢١٠؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ٣٢٣- ٣٢٤.

(١١) ابن حجر: انباء الغمر، ج٢، صـ٢٥١.

وهناك من اشتهر بغزارة العلم ومهر فى علوم عديدة من بينها الطب حتى نال منزلة رفيعة لدى سلاطين المماليك ومن هؤلاء العلماء شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عبدالله الحريرى(ت:٨٠٩هـ/١٤٠٧م) الذى اشتهر بالعلم ومهر فى علومه منها الطب والأدب وقد اتصل بالملك الظاهر برقوق فأنعم عليه بالوظائف فى الدولة المملوكية حتى أثرى وحسن حاله(١).

وعلى الصعيد الآخر فإن الأطباء لم يقتصروا فى ممارستهم لمهنتهم الطب فى العصر المملوكى على البيمارستانات فحسب بل نجدهم أيضاً يصحبون السلاطين فى السرحات الطويلة بموكب الصيد ليكونوا على الاستعداد لمباشرة السلاطين والأمراء إذا أصابهم مكروه أثناء الصيد حيث كان يشمل موكب الصيد مختلف التخصصات الطبية من الكحالين والجراحيين(٢) والمجبرون وغيرهم، ويمكن القول انه بمثابة بيمارستان مصغر متنقل حيث يقول المقريزى" يكاد يكون معهم مارستان لكثرة من معه من الأطباء"(٣).

ومن أمثلة تلك السراحات السلطانية التى يصحب فيها السلطان فريق من الأطباء فى مختلف التخصصات حين خرج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٥م) قاصداً الديار الشامية والحلبية فى سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م وكان سفره إلى الشام لمراقبة الأوضاع على حدود الدولة المملوكية خلال الصراع الصفوى العثمانى، وقد صحب السلطان الملك الأشرف فى هذه السفرة فريق من الأطباء فى كافة التخصصات الطبية وعلى رأسهم الطبيب محمد بن الريس شمس الدين القوصونى(٤) ومن التخصصات المختلفة كالكاحلين والجرائحية والمزينين وغيرهم(٥).

---

(١) ابن حجر: انباء الغمر، ج٢، صـ٣٦٠.

(٢) " أما أطباء الجراحة، وهم الذين عرفوا بـ "الجرائحيين" فكان يشترط فيهم معرفة أنواع الجراحات، والتشريح، وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين " انظر السيد على محمود: المرجع السابق، صـ ١٣٨.

(٣) المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ٣٥٠؛ لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه، صـ ٢٣٢.

(٤) الطبيب شمس الدين القوصونى(ت:٩١٧هـ/١٥١١م):" وقد حضر الى الأبواب الشريفة وكان قد أسره ابن عثمان عقب هزيمة قانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق ٩٢٢هـ/١٥١٦م فهرب من هناك مع العربان وغرم مالاً كثيراً حتى أتوا به الى مصر..... "(ابن إياس: المصدر السابق، ج٥، صـ١٣٥).

(٥) ابن اياس: نفس المصدر، ج ٥، صـ٤٣.

ولقد بلغ من مهارة الأطباء فى العصر المملوكى أن الطبيب كان يشترط على الناس ألا يأتى إليهم بالليل إلا إذا أتوا إليه بالأموال والخيل المسرجة والبغال[١]، وكان سلاطين المماليك يقومون بتعين حكماء وجرائحية يلحقون بخدمة الخلفاء فى عصر المماليك[٢].

وأشارت المصادر التاريخية عن مشاركة الطب والأطباء فى الخانقاوات وبجانب عمل الأطباء فى العصر المملوكى فى البيمارستان نجد انه ألحق بالخانقاوات العصر المملوكى فريق من الأطباء من تخصصات مختلفة كالجراحة[٣] وتخصص الكحالين وغيرهم لعلاج الصوفية، بل أصبح ذلك الأمر بصفة رسمية حيث نصت حجة وقف الغوري (١٥٠١-١٥١٦م) على تخصيص طبيب يتقاضى فى الشهر خمسمائة درهم ليتفقد المرضى من الصوفية وعلاجهم[٤].

وإذا كان الجيش المملوكى فى أساسه من الرقيق، فإن سلاطين المماليك بالطبع اهتموا بصحة هؤلاء الأرقاء الذين يجلبون إلى مصر ليكونوا عماد الجيش المملوكى، والقوى التى تزود عن السلطنة وتحقق لها الاستقرار، لذلك وجب على السلاطين الاهتمام بالرعاية الطبية للجيش المملوكى، وتوفير الأطباء الذين يشرفون على صحة الجند ويهتموا بهم منذ اللحظة الأولى التى تبدأ بشراء المماليك[٥] حيث لعب هؤلاء الأطباء دوراً هاماً فى مراحل تربية المماليك، ويتمثل ذلك الدور فى إرسال السلاطين عدداً من المماليك عند شرائهم إلى الأطباء أولاً لفحصهم؛ ثم ينزلهم فى طبقة جنسهم فيتسلمهم الطواشى المقدم على الطبقة[٦].

(1)paul kahle : Ibid, pp. 21- 30.

(٢) النويرى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٣٦.

(٣) الجراحة: "الجراحة صناعة ينظر بها فى تعريف أحوال بدن الإنسان من جهة ما يعرض لظاهره من أنواع التفرق فى مواضع مخصوصة وما يلزمه وغايتها إعادة العضو الى الحالة الطبيعية الخاصة به....." انظر ابن القف: العمدة فى الجراحة، ط.١، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، د.ت، ج١، صـ ٤.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، صـ ١٧٢؛ مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ١١٨.

(٥) مكرم عبد الجواد عبد الحميد : المرجع السابق ، صـ ١٠١.

(6)tafur (pero): Ibid .p. 74

أما عن الدور التعليمي للأطباء فقد ساهم أطباء العصر المملوكى فى المرحلة التعليمية للأطفال، ذلك الدور الذى يتمثل زيارات الطبيب لمكتب تعليم الأطفال حيث يقوم بالكشف على من يظن به البلوغ من الأيتام الذين ينزلون المكتب، فيعطى الناظر(١) التقرير بذلك عند زيارته للمكتب كل شهر(٢).

وكان أهم الميادين العلمية التى نبغ فيها القبط واليهود هو ميدان الطب فكان من أهل الذمة، أمهر أطباء مصر الإسلامية وأحذقهم وأكثرهم علماً بصناعة الدواء وعلاج الداء، وكان أمراء مصر وخلفائها، فى حاجة شديدة دائماً إلى الأطباء لعلاجهم وعلاج نسائهم ومن ثم كان معظم أطبائهم من القبط واليهود وكان هؤلاء الأطباء مقربين إليهم ويجزلون لهم العطاء ويحسنون معاملتهم ويستجيبون لطلباتهم(٣).

ولقد ساهم أهل الذمة من اليهود والنصارى فى سلك الطب والأطباء، فقد قام الأطباء من اليهود والنصارى بممارسة مهنتهم بعلاج المسلمون– رجالاً ونساء– حتى مشايخ الصوفية، كما تشير الشواهد محاولة بعض سلاطين المماليك منع ذلك دون جدوى(٤).

ويمكن القول أن اليهود والنصارى تعرضوا فى عهد بعض سلاطين المماليك من المنع من ممارسة الطب وعلاج المسلمين ومن هؤلاء السلاطين، السلطان الملك صالح بن الناصر(٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م) الذى منع اليهود والنصارى من ممارسة مهنة الطب سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م(٥).

---

(١) الناظر: " شخص يستظهر به على متولى الديوان أو مشارف عمل، وليس لإحدى مستخدميه أن ينفرد عنه بشئ من علم المنظور فيه، ومن لوازمه أن يكون علمه محوطاً يضبطه" انظر ابن مماتى: كتاب قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١م، صـ ٢٩٨.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، صـ١٥٢.

(٣) فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ج٢، صـ ٢٤٦.

(٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٤٨.

(٥) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٢٠٣.

وأصدر السلطان الملك الظاهر جقمق مرسوماً بمنع "اليهود والنصارى من طب أبدان المسلمين"[١] فى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م[٢].

وعلى صعيد آخر فان اضطهاد أهل الذمة من اليهود والنصارى ومنعهم من مباشرة صناعة الطب لم يستمر على وتيرة واحدة خلال العصر المملوكى وخير دليل على ذلك بروز شخصيات منهم فى مجال الطب والعلاج ومن أشهر أطبائهم الطبيب الرئيس إبراهيم بن فرج الله بن عبد الكافى الإسرائيلي اليهودى الداودى العافانى[٣] فقد اشتهر عنه مزاولته للطب وتكسبه به بجانب ما اتصف به من كثرة حفظه لنصوص التوراة وكتب الأنبياء[٤].

ويبدو أن أطباء أهل الذمة قد تمتعوا بنوع من الحصانة مما كان يتعرض له بنو جنسهم من اليهود والنصارى فى فترة من فترات اضطهاد العصر المملوكى، ومن شواهد ذلك حين حكم قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى فى محرم ٨٦٨هـ/سبتمبر١٤٦٣م بإلزام أهل الذمة بالعهود المكتتبة قديماً على أهل الذمة، بينما استثنى من ذلك الحكم أهل الصرف والطب من اليهود والنصارى[٥].

والواقع أن فكرة الاضطهاد الدينى لم تكن واردة فى أذهان سلاطين المماليك، ولكن تدّخل أهل الدولة أحياناً لقمع أعمال العنف من جانب "سفهاء" الذميين قابله تدّخل مماثل

---

(١) " كان الشافعى–رضى الله عنه– يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى " ابن كثير: طبقات الشافعيين، تحقيق: د.أحمد عمر هاشم، د.محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م، صـ ٣٢.

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٣٨٤؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج٢، صـ٨٩.

(٣) الطبيب الرئيس إبراهيم الإسرائيلي اليهودى(ت:٨٤٤هـ/١٤٤١م):"هو الرئيس إبراهيم بن فرج الله بن عبدالكافى الإسرائيلي اليهودى الداوى لم خلف بعده من يهود مصر مثله فى كثرة حفظ نصوص التوراة وكتب الأنبياء وفى تنسكه وفى دينه مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به توفى فى سنة ٨٤٤هـ/١٤٤١م وقد زاد عن السبعين.."(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١، صـ ١٢١).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٤٨٢.

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ٢٨١.

تجاه "سفهاء" المسلمين ومن ثم فإن ذلك لا ينهض دليلاً على ممارسة الدولة للاضطهاد بقدر ما هو دليل على التوظيف السياسى والاقتصادي للأحداث تحت ساتر الدين(١).

وأما عن **دور المرأة خلال العصر المملوكى فى مجال الطب** فقد لعبت دوراً بارزاً فى المجتمع المصري فكانت عضواً لا يمكن أن يغفل فى ذلك المجتمع، وبالنسبة للممارسات الطبية للمرأة بما أنها فى المقام الأول أم فإنها اكتسبت بعض الممارسات الطبية، ومن الممارسات الطبية التى احترفتها المرأة فى العصر المملوكى مهنة القابلة(٢) وكانت تلك المهنة مختصة بالنساء فى تلك الفترة ، وذلك لأنها متطلعات على عورات النساء(٣).

(أولاً) العلوم التى نبغ فيها أطباء العصر المملوكى:-

ولقد نبغ أطباء العصر المملوكى فى مختلف العلوم العقلية وغيرها كالشعر والأدب والنحو والحساب والهندسة والرياضيات والفلك وعلم التاريخ والفقه وعلم الحديث وغيرها من العلوم الأخرى، وفيما يلى سرد لأشهر الأطباء الذين مهروا فى العلوم الأخرى بجانب نبوغهم فى مهنتهم الطب:-

(١) فى الشعر:-

والملاحظ فيمن تولى مهنة الطب خلال العصر المملوكى قد كان يمارس هواياتهم الخاصة بجانب مهنتهم الطب والتى منها الشعر وقد برع طائفة منهم فى الشعر حتى كادت أن تفوق عن شهرتهم فى الطب، ومن هؤلاء الأطباء شرف الدين ابوالحسن بن حيدرة الرحبى(٤) شيخ الأطباء بدمشق الذى اشتهر بجانب ممارسته لمهنته فى الطب انه من العلماء الشعراء وله مشاركة جيدة في الشعر(٥).

---

(١) علاء طه رزق: المرجع السابق، صـ ٦٨.

(2) Ahmad Abd ar-raziq: La femma au temps des Mamlouks en Egypte, Le caire, 1973 ,pp.62-63

(٣) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٨٢.

(٤) شرف الدين الرحبى(ت:٦٦٧هـ/١٢٦٩م):" الطبيب الماهر شرف الدين أبوالحسن على بن يوسف بن حيدرة الرحبى طبيب، من العلماء الشعراء مولده سنة ٥٨٣هـ بدمشق. وتولى تدريس الطب مدة وصنف كتباً منها "خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها " (انظر ترجمته فى ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، صـ ٢٩٧).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٦٢؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ٥٣.

عماد الدين أبو عبدالله الربعى[١] من الأطباء الذين اشتهروا بالبراعة فى الشعر فبجانب نبوغه فى علم الطب فقد صار فى الفقه سيد زمانه، كما نظم فى الشعر أبيات بديعة[٢]، والطبيب الخطيب مجد الدين أبو محمد عبدالوهاب بن أحمد التنوخى[٣] خطيب جامع النيرب[٤] وكان طبيباً بجامع الصالحية. كما روى شيئاً من الحديث كما أجاد الشعر الحسن وشارك فى كل فن[٥].

الطبيب الكحّال[٦] تقى الدين شبيب[٧](ت:٦٩٥هـ/١٢٩٦م) وكان فاضلاً فى الأدب، ولمه مشاركة فى الشعر حيث برع فى نظم الشعر الجيد كما له مشاركة فى علم الحديث[٨].

(١) الطبيب عماد الدين الربعى(ت:٦٨٦هـ/١٢٨٧م):" هو محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد بن صالح الحكيم ولد بدنيسر سنة خمس أو ست وستمائة، خدم فى المارستان الكبير توفى العماد فى ثامن صفر سنة ٦٨٦هـ " (انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٥١، صـ ٢٨٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، صـ١١٢).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٢٠١ ؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ٣٦٥.

(٣) ابن سحنون التنوخى(٦١٩-٦٩٤هـ/١٢٢٢-١٢٩٥م):" هو عبد الوهاب بن أحمد بن سحنون التنوخى، مجد الدين أبو محمد "(انظر ترجمته فى ابن الجزرى: المصدر السابق، ج١، صـ ٢٦٦-٢٦٨).

(٤) جامع النيرب: " بالقرب من الربوة والنيرب من قرى الغوطة وهى قرية حسناء من محاسن قرى دمشق من إقليم بيت لهيا كثيرة المياه والبساتين وبها جامع حسن تقام فيه الجمعة ويقال فى شرقية قبر حنة أم مريم عليهما السلام......." (انظر ابن طولون: القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط.٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٤٩م، صـ٥٥، ٥٦).

(٥) العينى: المصدر السابق،ج٣، صـ٢٨٨؛ النعيمى: المصدر السابق، ج١، صـ٣٩٨.

(٦) الكحّال: "طبيب العيون" (انظر دوزى: المرجع السابق، ج٢، صـ١٠٠).

(٧) الطبيب تقى الدين شبيب(٦٢٠-٦٩٥هـ/١٢٢٣-١٢٩٦م):"هو الطبيب الفاضل الكحّال تقى الدين أبو عبدالرحمن الشاعر وتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٥هـ"(انظر ترجمته في ابن رجب: المصدر السابق،ج٤،صـ ٢٦٩- ٢٧١).

(٨) الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٥٢، صـ ٢٥٧؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٧، صـ ٧٤٩.

(٢)علم التاريخ:-

ومن الأطباء الذين شهد لهم بالمشاركة في علم التاريخ ونظم الشعر بجانب مهنتهم الطب ومن أشهرهم الطبيب الفاضل موفق الدين أبوالعباس المعروف بابن أبى أصيبعة[١] صاحب "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" كان عالماً فاضلاً فى الطب وكتابة التاريخ وكان له مشاركة جيدة فى نظم الشعر[٢]ومن مؤلفاته(التجاريب والفوائد) و(حكايات الأطباء فى علاجات الأدواء) و(معالم الأمم)[٣].

الطبيب المشهور عز الدين أبو إسحاق إبراهيم الأنصاري السويدى[٤] فكان يشهد له بجانب معرفته للطب، أن له مشاركة جيدة فى العربية والتاريخ ونظم الشعر[٥] ومن مؤلفاته فى مجال الطب كتاب الباهر فى الجواهر، وكتاب التذكرة فى الطب فى ثلاثة مجلدات[٦].

(٣) العلوم الأخرى التى اشتهر الأطباء بمعرفتها:-

ويمكن القول أن هناك من أطباء العصر المملوكى من اشتهروا بمعرفتهم للعلوم الأخرى بجانب مهنتهم الطب وسوف نتناول أشهرهم فى هذا المجال الطبيب فتح الدين أبو الفتح المعروف بابن أبى الحوافر القيسى[٧] من الأطباء الذين اشتهروا ببراعتهم فى مجال الطب وتولى رئاسة الطب فى مصر والقاهرة[٨] وكذلك شارك فى الكهولة فى علم الحديث[٩]، والطبيب أحمد بن المغربى الاشبيلي(ت:٧١٨هـ/١٣١٨م) كان يهودياً فأسلم،

---

(١) ابن أبى أصيبعة(ت:٦٦٨هـ/١٢٧٠م):" هو أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى موفق الدين، أبوالعباس ابن أبى أصيبعة : الطبيب المؤرخ، صاحب(عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) "(انظر ترجمته فى اليونينى: المصدر السابق، ج٢، صـ٤٣٧؛ احمد احمد بدوى: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة، ١٩٧٢م، صـ ٣٢١- ٣٢٢).

(٢) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ٢٢٩.

(٣) عمر كحالة: المرجع السابق، ج٢، صـ٤٧- ٤٨.

(٤) عز الدين السويدى(٦٠٠-٦٩٠هـ/١٢٠٣-١٢٩٠م):" هو الطبيب إبراهيم بن محمد بن طرخان المعروف بابن السويدى ولد سنة ستمائة بدمشق توفى سنة٦٩٠هـ/١٢٩٠م" (انظر ترجمته فى ابن حبيب: المصدر السابق، ج١، صـ١٤٦)

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ٢٨.

(٦) اليافعى: المصدر السابق، ج٤، صـ١٨٤؛ العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٩٣.

(٧) الطبيب أبى الحوافر(ت:٦٥٧هـ/١٢٥٩م):" هو أحمد بن عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل أبو الفتح المعروف بابن أبى الحوافر القيسى، الدمشقى الأصل ولد سنة ٦٠٠هـ .... توفى بالقاهرة في سنة ٦٥٧هـ..." (انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٤٨، صـ٣١٢).

(٨) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس.ريتشارد، صـ ٤٧.

(٩) الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٤٨، صـ ٣١٢.

وقد كان بارعاً فى عدة علوم بجانب مهنته فى الطب مثل الفلسفة والنجامة، وقد ولى رئاسة الطب فى الديار المصرية(١).

الطبيب مسند الشام بهاء الدين القاسم بن المظفر بن عساكر(٢) من أطباء العصر المملوكى الذين اشتهروا بمكانتهم البارزة فى علم الحديث، وكان طبيباً يعالج المرضى بالمجان(٣)، والطبيب عبد الرحمن بن عمر بن محمد السبواسى(٤) المعروف بالأبهرى الدمشقى من الأطباء الذين نبغوا بجانب مهارتهم فى مجال الطب فى علم الرياضيات والحساب حيث كان يعرف الحساب والمساحة وعلم الفلك وقد نبغ فى وضع الآلات(٥).

الطبيب الأديب شهاب الدين أحمد الصفدى(٦) الذى نبغ بجانب معرفته بعلم الطب فى نظم الشعر والأدب والنثر كما يذكر موهبته وقدرته "على وضع المشجرات، ويبرز أمداح الناس فى أشكال أطيار وعمائر وأشجار وعقد وأخياط" وتلك المعرفة يبدوا أنها ما اصطلح اسمها فى عصرنا الحاضر بفن "الكولاج"(٧) الذي صار كنوع من الفن التجريدي أي التطويري الجاد(٨).

---

(١) المقريزى: السلوك ،ج٣، صـ٩.

(٢) الطبيب بهاء الدين القاسم ابن عساكر(٦٢٩- ٧٢٣هـ/١٢٣١- ١٣٢٣م):" هو الطبيب بهاء الدين القاسم بن أبى غالب المظفر بن محمود. مات فى شعبان ٧٢٣هـ"(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ٢٧٩).

(٣) اليافعى : المصدر السابق، ج٤، صـ ٢٠٣؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٥، صـ ١٨٥- ١٨٦.

(٤) الأبهرى الدمشقى(ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م):"هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد السيواسى المعروف بالأبهرى مات سنة ٧٣٣هـ وله ثمان وأربعون سنة "(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، صـ ١٣٠).

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، صـ ٢٤٢- ٢٤٣.

(٦) الطبيب شهاب الدين الصفدى(٦٦١-٧٣٧هـ/١٢٦٣-١٣٣٧م):" هو الشيخ شهاب الدين الصفدى الطبيب، أحمد بن يوسف بن هلال بن أبى البركات، ولد سنة إحدى وستين وستمائة، توفى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة..." (انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، صـ ٤٣٥- ٤٣٦).

(٧) الكولاج: " هى مصطلح يستخدم فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأصلها هى الكلمة الفرنسية(coller) بمعنى لصق أو إلصاق وهى المرادف للكلمة الإنجليزية(paste) وهى بمعنى لصق صورة مؤسسة كلياً أو جزئياً باستخدام قصاصات من قماش أو ورق أو ما شابهه من الخامات التى تلصق فوق قماش التصوير) انظر شيماء مشهور منصور: الكولاج واستخداماته التعبيرية والجمالية فى التصوير الأوروبى خلال القرن العشرين، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، كلية الفنون الجميلة، ٢٠١١م، صـ ١٣.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٤٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ٣١٧.

الطبيب الفاضل برهان الدين إبراهيم ابن إسماعيل بن هبة الله[١] الطبيب بالصالحية بالمارستان القيمرى[٢] من الأطباء الذين اشتهروا بالمشاركة فى علم الحديث، وكان محدثاً[٣] فحد ث فى جامع دمشق عن عمه نجيب الدين المقداد الذى سمع منه جزء (الأنصارى)[٤].

الطبيب صلاح الدين محمد بن إبراهيم المعروف بان البرهان الجرائحى[٥] تتلمذ فى الطب على العماد النابلسى وابن النفيس حتى قرأ عليه(كتاب الشفاء) لابن سينا وشارك فى الحديث وتتلمذ فى العربية على ابن النحاس[٦].

ومن الأطباء من كان يهوى الموسيقى بجانب مهنته فى الطب من هؤلاء الطبيب الأديب محمد بن محمد بن عبدالله بن صغير ناصر الدين (ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذى كان يضرب العود سراً[٧]، والطبيب يوسف بن إسماعيل بن أحمد[٨] المعروف بابن الكتبى الشافعى من أطباء العصر المملوكى الذين اشتهروا بالفقه وأصوله، حيث كان من علماء الفرائض والأصول، وكان طبيباً لازم الطب ومن كتبه فى مجال الطب "ما لا يسع الطبيب جهله" فى مفردات الطب[٩].

(١) الطبيب برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل(ت:٧٤١هـ/١٣٤٠م): " هو الطبيب الفاضل برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل توفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة٧٤١/١٣٤٠م).." (انظر ترجمته فى ابن رافع: المصدر السابق، ج١، صـ ٣٥٧- ٣٥٨).

(٢) المارستان القيمرى: " واقف مرستان الصالحية الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى الكردي، أكبر أمراء القيمرية، وكانت وفاته ودفنه بالسفح فى القبه التى تجاه المارستان المذكور" (انظر ترجمته فى ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، صـ ٢٢٧).

(٣) المحدث: " علم الحديث هو المكمل للشريعة الإسلامية ويشتمل على ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة ويجب معرفة الناسخ من المنسوخ ومعرفة أنواع الرواية وأحكامها وشروط الرواة والتأكد من برآتهم من الجرح والغفلة...." انظر محمد عبد العظيم الخولى: المرجع السابق، صـ ١٩١- ١٩٢.

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ١٤٠.

(٥) ابن البرهان الجرائحى(ت:٧٤٣هـ/١٣٤٢م):" هو الحكيم الفاضل صلاح الدين أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم بن سليمان المقدسى المعروف بابن البرهان الجرائحى أبوه بالقاهرة ودفن بمقابر باب النصر.. توفى سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م."(انظر ترجمته فى ابن رافع: المصدر السابق، ج١، صـ ٤٢٨- ٤٢٩؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٢، صـ١٩).

(٦) الصفدى: أعيان العصر، ج٤، صـ ٢٢٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، صـ١٢.

(٧) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ١٥٨.

(٨) ابن الكتبى الشافعى(ت:٧٥٤هـ/١٣٥٣م):" هو يوسف بن إسماعيل بن إلياس بن أحمد، أبو المحاسن، نصير الدين الخويي (الجويني؟) الشافعى البغدادى المعروف بابن الكتبى توفى فى رجب ٧٥٤هـ عن ابن رجب، وعن ابن رافع فى جمادى الآخرة ٧٥٥هـ ...." (انظر ترجمته فى ابن رافع: المصدر السابق، ج٢، صـ ١٧٠؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٨، صـ٢١٧- ٢٧٤) .

(٩) ابن شهبة : تاريخ ابن شهبة ، ج٢ ، صـ ٥٨ .

الطبيب الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجارى المعروف بابى الأكفانى[١] كان عالم الأطباء بالقاهرة وكان إمام عصره فى مجال الطب وكان طبيباً بالبيمارستان المنصورى، وعرف أسباب الصحة والمرض وبرهن على الطب وموضوعاته والعلاج وتبعاته وغالب طبه بخواص ومفردات يأتى بها وما يعرفها أحد لأنه يغير كيفيتها وصورتها حتى لا تعلم وله غريبة فى علاجه[٢] كما اشتهر بنبوغه فى علم الرياضيات وصار إمام عصره فى الهندسة والحساب، ومن تصانيفه فى علم الطب غنية اللبيب فى عنبة الطبيب– كشف الرين فى أمراض العين– إرشاد القاصد إلى أسمى المقاصد، ومن كتبه أيضاً فى علم الرياضيات اللباب فى الحساب وغيره[٣].

والطبيب محمد بن عبد الله الخضري(ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م) المصرى وكان يذو معرفة بجانب الطب بالكيمياء والفلك[٤].

ومن الملاحظ أنه لم يقتصر أطباء العصر المملوكى على ممارسة مهنتهم الطب فقط بل منهم من كان يدرى كثيراً من اللغات الأخرى ومن الأخبار ومن هؤلاء فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودى التبريزى (ت:٨١٦هـ/١٤١٣م) الحنفى الطبيب الذى صار من أخص المماليك عند السلطان برقوق[٥].

---

(١) أبى الأكفانى(ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م): " هو الحكيم شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى السنجارى المولد والأصل المصرى ... توفى فى طاعون مصر سنة تسع وأربعين وسبعمائة... " (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٢، صـ٢٠– ٢١).

(٢) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٦١.

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٦٢٦ – ٦٢٧ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ٣٤٦.

(٥) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ٣٠.

ثانيا: أشهر أطباء العصر المملوكى:

ويبدو أن هناك فئة من الأطباء من ذاع صيتهم وشهرتهم فى علم الطب واقتصرت معرفتهم به أكثر من معرفتهم بالعلوم الأخرى ونذكر من هؤلاء الطبيب نجم الدين يحيى بن عبدالواحد اللبودى(ت:٦٧٠هـ/١٢٧٢م) وكان فاضلاً فى الطب وقد أوقف أوقافاً جليلة على الأطباء، مثل اللبودية[١] حتى تربته التى بالقرب بركة الحميرين فقد جعلهما دار الطب وهندسة، وكان والده شمس الدين محمد بن اللبودى من كبار الأطباء[٢].

وكان أبرز أطباء العصر المملوكى الأول الطبيب المشهور "ابن النفيس" وهو علاء الدين ابن النفيس القرشى الدمشقى(ت:٦٨٧هـ/١٢٨٨م) ولد بدمشق فى حكم الأيوبيين حوالي سنة٦٠٧هـ/١٢١٠م وتوفى نحو ثمانين سنة قرابة سنة٦٨٧هـ/١٢٨٨م، كما انه اهتم– بجانب مهنة الطب– بعلم البيان والمنطق والفلسفة[٣] كما اتضح انه كان عالماً بعلم التشريح بالرغم انه زعم انه لم يمارس التشريح لوازع الدينى ولم يكن بمعزل عن علم من سبقوه فى هذه المهنة حيث درس كتب جالينوس وابن سينا دراسة دقيقة وأن دل ذلك على شئ فإنه يدل على سعة علمه وتتابعه لما وصل إليه علم الطب وإتمامه لمسيرة هذا العلم وللنتائج التى توصل إليها من اهتمامه بالتشريح[٤].

وكان ابن النفيس قد تعلم الطب فى دمشق على يد مهذب الدين عبد الرحيم على المعروف باسم الدخوار(ت:٦٢٨هـ/١٢٣٠م) والذى كان رئيس الأطباء فى مصر وسورية واشتهر بحذقه فى طب العيون ومعرفة أمراضها، كما تعلم أيضاً على يد عمران

---

(١) اللبودية:" هى المدرسة اللبودية النجمية التى أنشأئها الطبيب نجم الدين اللبودى المتوفى عام٦٧٠هـ/١٢٧١م، وتقع فى طريق المزة (أحد أحياء دمشق) " انظر محمد أحمد على: المرجع السابق، صـ ٢٦٥.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٩، صـ٣١٢ ؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ٩٨.

(3)Michel Voision: William Harvey et la circulation sanguine, Académie des sciences et letters,Montpellier, séance 14 novembre, 2011, pp.370

(٤) انظر محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ط.١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م، صـ ٣٠٩؛ احمد بدوى: المرجع السابق، صـ ٣٢٢– ٣٢٣؛ إبراهيم مدكور: فى الفكر الإسلامي، ط.١، سميركو للطباعة والنشر، صـ ١٢٨.

الإسرائيلي[١] فى دمشق(ت:٦٣٧هـ/١٢٣٩م)[٢].

وقد مارس ابن النفيس الطب فى دمشق إلى أن استدعاه السلطان الكامل محمد إلى مدينة القاهرة لشهرته العظيمة وذيوع اسمه، مع انه لم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره، فعمل فى المستشفى الناصرى أشهر مستشفيات القاهرة آنذاك[٣].

ولقد أدى ابن النفيس للحضارة الإسلامية أجل الخدمات وكان أول من وفق إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى[٤] والتى توصل إليها بعد ممارسة التشريح للعديد من الحيوانات وكذلك تشريح الجثث البشرية[٥] وقال: "إن الدم ينقى فى الرئتين" قبل(سرفيتوس) بثلاثة قرون[٦].

الطبيب شرف الدين عبدالله أبى الحوافر[٧](ت:٧١١هـ/١٣١٢م) وهو من جملة الأطباء الذين شهد لهم بالتفوق فى علم الطب وفنونه[٨]، والطبيب أمين الدين سليمان بن داود[٩] كبير الأطباء من الأطباء الذين اشتغلوا بجانب ممارستهم للطب بالتدريس، كما

---

(١) "هو الحكيم أوحد الدين عمران بن صدقة مولده بدمشق في سنة إحدى وستين وخمسمائة وكان أبوه أيضا طبيبا مشهورا واشتغل عمران على الشيخ رضي الدين الرحبي بصناعة الطب...." انظر ترجمته ابن أبى أصيبعة: عيون الإنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج١، صـ ٦٩٦-٦٩٧).

(٢) سمير يحيي الجمال: تاريخ الطب والصيدلة المصرية، الهيئة العامة للكتاب (فرع الصحافة) ١٩٩٩م ،ج٣، صـ ١٢٥؛ يول غليونجى : ابن النفيس ،صـ ٨٠- ٨٢.

(٣) محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع السابق، صـ ٣٠٩ -٣١٠.

(٤) سمير يحيي الجمال: المرجع السابق، ج٣، صـ ١١٧؛ محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع السابق، صـ ٣١٤.

(5) Michel Voision: Ibid , pp.371.

(٦) قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب، صـ ٢٠٣.

(٧) الطبيب شرف الدين عبد الله ابى الحوافر(ت:٧١١هـ/١٣١٢م):" هو عبد الله بن أحمد بن رشيد الدين عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل ابن ابى الحوافر قال القطب الحلبى سمع النجيب وكان طبيباً فاضلاً من بيت الأطباء مات فى شوال سنة ٧١١هـ/١٣١٢م .." (انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، صـ١٤).

(٨) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٤٧٧.

(٩) الطبيب أمين الدين سليمان (ت:٧٣٢هـ/١٣٣٢م): " هو سليمان بن داود بن سليمان أمين الدين رئيس الأطباء بدمشق .. توفى سنة ٧٣٢هـ....."(انظر ترجمته فى ابى الفدا: المصدر السابق، ج٤، صـ١٠٦؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، صـ ٢٨٩).

كان رئيساً للأطباء بدمشق وتولى التدريس بالدخوارية(*)[١].

الطبيب بدر الدين محمد بن أبى حامد[٢] من أطباء العصر المملوكى المشهورين ببلاد الشام، وقد أشاد ابن حبيب بتفوقه فى مجال الطب وكان مقيماً بحلب[٣]، والطبيب شرف الدين موسى بن كجك الإسرائيلي(ت:٧٦١هـ/١٣٦٠م) الذي اشتهر ببراعته فى ممارسة مهنة الطب ومداواة الناس[٤].

الطبيب الرئيس الماهر يوسف ابن الديان(ت:٧٥٧هـ/١٣٥٦م) اشتهر بمهارته فى الطب وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه[٥]، والطبيب الرئيس علاء الدين على بن عبد الواحد بن صغير[٦] رئيس الأطباء كان ماهراً فى العلاج وكان يؤثر عنه انه يصف العلاج للفقراء الدواء بمبلغ زهيد بينما يصف العلاج ذاته للأغنياء بمبالغ طائلة[٧].

الطبيب الفاضل جمال الدين يوسف بن البرهان إبراهيم بن عبد الله الدوادارى الإسرائيلي (ت:٨٣٣هـ/١٤٣٠م) الذى اشتهر بمهارته فى مجال الطب والعلاج[٨]، والطبيب الكحّال تاج الدين عبد الوهاب بن محمد بن طريف(ت:٨٥١هـ/١٤٤٧م) من الأطباء المشهورين فى مهنة الكحّل بالبيمارستانات وتتلمذ بعلم الكحّل على السراج البلادرى والشهاب الحريرى وأقيم كحالاً بالبيمارستان كما شُهد له بالمشاركة فى عدة فنون

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ١٨٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢،صـ ٢٢٨؛(*)(المدرسة الدخوارية) :" وهى دار الطبيب عبد الرحيم بن على الدخوار، وقفها لتكون مدرسة للطب، ومات ليلة الاثنين خامس عشر صفر سنة ٦٢٨هـ "انظر احمد احمد بدوى: المرجع السابق، صـ ٦٩؛ محمد أحمد على: المرجع السابق، صـ ٢٦٥.

(٢) الطبيب بدر الدين محمد(ت:٧٣٢هـ/١٣٣٢م):" هو محمد بن أبى حامد بن هاشم بن نصار بتشديد الصاد المهملة الحكيم بدر الدين وكان قدوة الأطباء فى معالجة الأبدان ورحلة الأولياء المعروفين بالعرفان مات بحلب سنة ٧٣٢هـ عن نيف وثمانين سنة "(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، صـ١٥٦).

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، صـ ٢٢٩.

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ ١٧٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ ٣٣٨.

(٥) الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ١٧٣؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ١١٣.

(٦) الطبيب علاء الدين على (ت:٧٩٦هـ/١٣٩٤م):" هو على بن عبد الواحد بن محمد بن صغير علاء الدين بن نجم الدين بن شرف الدين رئيس الأطباء بالديار المصرية مات بحلب فى..."(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٤٨١).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٢٦١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ٩٤.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٢٢٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ٤٥٤.

كالحديث وبرع فى الميقات بالمنصورية[١]، ومن أعيان الأطباء فى العصر المملوكى الطبيب عبد القادر القطبى(ت:٩١٩هـ/١٥١٣م)[٢]

ثالثا: الأطباء القضاة:-

ويبدو أن هناك بعض قضاة العصر المملوكى اشتهر بمعرفته بالطب الأمر الذى دعا بعض السلاطين على الإقدام على تعينهم رؤساءً للطب بل والمشاركة فى تدريس الطب بالبيمارستانات أيضاً فى بعض الأحيان، ومن القضاة الذين اشتهروا بمعرفتهم للطب وتدريسه نذكر أشهرهم فيما يلى:-

القاضى مهذب الدين محمد المعروف بابن أبى حليقة[٣] الذى رسم السلطان الملك المنصور قلاوون له فى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م برئاسة الأطباء ومعه أخواه علم الدين إبراهيم[٤] وموفق الدين أحمد كما تولى مهذب الدين تدريس الطب بالمارستان المنصورى[٥]

وكان بفضل معرفة أحد القضاة لعلم الطب عتقه من أسر الأعداء كما هو الحال مع قاضى القضاة حسام الدين أبو الفضائل الرازي[٦] إذ يذكر العينى وقوعه أسيراً فى أسر الجبلية عند خروجه بصحبة الجيش من الشام لملاقاة غازان، وباعوه للفرنج فلما وصل فبرص أظهر معرفته للطب، وكان صاحب قبرص آنذاك مريضاً فوعده أن داواه من مرضه ليعتقه ويبعثه إلى بلاد المسلمين، فتولى القاضى المذكور مداواته حتى برأ فلما شفى صاحب قبرص مرض القاضى حسام الدين أياماً ثم مات[٧].

---

(١) السخاوى: التبر المسبوك، ج٢، صـ ٥٢؛ نفسه : الضوء اللامع ، ج٥، صـ١٠٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، صـ٣١١.

(٣) مهذب الدين أبو سعيد أبى حليقة(ت:٦٧٩هـ/١٢٧٠م):" مولده فى القاهرة فى سنة عشرين وستمائة وسمى محمداً "(انظر ترجمته فى ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ج١، صـ ٥٩٨).

(٤) علم الدين ابراهيم (ت:٧٠٨هـ/١٣٠٩م):" هو الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن ابى الوحش رئيس الأطباء بالديار المصرية والبلاد الشامية، وكان بارعاً فى الطب محظوظاً عند الملوك، ونالته السعادة من ذلك، حتى انه لما مات خلف ثلاثمائة ألف دينار غير القماش والأثاث"(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، صـ ٢٢٩).

(٥) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ١٨٩؛ احمد احمد بدوى: المرجع السابق، صـ ٥٣.

(٦) القاضى حسام الدين أبو الفضائل(ت:٦٩٩هـ/١٣٠٠م):" هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان ولد فى ١٣ محرم٦٣١هـ/١٩ أكتوبر ١٢٣٣م بأقصرا، إحدى مدن الروم، وولى قضاء ملطية أكثر من عشرين سنة ثم نزح الى الشام سنة ٦٧٥هـ خوفاً من التتار، فأقام بدمشق توفى سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ....." (انظر ترجمته فى القرشى: الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية، دار مير محمد كتب خانه، كراتشى، د.ت، ج١، صـ ١٨٧)

(٧) العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٩٠.

ومن القضاة الذين برعوا فى مجال الطب حتى نالوا منزلة عظيمة عند بعض سلاطين المماليك بفضل نجاحهم فى علاج هؤلاء السلاطين قاضى الحنفية جلال الدين بن قطب الدين الملقب بجار الله(ت:٧٨٢هـ/١٣٨٠م) الذى كان بارعاً فى العلوم العقلية كالطب وغيره، ونال منزلة عظيمة عند السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين حين نجح فى علاجه من مرض أصابه فكافأه الأشرف بتوليته قضاء الحنفية سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م[١].

ومن القضاة الذين اشتهروا بمعرفتهم للطب والعلاج قاضى القضاة شهاب الدين أبو الخير أحمد بن عمر بن محمد الحموى الشافعى[٢] نزيل حلب وكان يحافظ على الجلوس بالمسجد لا يكاد يفارقه إلا لحاجته[٣].

رابعاً: رئيس الأطباء:-

وهو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى التطبب[٤] وكان رئيس الأطباء يتعين بمرسوم السلطان وكان يتولى النظر فى أمر طائفة الأطباء[٥].

وكانت إدارة البيمارستان أو المدرسة تسند فى الغالب الى رئيس الأطباء وهذا يقابل فى عصرنا الحاضر عميد كلية الطب أو رئيس الأطباء فى المستشفيات الكبرى، حيث كان يختار فى العادة من كبار الأطباء وأشهرهم سمعة وعلماً وكان يعاونه رؤساء لفروع الطب المتعددة [٦].

وأما كيفيه اختيار رئيس الأطباء فكان السلطان يقوم بتعيين رئيس الأطباء طبقاً لضوابط ذكرها القلقشندى بقوله "وصفه بالحذق فى الطب، والمهارة فيه وتقدمه على غيره

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ،ج١ ، صـ ٢٢٩؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٥٣.

(٢) قاضى القضاة شهاب الدين احمد الحموى(ت:٧٩١هـ/١٣٨٩م):" هو أحمد بن عمر بن محمد بن أبى الرضى شهاب الدين أبو الحسين الحموى الشافعى نزيل حلب تفقه ببلده على شرف الدين بن خطيب القلعة بدمشق على التاج السبكى وغيره ثم قدم حلب على قضاة العسكر ثم ولى قضائها استقلالاً ثلاث مرات توفى فى ذى القعدة سنة ٧٩١هـ/ نوفمبر ١٣٨٩م.... " (انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٢٦٨-٢١١؛ ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٢، صـ ٤٠٠- ٤٠٣؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج٢، صـ٣٤).

(٣) ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ٥٤٠.

(٤) أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، ط.٢، دار الرائد العربى، بيروت، ١٩٨١م، صـ ٢٤.

(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٩٢-٩٣.

(٦) ابراهيم محمد حمد المزينى: المرجع السابق، صـ ٣٦٦.

فى الفن، والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج، وما يجرى ذلك[١].

وكان يمثّل الأطباء والكحالين والمجبّرين أمير مجلس فى عهد الملك الظاهر بيبرس فى أوائل الدولة المماليك البحرية، وقد وصف أبوالمحاسن هذه الوظيفة بأنها أكبر قدراً من وظيفة أمير سلاح آنذاك[٢].

ويمكن القول أن اختيار رئيس الأطباء كان يقام على أساس الكفاءة والتفوق فى مجال الطب، وهو ما يحدده السلطان المملوكى من خلال اختبار يقيمه أو ما يسمى فى عصرنا الحاضر بـ "المقابلة الشخصية" التى يقوم السلطان من خلالها مقابلة الأطباء المرشحين لشغل منصب رئيس الأطباء فيقوم كل مرشح بتقديم إنجازاته والأجازات التى حصل عليها فى مجال الطب فيقوم السلطان باختيار أكثرهم تفوقاً وكفاءة فى مجال الطب وقد تسفر المقابلة على عدم اختيار أحد من المرشحين لهذا المنصب فى بعض الأحيان مثلما حدث حين استدعى السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى سنة٨٢٢هـ/١٤١٩م الأطباء وأوقفهم بين يديه لاختيار من بينهم من يوليه رئيساً للأطباء فى السلطنة المملوكية فتقدم سراج الدين عمر بن منصور البهادرى الحنفى[٣] وتقدم أيضاً لشغل هذا المنصب نظام الدين ابوبكر محمد بن عمر الهمذانى والذى أخذ فى عرض إنجازاته التى حققها فى مجال الطب والنجامة إلا أن البهادرى قد ظهر عليه بكثرة حفظه واستحضاره، إلا انه يعيبه انه لا يحسن العلاج حتى عرف عنه ما عالج مريضاً إلا مات، وانتهت هذه المقابلة أن صرفهم السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى دون اختيار أحد منهم لمنصب رئيس الأطباء.

---

(١) القلقشندى: المصدر السابق، ج١١، صـ ٨٩.

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ١٨٥؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١٣٦.

(٣) سراج الدين البهادرى(ت:٨٣٤هـ/١٤٣١م):" ولد سنة ٧٦٢هـ، وكان إماماً بارعاً فى الفقه والنحو واللغة انتهت إليه الرئاسة فى علم الطب، وتقدم على أقرانه فى ذلك لغزير حفظه، وكثرة استحضاره... توفى يوم السبت ١٢ شوال ٨٣٤هـ/٢٢يونيو ١٤٣١م)..."(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٢٣٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ٤٦٣).

مما يوضح لنا المثال السابق حرص السلاطين خلال العصر المملوكى على اختيار الكفء لهذا المنصب دون محاباة أو رشوة كالمناصب الأخرى فى الدولة، ولعل هذا الحرص للحفاظ على صحة أبدان رعاياهم فى كافة أقطار الدولة المملوكية[١].

وعلى صعيد آخر كما كان منصب رئيس الأطباء يحاط برعاية سلاطين العصر المملوكى الذين يتحرون فى اختيارهم من يشغله نبوغه وتفوقه فى مجال الطب فان هناك على ما يبدو بعض الحالات التى تشذ عن هذه القاعدة السابقة وذلك عن تولية ذلك المنصب ما لا يستحق وذلك لعدم توافر شروط إضلاعه فى صناعة الطب ومن هؤلاء الحكيم تقى الدين المسمى عبداللطيف بن أخى ابن العفيف الشهير "بقوالح"[٢] الذى استقر فى رئاسة الطب والكحل فى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٩م ولم يشهد له بالإلمام بصناعة الطب، كما كان حديث العهد بالإسلام[٣].

ومن الأطباء العصر المملوكى الذين تولوا منصب رئاسة الطب نذكر منهم جمال الدين عثمان أبى الحوافر[٤]ولى رئاسة الطب بالقاهرة مدة كما له مشاركة فى علم الحديث[٥].

الطبيب علم الدين إبراهيم المعروف بابن خليقة(ت:٧٠٨هـ/١٣٠٨م) وقد مهر فى علم الطب تولى رئيساً للطب فى الديار المصرية والشامية كما يعزى إليه سابقة أول من ركب شراب الورد بدمشق وكان ثرياً حتى بلغت تركته ثلاثمائة ألف دينار[٦].

علم الدين سليمان بن جنيبة (ت:٨٢٤هـ/١٤٢١م) ولى رئيساً للطب من الأطباء المشهورين الذين اشتهروا بحسن العلاج والشهرة فى علم الطب كان أبوه يهودياً بينما نشأ

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ٤٩٩.

(٢) الحكيم تقى الدين عبداللطيف بن عفيف(ت:٨٨٢هـ/١٤٧٧م):" هو عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن عفيف بن وهيبة بن يوحنا تقى الدين المالكى الأسلمى الحكيم بن أخى الشمس أبى البركات بن عفيف الذى وسطه الأشرف قبيل موته..."(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٤، صـ٣٢٩؛ ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ١٣٣).

(٣) السخاوى: التبر المسبوك، ج٢، صـ١٠٢.

(٤) الطبيب عثمان ابى الحوافر(ت:٧٠١هـ/١٣٠١م):" وهو الطبيب عثمان بن أحمد بن عقيل القيسى الشافعى، المعروف باب أبى الحوافر(انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٤، صـ ٤٥٤؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٣، صـ ٢١٤) .

(٥) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٤٤، صـ ٤٥٤ ؛ العينى: المصدر السابق، ج٤، صـ٢٠١.

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، صـ ٢٩٠- ٢٩١ .

سليمان مسلماً، مصدر رزقه صناعة الطب واشتهر أيضاً بحسن الخط(١)، والطبيب بدر الدين محمد بن أحمد بن بطيخ(ت:٨٤٨هـ/١٤٤٥م) اشتهر بتفوقه فى مجال الطب وقد ولى رئاسة الطب بالديار المصرية(٢).

الطبيب شمس الدين القوصونى(ت:٩١٧هـ/١٥١١م) كان ماهراً فى علم الطب تولى رئاسة الطب عوضاً عن ابن عفيف فى جمادى الأولى٨٨٢هـ/أغسطس ١٤٧٧م وقد أشاد ابن إياس بعلمه فى فن الطب وثرائه(٣).

وأشارت الشواهد التاريخية أن منصب رئيس الأطباء قد يتولاه أكثر من طبيب فى بعض الأحيان، ومن تلك الشواهد ما يتضح لنا من تولى الطبيب بديع بن نفيس التبريزى سنة ٧٨٢هـ/١٣٨١م مشاركاً فى ذلك مع علاء الدين ابن صغير(٤)، وكما حدث فى سنة ٨٠١هـ /١٣٩٩م حين تولى كلاً من الطبيب كمال الدين عبدالرحمن بن صغير والطبيب شمس الدين عبدالحق بن فيروز(٥) رئاسة الأطباء عوضاً عن فتح الله بن نفيس كاتب السر(٦).

خامساً: البيمارستانات:-

البيمارستان(بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت مارستان(٧).

ولقد بالغ سلاطين الدولة المملوكية الجركسية فى العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية كالمساجد والمدارس والبيمارستانات، وأرجع الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور هذه المبالغة

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٤٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ٢٣٥.

(٢) السخاوى: التبر المسبوك، ج١، صـ ٢٣٨؛ نفسه: الضوء اللامع، ج١، صـ٢٩٥.

(٣) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ١٣٤؛ ابن اياس: نفس المصدر، ج٤، صـ ٢١٨.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، صـ٣؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٥٦٢.

(٥) شمس الدين بن عبد الحق(ت:٨١٢هـ/١٤٠٩م):" هو الطبيب عبد الحق بن ابراهيم والد الجمال عبدالله ممن ولى رياسة الطب شريكاً لزوج أخته علم الدين سليمان بن رابخ المالكى فيما قال لى (أى السخاوى) ولده .... توفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م...(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع،ج٤، صـ٣٦) .

(٦) ابن حجر : إنباء الغمر، ج٢، صـ٤٢.

(٧) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، صـ ٤.

إلى استخدام هذه المؤسسات الخيرية كوسيلة للتكفير عن ذنوبهم "ومحو أثر ما قاموا به من أعمال تتصف بالقسوة ضد خصومهم ومنافسيهم"(١).

وأسست الدولة البيمارستانات لعلاج المرضى ورعايتهم بالمجان، وكان للمجانين دور لعلاجهم، ويرافقهم من يعنى بهم ويتجول بهم في الحدائق والبساتين حتى تطمئن نفوسهم(٢)، وكان فى كل مدينة كبيرة بيمارستان عام على الأقل، مجهّز بكل ما يلزم للمرضى من أدوات وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وعقاقير وقوارير(٣)، وتوافرت فى مستشفيات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الرفاهية التى كانت تتوافر فى قصورهم، من أسرة وثيرة ناعمة إلى حمامات كانت تتمتع بها الطبقة الحاكمة فى بيوتها، ومن المعلوم أن هذه المستشفيات على غناها ورفاهيتها، كانت تفتح أبوابها للفقراء ولكل أبناء الشعب بدون تمييز(٤).

ولم تكن البيمارستانات تسير اتفاقاً بغير نظام ولا ترتيب، بل كانت على نظام تام وترتيب محمود تسير أعمالها على وتيرة منتظمة(٥) وقد أنيطت إدارة هذه المستشفيات بعظماء القوم كما أشرفت الدولة عليها أيضاً، وكان المدير أميراً أو نبيلاً عريقاً يسوس هذه الإدارة سياسة حكيمة كريمة، وأما السلطان نفسه فكان يطلع باستمرار على مجريات الأمور فى المؤسسات الطبية، ويقوم من وقت إلى آخر بزيارتها وفحصها وسؤال المرضى فيها حتى يطمئن قلبه إلى حسن سير الأمور فيها(٦).

وتشير الشواهد التاريخية والآثار الباقية من العصر المملوكى بوجود عدد لا بأس به من البيمارستانات التى تسابق السلاطين ورجال الدولة على تشيدها أو ترميمها أو مدها بمستلزماتها الطبية التى تحتاج إليها من الأدوية والأطباء والأثاثات وغيرها على سبيل البر وفعل الخيرات كما أوقفوا عليها الأوقاف بسخاء لضمان استمرارية عمل الأطباء

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى، صـ ١٥٩.
(٢) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: المرجع السابق، صـ ١٦٠.
(٣) محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع السابق، صـ ٣١٨.
(٤) زيغريد هونكه: المرجع السابق، صـ ٢٢٩؛ محمد أحمد على: المرجع السابق، صـ ١٨٢.
(٥) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، صـ ١٨.
(٦) زيغريد هونكه: المرجع السابق، صـ ٢٣٢.

ومداواة الناس بتلك البيمارستانات حتى بعد رحيلهم، ومن أشهر تلك البيمارستانات.

(١)- (بيمارستان الصالحية[١](أو بيمارستان القيمرى[٢]) وقد أوقف ذلك البيمارستان الأمير الكبير سيف أبوالحسن القيمرى(ت:٦٥٤هـ/١٢٥٦)بدمشق بجوار جامع محيي الدين عربى[٣].

(٢)- (بيمارستانات مكة والمدينة المنورة):-

واعتاد السلاطين فى العصر المملوكى من إرسال الإمدادات الطبية إلى البيمارستانات فى الدولة المملوكية من حين للآخر، ومنها بيمارستان المدينة حين أرسل السلطان الظاهر بيبرس الطبيب محيي الدين أحمد بن أبى الحسين بن تمام فى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م إلى بيمارستان المدينة، مزوداً بكافة المستلزمات الطبية من أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وغيرها لتلبية احتياجات المرضى[٤].

كما ينسب إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس تجديد مارستان المدينة سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[٥]، وفى مكة نسب إلى السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى مارستاناً ورباطاً بمكة أمر ببنائهما فى سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م[٦].

(٣)(بيمارستانات صفد):

ومن الأمراء الذين اعتنوا بإنشاء البيمارستانات فترة نيابتهم، الأمير سيف الدين تنكز(ت:٧٤١هـ/١٣٤٠م) نائب الشام الذى ينسب إليه ضمن إنشاءاته المعمارية تعمير مارستاناً بصفد[٧]، وينسب إلى الأمير علاء الدين ألطنبغا الصالحى العلائى[٨] إنشاء

---

(١) الصالحية: "هى مدينة عظيمة (بدمشق) لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم (انظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ج١، صـ ٧٦).

(٢) مارستان القيمرى:" وهو المستشفى القيمرى فى الصالحية بجوار جامع محيي الدين عربى نسبة لمنشئه أبى الحسن القيمرى (ت:٦٥٤هـ/١٢٥٦م)" انظر محمد كرد على: المرجع السابق، ج٦، صـ ١٥٨، انظر ملحق رقم (٩).

(٣) العينى: المصدر السابق، ج١، صـ١٣٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ٣٩– ٤٠.

(٤) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، صـ ١٩٤؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣، صـ ١١٦.

(٥) العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ١٧٨.

(٦) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٦٣.

(٧) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ١٥٨؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ١٤٩.

(٨) الأمير ألطنبغا العلائى(ت:٧٤٢هـ/١٣٤١م):" هو الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد الله الصالح العلائى، نائب حلب توفى سنة ٧٤٢هـ، وقد جاوز خمسين سنة "(انظر ترجمته في ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٣، صـ ٥٣– ٥٦).

بيمارستاناً بصفد أيضا[١].

وكذلك الأمير سيف الدين أرقطاى[٢] الذى قام بالعديد من الإنشاءات العمرانية أثناء نيابته بصفد، ومنها مدرسة أرقطاى، وصحن الجامع البرانى، وأيضاً مارستانا فى سنة ٧٣٦هـ /١٣٣٦م الذى أولى أمره للاستداره بصفد[٣].

(٤)- (بيمارستانات غزة):

ويعزى إنشاء أحد بيمارستانات غزة إلى الأمير الكبير سنجر بن عبدالله(ت:٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) الذى يعد أول من ولى نيابة الشوبك، وينسب إليه بناء مارستاناً من بين إنشاءاته المعمارية التى قام بها أثناء ولايته على نيابة غزة التى ولاه عليها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١١هـ/١٣١١م[٤].

(٥) أما طرابلس:

فقد نسب للأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبى بكر الحلبى[٥] أحد أمراء الطبلخاناة بحلب إنشاء بيمارستاناً بطرابلس[٦] وقد أوقف عليه الأوقاف الجليلة[٧].

(٦) البيمارستان المؤيدى[٨]:-

أنشأه الملك المؤيد شيخ فى مدة أولها جمادى الآخرة سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وآخرها رجب سنة٨٢٣هـ/يوليو-أغسطس ١٤٢٠م، ونزل فيه المرضى فى نصف شعبان، وعملت مصاريفه من أوقاف الجامع المؤيدى المجاور لباب زويلة[٩] إلا انه بعد وفاة الملك المؤيد

---

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، صـ٣٢١.

(٢) الأمير سيف الدين أرقطاى(ت:٧٥٠هـ/١٣٤٩م):" هو الأمير سيف الدين أرقطاى بن عبدالله نائب حلب . توفى فى ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)" (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ٢٤٤) .

(٣) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٦٨٢؛ اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٢٨٧.

(٤) المقريزى: السلوك ،ج٣، صـ٤٢٢؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٤٢٨.

(٥) الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبى بكر(ت:٧٤٢هـ/١٣٤١م):" هو الأمير بدر الدين محمد بن الحاج ابى بكر أحد أمراء حلب "(انظر ترجمته فى ابى الفدا: المصدر السابق، ج٤، صـ ١٣٧؛ ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، ج٢، صـ ٣٢٢).

(٦) مارستان طرابلس انظر محمد كرد على: المرجع السابق، ج٦، صـ ١٦٢.

(٧) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، صـ ٢٣١ .

(٨) انظر ملحق رقم (٨).

(٩) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٧٠؛ عبد الرحمن زكى: المرجع السابق، صـ ٣٦؛

Doris Behhiens: cairo of the mamluks, the American Un iversity in cairo, cairo, 2007, p.245.

شيخ لم يعثر على كتاب وقفه له جهة تصرف فأخرجت منه المرضى وأغلق وتوقف البيمارستان عن العمل دون أن يقدم أى مساهمة تذكر عند تفشى الطاعون بمصر سنة٨٢٢-٨٢٣هـ/١٤١٩-١٤٢٠م(١)، فصار بعد ذلك منزلاً للرسل الواردين من ملوك الشرق وبقى حانة يشرب بها الخمر ويعمل بها الفواحش إلى أن أقامه السلطان الملك الأشرف برسباى جامعاً فى سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م تقام به صلاة الجمعة والجماعة(٢)ولم يتبقى الآن منه سوى واجهة المبنى الواسعة وبقايا من المبنى الفخم(٣).

(٧) بيمارستان أرغون(٤):-

وينسب هذا البيمارستان إلى الأمير أرغون الكاملى(ت:٧٥٨هـ/١٣٥٧م) وقد أنشأه ذلك الأمير بحلب أثناء نيابته بها، وقد أنشأه داخل باب قنسرين وقد أنفق عليه الأموال الجزيلة كما أوقف عليه الأوقاف الجليلة(٥).

كما شارك كبار أعيان الدولة من الوزراء فى إنشاء البيمارستانات خلال العصر المملوكى ومن هؤلاء وزير دمشق المحروسة الصاحب شمس الدين عبدالله بن الضيعة الملقب غريال المصرى فقد أنشأ جامعاً بدمشق وبيمارستاناً بالرحبة(٦).

ومن مظاهر اهتمام سلاطين العصر المملوكى بأحوال البيمارستانات أنهم أولوا عنايتهم بها فى سائر البلاد المصرية والشامية ومن مظاهر ذلك الاهتمام أنهم كانوا ينظرون باهتمام إلى الشكاوى التى يرفعها الناس عند تقصير أحد متوليها أو إذا رفعت إليهم الشكوى بخصوص أوقاف أحد البيمارستانات حيث يقوم باستدعاء متولى نظره للتحقق منه فى أمر تلك الشكاوى، ومن شواهد ذلك.

---

(1)Doris Behhiens: op.cit , p.245

(٢) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٥٧.

(3)Doris Behhiens: Ibid, p. 244.

(٤) انظر ملحق رقم(٧).

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ٦٢.

(٦) أنظر:

- رحبة دمشق: "وهى قرية من قرى دمشق" (انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٣،صـ٣٣؛ ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج٢، صـ٦٠٨؛ ابن شاهين: المصدر السابق، صـ ٤٤).
- ابن حبيب: تذكرة النبيه،ج٢، صـ٢١٩.

ما حدث سنة٧٣٧هـ/١٣٣٧م حين رفعت عدة شكاوى إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ناظر البيمارستان المنصورى الأمير علم الدين سنجر الجاولى[١] والتى منها انه رتب بالمارستان جماعة من الحكماء لم يكونوا من المستحقين، واستنابته بعض جنده فى المارستان، هذا بالإضافة إلى تضيقه فى أمر الأشربة والأدوية التى تصرف بالبيمارستان، والتضييق على مباشرى المارستان فأستدعى السلطان المذكور إلى الجاولى يعرّفه أمر الشكاوى التى رفعت ضده وأشار إليه إصلاح حال المارستان بما يحقق منفعة الناس وعدم التضييق على أرزاقهم وحقوقهم فى العلاج والأدوية، وأنكر عليه أفعاله بالمارستان قائلاً له:" المارستان كله صدقه"[٢] ولم يقبل له عذراً[٣].

كما استدعى السلطان الملك الظاهر جقمق فى سنة٨٥٥هـ/١٤٥٢م القاضى جمال الدين يوسف[٤] بن الباعونى إلى القاهرة بعد عزله عن قضاء دمشق، وذلك لتحقيق معه عن شكوى بعض أهالي دمشق عليه بسبب وقف البيمارستان الدمشقى[٥].

ويبدو أن البيمارستان خلال العصر المملوكى لم تكن مأوى للمرضى لعلاجهم مما لحق بهم من الأمراض فحسب، بل صارت فى بعض الأحيان مأوى للفقراء وملجأ لذوى الحاجة وهو ما يظهر لنا من خلال ما قام به **المعتقد يحيى الريغي المغربى المالكى**[٦]

---

(١)الأمير علم الدين سنجر الجاولى(ت:٧٤٥هـ/١٣٤٤م):" هو الأمير الكبير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولى الشافعى ولد سنة ٦٥٣هـ بآمد توفى فى رمضان ٧٤٥هـ ودفن بالخانقاة التى أنشأنها" (انظر ترجمته فى ابن شهبة: طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، ط.١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، صـ٢٤- ٢٥).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٢١٥.

(٣) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٣٥٥ .

(٤) هو جمال الدين يوسف(٨٠٥-٨٨٠هـ/١٤٠٣- ١٤٧٥م):" بن أحمد بن ناصر بن خليفة بن عبدالله بن يحيي بن عبدالرحمن بن قاضى القضاة شهاب الدين القدسي الأصل الناصرى..)(انظر ترجمته فى البصراوى: تاريخ البصراوى، تحقيق: أكرم حسن العلبى، ط.١، دار المأمون للنشر، دمشق، ١٩٨٨م، صـ ٧٣؛ الزركلى: المصدر السابق، ج٨، صـ ٢١٥؛ السيوطى: نظم العقيان، ج١، صـ ١٧٨).

(٥) أبوالمحاسن: حوادث الدهور، ج٢، صـ ٣٤٣.

(٦) المعتقد يحيي الريغى المالكى (ت:٨٢٧هـ/١٣٢٦م) :"هو عيسى بن يحيى بن عبد الله الحورانى القاهرى، مات فى سلخ المحرم أو مستهل صفر سنة ٧٢٧هـ وهو عشر الستين ودفن بالمعلاة رحمه الله تعالى.."(انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج٦، صـ ١٥٨) .

أحد نزلاء مكة، وكان كثير السعى فى مصالح الفقراء حتى قام بجمعهم من الطرقات إلى البيمارستان المستنصرى[١] بالجانب الشامى من المسجد الحرام[٢].

- **ترميم البيمارستانات والإضافة إليها:-**

وعلى صعيد آخر لم يقتصر اهتمام السلاطين ورجال الدولة بالبيمارستانات خلال العصر المملوكى على إنشائها وإقامة أوقافها فحسب بل كانوا من حين إلى آخر يتحققون من مدى صلاحية مبانيها ويقومون بترميم ما يحتاج منها إلى ذلك من أبنيتها كما يقومون بإضافة ملحقات أخرى بأبنيتها القديمة، وهناك العديد من الشواهد التى تشير إلى تلك الترميمات والإنشاءات الجديدة التى تلحق بالبيمارستانات ومنها ما فعله الأمير أرغون العلائى (ت:٧٤٨هـ/١٣٤٨م) لما ولى نظر البيمارستان المنصورى سنة٧٤٨هـ/١٣٤٨م بإنشاء كتاب السبيل[٣] على باب المارستان المذكور[٤].

ومن الإضافات التى أضيفت إلى البيمارستانات خلال العصر المملوكى ما زاده ناظر بيمارستان النورى القاضى شمس الدين البهنسى بالبيمارستان المذكور بإنشاء القاعة الشمالية القريبة من المارستان والتى اكتمل بنائها سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م[٥].

وقد بلغ من اهتمام سلاطين العصر المملوكى براحة المرضى بالبيمارستانات أنهم استخدموا الموسيقى كوسيلة ترفيه للمرضى فى البيمارستانات، بل وقد وصل الأمر أن اشترط السلطان المنصور قلاوون فى وقف البيمارستان المنصورى انه فى كل ليلة يحضر من أرباب الآلات أربعة، يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء، وأجرى عليهم الجوامك فى كل شهر"[٦].

---

(١) البيمارستان المستنصرى:" هو الذى بناه الخليفة العباسى المنتصر بالله(٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦- ١٢٤٢م) بالجانب الشمالى من المسجد الحرام ... وقد وقفه على مرضى المسلمين عامة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م) انظر على السيد على محمود: المرجع السابق، صـ ١٣٤- ١٣٥.

(٢) ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٢٦١-٢٦٢.

(٣) السبيل: " كلمة سبيل مجازاً بمعنى ما يؤسس أو ينذر فى سبيل الله لسائر الناس، والسبيل كل هبة أو عطية تقدم فى سبيل الله للحصول على رضا الله مثل التضحية بالنفس والمال والجهاد وحفر الآبار فى الطرق التى لا ماء فيها وبناء الخانات لنزول المسافرين فى المناطق الخالية من السكان ..."(انظر دوزى: المرجع السابق، ج٦، صـ٣٠).

(٤) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ٥١٣.

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٥٤٢.

(٦) ابن لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ١٦٠- ١٦١.

ولقد قام سلاطين العصر المملوكى فى بعض الأحيان بالتفويض لمتولى القضاء بالنظر فى جميع الأوقاف، منها البيمارستانات كما فعل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م حيث قام بتفويض البيمارستان للقاضى شمس الدين أحمد بن خلكان[١] البرمكى حيث ولاه القضاة من العريش إلى سلمية[٢].

وقد يباشر ناظر البيمارستان فى العصر المملوكى بجانب البيمارستان مباشرة أكثر من مؤسسة فى الحكومة المملوكية والذى يظهر حين فوض السلطان الملك المنصور قلاوون لناصر الدين بن المقدسى سنة٦٨٧هـ/١٢٨٨م فى دمشق بجانب مباشرة البيمارستانات الثلاثة أكثر من مؤسسة أخرى كنظارة الأوقاف، ونظر الجامع الأموي، ونظر الأشراف والأسرى والى غير ذلك[٣].

- **البيمارستانات المتنقلة[٤]:-**

وهناك مستشفيات عسكرية تنتقل مع الجيش فى مسيرته على الجمال والخيول والبغال، ويقدم الأطباء العلاج للمرضى من المصابين من الجند[٥].

وحرص السلاطين فى العصر المملوكى من إقامة بيمارستاناً مصغراً متنقلاً يشمل الأطباء والجراحين والأدوية وذلك لإسعاف المسلمين من الجرحى والمرض أثناء العمليات العسكرية، كما حرص بيبرس على أن يقيم مستشفى حربياً متنقلاً لإسعاف جرحى المسلمين وعلاجهم– أثناء حروبه ضد الصليبيين فى بلاد الشام– فنصب خيمة كبيرة جعل فيها الأطباء والجراحين والأدوية، وصار ينقل إليها كل من يجرح من المسلمين[٦].

---

(١) النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٤٩.

(٢) النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٤٩؛ ابن طولون: المصدر السابق، صـ١٩٢.

(٣) النويرى : المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٥٨.

(٤) هو الذى ينقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب، وهو المعبر فى العصر الحاضر بكلمات Ambulance بالفرنسية وFeldlazareth بالألمانية وAmbulance بالانجليزية و Ambulanza بالإيطالية وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم المرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التى يظهر فيها وباء أو مرض معدٍ وقد كان السلطان يصطحب معه فى سفره إلى سرياقوس مارستاناً متنقلاً..." انظر عبدالله كامل موسى: المرجع السابق، صـ ١٦٤.

(٥) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: المرجع السابق، صـ ٣٦٧.

(٦) سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ٧٠.

أما المواد والمعدات الطبية فكان لها أهمية خاصة" أدوية الجراحات" اللازمة لعلاج المقاتلين من الإصابات التى تحدث أثناء القتال وتحتاج إلى العلاج السريع ولذا فى كل سفينة طبيب وجراح فضلاً عن بعض الممرضين لخدمة المرضى، وتوفير الإسعافات الأولية لهم كي يتمكنوا من مواصلة الجهاد ضد الأعداء(١).

- **منابع أوقافها:-**

وثمة منبع آخر من منابع أوقاف البيمارستان ويعتمد على صدقات السلاطين والأمراء بعد عافيتهم من الأمراض من ذلك ما فعله كريم الدين الكبير(ت:٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م) حين تصدق" بقمصان بالبيمارستان من وقفه"، فمات من الفقراء ثلاثة عشر إنساناً من فرط الازدحام قبل وصوله إلى البيمارستان سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م(٢).

وعلى صعيد آخر يمكن القول أن البيمارستان لم تكن بمنأى عن المصادرة وجباية أموال أوقافها كغيرها من مؤسسات الدولة خلال العصر المملوكى إذ تشير الشواهد التاريخية أحياناً إلى قيام بعض سلاطين المماليك بإرسال من يقوم بجباية الأملاك الذين لا يتضرعوا من جباية أوقاف البيمارستانات ضمن تلك الأملاك مثلما حدث حين أرسل السلطان الملك الأشرف قايتباى فى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م بالأمير آخور قرقماس(٣) ولم يستثنى منها البيمارستانات حتى أخذ من أوقاف البيمارستان الدمشقى خمسة أشهر، وكانت جباية تلك الأملاك قد أقدم عليها السلطان حتى يستطيع إنفاقها على العسكر أثناء فتنة ابن عثمان(٤).

---

(١) علاء طه رزق: المرجع السابق، صـ ١٥٤.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٠؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٥٤.

(٣) جباية قرقماس الخاصكي: "وفى ١٠جمادى الآخرة ٨٩٥هـ/٣٠ ابريل ١٤٩٠م استغاث أهل دمشق عقب صلاة الجمعة من زيادة ظلم الخاصكى المقيم بدمشق الآن يسمى قرقماس جاء فى أشغال متعلقة بالسلطنة وطلب هو الشيخ فرج وقال له أنت الذى جمعت الناس فضربه ضرباً مبرحاً خامس عشره اجتمع المشايخ والفقراء بالجامع الأموي (وفى ١٥ رجب/٤ يوليو) وصل جواب قضية الخاصكى ان يحضر الشيخ فرج وستة أنفس من أهل القبيبات ويسألوا عن سبب قيامهم على الخاصكي...."(انظر البصراوى: المصدر السابق، صـ١٤١) .

(٤) ابن اياس: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٨٠.

(٨)- البيمارستان المنصورى[١]:-

أولا: التعريف بالبيمارستان المنصورى:–

وأشاد أبوالمحاسن فى كتابه مورد اللطافة بالبيمارستان المنصورى وجعله من أعظم محاسن الملك المنصور قلاوون حيث يقول: "فإننا لا نعلم فى الاسلام وقفاً على وجه بر أعظم منه، ولا أكثر مصروفاً، ولا أحسن شرطاً"[٢].

وأوقف السلطان قلاوون(٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحرّ والعبد ذكراً كان أو أنثى[٣]، كما رتب فيه الفراشين والأطباء والعقاقير بأنواعها وكل ما يحتاج إليه المرضى فى مختلف الأمراض، كما قسم هذا البيمارستان إلى أربعة أواوين، كما أفرد قاعات لمختلف التخصصات، " قاعة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال وقاعة للنساء"[٤] كما اهتم سلاطين المماليك بمرضى الأمراض النفسية والعقلية حيث كان لهم فى البيمارستان المنصورى قسماً خاصاً لهؤلاء المرضى، حيث بلغ من اهتمام السلطان قلاوون ان وكل من يقوم بخدمة أصحاب الأمراض العقلية[٥].

ثانياً (الموقع الجغرافي):–

واختار السلطان الملك المنصور قلاوون الدار القطبية[٦] بخط بين القصرين من القاهرة لبناء بيمارستانه فاشترها من ماله الخاص وعوض سكانها عنها بقصر الزمرد برحبة باب العيد فى ١٨ربيع الأول٦٨٢هـ/١٥يونيو١٢٨٣م وكلف الأمير علم الدين

---

(١) انظر ملحق رقم (٦).

(٢) أبوالمحاسن: مورد اللطافة، ج٢، صـ ٣٩.

(3)Linda s.northrup: Qalawan's Patronage of the Medical Sciences in Thirteenth-Century Egypt , university of chiago, 2001, p. 124

(٤) المقريزى: الخطط، ج٤،صـ ٢٦٩؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٠٧؛ سعاد حسن على: المرجع السابق، صـ ٥٦؛ عصام الدين عبد الرءوف: المرجع السابق، صـ ٣٧١.

(٥) انظر وثيقة وقف البيمارستان المنصورى، ورقة ١-٤، ملاحق ابن حبيب، ملحق رقم (٤).

(٦) الدار القطبية: " فقام الملك قلاوون بالاستيلاء على قصر تملكه مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل وكانت الدار تسمى "الدار القطبية" وعوضها عنها بقصر الزمرد برحبة باب العيد وبنى حولها بيمارستاناً وقبة ومدرسة فى عشرة أشهر " انظر العينى: المصدر السابق، ج٣، صـ ٢٥٧- ٢٥٨ .

سنجر الشجاعى[١] في عمارتها مارستاناً وقبة ومدرسة كما جرت عادة سلاطين المماليك من إلحاق البيمارستانات بالقباب والمدارس[٢] وتم الانتهاء من عمارة البيمارستان المنصورى الكبير سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٣].

وكان البيمارستان مكوناً من أربعة أيوانات بكل واحد منها شاذوران(خزان) وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء من شاذوران وكان اتساع البيمارستان١٠٦٠٠ذراع[٤]، ويقع هذا البيمارستان فى شارع بين القصرين، ولم يبق منه الآن غير جزئين من القاعتين الشرقية والغربية، وجانب كبير من القاعة القبلية ويشغل مساحة كبيرة منه فى الوقت الحالي مستشفى قلاوون[٥].

ثالثاً: سبب إنشائه:-

كان هذا البيمارستان هو السبب فى بناء المجموعة كلها-المدرسة والقبة والبيمارستان وقد قيل فى سبب بنائه تفسيرين أولهما[٦]: رواية تشير أن الملك المنصور قلاوون مرض ذات مرة فى إحدى غزواته بالشام، فعولج بأدوية ومستحضرات من بيمارستان نور الدين بدمشق فنذر أن ينشأ مارستاناً فى مصر كمارستان نور الدين، لعلاج المرضى من جميع الأديان والأجناس فلما آل إليه عرش مصر وفىّ بنذره، وأنشأ هذا البيمارستان[٧].

وهناك رواية أخرى تذكر سبب إقدام السلطان الملك المنصور قلاوون من بناء البيمارستان المنصورى، انه توهم مرة أن العامة خالفت أمره، فأطلق فيهم مماليكه، فأثخنوا

(١) الأمير علم الدين سنجر الشجاعى(ت:٦٩٣هـ/١٢٩٤م):" هو الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الشجاعى المنصورى، وزير الديار المصرية، ومشد دواوينها، ثم نائب سلطنة دمشق وقتل فى ٢٤ من صفر ٦٩٣هـ/٢٣ يناير ١٢٩٤م).. " (انظر ترجمته فى الذهبى: تاريخ الاسلام، ج٥٢، صـ ١٨٤).

(٢) بيبرس الدوادارى: زبدة الفكرة، صـ ٢٣٦- ٢٣٧؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣٠٨؛ Linda s.northrup: Ibid, p.122.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، صـ ٢٤٨؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ٣٢٦.

(٤) سمير يحيي الجمال: المرجع السابق، ج٣، صـ٢٠١.

(٥) حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، صـ٢٧٨؛ عطية القوصى: المرجع السابق، صـ ٧٧.

(٦) محمد حمزة إسماعيل: المرجع السابق، صـ ١٢١.

(٧) حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، صـ ٢٧٨.

فيهم وقتلوا وجرحوا ما شاءوا ثلاثة أيام ثم كف عنهم بشفاعة بعض العلماء وعاد فندم وقدم هذا المارستان قرباناً لله وتكفيراً عن ذنبه[١].

وخصص بالبيمارستان المنصورى فنجد انه خصص به مكاناً – بمثابة قسم الصيدلة فى أيامنا هذه – لتركيب المعاجين والأكحال وكذلك تفرق فيه الأشربة والأدوية كما نلاحظ أيضاً أن البيمارستان المنصورى لم يقتصر على علاج المرضى فى مختلف الأمراض فحسب، بل خصص به مكانا–بمثابة كلية الطب فى عصرنا الحاضر– يلقى به رئيس الأطباء دروس الطب[٢].

وفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م شرع السلطان المنصور قلاوون فى بناء البيمارستان بالقاهرة[٣] وحظيت البيمارستانات فى عصر سلاطين المماليك بالاهتمام من خلال متابعة أحوالها ومبانيها ومن جملة هذا الاهتمام شروع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٦هـ /١٣٢٦م فى إصلاح البيمارستان المنصورى والقبة والمدرسة، فرسم الأمير جمال آقش الأشرفى[٤]– ناظر الأوقاف بإخلاء البيمارستان من مقيميه من المرضى والأطباء وغيرهم، ولم يبق بالبيمارستان إلا الممررون وبعض المرضى، وشمل هذا الإصلاح إصلاح العمارة وجُدد البياض والأدهان، وبعد الانتهاء من أعمال الإصلاح رسم بإنزال المرضى بالبيمارستان سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، وبلغت نفقة تلك الإصلاحات ما يقارب ستين ألف دينار[٥].

(١)محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، مكتبة الآداب، ١٩٥١م، مج٣، صـ ٤٤.

(٢) المقريزى: الخطط، ج٤، صـ ٢٦٩؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٠٧– ١٠٨؛ سعيد عبدالفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ٩٢؛ محمد حمزة اسماعيل: المرجع السابق، صـ ٥٥– ٥٦.

(٣) بيبرس الدوادارى: زبدة الفكرة، تحقيق: دونالدس.ريتشارد، صـ٢٣٦، ٢٣٧؛المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ١٧٥؛ العينى: المصدر السابق، ج٢، صـ ٣٠٧؛ النويرى: المصدر السابق، ج٣١، صـ ١٠٥.

(٤) جمال الدين آقش الأشرفى(٧٣٦هـ/١٣٣٦م): " آقش الأشرفى جمال الدين البرناق المعروف بنائب الكرك كان من مماليك المنصور وولى عن الاشرف نيابة الكرك نحو العشرين سنة ثم ولى نيابة دمشق فى سنة ٧١١هـ/١٣١١م ... " (انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٩، صـ ١٩٥– ١٩٦).

(٥) النويرى: المصدر السابق، ج٣٣، صـ ٢٠٢، ٢٠٣.

وجرت العادة خلال العصر المملوكى نزول سلاطين المماليك من وقت للآخر لمتابعة ومراقبة سير العمل بالبيمارستان المنصورى ودرجة رعاية المرضى، ومن تلك الشواهد التاريخية التى تشير إلى ذلك نزول السلطان الملك برقوق الجركسى بالبيمارستان المذكور لمتابعة أحواله وأحوال المرضى وعمارته سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م ثم ركب منه إلى القلعة(١).

وكذلك نزول السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى فى سنة٨٢١هـ/١٤١٨م بصحبة ولده إبراهيم إلى البيمارستان وقد نزل بثياب جلوسه لتفقد أحوال المرضى ومدى كفاءة تقديم الخدمات الطبية لهم ثم عاد إلى القلعة(٢).

ومن تلك الزيارات أيضاً التي قام بها سلاطين المماليك لمتابعة أحوال البيمارستان المنصوري قيام السلطان الملك الأشرف برسباى فى سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م بزيارة البيمارستان المذكور، لعيادة المرضى بالبيمارستان وتفقد أحوالهم ثم عاد إلى القلعة(٣).

وتبين أن البيمارستان المنصورى بجانب كونه منزلاً للمرضى والعلاج قد صار أحد أماكن إنزال العقوبات على المذنبين والخارجين عن الطاعة وذلك من خلال تسمير المذنب من هؤلاء على باب البيمارستان المنصورى بالقاهرة بالمسامير الجافية كما فعل فى سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م بوالي قوص عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامى حين اتهم بقتل الملك المنصور أبى بكر بن الناصر فكانت عقوبته أن أمر السلطان الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بإخراجه من السجن وتسميره على باب البيمارستان المنصورى بالقاهرة فسمر على الباب المذكور بمسامير جافية شنيعة وطيف به مدة ستة أيام وشنق على قنطرة السد ظاهر مدينة القاهرة(٤).

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٧٧؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٢٣٥.
(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٤٦٧.
(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ١٧٨.
(٤) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٣٦٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ٦٢.

رابعاً :أوقاف البيمارستان المنصورى والإيرادات:-

ومن مظاهر حرص سلاطين المماليك للمحافظة على أوقاف البيمارستان المنصورى وحين بلغ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم السبت الموافق ١٥ جمادى الأولى٧٢١هـ/١٢يونيو١٣٢١م اندلاع النيران فى ربع من أوقاف البيمارستان المنصورى بخط الشوابين من القاهرة نزل من القلعة على الفور لمتابعة تطورات الحريق وبعث عدة من المماليك والأمراء لإطفائه خوفاً من انتشارها وعندما خرج الأمر عن السيطرة جمع سائر السقائين والأمراء والحجاب وغيرهم حتى عظم شرر النيران وصارت تسقط فى مواضع عديدة فصعد السلطان إلى أعلى القصر فهاله المشهد حتى خرج سائر أهل القاهرة ونقلت المياه من المدارس والحمامات حتى ظلت إلى يوم الثلاثاء وتابع السلطان الموقف حتى خمدت النيران وعاد الأمراء(١).

ويبدو أن حاصل البيمارستان المنصورى قد استخدم فى فترة من فترات العصر المملوكى كحل للأزمات المالية التى يتعرض لها السلاطين خلال العصر المملوكى فيشير عليهم أعيان الدولة بالأخذ من حاصل البيمارستان المذكور والاقتراض من التجار لحل الضيقة المالية التى تعرضوا لها كما حدث للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين اشترى فى سنة٧١١هـ/١٣١١م جواهر من الفرنج بلغ مقدارها ستة عشر ألف دينار فأحالهم إلى كريم الدين(ت:٧٢٤هـ/١٣٢٤م) الذى ضاقت نفسه لعدم توافر المبلغ لديه مع اشتراط الفرنج الحصول على هذا المبلغ خلال ثلاثة أيام الأمر الذى دفع الأمير علاء الدين بن هلال(٢) وغيره من أعيان الدولة أن يشروا عليه بحل أزمته المالية بأخذ حاصل البيمارستان المنصورى والاقتراض من تجار الكارم(*)(٣).

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٤٠؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ ٦٣- ٦٤.

(٢) الأمير علاء الدين بن هلال(ت:٧٣٩هـ/١٣٣٩م):" هو على بن هلال الدولة الشيرازى ولد بشيزر ثم قدم مصر وباشر شدّ العمارة وخدم عند أحمد بن عبادة فى نظر الخاص والأوقاف وندبه السلطان الناصر لعمارة المسجد الحرام فى شوال سنة ٧٢٧هـ توفى سنة٧٣٩هـ/١٣٣٩م.."(انظر ترجمته فى ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، صـ ١٦١).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٦٩- ٤٧٠؛(*) الكارم: العنبر الأصفر، وكان لتجاره فندق خاص بهم فى الفسطاط ويقال له أيضاً الكانم، واستقل لتجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن، وكان لهذه التجارة شأن عظيم..." انظر محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، صـ ١٢٨.

ومن الأزمات التى يتجه فيها سلاطين العصر المملوكى إلى أوقاف البيمارستان المذكور هي محاولة التخلص من الضائقة المالية التى تحل بهم لصرف رواتب الأجناد ولاسيما المماليك الجلبان عند عجز الموازنة كما حدث حين اجتمع الأمراء فى مشورة السلطان الأشرف قانصوه الغورى فى محرم٩٠٧هـ/يوليو١٥٠١م حول نفقة المماليك الجلبان فوقع الاتفاق على أن يؤخذ من الأوقاف ربعها سنة كاملة. وكذا من أجرة أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات، ولم يسلم بالتالي البيمارستان المنصورى والأخذ من أوقافه من ذلك القرار[١].

وحفاظاً على البنية التحتية للبيمارستان المنصورى نلاحظ تدخل سلاطين المماليك من حين للآخر فى سياسة ناظر البيمارستان المذكور إذا رأى السلطان المنفعة من ذلك التدخل لصالح البيمارستان وأوقافه، من ذلك حين عرض الوزير النشو سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م صفقة حديد قومه بخمسين ألف درهم على المارستان المنصورى فأبى الأمير سنجر متولى نظر البيمارستان المذكور أن يأخذه مما حدا بالنشو مناشدة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون التدخل فى هذا الشأن واستحسن إليه ذلك فألزم السلطان الأمير سنجر الجاولى قبول تلك الصفقة وأخذه لوقف المارستان فأخذه ووزن ثمنه[٢].

ومن أوقاف البيمارستان المنصورى خلال العصر المملوكى انه كان يبتاع من حواصله أوقافاً جديدة للصرف عليه وكان يبعث بحاصله إلى ناظر الخاص كما حدث حين طلب النشو(ت:٧٤٠هـ/١٣٤٠م) حاصل البيمارستان المنصورى من ناظره الأمير سنجر الجاولى الذى قام فى ذلك حتى ابتيع للوقف من أراضى بهتيت من الضواحى مائتان وخمسون فداناً وأربعمائة ألف درهم وحملت الى النشو لهذا الوقف[٣].

ويبدو أن البيمارستان المنصورى قد استخدمه بعض سلاطين العصر المملوكى كمنبع لصرف الرواتب لبعض الشخصيات البارزة فى بعض الأحيان، كما رتب السلطان الملك الظاهر برقوق للشيخ شمس الدين محمد إبراهيم بن يعقوب شيخ الوضوء الشافعى[٤]

(١) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ ٤٦٩– ٤٧٠.

(٢) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٣٧٢؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٢٢٠.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٢٥٦.

(٤) الشيخ شمس الدين محمد إبراهيم بن يعقوب شيخ الوضوء الشافعى(ت:٧٩٠هـ/١٣٨٨م):-" هو شمس الدين محمد بن ابراهيم بن يعقوب شيخ الوضوء الشافعى مات فى ١٧ شعبان ٧٩٠هـ ، مات فى ٧٩٠هـ/الموافق ١٣٨٨م) وقد جاوز السبعين....."(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١، صـ ٣٦٠).

راتباً على البيمارستان المنصوري[١].

أما عن شروط واقف البيمارستان المنصورى فى متولى ناظر نيابته أن يكون "عارفاً بالحساب وأمور الكتابة" إلا أن هناك حالات تسردها المصادر يُغفل فيها على ما يبدو هذا الشرط ويتولاه من ليس له دراية بشرط الوقف ومن تلك الحالات التى أشارت إليها المصادر ابن الاطروش(ت:٧٥٨هـ/١٣٥٧م) الذى قام فى أمر عزله عن البيمارستان المنصورى الضياء يوسف الشامى سنة٧٥٢هـ/١٣٥١م، وذلك لعدم توافر شرط الوقف على ابن الاطروش الذى اعترف بعد معرفته للكتابة والحساب حين استدعى الضياء يوسف المذكور النائب بيبغا ططر لإطلاعه على أوقاف البيمارستان فنزل البيمارستان واستدعى بدوره القضاة وأرباب الوظائف به للبت فى أمر الوقف ومدى توافره فى متوليه ابن الاطروش الى أن انتهى الأمر باعتراف المذكور بعدم معرفته للكتابة والحساب التى نص عليها الوقف وأشهد على نفسه بعدم العودة لتولى نيابة البيمارستان وأشهد على ذلك قضاة القضاة ونوابهم، وتولى عوضه الضياء يوسف الشامى حسبة القاهرة[٢] ونظر البيمارستان معاً فى ١٤ محرم ٧٥٢هـ /١٣مارس١٣٥١م[٣].

إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً للضياء يوسف فى نظر البيمارستان المنصورى إذ سرعان ما تمكن علاء ابن الاطروش العودة مرة أخرى الى تولى نظر البيمارستان المذكور فى رمضان٧٥٢هـ/نوفمبر١٣٥١م بسعيه عند جماعة من الأمراء فأعيد الى حسبة القاهرة ونظر البيمارستان عوضاً عن الضياء يوسف[٤].

كما جرت العادة لدى القائمين على نيابة البيمارستان المنصورى الاهتمام بتجديد بل وإعادة بناء المنشآت التابعة لوقف البيمارستان وذلك حفاظاً على موارد البيمارستان من التلف والإهدار كما هو الحال حين أعيد بناء حوانيت الصيارف، وسوق الكتب وغيرها

---

(١) ابن العماد: المصدر السابق، ج٨، صـ ٥٣٨.

(٢) حسبة القاهرة: " وكانت حسبة القاهرة تضم أحيانا الى أعمال والى القاهرة، كما تسند حسبة الفسطاط أيضاً إلى واليها، كما كان يحدث أحيانا أن يساعد الوالى المحتسب على تسهيل مهماته، ثم ينفرد المحتسب بتنفيذ هذه المهمات......" انظر سهام مصطفى أبو زيد: المرجع السابق، صـ ٩٠.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ١٣٣-١٣٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ١٤٧.

فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية وهى جارية فى وقف البيمارستان المنصورى لتجد يد عمارتها فى عهد السلطان الملك الأشرف برسباى فى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م[١].

ويمكن القول خلال العصر المملوكى كان يتوجه من ينعم عليه بنيابة نظر البيمارستان المنصورى إليه فى موكب حافل عقب توليه نظر البيمارستان المذكور كما حدث حين قرر الأتابك تمراز فى نظر البيمارستان المذكور فى سنة٩٠١هـ/١٤٩٥م فتوجه إلى هناك فى موكب حافل[٢].

وكما حدث حين خلع السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى على الأتابكى قرقماس من ولى الدين بنظر البيمارستان فى سنة٩١٠هـ/١٥٠٥م فتوجه قرقماس المذكور الى البيمارستان فى موكب حافل[٣].

خامساً: أشهر نظار البيمارستان المنصورى وأهم إصلاحاتهم به:-

كان للبيمارستان ناظر ينظر أو يشرف على إدارته وكان النظر عليه معدوداً من الوظائف الديوانية العظيمة[٤] ونظره مرتبة سنية يتولاها الوزراء ومن فى معناهم[٥] وسنأتي هنا بذكر بعض الذين تولوا النظر على البيمارستان فى عصور مختلفة من حياته، لبيان ما كان عليه البيمارستان من المكانة العظمة[٦] والملاحظ من خلال الشواهد التاريخية التى تسردها لنا المصادر أن نيابة البيمارستان لم تقتصر فى توليها على فئة بعينها من فئات المجتمع آنذاك حيث تشير الشواهد تولى نظر البيمارستان المذكور بعض الصوفية والقضاة والفقهاء والأمراء والاتابكة وفيما يلى أشهر من تولى نظر البيمارستان المنصورى من تلك الفئات وأهم إصلاحاتهم وأعمالهم المعمارية به:-

(١) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ١٩٣.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٣١٧.
(٣) نفس المصدر، ج٤، صـ٧٥.
(٤) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، صـ ٢٢.
(٥) أحمد عيسى بك: نفس المرجع، صـ ٩٠.
(٦) أحمد عيسى بك: نفس المرجع، صـ ١٢٥.

(١)**الصوفية:-** ومن أشهر هؤلاء الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الصوفي[١] الذى تولى البيمارستان المنصورى فى عهد السلطان الملك الظاهر برقوق الذى رعى له قيامه معه لما عاد الى السلطنة فولاه نظر البيمارستان المذكور مكافأة له على ذلك[٢].

(٢) القضاة:-

ومن الملاحظ أن من جملة من تولوا نظر المارستان المنصورى كان من طبقة القضاة من تولى نيابة نظر البيمارستان، ومن أمثلة هؤلاء القضاة، القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن عبادة(ت:٧١٠هـ/١٣١٠م) الذى تولى نظر البيمارستان المنصورى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م[٣].

القاضى فخر الدين عثمان التركمانى الحنفى[٤] من جملة القضاة الذى تولوا نظر البيمارستان والذى توفى وهو لا يزال على نيابة نظر البيمارستان المنصورى[٥].

القاضى ضياء الدين الشهير بابن الخطيب بيت الآبار الدمشقى[٦] من القضاة الذين اتصفوا بالأمانة والكفاية الذين يلجأ إليهم السلاطين لحل الأزمات المالية التى يتعرضون إليها فقد لجأ إليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م حين ارتفعت الأسعار وتعرضت البلاد والعباد للضيقة المالية وغلو الأسعار فاستدعى السلطان القاضى المذكور ناظر الأوقاف والمارستان المنصورى آنذاك وكان قد اشتهر بأمانته وكفايته ففوض السلطان الملك الناصر محمد إليه نظر الحسبة وأخلع عليه بها

---

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الصوفي(ت:٨٣٢هـ/١٤٢٨م):" هو الشيخ شمس الدين الصوفى محمد بن إبراهيم بن أحمد، ولد سنة تسع وأربعين وسبعمائة واشتغل بالعلم توفى فى يوم الثلاثاء١٣ من المحرم ٨٣٢هـ/٢٢ أكتوبر ١٤٢٨م) "(انظر ترجمته: ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٤٢٨؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١٥٤).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ١٩٨.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٢، صـ٤١٦ .

(٤) القاضى فخر الدين عثمان التركمانى الحنفى(٦٥٠- ٧٣١هـ/١٢٥٢- ١٣٣١م):" هو العلامة قاضى القضاة فخر الدين أبو عمرو عثمان بن ابراهيم بن مصطفى بن سليمان الماردينى الحنفى الشهير بالتركماني .. توفى فى يوم السبت١١رجب ٧٣١هـ/١٩ ابريل١٣٣١م)..."(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٧، صـ٤١٢- ٤١٣؛ ابن قطلوبغا: المصدر السابق، ج١، صـ ٢٠٣- ٢٠٤).

(٥) المقريزى: المصدر السابق، ج٣، صـ١٥٠.

(٦) القاضى ضياء الدين ابن الخطيب بيت الآبار الدمشقى(ت:٧٦١هـ/١٣٦٠م):" هو القاضى ضياء الدين أبوالمحاسن يوسف بن أبى بكر بن محمد الشهير بابن الخطيب بيت الآبار الدمشقى مات بالقاهرة عن نيف وسبعين سنة."(انظر ترجمته فى الصفدى: الوافى بالوفيات، ج٢٩، صـ ٦٩-٧٢؛ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة،ج١٠،صـ ٣٣٧).

فى٣جمادى الآخرة ٧٣٦هـ/ ١٨يناير ١٣٣٦م مما يظهر لنا انه بإمكانية ناظر البيمارستان المنصورى إشغال أكثر من وظيفة فى الدولة المملوكية كما نستنتج مما سبق أيضاً كفاءة من يتولى منصب نيابة نظر البيمارستان المنصورى الأمر الذى يدفع سلاطين المماليك توليتهم أكثر من وظيفة بجانب نظرهم للبيمارستان المذكور فى آن واحد وأن يلجئوا إليهم فى حل المعضلات والعراقيل التى تواجههم(١).

القاضى علاء الدين بن الاطروش(٢) الذى شغل نظر نيابة البيمارستان المنصورى في٢١ذى القعدة٧٤٥هـ/٢٦مارس١٣٤٥م عوضاً عن ابن خطيب بيت الآبار (ت:٧٦١هـ /١٣٦٠م) بعد عزله(٣)، وساءت أحوال البيمارستان المنصورى أثناء نيابة علاء الدين ابن الاطروش حتى فسد حال وقفه من كثرة مهاديته لأمراء الدولة بالهدايا كما أهمل عمارة البيمارستان حتى تشعثت جدرانه(٤).

القاضى تاج الدين محمد بن بهاء الدين شاهد الجمالى(٥) وقد تولى نظر البيمارستان المنصوري فى محرم ٧٦٣هـ/نوفمبر ١٣٦١م عوضاً عن البرهان الأخنائي(٦) (ت:٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)(٧)، والقاضى برهان الدين إبراهيم الحلى(٨) ناظر بيت المال مما يوضح لنا إمكانية إسناد نظر البيمارستان المنصورى الى أحد نظار الدولة بجانب وظيفتهم، وقد

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٢٠٢؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ١٩٩-٢٠٠.

(٢) القاضى علاء الدين بن الاطروش(ت:٧٥٨هـ/١٣٥٧م):" هو القاضى علاء الدين بن الاطروش، ابن أخى شمس الدين بن الاطروش، كان يعرف بالسكاكينى ورد الى دمشق فى أيام الأمير سيف الدين طقزتمر نظر الحسبة سنة ٧٤٣هـ....." (انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ ١٧٤).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ٤٢٠؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ٤١٤.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٢١١.

(٥)القاضى ابن الشاهد الجمالى(ت:٧٧٢هـ/١٣٧١م):" هو محمد بن عبد الله تاج الدين بن عبد الله بن بهاء الدين المصرى ويعرف أيضاً بابن الشاهد الجمالى مات فى رمضان بعقبة آيلة ٧٧٢هـ/ابريل١٣٧١م)......" (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٤٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، صـ ٢٣٥).

(٦) البرهان الأخنائي(ت:٧٧٧هـ/١٣٧٥م):" هو ابراهيم بن محمد بن ابى بكر بن عيسى بن بدران بن ابراهيم بن الإخنائى المالى برهان الدين بن علم الدين. ولد بالقاهرة وتفقه على مذهب أبيه الشافعى وحفظ التنبيه ومات فى الثانى من شهر رجب ٧٧٧هـ/٢٦ نوفمبر ١٣٧٥)..." (انظر ترجمته فى ابن حجر: رفع الإصر، ج١، صـ٣٤).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٤٦١.

(٨) القاضى برهان الدين ابراهيم الحلى(ت:٧٧٧هـ/١٤٢٠م):" هو برهان الدين ابراهيم بن بهاء الدين عبد الله الحلى .. مات فى ٥محرم ٧٧٧هـ/٥ يونيو ١٣٧٥م) ..." انظر ترجمته فى :ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ١٠٨).

استقر فى نظر البيمارستان المذكور فى ٢٠رجب ٧٧٥هـ/٤ يناير١٣٧٤م مضافاً لما بين يديه[١].

القاضى تقى الدين يحيي بن العلامة شمس الدين محمد الكرمانى[٢] الذى استقر فى نظر البيمارستان المنصورى سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م في عهد السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى[٣] كما كان يشهد له بمعرفة علم الطب؛ وكان توليته[٤] لنظر البيمارستان مكافأة من المؤيد له لحسن بلائه معه أثناء الفتن التى مرت به[٥].

القاضى زين الدين محمد بن شمس الدين الدميرى[٦] من القضاة الذين جمعوا بين ولاية الحسبة ونظر البيمارستان المنصورى فى عهد السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى[٧]، والقاضى نور الدين على بن مفلح[٨] الذى استقر ناظراً للبيمارستان المنصورى ووكيلاً لبيت المال معاً فى سنة٨٤٠هـ/١٤٣٧م عوضاً عن شمس الدين محمد يوسف بن صالح الحلاوى بعد وفاته وكان قد باشرها فى ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[٩].

القاضى ولى الدين محمد السفطى[١٠] ويمكن القول انه كان من بين منْ تولى نظر البيمارستان المنصورى من سار فيه سيرة سيئة ولم يحسن التدبير فى إدارته والذى استقر فى نظر البيمارستان المذكور فى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م حيث يذكر أبوالمحاسن عنه انه

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٦٥ ؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ٤٣٣.

(٢) القاضى تقى الدين يحيي بن العلامة شمس الدين محمد الكرمانى(ت:٨٣٣هـ/١٤٣٠م):" هو القاضى تقى الدين يحيي بن العلامة شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى البغدادى، ولد فى رجب سنة ٧٦٢هـ توفى بالقاهرة فى الطاعون فى يوم الخميس٨ جمادى الآخرة ٨٣٣هـ/٣ مارس ١٤٣٠م)."(انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ٤٥٣).

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢١٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، صـ ١٠٣

(٥) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ١٦٩.

(٦) القاضى زين الدين محمد بن شمس الدين الدميرى(ت:٨٣٣هـ/١٤١٦م):" هو زين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميرى توفى سنة ٨٣٣هـ/١٤١٦م) "(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ١٦٨).

(٧) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٢٢.

(٨) القاضى نور الدين على بن مفلح(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م): " هو نور الدين على بن مفلح ناظر المارستان ووكيل بيت المال كان أبوه عبداً أسود للطواشي كافور الهندى، فأعتقه، وقرأ ابنه على القرآن.. وولى الوكالة ونظر البيمارستان.. توفى فى ١٢ذى الحجة٨٤١هـ/٥ يونيو١٤٣٨م)." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٦٨) .

(٩) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٣٣٦؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ٢٦٦.

(١٠) القاضى ولى الدين السفطى(ت:٨٥٤هـ/١٤٥٠م):(هو محمد بن أحمد بن يوسف بن حجاج، قاضى القضاة ولى الدين السفطى الشافعى ولد سنة ست وتسعين وسبعمائة.. مات فى ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة)(انظر ترجمته فى السيوطى: نظم العقيان، ج١، صـ ١٣٩؛ ابن الحمصى: المصدر السابق، ج١، صـ٥٣).

"سار فى النظر سيرة سيئة، وهو انه أخذ ما لا يستحقه أعطاه لمن لا يستحقه، وغير ذلك من المساوئ"[١] حتى حجر على تنزيل المرضى، وأمر بمسح دهاليزه وكنسه ومنع المشى فيه بالنعال[٢].

القاضى ناصر الدين محمد فخر الدين الشهير بابن مخلطة[٣] أحد نواب الحكم المالكية فى نظر البيمارستان المنصورى فى عهد الأشرف اينال فى ربيع الآخر ٨٥٧هـ/يونيو ١٤٥٣م عوضاً عن الشرف الأنصارى[٤].

القاضى محب الدين محمد بن الأشقر[٥] وقد ولى نظر البيمارستان المنصورى فى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م عوضاً عن نور الدين على بن مفلح(ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م)[٦].

القاضى شرف الدين موسى التتائى[٧] وقد أخلع عليه السلطان الملك الظاهر جقمق بجميع وظائف أبى الخير النحاس ومن بينهم نظر البيمارستان المنصورى ونظر الكسوة ونظر الجوالى[٨] ووكالة بيت المال وغيرها فى سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م لذا يعد من أبرز الأمثلة التى توضح تعهد ناظر البيمارستان المنصوري نظر أكثر من وظيفة من وظائف الدولة المملوكية فى وقت واحد[٩].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٢٣٦؛ أبو المحاسن: حوادث الدهور، ج١، صـ ١٣٣.

(٢) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك، ج٢، صـ٣٦.

(٣) ابن المخلطة (ت:٨٥٨هـ/١٤٥٤م) (هو القاضى ناصر الدين محمد بن قاضى القضاة فخر الدين أحمد القاهرى المالكى الشهير بابن المخّلطة، ولد سنة ٧٩٠هـ ومات فى ٨٥٨هـ/١٤٧٦م" (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ٢٧)

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ١٧٠.

(٥) القاضى محب الدين محمد بن الأشقر(ت:٨٦٣هـ/١٤٥٩م):" هو القاضى محب الدين محمد بن الإمام شرف الدين عثمان توفى فى سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٩م)"(انظر فى السيوطي: نظم العقيان، ج١، صـ ١٥٣) .

(٦) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٣٨٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، صـ ٩٦.

(٧) القاضى شرف الدين موسى التتائى(ت:٨٨١هـ/١٤٧٦م):" هو موسى بن على بن محمد بن سليمان الشرف التتائى القاهرى الشافعى، ويعرف بالانصارى ولد فى سنة ٨٢٠هـ بتتا قرية بالمنوفية و مات فى ٨٨١هـ/١٤٧٦م ...." (انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج١٠، صـ ١٨٤– ١٨٥).

(٨) الجوالى: " الجزية واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين، وأما الشيخ الفانى وغيرهما ففيهما قولان، والفقراء الذين لا كسب لهم ففيهم أيضاً قولان: الأول: يجب عليهم، والثانى: لا يجب عليهم، ويطالبوا(كذا) إذا أسروا " ابن مماتى: المصدر السابق، صـ ٣١٧–٣١٨.

(٩) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤١٧.

(١)الأمراء وأهم إصلاحاتهم:-

وبالنسبة للأمراء الذين تولوا نيابة نظر البيمارستان المنصورى الذين عنوا بتجديده وإضافة المنشآت المعمارية بملحقاته على مدار العصر المملوكى فنذكر أشهرهم وأهم أعمالهم بالبيمارستان المذكور على النحو التالي

الأمير جمال الدين آقوش(١) فقد حقق البيمارستان المنصورى فى عهده إيرادات هائلة حتى صار حاصله أربعمائة ألف دينار سوى السكر وغيره ما قيمته ألف درهم حين استقر فى نيابة نظر البيمارستان المذكور الأمير جمال الدين أقوش سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م عوضاً عن كريم الدين الكبير(٢)، وأهم أعماله الإنشائية التى تنسب إليه بالبيمارستان المنصورى إنشاء قاعة بالبيمارستان المذكور كما نحت جدران المارستان والمدرسة المبنية بالحجر داخله وخارجه وطلاه حتى صار كالجديد(٣).

الأمير سنجر الجاولى(ت:٧٤٥هـ/١٣٤٤م) ويعد الأمير سنجر الجاولى من أشهر نواب نظر البيمارستان المنصورى فى علو الهمة إلا أن ولايته للبيمارستان قد اتصفت بالعسف والشدة ومن مظاهر ذلك انه لما طلب حساب المارستان، وجد فيه جملة مال متأخرات من السواقى وسكان الدكاكين، وسكان الأرباع من الأوقاف ما مقداره مائة آلاف درهم وكان من بين تلك المتأخرات ما مضى عليه عشرين سنة وأقل فرسم باستخلاصها من أربابها، فلحق بالناس من ذلك شدة ألم حتى سجنت جملة كثيرة من الناس بسبب ذلك الدّين(٤).

كما كان حريصاً على أوقاف البيمارستان وعدم التهاون فى بيع أحد أوقافها من ذلك حين عرض آقبغا عبد الواحد(ت:٧٤٤هـ/١٣٤٤م) شراء دكاكين من أوقاف البيمارستان وكان آقبغا المذكور قد اشترى دار لاجين الجاشنكير القريبة لجامع الأزهر، كما أخذ

---

(١) الأمير جمال الدين أقوش(ت:٧٣٦هـ/١٣٣٥م):" هو الأمير جمال الدين أقش الأشرفى البرناق المعروف بنائب الكرك.... ومات بالإسكندرية فى جمادى الأولى ٧٣٦هـ .."(انظر ترجمته فى الصفدى: أعيان العصر، ج١، صـ ٥٧٨-٥٨٥؛ المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٢٠٨؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، صـ ٤٧٠- ٤٧١).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٣، صـ ٦٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٩، صـ٧٧.

(٣) المقريزى: المصدر السابق، ج٣، صـ١٥٠.

(٤) اليوسفي: نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، صـ ٣٢٥- ٣٢٦.

أملاك كثيرة من الناس وأراد بشراء دكاكين الوقف هذه لتوسيع مكانه وألح على الأمير سنجر المذكور غاية الإلحاح إلا أن جواب الأمير سنجر قد جاء بالرفض التام[١].

أما عن أفعال الأمير سنجر التعسفية بالبيمارستان أثناء نيابته انه كان لا يتورع عن تسليط مماليكه لضرب موظفى البيمارستان بالعصى إذا رأى من أحدهم تكاسلاً عن أداء مهامه إذ يذكر أن بيته كان بجوار البيمارستان فكان يدخل على حين غفلة ليتفقد موظفى البيمارستان بالليل فيجد بعضهم لم يحضر حتى بلغ به الحد من القسوة أن دعا كافة موظفى البيمارستان ذات يوم بالحضور وسلم لمماليكه العصى، وصار يدعو الموظفين واحداً تلو الآخر فيضربونهم مماليكه بالعصى حتى فعل ذلك بجميع موظفى البيمارستان ولم يسلم من الضرب سوى الشيخ زين الدين ابن الكنتانى[٢] لحضوره متأخراً فأخذ يتلطف به ونهاه عن ذلك حتى أخذه وقام[٣].

الأمير أرغون العلائى وقد تولى نيابة نظر البيمارستان المنصورى فى محرم ٧٤٧هـ/ مارس١٣٤٦م عوضاً عن الأمير منكلى بن البابا وقد أنشأ أرغون أثناء ولايته للبيمارستان بجواره سبيل ماء ومكتب سبيل لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم[٤].

وتولى الأمير صرغتمش نظر البيمارستان المنصورى فى سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م فنزل إليه ليتفقد أحوال المرضى فساءه ما آل إليه حالهم لعدم اكتراث ابن الاطروش بالعناية بأحوال البيمارستان، فاستدعى القاضى ضياء الدين يوسف وعرض عليه التحدث فى البيمارستان كما كان عوضاً عن ابن الاطروش فأجاب بعد إلحاح الأمير صرغتمش فركبا لتفقد أحوال البيمارستان وأوقافه بالمهندسين وكتب تقدير ما يحتاجه إصلاح البيمارستان الذى بلغ ثلاثمائة ألف درهم فشرع العمل فى عمارته حتى صلحت أحواله كما تفقد الأمير صرغتمش أحوال موظفى البيمارستان من الفقهاء والأطباء وغيرهم وألزمهم

---

(١) اليوسفي: المصدر السابق، صـ ٣٢٧.

(٢) الشيخ زين الدين ابن الكنتانى(ت:٧٣٨هـ/١٣٣٨م):" هو شيخ الشافعية، زين الدين عمر بن أبى حزم بن عبدالرحمن بن يونس، المعروف بابن الكتانى ولد سنة ٦٥٣هـ بالقاهرة........" (انظر ترجمته فى الذهبى: العبر فى خبر من غبر، ج٤، صـ١١١؛ الصفدى: أعيان العصر، ج٣، صـ ٦٠١ – ٦٠٩).

(٣) اليوسفى: المصدر السابق، صـ ٣٢٩.

(٤) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٢٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، صـ١٢٦.

بمواظبة وظائفهم[١].

الأمير عز الدين أزدمر[٢] وقد ولى نظر البيمارستان المنصورى فى رمضان٧٥٩هـ/ أغسطس١٣٥٨م عوضاً عن الأمير صرغتمش[٣]، والأمير بركة استقر فى نيابة نظر البيمارستان المنصورى فى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م فأناب عن نفسه فى نظر المارستان المذكور محتسب القاهرة[٤]القاضى جمال الدين محمود العجمى[٥](ت:٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)[٦]

الأمير تمان تمر[٧] رأس نوبة من العسكريين الذين تولوا نيابة نظر البيمارستان وقد خلع عليه بنيابة نظره فى سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م[٨]، والأمير علاء الدين على بن الطبلاوى[٩]استقر بنيابة المارستان فى سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م عوضاً الأمير كمشبغا الحموى[١٠](ت:٨٠١هـ/ ١٣٩٩م)[١١].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٢١١.

(٢) الأمير عز الدين أزدمر(ت:٧٦٩هـ/١٣٦٧م):" هو الأمير عز الدين أزدمر الناصرى الخازندار أحد مقدمى الألوف ونائب طرابلس وصفد توفى أول شهر ربيع الآخر٧٦٩هـ/ديسمبر ١٣٦٧م...." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٤، صـ١٢٠.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٢٣٨؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ١٣٤.

(٤) محتسب القاهرة: "وقد كان محتسب القاهرة أعظم قدراً، ومما يدل على عظم مكانة هذا المحتسب انه كان له وحده حق الجلوس بدار العدل مع قضاة مصر الأربعة....." انظر سهام مصطفى أبو زيد: المرجع السابق، صـ ٩٠.

(٥) القاضى جمال الدين محمود العجمى(ت:٧٩٩هـ/١٣٩٦م):" هو القاضى جمال الدين محمود بن أحمد وقيل محمود بن محمد بن على بن عبد الله القيصرى العجمى الحنفى، قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية....توفى فى سنة ٧٩٩هـ /١٣٩٦م) ...."(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٤٠٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٥٨).

(٦) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٥٠؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ٥٧١.

(٧) الأمير تمان تمر(ت:٧٩٢هـ/١٣٩٠م):" هو الأمير سيف الدين تمان تمر بن عبد الله الأشرفى، نائب بهنسا أصله من مماليك الملك الأشرف شعبان مات بها سنة ٧٩٢هـ(انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ٨٧).

(٨) المقريزى: المصدر السابق، ج٥، صـ٢٥٥؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ٢٩٠ .

(٩) الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى(ت:٨٠٣هـ/١٤٠١م):" هو على بن عبد الله بن محمد الطبلاوى علاء الدين بن سعد أصله من طبلاوة قرية بالوجه البحري فقتل بمدينة غزة فى ١٠رمضان ٨٠٣هـ/٢٦ابريل ١٤٠١م......" (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، صـ ١٧٣).

(١٠) الأمير كمشبغا الحموى(ت:٨٠١هـ/١٣٩٩م): " هو الأمير الكبير أتابك العساكر وعظيم المماليك اليلبغاوية كمشبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى هو أحد من قام بنصرة الملك الظاهر برقوق عند خروجه من سجن الكرك، وكان"(انظر ترجمته فى المقريزي: السلوك، ج٥، صـ٤٤١؛محمد عبدالغنى الأشقر: أتابك العساكر فى القاهرة، صـ ٥٥).

(١١) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٣٨٨؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٥١٢؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبه، ج٣، صـ ٥٩٠.

بينما الأمير الكبير شارقطلو[١] استقر فى عهد السلطان الملك الأشرف برسباى ناظر بنيابة البيمارستان المنصورى فى سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م[٢]، والأمير إينال الجكمى تولى نظر البيمارستان المنصورى فى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م[٣].

(٤) أشهر أتابكة العسكر الذين تولوا نظر البيمارستان المنصورى وأهم أعمالهم:-

وكما تولى القضاة والأمراء وغيرهم من رجال الدولة نيابة نظر البيمارستان المنصورى فقد تولى الغالبية العظمى من أتابك العسكر هذا المنصب بجانب توليهم نظر العسكر وقيادته حتى نكاد نجزم أن نظر البيمارستان المذكور ارتبط ارتباطا وثيقاً بمتولي الاتابكية خلال العصر المملوكى، وفيما يلى سنذكر أشهر الأتابكة الذي تولوا نظر البيمارستان وأهم أعمالهم

الأتابك منكلى بغا الشمسى الذى تولى نظر البيمارستان فى سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م[٤] ويلاحظ أن بيوت البيمارستان المنصورى قد استخدمت كدار ضيافة فى بعض الأحيان للنزلاء من كبار الزوار ومشاهيرهم الذين ينزلون فى أحد بيوته، كما هو الحال حين استقبل ناظر البيمارستان الأمير منكلى بغا الشمسى المذكور فى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م الشيخ شمس الدين محمد القونوى الحنفى[٥] الذى انزله فى بيت بالبيمرستان فأتاه الناس من كل جهة من البلاد وكان فى غاية الورع والصدع بالحق[٦].

(١) الأمير الكبير شارقطلو(ت:٨٣٧هـ/١٤٣٤م):" الأمير شارقطلو مات بالشام نائباً بها فى يوم الاثنين ١٩رجب ٨٣٧هـ/١ مارس ١٤٣٤م) وهو أحد المماليك الظاهرية...." (انظر المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٧٣).

(٢) المقريزى: المصدر السابق، ج٧، صـ ١٧٥.

(٣) المقريزى: المصدر السابق، ج٧، صـ٢٦٦؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٤١.

(٤) المقريزى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٣١٧.

(٥) القونوى(٧١٥-٧٨٨هـ/١٣١٥-١٣٨٦م):" هو شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس القونوى فقيه حنفي تركى الأصل- ولد وتعلم فى (قونيه) وقدم الى دمشق، بأهله وولده وصنف كتباً مفيدة، منها (درر البحار) فقه، و(رسالة فى الحديث) و(شرح تلخيص المفتاح) فى البلاغة، و(شرح مجمع البحرين) فقه ومات بالمزة (ضاحية دمشق) بالطاعون سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م"(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٥، صـ١٩٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٣٢٨- ٣٢٩).

(٦) المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٣٣٤.

الأتابك ألجاى اليوسفى[١] الذى تولى أتابك العساكر ونظر البيمارستان معاً فى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م عوضاً عن الأمير منكلى بغا الشمسى فولى الأمير ألجاى المذكور الصاحب كريم الدين شاكر بن غنام[٢] نيابة النظر عنه بالمرستان[٣]، مما يعكس لنا إمكانية قيام متولى نظر البيمارستان بالإنابة عنه نظر البيمارستان المذكور وذلك حرصاً منه على حسن سير العمل به والمراقبة لعماله، ثم استقر الصاحب كريم الدين المذكور فى نظر البيمارستان فى سنة ٧٧٥هـ/١٤٢٠م وذلك بجانب توليه نظر البيوت[٤] ودار الطراز [٥].

بينما الأتابك قرا دمرداش الأحمدي[٦] شغل منصب نظر البيمارستان المنصورى خلال العصر المملوكى وقد استقر فى نيابته فى سنة٧٩١هـ/١٣٨٩م[٧]، والأتابك كمشبغا الحموى من جملة الاتابكية الذين تولوا نظر البيمارستان فى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م بعد موت الأمير الكبير اينال اليوسفي[٨].

الأتابك أيتمش تولى نيابته فى سنة٨٠٠هـ/١٣٩٨م عوضاً عن ابن الطبلاوى ومن يومئذ استمر نظر البيمارستان مع من يلى الأتابكية[٩]، والأتابك بيبرس[١٠] شغل أكثر من

---

(١) ألجاى اليوسفى(ت:٧٧٥هـ/١٣٧٣م): " هو الأمير الكبير سيف الدين ألجاى اليوسفى أحد مماليك الملك الناصر حسن توفى غريقاً بالنيل بساحل الخرقانية فغرق فى يوم الجمعة ٩ محرم، ودفن بمدرسته بسويقة العزى خارج القاهرة. وكان من أجل الأمراء شجاعة وكرماً وهمّة وسؤددا....." (انظر ترجمته في ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٢، صـ٤٣٩).

(٢) الصاحب كريم الدين بن غنام(ت:٨٢٣هـ/١٤٢٠م):" هو الصاحب كريم الدين عبد الله بن شاكر بن عبدالله بن غنام وزر مرتين وأنشأ مدرسة بجوار الجامع الأزهر توفى فى سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م "(انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ٢٢) .

(٣)المقريزى: السلوك، ج٤، صـ ٣٥٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ ٣٤.

(٤)البيوت: "عبارة عن حوائج خاناه، وما يجرى هذا المجرى، ووظيفة المشارف عليها أن يباشر ما يشترى برسمه، ويعرضه فى كل وقت، ويثبته على متسلمه من المستخدمين فيها، " ابن مماتى: المصدر السابق، صـ ٣٥٤.

(٥)الطراز: " وكان ديوان الطراز يشرف على دور الطراز، المعامل، المصانع، التى كانت تقوم بصناعة الثياب والملابس الخاصة بالخلفاء والسلاطين وحاشيتهم، كما كان يصنع بها الشارات والأعلام وملابس الجند وغيرها " إبراهيم على السيد: نظم الحضارة العربية الإسلامية، صـ ١٠٤؛ المقريزى: السلوك، ج٤، صـ٣٦٥)..

(٦) الأتابك قرا دمرداش الأحمدى(ت:٧٩٤هـ/١٣٩٢م):" هو الأمير سيف الدين قرا دمرداش بن عبد الله الأحمدى اليلبغاوى من أعيان المماليك اليلبغاوية توفى فى ٧٩٤هـ/١٣٩٢م" (انظر ترجمته فى ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، صـ٤٤٦).

(٧) المقريزى: المصدر السابق، ج٥، صـ ٢٢٤.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٥، صـ ٣٢٣؛ ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج٣، صـ ٤٢٦.

(٩)المقريزى: السلوك، ج٥، صـ٤١٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ٧٩.

(١٠)الأمير بيبرس الاتابكى(ت:٨١١هـ/١٤٠٨م):" هو الأمير الأتابكى بيبرس بن عبد الله الظاهرى أحد مماليك الظاهر برقوق وابن أخته استقدمه الملك الظاهر برقوق صغيراً مع والدته وأقاربه فى حدود سنين نيف وثمانين وسبعمائة... وتوفى سنة ٨١١هـ /١٤٠٨م....." (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٣، صـ ١٧٢– ١٧٣).

نيابة بجانب الأتابكية فبجانب تولية نظر البيمارستان المنصوري شغل فى ذات الوقت نظر الأحباس ونيابة الغيبة(١) فى سنة٨٠٢هـ/١٤٠٠م(٢).

الأتابك ألطنبغا العثمانى(٣) تولى نيابة البيمارستان المنصورى فى سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م(٤) والذى تشهد نيابته على المارستان مشاركة البيمارستان المنصورى حتى شمل عماله وموظفيه فى الأعمال الإصلاحية التى يرنوا إليها سلاطين عصر المماليك فى الدولة كما حدث فى سنة٨١٨هـ/١٤١٥م حين شرع السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى من حفر ما بين موردة الحلفاء(٥) وبولاق نظر لارتفاع المياه عن البر الشرقي ما بين منشأة المهرانى(٦) وجزيرة الفيل(٧) أكثر ما كان هناك من المبانى ليعود الماء هناك صيفاً وشتاءاً الى الأبد فجمع الأمير ألطنبغا العثمانى المذكور فى العمال حتى ألزم كافة سكان البيوت والحوانيت الجارية فى وقف البيمارستان المنصورى أن يشاركوا معه فى عمليات الحفر، ولم يستثنى من ذلك الإلزام حتى أرباب الوظائف الطبية من الأطباء والجراحية والكحالين وغيرهم من العاملين بالبيمارستان(٨).

---

(١) نائب الغيبة: " وأما نائب الغيبة، فهو الذى يتولى الأمر إذا غاب السلطان والنائب الكافل فلم يكن له إلا إخماد الثورات وخلاص الحقوق وحكمه فى رسم الكفاية إليه مثله مثل الأمراء...." انظر عثمان عبد الحميد عشرى: المرجع السابق، صـ ١٦.

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٢٠؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، صـ ١٩٩.

(٣) الأتابك ألطنبغا العثمانى(ت:٨٢١هـ/١٤١٨م):" هو الأمير الكبير علاء الدين ألطنبغا بن عبدالله العثمانى أتابك العساكر بالديار المصرية الى ان مات فى ٨٢١هـ/١٤١٨م" (انظر ترجمته فى ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ١٥٤- ١٥٥).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٣٦٤؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، صـ ٢٨.

(٥) موردة الحلفاء:" موردة الحلفاء على شاطئ النيل وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها، ويملأ الناس منها الروايا، وكان البحر لا يبرح طوال السنة هناك،...." انظر المقريزي: الخطط، ج٢، صـ ١٧٤- ١٧٥.

(٦) منشأة المهرانى: " نسبة الى الأمير سيف الدين بلبان المهرانى أول من ابتنى بها داراً، وبنى مسجداً، فعرفت هذه الخطة باسمه......" (انظر محمد الششتاوى سند: المرجع السابق، صـ ٤٤-٤٥).

(٧) جزيرة الفيل:" هذه الجزيرة هي الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة، وتتصل بمنية الشيرج من بحريها، ويمر النيل من غربيها، وبها جامع تقام به الجمعة، وسوق كبير وعدّة بساتين جليلة، وموضعها كله مما كان غامراً بالماء فى الدولة الفاطمية........." انظر المقريزى: الخطط، ج٣، صـ ٣٢٥- ٣٢٧.

(٨) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ٣٨٥.

الأتابك ألطنبغا القرمشى[١] الذى استقر فى نيابة نظر البيمارستان فى سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م[٢]، وكذلك الأتابك جقمق[٣] من الأتابكة الذين تولوا نظر البيمارستان المنصورى فى عهد السلطان الملك الأشرف برسباى وقد استقر فى نظر البيمارستان المذكور فى سنة٨٣٩هـ /١٤٣٥م[٤].

الأتابك تمربغا[٥] ولى نيابة نظر البيمارستان المنصورى ولقد ولاه الظاهر يلباى نظر البيمارستان المذكور سنة٨٧٢هـ/١٤٦٧م[٦]،بينما الأتابك قايتباى[٧] ولاه نيابة نظر البيمارستان السلطان الملك الظاهر تمربغا واستقر فى نيابته فى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م[٨].

ونسب إلى الأتابك أزبك(ت:٩٠٤هـ/١٤٩٩م) أثناء نيابته لنظر البيمارستان المنصورى تجديد عمارة المدرسة المنصورية التى بدهليز البيمارستان المذكور فى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م[٩]

ويبدو نظر البيماستان المنصورى شغر منصبها أكثر من ناظر فى بعض الأحيان فى وقت واحد كما حدث سنة ٨١٤هـ/١٤١١م حين ولى السلطان الملك الناصر فرج بن

(١) الأتابك ألطنبغا القرمشى(ت:٨٢٤هـ/١٤٢١م):" هو الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبدالله القرمشى الظاهرى الأتابكى هو من مماليك الملك الظاهر برقوق، وتقلب مع الأمير شيخ المحمودى بالبلاد الشامية...... قتل فى ٢٥ جمادى الأولى ٨٢٤هـ/ ٢٧ مايو ١٤٢١م) .." (انظر ترجمته فى المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٤٩).

(٢) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٣٩٢.

(٣) السلطان الملك الظاهر جقمق(ت:٨٥٧هـ/١٤٥٣م)(هو جقمق بن عبدالله العلائى الظاهرى، السلطان الملك الظاهر أبو سعيد، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية والرابع والثلاثون من ملوك الترك والعاشر من...."(انظر ترجمته فى أبوالمحاسن: المنهل الصافى، ج٤، صـ ٢٧٥-٣١٢؛ نفسه: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٢٥٦-٢٦٠).

(٤) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٩٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ٦٥.

(٥) الظاهر تمربغا(٨١٥-٨٧٩هـ/١٤١٢-١٤٧٥م): " أصل الملك تمربغا من قبيلة أرنئوط ، وجلبه بعض التجار فى صغره الى البلاد الشامية فى حدود سنة أربع وعشرين وثمانمائة تمربغا عند ذلك هو مدبر المملكة...."(انظر ترجمته فى العصامى: المصدر السابق، ج٤، صـ ٥٣؛ ابن العماد: المصدر السابق، ج٩، صـ ٤٦٨؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، صـ ٤٠).

(٦) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٥٩.

(٧) الأشرف قايتباى(٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م):(وهو السلطان أبو النصر قايتباى(بن عبدالله) الملك الأشرفى الجركسى الظاهري نسبة الى الظّاهر جقمق الحادى والأربعون من ملوك الترك، والسادس عشر من الجراكسة ولد سنة ست وعشرين وثمانمائة... وتوفى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م ...) (انظر ترجمته فى ابن العماد: المصدر السابق، ج١٠، صـ ١٢).

(٨) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، صـ ٣٨٠-٣٨١.

(٩) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٣٠١.

برقوق كلاً من الأمير تمرتاش ومعه فتح الله كاتب السر نيابة نظر البيمارستان المذكور فى ذات الوقت فنظرا فى أمره فنزلا معاً الى المارستان للإطلاع على أحواله وشئونه[١]، ومن الأمثلة التى تجمع بين نظر وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصورى استقرار معين الدين بن شمس فى سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٣م فى وكالة بيت المال بجانب نيابته فى نظر البيمارستان المنصورى[٢].

وعلى صعيد آخر فان هناك من الشواهد التاريخية ما تشير الى قيام بعض سلاطين المماليك بوظيفة نظر البيمارستان المنصورى بأنفسهم دون تعين أحد بنيابة نظر البيمارستان المذكور فيقومون أثناء توليهم نظره بالنزل من حين للآخر لمباشرة أحوال المرضى وانتظام سير العمل بالبيمارستان، كما فعل السلطان الملك الأشرف برسباى حين ولى نظر البيمارستان المنصورى بنفسه فى سنة٨٣٧هـ/١٤٣٣م ونزل إليه بصحبة ناظر الجيش، وكاتب السر لينظر فى أحواله وان دل ذلك على شئ فانه يدل على حرص السلاطين خلال العصر المملوكى على حسن سير العمل بذلك البيمارستان وتقديم أفضل الخدمات لنزلائه[٣].

---

(١) المقريزى: السلوك، ج٦، صـ ٢٨٧– ٢٨٨.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق، ج٤، صـ٥٠.

(٣) المقريزى: السلوك، ج٧، صـ ٢٦٣؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، صـ ٣٦– ٣٧

سادساً: الأدوية:-

ولقد كان السلاطين فى عصر المماليك يتخذون من الأدوية والعقاقير هدايا يتبادلون بها مع ملوك الدول الأخرى-مثال ذلك- حين أرسل السلطان الملك الظاهر بيبرس رسلاً الى ألنفش صاحب أشبيلية ،"وعلى أيديهم هدية سنية وعقاقير" في سنة(٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)[١].

أما الأشربة بأنواعها فكانت تصرف للمرضى من المماليك السلطانية من بيت الشرابخاناه "بمقتضى أوراق الأطباء"[٢] بمعنى عندما ينتهى الطبيب من توقيع الكشف الطبى على المريض يكتب له دستوراً تصرف من شرابخانة البيمارستان أو حانوت الأعشاب، وذلك الدستور يحفظ عند أهل المريض فإذا ما مات المريض فان الطبيب يحتج بذلك الدستور أمام رئيس الأطباء[٣].

وكان ضمن البيوت السلطانية[٤] وهو اسم يطلق على المرافق الخاصة بمطالب السلطان، الشربخاناة-بيت الشراب[٥]-ويحوى مختلف الأشربة والأدوية التى يحتاج إليها السلطان[٦]، وهى الصيدلية فى البيمارستان المعبر عنها بالشرابخاناة وهى الحواصل المعبر عنها بالبيوت خاناه لفظ فارسى معناه البيت فتأويلها بيت الشراب وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفسية والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التى لا توجد إلا فيها[٧] ونفس كلمة شراب هذه انتقلت عند الأوروبيين ودخلت فى لغاتهم، مثل كلمة "**sirop**" الفرنسية، كذلك كانت العقاقير توجد فى دكاكين العطارين، التى

---

(١) النويرى: المصدر السابق، ج٣٠، صـ ٢٢٢.

(٢) النويرى: المصدر السابق ، ج٨، صـ ٢٢٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى، صـ ٦٠.

(٣) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٦٩.

(٤) " يقصد بالبيوت السلطانية بقلعة الجبل المرافق الخاصة بالمطالب اليومية لسلاطين المماليك بالقلعة والأمكنة التى تتولى خدمتهم .." انظر ماجدة مصطفى نادى: المرجع السابق، صـ ٩٥.

(٥) (الشربخاناه): " ومعناه بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاصّ السلطان، والمشروب الخاص من السكر والأقسما وغير ذلك ..." القلقشيندى: المصدر السابق، ج٤، صـ٩.

(٦) سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، صـ ١٨٨.

(٧) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، صـ ٢٠.

تحتوى على نباتات ضرورية فى صنع العقار إذ كانت أغلب العقاقير تحضر من الأعشاب الطبيعية[١].

ولكل شراب خاناه "مهتار" يعرف بمهتار الشرابخاناه (ومهتر بالفارسية بمعنى رئيس) مستلم لحواصلها له مكانة عالية وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار [٢].

والتجربة أساس معرفة كثير من الأدوية يثبتها السلف ويستخلفا الخلف ولذلك فصناعة الدواء لم تدرك فى زمان يسير ولكن فى زمان طويل وألوف السنين بتجربة ألوف الناس حتى جمعت[٣].

كما بلغ من مظاهر اهتمام سلاطين المماليك البيمارستانات أنهم كانوا يباشرون بأنفسهم إنتاج الأدوية وإن كانوا يتخذون كوسيلة من وسائل الترفيه عن النفس من ذلك ما فعله السلطان الناصر محمد بن قايتباى فى شعبان سنة٩٠٢هـ/١٤٩٧م حيث أمر أن تقطع الحيات التى كانت تلزم للبيمارستانات، بحضرته حتى يتفرج عليها، فأحضرت بين يديه بقاعة البحرة وقطعت بحضرته وهو ينظر إليها وبعدها خلع على شمس الدين القوصونى رئيس الطب وولده وكذا الحاوى الذى أحضر الحيات وغيرهم[٤].

ولقد ظهر هناك من طبقة الأمراء من اشتهر بمعرفته للأعشاب و تركيب العقاقير حتى استطاع التقرب الى السلاطين والأمراء بفضل تلك المعرفة كما حقق من ورائها مكاسب طائلة ومن هؤلاء الأمير سيف الدين سنقر الرومى(ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذى اشتهر بمعرفته بالنبات وتركيب العقاقير والعلل فنال بفضل تلك المعرفة المنزلة العالية عند الأمراء، كما اختص به السلطان الملك الكامل شعبان وقد حقق من ذلك مكاسب مالية طائلة[٥].

---

(١)عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، ط.٧، القاهرة، ١٩٩٦م، صـ ٢٥٩–٢٦٠.

(٢) أحمد عيسى بك: المرجع السابق، صـ ٢١.

(٣) محمد كامل حسين: الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، صـ ٣٤٤.

(٤) لطفى أحمد نصار: المرجع السابق، صـ ٢٧٦.

(٥) ابن شهبة: تاريخ ابن شهبة، ج١، صـ ٥٨٢.

ومن الطبيعي أن يصحب سنوات الأوبئة التى كانت تحل بالبلاد فى مصر والشام ارتفاع أسعار ما يتعلق بالمرضى ولاسيما الأدوية والعقاقير، ففى طاعون عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م فقد صحب هذا الطاعون ارتفاع فى أسعار الأدوية نتيجة لطلب القادرين لها حتى أن الأوقية من الشراب بلغ ثمنها ثلاثة دراهم(١).

وشهدت مصر ارتفاع أسعار تلك الأدوية حين تفشى الموت فى الأغنياء وأماثل الناس فى سنة٧٧٦هـ/١٣٧٥م فى عهد السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين(٢)، ومن سنوات الأوبئة التى شهدت ارتفاع أسعار الأدوية والمستحضرات الطبية وما يحتاج إليه المرضى سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠م حيث شهدت مصر والبلاد خلال الوباء ارتفاع أسعار كافة ما يحتاج إليه المرضى كالسكر وبرز الرجلة والكمثرى وغيرها(٣).

واهتم المسلمون بدراسة النبات، لأن معظم العقاقير التى كانت تستخدم فى العلاج من النبات أو خلاصات نباتية، حتى أن الأطباء كانوا يعرفون بالعشابين(٤)، وكانت العقاقير فى أيام العرب تجنى من النباتات البرية أى التى تنمو على سلعتها دون أى رعاية خاصة وهى ما يسمونها فى مصر بالنباتات الشيطانية أو تجنى من النباتات التى تزرع لهذه الغاية وهى ما يسمونها بالنباتات البستانية(٥)ومن العقاقير التى استخدمها أطباء الأمراض النفسية الأفيون، والخشخاش(٦).

وثمة إحدى النباتات التى اشتهرت بها مصر بجودة إنتاجه وزراعته المستخدمة فى سلك الأدوية والمستلزمات الطبية وهو البلسان(البلسم)(٧) وكان دهنه ينفع للأمراض الباردة

---

(١) سعاد حسن على الضوينى: المرجع السابق، صـ ٢٨.

(٢) ابن شهبة: المصدر السابق، ج٢، صـ ٤٤٨– ٤٤٩؛ ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١، صـ ٦٦.

(٣) ابوالمحاسن: المصدر السابق، ج١٤، صـ ٣٤٠.

(٤) عصام الدين عبد الرءوف الفقى: المرجع السابق، صـ ٤٠٤.

(٥) محمد كامل حسين: الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، صـ ٣٤٩.

(٦) مكرم عبد الجواد عبد الحميد: المرجع السابق، صـ ٦٦.

(٧) البلسم: "من أروع عجائب مصر فى العصور الوسطى، مزرعة المطرية، بحديقتها التى زرع بها أشجار البلسم، ويقدسها كل من المسيحيين والمسلمين وفى فترة معينة من السنة تمتلئ غصون الشجيرات بعصارة النبات، فيعمل البستانون حزات فى القشرة، دون مساس بالخشب، أو يقطعون بعض الأوراق ويجمع بطرق مختلفة، أما باليد وحدها، أو بلفافات قطنية أو أذنان صغيرة تعلق بالنبات، وتسكب محتوياتها فى أوان أكبر حجماً، ويترك العصير المجموع على هذا النحو حتى يروق، وبالأفضل فى أشعة الشمس ويعتبر البلسم الذى يتحصل بهذه الكيفية أنقى أنواع البلسم ولم يكن المحصول يزيد على ٦٠ رطلاً فى أحسن السنوات .." ح. هايد: المرجع السابق، ج٤، صـ ١٣– ١٤.

كألآم التى تعترى الظهر والقدم وغير ذلك من الأمراض البلغمية حتى كان من بلوغ شهرته كان يحضر استخراج دهنه بعض أمراء السلطان وقيل الخازندار الكبير، وكان الفرنج يأتون من أقصى البلاد لشراء دهن هذا البلسم فيباع لهم بأغلى الأثمان وقد ظل هذا النبات من محاسن مصر حتى أصيب بالانقراض فى أوائل القرن التسعمائة، وحين أحضر البلسان البرى من الحجاز، وزرع بأرض المطرية فإنه لم ينبت ولم ينتج(١).

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ج٣، صـ٤٤٤.

الخاتمة

الخاتمة

بعدما تقدم من عرض لموضوع الأمراض وأثرها على الحياة السياسية فى العصر المملوكى فإن من المفيد والمتمم لذلك أن نذكر أبرز النتائج وهى:

١- كان من شأن الأمراض التى كان يصاب بها السلاطين أن تؤثر فى مزاولة السلاطين لمقاليد الحكم فتجعلهم ينقطعون عنها مدة تلقيهم العلاج حتى يشفوا من أمراضهم ويعودوا إلى مزاولة أمور السلطنة مما له الأثر على الأحوال السياسية بالبلاد وشئونها نتيجة هذه الفترة التى يظل فيها السلاطين يتلقون فيها العلاج.

٢- ومن أهم نتائج مرض السلطان فى العصر المملوكى رفع شأن الأمير الذى يتولى أمور دولته واتساع أملاكه وارتفاع منزلته.

٣- وكشفت الدراسة أن سلاطين العصر المملوكى كانوا يكثرون من التردد على الأمراء فى مرضهم لزيارتهم وكان من حرص السلاطين خلال العصر المملوكى لعيادة مرضى الأمراء والأعيان ان كان منشغلاً بأمور الحكم ان ينيب السلطان من يقوم بهذه المهمة للاطمئنان على صحة الأمير المريض، كما ألقت عيادة المرضى فى العصر المملوكى الضوء على مكانة الأمير المريض فى الدولة من خلال تصرفات الأمراء الزائرين أثناء عيادتهم للمريض، كما اعتاد سلاطين العصر المملوكى عيادة أمهاتهم فى حالة مرضهن والإقامة عندهن بضعة أيام للإطمئنان على حالتهن الصحية، وقد دأب السلاطين فى العصر المملوكى على معاودة زوجاتهم مراراً عند مرضهن، ويسمحون لهن بالنزول إلى بولاق إذا استدعى الأمر ذلك.

٤- والحقيقة أن للظروف والضغوط النفسية التى يتعرض لها سلاطين العصر المملوكى أثرها البالغ فى حياتهم السياسية ويظهر هذا الدور فى التأثير على ما يتخذه هؤلاء السلاطين من قرارات سياسية سريعة نتيجة تلك الضغوط النفسية مما توثر تأثيرا سلبيا على تلك القرارات التى يتخذونها، وقد يجبر الضيق النفسى الذى يتعرض له السلطان من قِبل الأمراء فى بعض الأحيان إلى إقدامه على اتخاذ قرارا بعزل نفسه من السلطنة ويناشد الإقامة بمعزل عن مقر الحكم وأهله ابتغاء راحة

النفس والبال بعيدا عن شئون الحكم كما أشارت المصادر إلى أن الحالات النفسية التى كانت تنتاب أمراء العصر المملوكى كانت تتدخل فى تغيير القرارات التى يتخذها السلاطين لترضية خواطرهم.

٥- وكما أثرت حالة السلاطين النفسية على القرارات وحياتهم النفسية فقد أثرت أيضاً ما يعانيه الأمراء من عوامل نفسية على حياتهم السياسية ومن تلك الحالات من الأمراء ما يصاب بتدهور حالته النفسية لهزيمة أصابت عسكره فى معركة من المعارك الحربية مما يجعل الأمراء والعسكر يلقون اللوم على سوء تدبيره فضلاً عن التوبيخ الذى يلقاه من السلطان مما يصيبه بالاكتئاب النفسى وضيق النفس حيال النفس، مما يستدعى تحرك السلطان لإصلاح نفسية ذاك الأمير ويطيب خاطره.

٦- ولقد تعددت الأمراض الاجتماعية التى أصابت سلاطين وأمراء العصر المملوكى مثل وهو الفساد الخلقي مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتعاطى الحشيش والرشوة، وكذلك فى المعتقدات الباطلة مثل والتطير والتشاؤم، والحسد والتعاويذ، وأيام السعد والنحس، والاعتقاد فى الجن والسحر والتنجيم والكيمياء.

٧- وتعددت صور أثار الامراض على الحياة السياسية فى العصر المملوكى ومنها التظاهر والتحايل بالأمراض فقد اتخذ السلاطين فى هذا العصر من التظاهر بالأمراض وسيلة لمتابعة ومباشرة الحكم، ولجأ إليه كبار رجال الدولة لإخفاء موت السلطان وذلك "حفظاً للمهابة" الدولة وحتى لا تضطرب الأحوال بالبلاد حيال موت السلطان وحتى يتسنى الوقت لتسليم ابن السلطان مقاليد الحكم، وكان من أهداف سلاطين العصر المملوكى من التظاهر بالمرض فى بعض الأحيان القبض على عدد من كبار رجال الدولة الذين يخشى شكيمتهم فى الدولة وتحكمهم فى السلطنة عند قيامهم بعيادته فيسهل عليه إلقاء القبض عليهم ويتخلص بالتالى من سطوتهم وهيمنتهم على أمور الحكم والسلطنة.

٨- وكان من شأن أثر الأمراض على التوليه فى السلطنة أن الأمراء إذا أحسوا بدنو أجل السلطان فى مرض موته أن يقترحوا عليه أن يعهد بالسلطنة إلى أحد

أولاده بعد موته، وكان هذا الاقتراح يلقى غالباً قبولاً لدى سلاطين المماليك فيقومون بتنصيب أحد أبنائهم ولاية العهد، ومن صور أثر المرض السياسي فى التولية والعزل أن يطلب الأمير بسبب المرض النقل من الجهة التى يباشرها إلى غيرها تكون أقل أعمالاً وتتناسب مع حالته الصحية بدلاً من العزل، وعلى صعيد آخر فكان من جملة الأمراء من يحرص على عدم إظهار الضعف خصوصاً إذا أصابه شدة المرض، فنرى الأمير منهم إذا أصابه المرض واشتد به نجده يتجلّد ويحرص على عدم إظهار ما به من ألم حتى لا يعلم السلطان ويقيله عن منصبه.

٩- كما ظهر أن المرض عن طريق السم فى عصر سلاطين المماليك وسيلة للتخلص من الأمراء الذين يخشى عاقبة أمرهم لكثرت أتباعهم ومماليكهم مما يعزو بأحد رجال الدولة القيام بدعوة الأمير المراد التخلص منه لشوكته فى الدولة إلى مائدة طعام مسموم ليتناول منه فيمرض أياماً ثم يموت جراء فعل السم.

١٠- ومن أثر الامراض فى المؤامرات والدسائس السياسية فأشارت المصادر التاريخية اتخاذ الأمراء فى العصر المملوكى من الإدّعاء بالمرض ساتراً للانقطاع فى الدار والتدبير على السلطان حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة يظهرون بكل شراسة للوثوب على السلطان.

١١- وكشفت الدراسة ما كان للأمراض من دور هام فى الفتوحات و العمليات العسكرية فى عصر سلاطين المماليك، وكان للأمراض والأوبئة أثراً كبيراً فى الفتوحات العسكرية لدرجة تصل إلى إجبار القيادة العسكرية إلى رفع الحصار عن إحدى القلاع المحاصرة التراجع عنها والعودة بالجيوش، بل واتخاذ تلك الجيوش كافة استعدادتها العسكرية لمواصلة الغزو والعودة مرة أخرى بعد انقضاء الأوبئة، كما من أثر الامراض على الأمراء من الناحية العسكرية فكان من شأن الأمراض أن تعوق الأمراء من حضور الحروب والوقائع العسكرية.

١٢- كما بينت الدراسة أن من آثار الأمراض السياسية فى عصر سلاطين المماليك مصادرة الأموال ونقل إقطاعات الأمراء المرضى إلى غيرهم من الأمراء، وقد كان

القائم بتنفيذ حكم المصادرة هو "شاد الدواوين" وغيرها من الآثار السياسية للأمراض كأثرها على السلك الإداري حيث كان لمرض الأمراء وخاصة النواب الأثر البالغ فى ظهور الفساد الإداري بالدولة وذلك لعدم مقدرتهم نتيجة لآلام المرض على متابعة ومراقبة الموظفين مما يؤدى إلى انتشار المقايضات والرشوة وغيرها من الآثار السياسية الأخرى للأمراض.

١٣- وأظهرت الدراسة أيضاً اعتياد الناس أن يظهروا لملوكهم وسلاطينهم ابتهاجهم وفرحهم إذا منّ الله عليهم بالشفاء بعد مرض ألم بهم إذ كانت تقام الاحتفالات بمناسبة شفاء سلاطينهم أو أمرائهم، ومن مظاهر تلك الاحتفالات فى العصر المملوكى أن ترسل البشائر إلى الأقطار بالبشارة بشفاء السلطان، كما تقوم زوجات السلاطين بتوزيع البنود والحرير الأصفر على الخدم والخاصبكية وأعيان الناس، كما جرت العادة فى المناسبات التى تقام احتفالاً بعافية السلاطين أن توزع الصدقات من الخبز والملابس والأموال، وعمل النفط بسوق الخيل تحت القلعة بحضور السلطان، فتشارك كافة طوائف المجتمع الابتهاج بهذه المناسبة.

١٤- حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعًا كبيرًا من سلاطين المسلمين وملوكهم على مرِّ العصور الإسلامية، وكان للطب والأطباء مكانة كبيرة فى العصر المملوكي، فقد حظيت صحة رجال الدولة من السلاطين والأمراء بقدر كبير من العناية، إذ أن بقاء الأمر فى يد السلطان، وتمكنه من التأثير فى مجريات الأحداث يتطلب قدراً غير قليل من العناية بالنواحى الصحية، لذلك فقد كان الأطباء يستعان بهم كوسيلة من وسائل العلاج.

١٥- وبلغ اهتمام سلاطين المماليك بالنواحي الصحية، وأمر المرضى إلى اهتمامهم بمهنة الطب، فألحقوا بالبيمارستان مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء التي جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن يعّين من قبل السلطان نفسه، يصبح بعدها رئيس الأطباء مسئولا عن إعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للأفراد أو حرمانهم منها؛ وهذا يدل على حرص هؤلاء السلاطين بالإشراف على الأطباء والقيام بممارسة مهنتهم على أكمل وجه.

الملاحق

الملاحق

ملحق رقم (١)

مخطوط " شفاء الاسقام ودواء الآلام " لمؤلفه حاجى باشا ت ٨٢٠هـ



ورقة رقم (١٤) من المخطوط " شفاء الاسقام و دواء الآلام " والذى يشرح فيه مؤلفه " مرض السرسام سببه وعلاجه "

تابع ملحق (١) مخطوط " شفاء الاسقام و دواء الآلام"
ورقة (١٧)



ورقة (١٧) وقد تناولت مرض الماليخوليا.

تابع ملحق (١) مخطوط " شفاء الاسقام و دواء الآلام"

ورقة (٢٥)

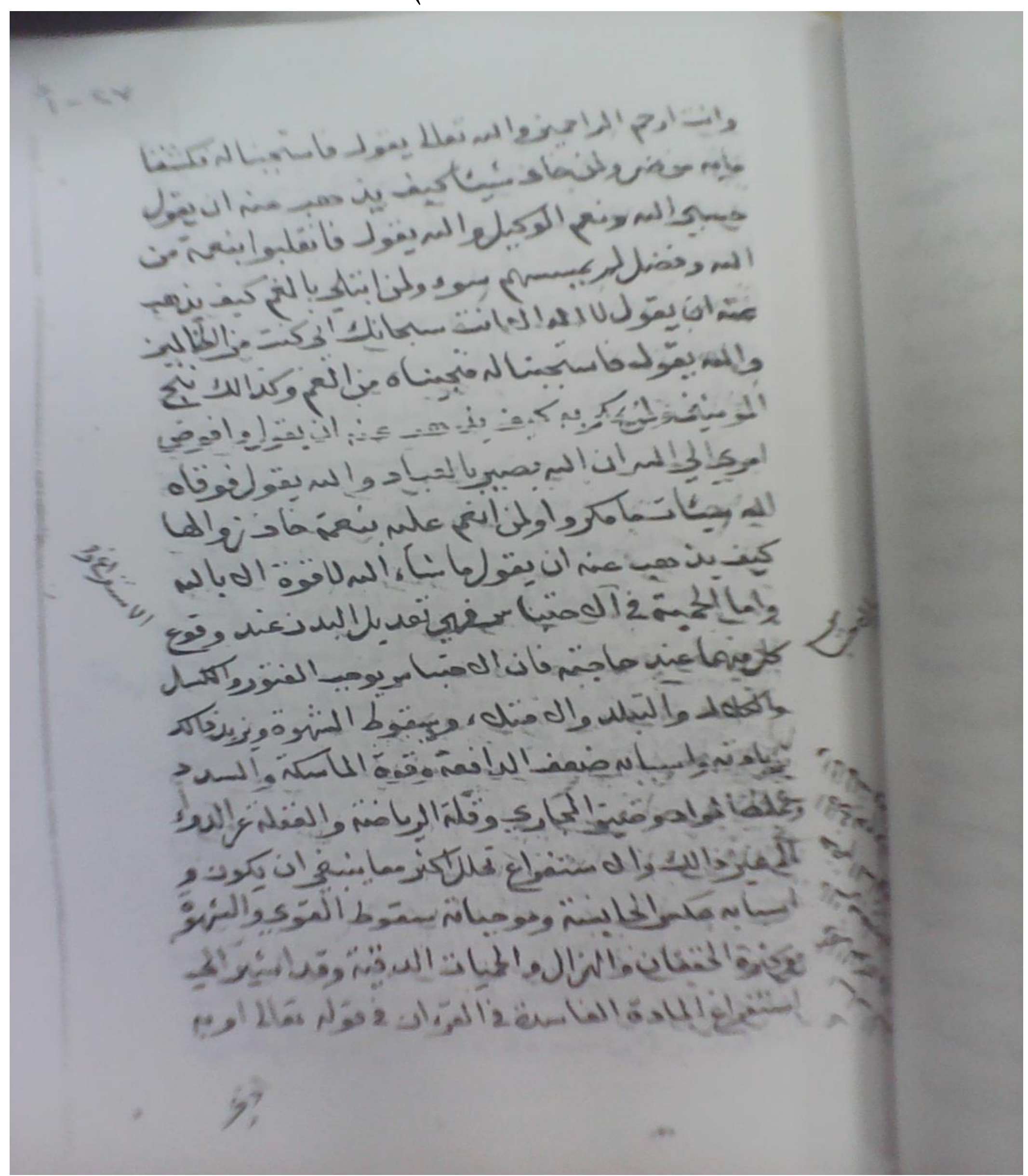


ورقة (٢٥) من المخطوط والذى تناول فيها المؤلف مرض الصرع

وهو المرض الذى أصاب بعض سلاطين المماليك

ملحق (٢)

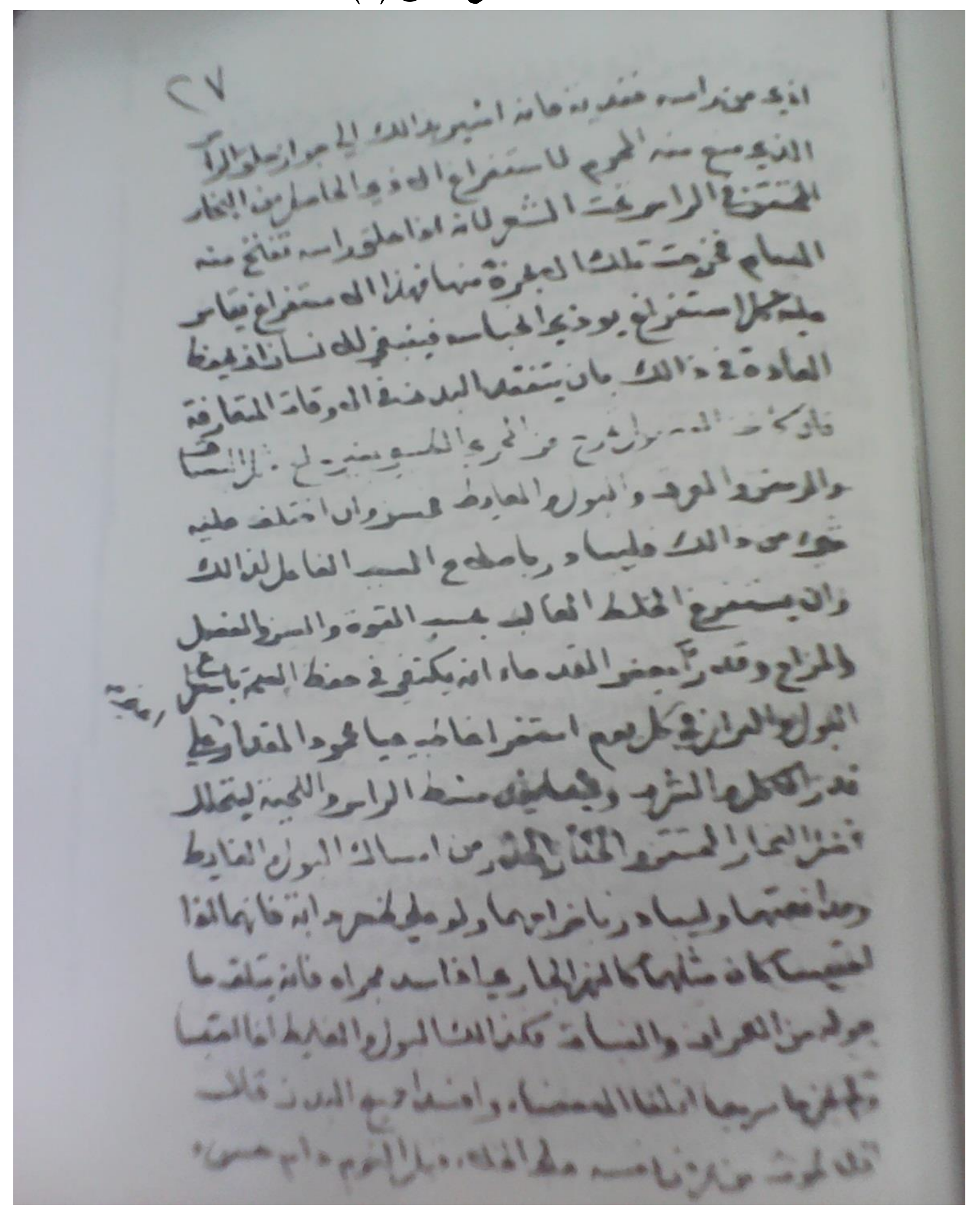
مخطوط رسالة فى الطب " شرح حديث المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء للطرودى (ت: بعد ١١٧٢هـ)"



وانت ارحم الراحمين والله تعالى يقول فاستجبنا له فكشفنا
ما به من ضر ولمن خاف شيئا كيف يذهب عنه ان يقول
حسبي الله ونعم الوكيل والله يقول فانقلبوا بنعمة من
الله وفضل لم يمسسهم سوء ولمن ابتلى بالغم كيف يذهب
عنه ان يقول لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين
والله يقول فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي
المؤمنين ولمن يكر به كيف يذهب عنه ان يقول وافوض
امري الى الله ان الله بصير بالعباد والله يقول فوقاه
الله سيئات ما مكروا ولمن انعم عليه بنعمة خاف زوالها
كيف يذهب عنه ان يقول ما شاء الله لا قوة الا بالله
واما الحمية في الاحتباس فهي تعديل البدن عند وقوع
كل منهما عند حاجته فان الاحتباس يوجب الفتور والكسل
والخدر والتبلد والامتلاء ويسقوط الشهوة ويزيد ذلك
بزيادته واسبابه ضعف الدافعة وقوة الماسكة والسدد
وغلظ المواد وضيق المجاري وقلة الرياضة والغفلة عن الدواء
المعين على ذلك والاستفراغ قد لا يكثر مما ينبغي ان يكون و
اسبابه عكس الحابسة وموجباته سقوط القوى والشهوة
وكثرة الخفقان والهزال والحميات الدقية وقد اشير الى
استفراغ المادة الفاسدة في القرآن في قوله تعالى اوبهم

ورقة (٢٧أ) من المخطوطة وقد تناولت الاعراض الناتجة عن مرض "الاحتباس" وهو من الامراض الذى اصاب سلاطين المماليك.

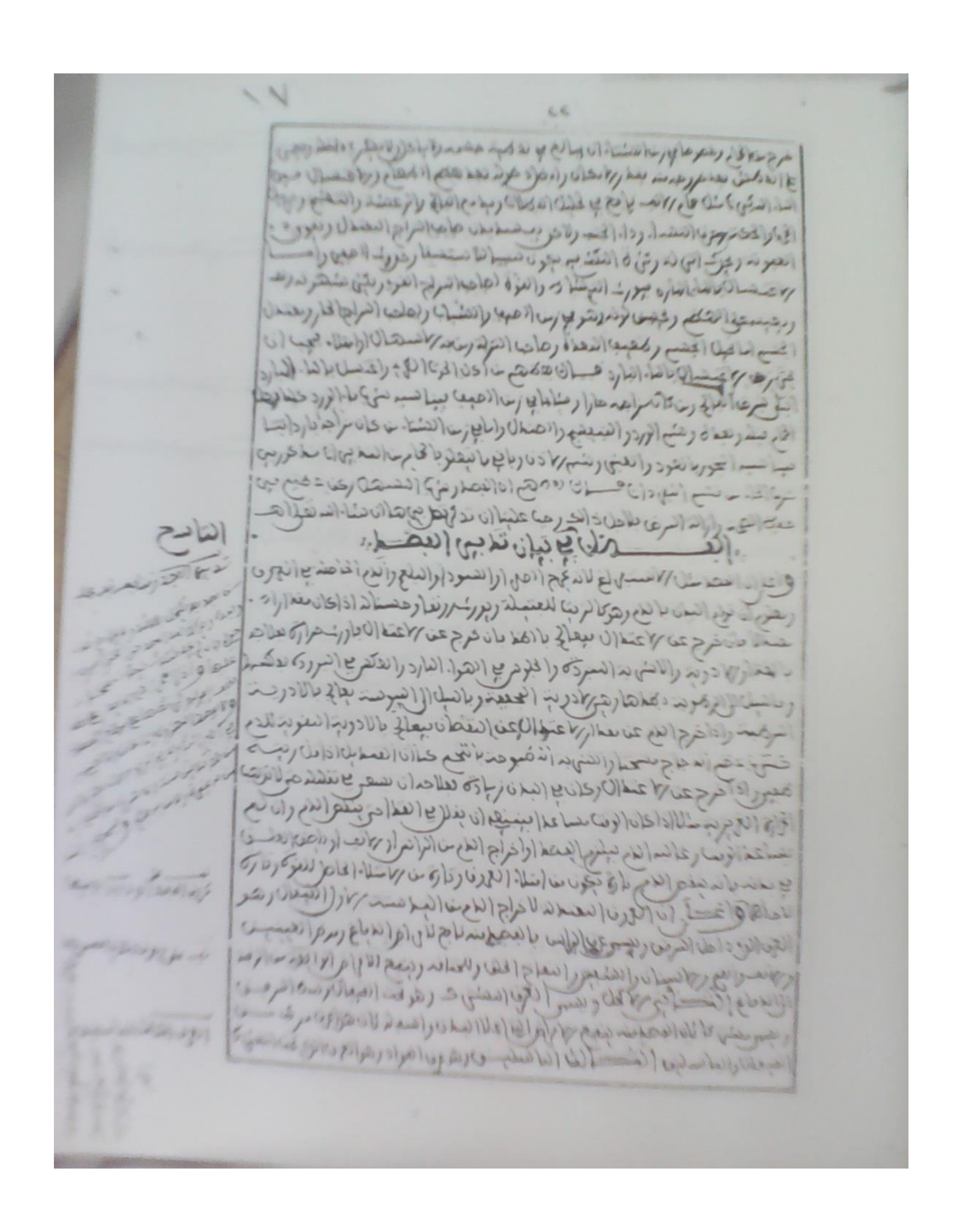
تابع ملحق (٢)



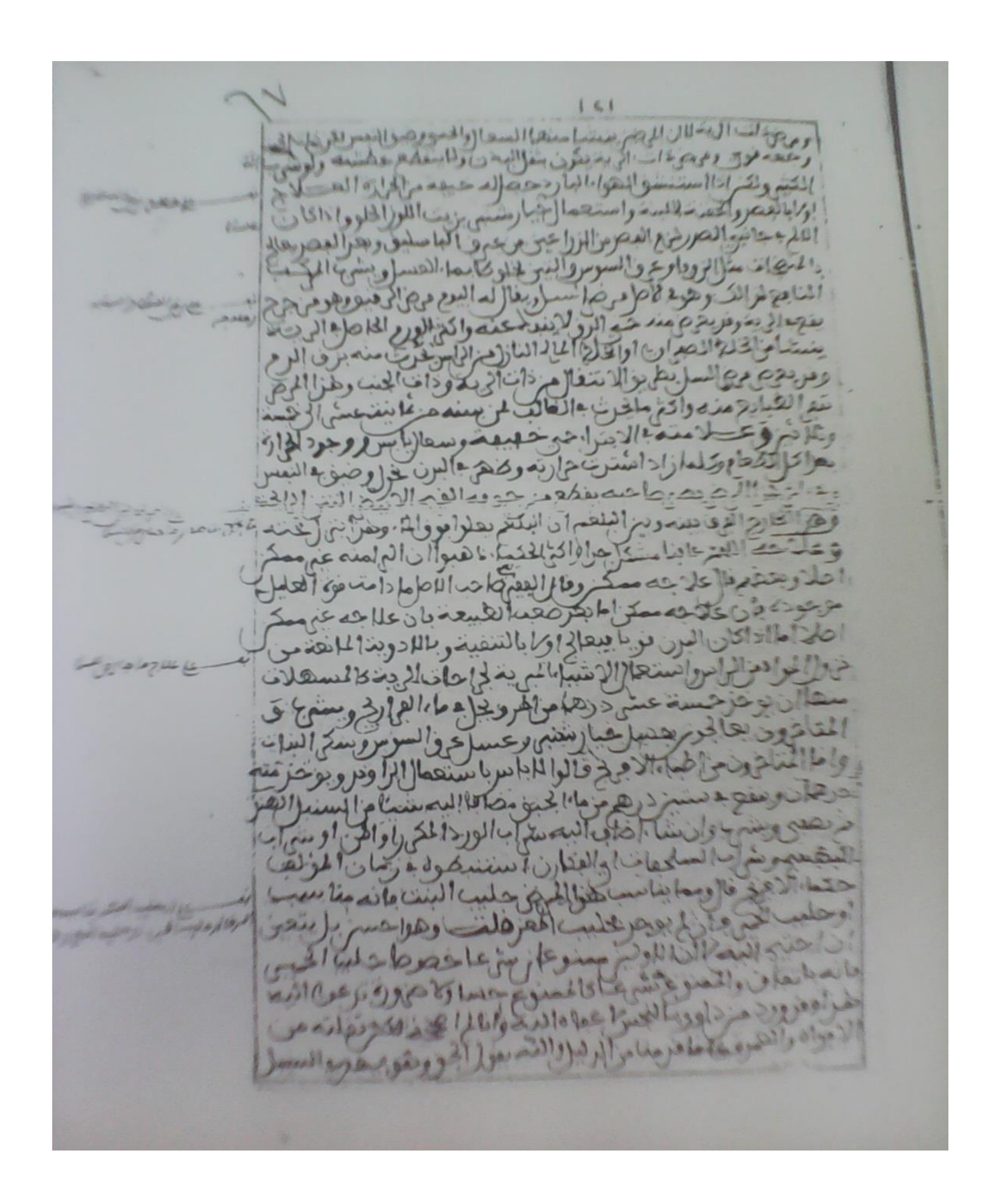
ورقة (٢٧ ب) من مخطوط رسالة فى الطب شرح حديث: المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء للطرودى(ت: بعد ١١٧٢هـ)

ملحق رقم (٣)

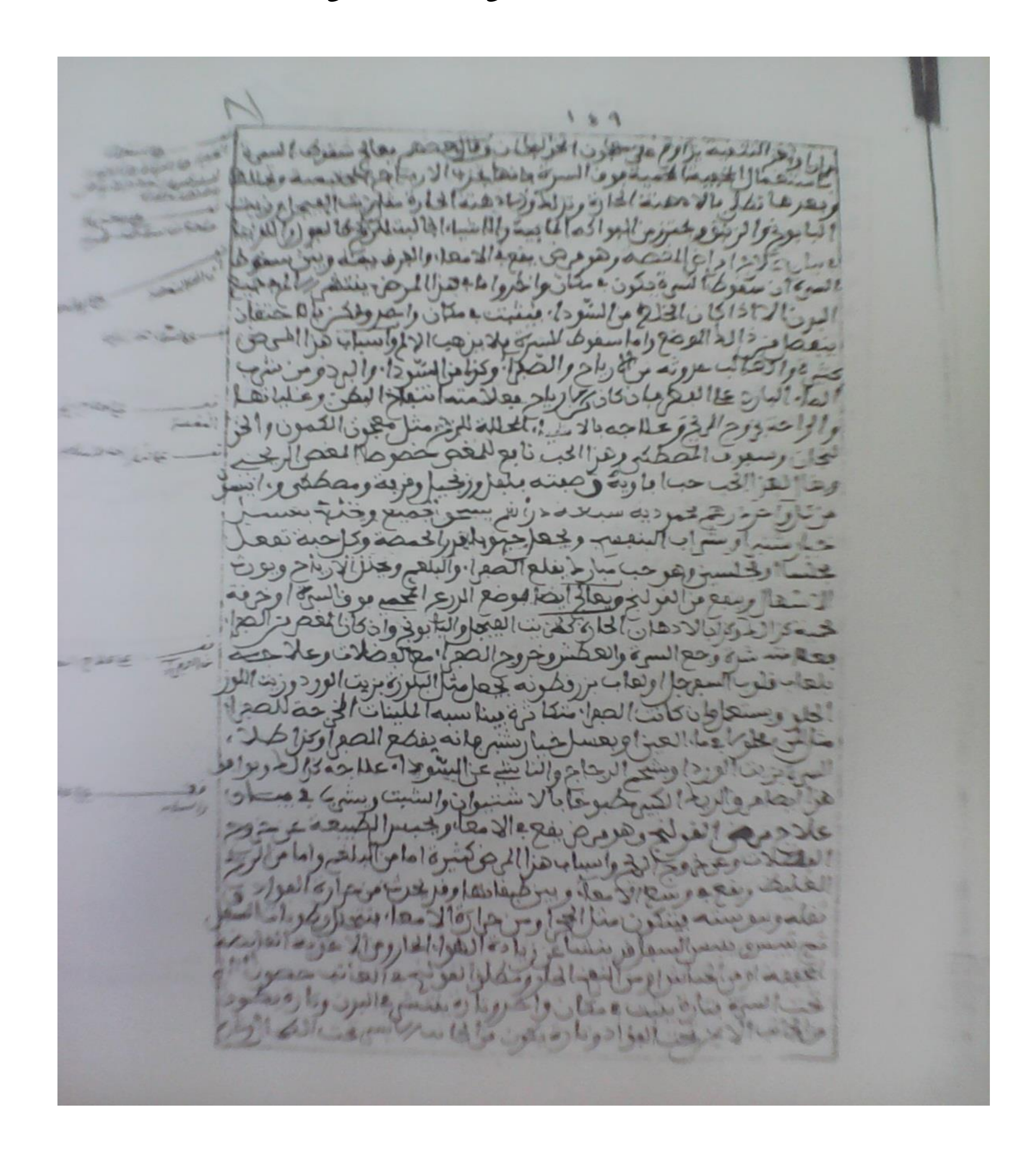
مخطوط " المجموع فى الطب" لابن حجيج (ت: بعد ١٢٨٠هـ) ورقة(١٧أ) وتتناول تدبير العلاج بالصفد



تابع ملحق رقم (٣) ورقة (٦٧ أ) وتتناول مرض السلّ

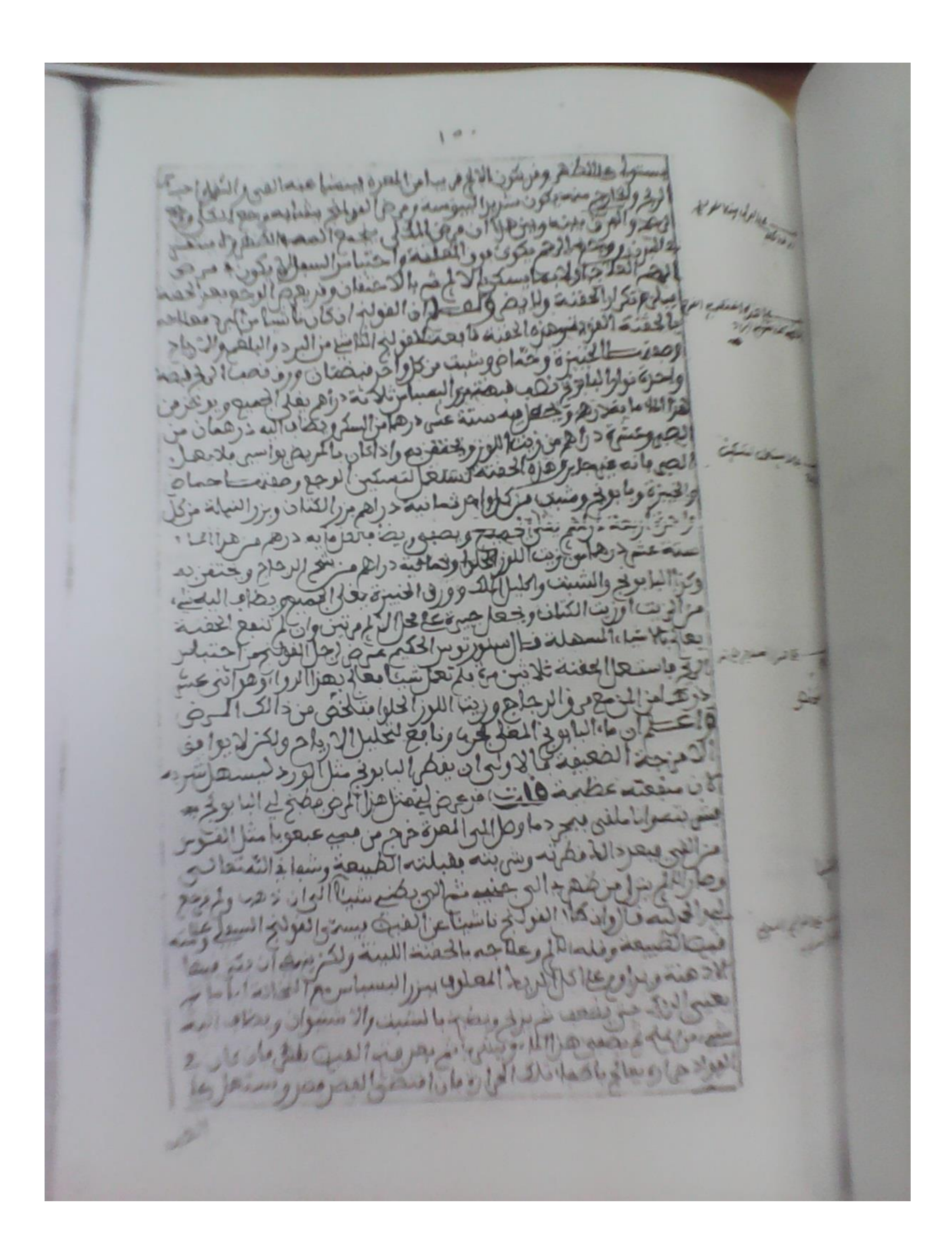


تابع ملحق رقم (٣) ورقة (٨١ أ– ٨١ب) وتتناول شرح مرض القولنج وهو أحد الأمراض التى كانت تصيب السلاطين والامراء فى العصر المملوكى.



ورقة (٨١ أ)

تابع ملحق (٣)



ورقة (٨١ ب)

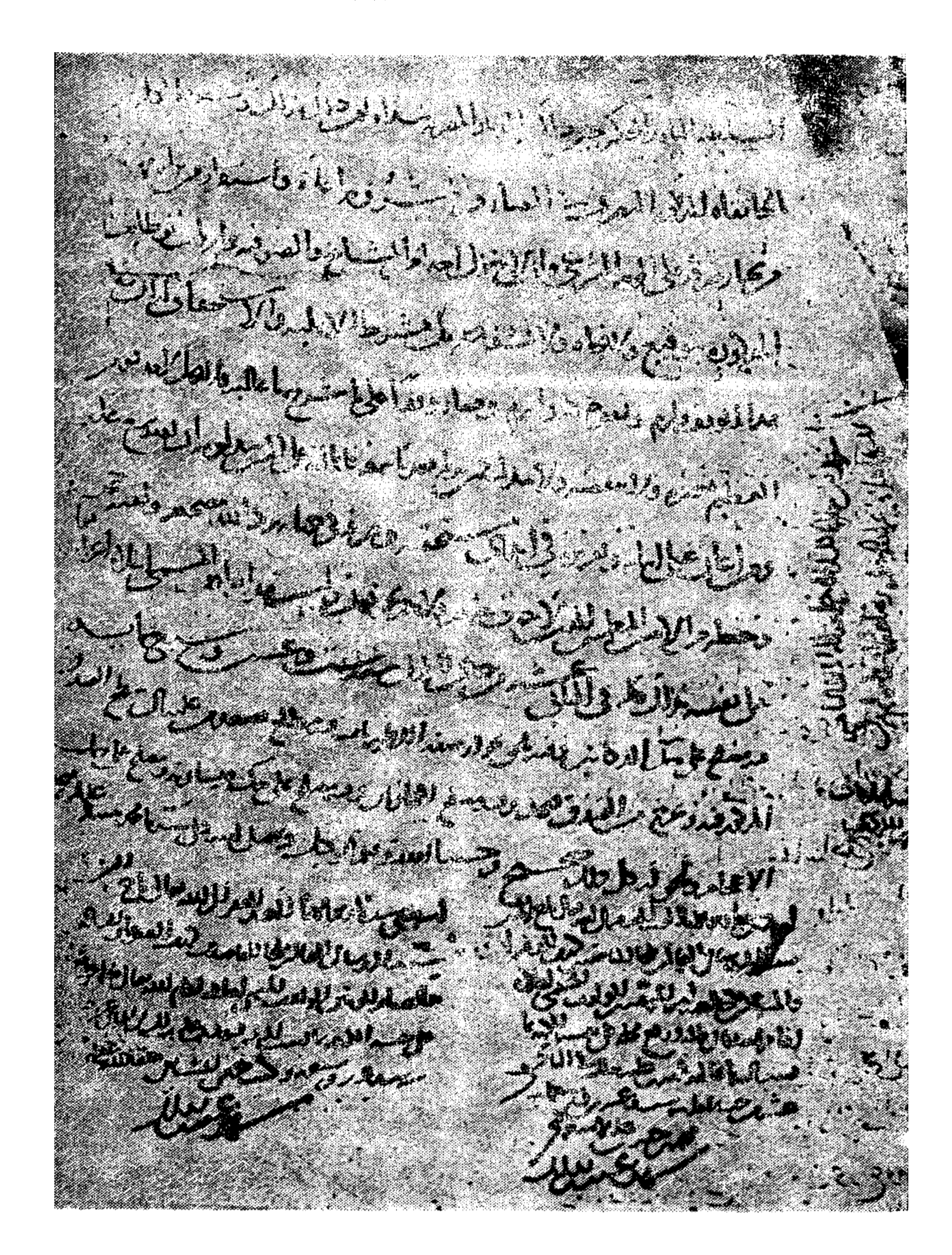
ملحق (٤) وثيقة وقف البيمارستان المنصورى

بداية الوثيقة

تابع ملحق (٤) وثيقة وقف البيمارستان المنصورى

تابع ملحق رقم(٤) وثيقة وقف البيمارستان المنصورى

تابع ملحق رقم(٤)



نهاية الوثيقة

ملحق رقم (٥) صور البيمارستان المنصورى



البيمارستان المنصورى أنشأه السلطان المنصورى قلاوون ،و أسند مهمة الإشراف علي العمارة، للأمير "علم الدين سنجر الرفاعى"، وبدأت العمارة في (ربيع الآخر ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، وتمت حسب النص التأسيسي في (جمادي الأولي ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ويوجد بالشارع المعروف الأن بشارع المعز لدين الله الفاطمي، ويشتمل هذا المجمع علي مدرسة وضريح ومكتب سبيل أيضاً، ويقال أن البيمارستان، هو السبب الأول إنشاء هذا المجمع المعماري الضخم.

نقلاً عن:

http://www.abou-alhool.com/arabic1/details.php?id=25509#.VSj8wtysUcZ

ملحق رقم (٦) صور بيمارستان أرغون الكاملى بمدينة حلب





يقع بيمارستان أرغون الكاملي بالقرب من خان الجمرك في حلب القديمة أنشأه أرغون الكاملي نائب السلطنة المملوكية في حلب وذلك في العام354 ، في عهد السلطان عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون ذلك وفق النقوش المكتوبة على مدخل البيمارستان .

نقلاً عن: ar.wikipedia.org/wiki /بيمارستان

ملحق رقم (٧) صور البيمارستان المؤيدى



نقلاً عن: http://www.startimes.com/?t=3436511

<u>ملحق رقم (٩) صور البيمارستان القيمرى</u>





ينسب الى الأمير الكبير سيف الدين علي بن يوسف بي أبي الفوارس القيمري وقد توفي سنة ٦٥٤هـ ودفن في القبة التي بناها تجاه البيمارستان بوشر بالبناء سنة ٦٥٤هـ كما يفهم من نقش وجد في البيمارستان وتمت العمارة سنة ٦٥٦هـ.

نقلاً عن :

http://awqaf-damas.com/?page=show_det&category_id=139&id=1581

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:-

١- وثائق وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى، دراسة ونشر وتحقيق: محمد محمد أمين، ملاحق ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه،ج١، ١٩٧٦م.

ثانياً: المخطوطات:

- **حاجى باشا:(ت:٨٢٠هـ/١٤١٧م) حسام الدين خضر بن على بن مروان الخطاب الايدينى:**

٢- شفاء الاسقام ودواء الآلام، ج١، مخطوطة بمكتبة المسجد النبوي، المدينة المنورة، ٦١٠/٢، رقم ٢٥٠.

- **ابن حجيج:(ت: بعد ١٢٨٠هـ/بعد ١٨٦٣م) أبو عبد الله محمد الحجيج الأندلسي التونسي الحجيج:**

٣- المجموع فى الطب، مخطوطة بمكتبة المسجد النبوي، المدينة المنورة، طب ٦/ ٦١٠، ميكروفيلم: ١٢٩.

- **الطرودى:(ت: بعد ١١٧٢هـ) مصطفى بن أحمد الحنفى التونسى:**

٤- رسالة في الطب شرح حديث: المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء، مخطوطة بمكتبة المسجد النبوى، المدينة المنورة، طب ٦١٠/٤.

ثالثاً: المصادر العربية المطبوعة:-

١- **القرآن الكريم.**
٢- **الحديث الشريف.**

- **ابن الأثير:(ت:٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري:**

٣- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط.١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م.

- **الاصطخرى:(ت:٣٤٦هـ/٩٥٧م) أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري:**

٤- المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.

- **ابن أبى أصيبعة:(ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي:**

٥- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

- **ابن إياس:(ت:٩٢٩هـ/١٥٢٣م) أبو البركات زين العابدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:**

٦- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، بيروت، ١٩٧٢م.

- **ابن أيبك:(ت:٧٢٥هـ/١٣٢٥م) أبى بكر بن عبدالله بن أيبك الدوادارى:**

٧- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م.

- **البصراوى:(ت:٩٠٥هـ/١٥٠٠م) على بن يوسف بن على بن أحمد:**

٨- تاريخ البصراوى، تحقيق : أكرم حسن العلبى، ط.١، دار المأمون للنشر، دمشق، ١٩٨٨م.

- **ابن بطوطة:(ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة:**

٩- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق

العربى، د.ت.

- **البكري:(ت:٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري الأندلسي:**

١٠- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط.٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

١١- المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٩٢م.

- **بيبرس:(ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) ركن الدين بن عبدالله المنصورى:**

١٢- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالدس. ريتشارد، ط.١، الشركة المتحدة، بيروت، ١٩٩٨م.

- **التهانوى (ت: بعد ١١٥٨هـ/ بعد ١٧٤٥م) محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي:**

١٣- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، ترجمه من الفارسية إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، ط.١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.

- **الجرجانى:(ت:٨١٦هـ/١٤١٣م) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني:**

١٤- كتاب التعريفات، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

- **ابن الجزرى:(ت:٧٣٨هـ/١٣٣٨م) شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبى بكر الجزرى القرشى:**

١٥- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ط.١، دار المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م.

- **الجوهرى:(ت:٣٩٣هـ/١٠٠٣م) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي:**

١٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط.١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧م.

- **ابن الجيعان:(ت:٨٤٧هـ/٩٠٢م) بدر الدين أبوالبقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبدالغنى:**

١٧- القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الاشرف، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط.١، منشورات جرّوس– برس، لبنان، ١٩٨٤م.

- **ابن حبيب:(ت:٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الحسن بن عمر بن حبيب:**

١٨- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

- **ابن حجر:(ت:٨٥٢هـ/١٤٤٨م) أبوالفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني:**

١٩- إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م.

٢٠- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ط.٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند،١٩٧٢م.

٢١- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: على محمد عمر، ط.١، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢٢- تبصرة المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق: محمد على النجار، دار المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

- **ابن عبدالحق:(ت:٧٣٩هـ/١٣٣٩م) عبد المؤمن بن عبدالحق ابن شمائل القطيعى البغدادي:**

٢٣- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط.١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

- **ابن الحمصى:(ت:٩٣٤هـ/١٥٢٧م) أحمد بن محمد بن عمر الأنصارى:**

٢٤- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق: عبدالعزيز فياض حرفوش، ط.١، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٠م.

- **الحميري:(ت:٩٠٠هـ/١٤٩٥م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري:**

٢٥- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، مؤسسة ناصر للثقافة،

بيروت، ١٩٨٠م.

- **ابن خلدون:(ت:٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي:**

٢٦- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٧- رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

- **ابن خلكان:(ت:٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان:**

٢٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس دار صادر، بيروت، ج١،ج٢،ج٣،ج٦، ١٩٠٠م/ج٤،١٩٧١م/ ج٥،١٩٩٤م.

- **الخوارزمى:(ت:٣٨٣هـ/٩٩٣م) محمد بن العباس الخوارزمي، أبوبكر:**

٢٩- مفيد العلوم ومبيد الهموم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٩٩٨م.

- **الخوارزمى:(ت:٣٨٧هـ/٩٩٧م) محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب البلخى الخوارزمى:**

٣٠- مفاتيح العلوم، تحقيق: ابراهيم الأبيارى، ط.٢، دار الكتاب العربى، القاهرة، د.ت.

- **ابن دقماق:(ت:٨٠٩هـ/١٤٠٧م)إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي:**

٣١- الانتصار لواسطة عقد الامصار فى تاريخ مصر وجرافتها، الجزء الأول، المطبعة الكبرى، بولاق، ١٨٩٣م، منشورات المكتب التجاري، بيروت

- **الـــذهبـــي:(ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي:-**

٣٢- معجم الشيوخ الكبير، تحقيق: محمد الحبيب، ط.١، مكتبة الصديق، الطائف، ١٩٨٨م.

٣٣- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط.٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

٣٤- العبر فى خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- **الرازي:(ت:٣١٣هـ/٩٢٥م) أبو بكر، محمد بن زكريا الرازي:**

٣٥- الحاوي في الطب، تحقيق: هيثم خليفة طعيمى، ط١، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ٢٠٠٠م.

- **ابن رافع:(ت:٧٧٤هـ/١٣٧٢م) محمد بن هجرس بن رافع:**

٣٦- الوفيات، تحقيق: صالح مهدى عباس، بشار عواد معروف، ط.١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.

- **ابن رجب:(ت:٧٩٥هـ/١٣٩٣م) زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن:**

٣٧- ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، ط.١، دار مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٥م.

- **الزبيدي:(ت:١٢٠٥هـ/١٧١٩م) محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني:**

٣٨- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الإسكندرية، (د.ت).

- **الزركلي:(ت:١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي:**

٣٩- الأعلام، ط.١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

- **ابن زنبل:(ت:٩٦٠هـ/١٥٥٣م) أحمد الرمال:**

٤٠- آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **زين الدين الرازي:(ت:٦٦٦هـ/١٢٦٨م) أبوعبدالله محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الحنفى الرازي:**

٤١- مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط.٥، دار المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م.

- **السبكي:(ت:٧٧١هـ/١٣٧٠م) تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي:**

٤٢- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد على النجار، أبو زيد شلبى، محمد أبو العيون، ط.١، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٤٨م.

٤٣- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د.محمود محمد الناحي& د.عبد الفتاح محمد الحلو، ط.٢، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.

- **السخاوى:(ت:٩٠٢هـ/١٤٩٧م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي:**

٤٤- التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٤٥- التبر المسبوك فى ذيل السلوك، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٤٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- **ابن سيده:(ت:٤٥٨هـ/١٠٦٦م) أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسى:**

٤٧- المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٩٦م.

- **ابن سينا:(ت:٤٢٨هـ/١٠٣٧م) الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك:**

٤٨- القانون في الطب، تحقيق: محمد أمين الضناوي، (د.ت).

- **السيوطي:(ت:٩١١هـ/١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي:**

٤٩- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧م.

٥٠- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ت.

٥١- نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتى، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

- **الشارعي:(ت:٦١٥هـ/١٢١٨م) موفق الدين أبو محمد بن عبدالرحمن، ابن الشيخ أبى الحرم مكي بن عثمان الشارعي الشافعي:**

٥٢- مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، ط.١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **أبو شامة:(ت:٦٦٥هـ/١٢٤٨م) أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي:**

٥٣- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط.١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

- **ابن شاهين:(ت:٨٩٣هـ/١٤٨٧م) غرس الدين خليل، ابن شاهين:**

٥٤- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- **ابن الشحنة:(ت:٨٩٠هـ/١٤٨٥م) أبى الفضل محمد بن الشحنة:**

٥٥- الدّرّ المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، تقديم: عبدالله محمد الدرويش، دار الكتاب العربى، دمشق،١٩٨٤م.

- **ابن شداد:(ت:٦٣٢هـ/١٢٣٤م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، بهاء الدين ابن شداد:**

٥٦- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين

الشيال، ط.٢، مكتبة الخارجي، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **ابن شهبة:(ت:٨٥١هـ/١٤٤٨م) تقي الدين أبى بكر بن أحمد بن قاضى شهبة الأسدى الدمشقي:**

٥٧- طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، ط.١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.

٥٨- تاريخ ابن شهبة، تحقيق: عدنان درويش، ١٩٩٤م.

- **الشوكانى:(ت:١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى:**

٥٩- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

- **الصفدى:(ت:٧٦٤هـ/١٣٦٣م) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله صلاح الدين الصفدى:**

٦٠- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د.علي أبو زيد& د.نبيل أبو عشمة& د.محمد موعد& د.محمود سالم محمد، ط.١، دار الفكر المعاصر، بيروت & دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

٦١- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركى مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،٢٠٠٠م.

- **الصيرفى:(ت:٩٠٠هـ/١٤٩٤م) على بن داود الخطيب الصيرفى:**

٦٢- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشى، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠م.

- **ابن طولون:(ت:٩٥٣هـ/١٥٤٦م) شمس الدين محمد بن على بن خمارويه بن طولون:**

٦٣- القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد أحمد دهمان، ط.٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٤٩م.

- **ابن العجمى:(ت:٨٨٤هـ/١٤٨٠م) أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، سبط بن العجمى:**

٦٤- كنوز الذهب فى تاريخ حلب، ط.١، دار القلم، حلب، ١٩٩٦م.

- **ابن العراقى:(ت:٨٢٦هـ/١٤٢٣م) ولى الدين أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين ابن العراقى:**

٦٥- الذيل على العبر فى خبر من غبر، تحقيق: صالح مهدى عباس، ط.١، بيروت، ١٩٨٩م.

- **العصامى:(ت:١١١١هـ/١٦٩٩م) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامى:**

٦٦- سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود& على محمد معوض، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- **العليمى:(ت:٩٢٨هـ/١٥٢٢م) عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العليمى:**

٦٧- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد، دار مكتبة دنيس، عمان، د.ت.

- **ابن العماد:(ت:١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح:**

٦٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط.١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م.

- **العمرى:(ت:٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين:**

٦٩- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.

- **العيدروس:(ت:١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) محيى الدين بن عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس:**

٧٠- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- **العينى:(ت:٨٥٥هـ/١٤٥١م) أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى:**

٧١- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

- **الغزى:(ت:٩٨٤هـ/١٥٧٧م) محمد بن محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي، أبو البركات، بدر الدين ابن رضي الدين:**

٧٢- المطالع البدرية في المنازل الرومية، تحقيق: المهدي عيد الرواضيّة، ط.١، دار السويدى، بيروت، ٢٠٠٤م.

- **الغزى:(ت:١٠٦١هـ/١٦٥١م) نجم الدين محمد بن محمد الغزى:**

٧٣- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- **الغزى:(ت:١١٦٧هـ/١٧٥٤م) شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي:**

٧٤- ديوان الاسلام، تحقيق: سيد كسروى حسن،ج٢، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م.

- **الفاسى:(ت:٨٣٢هـ/١٤٢٩م) محمد بن أحمد بن على:**

٧٥- ذيل التقييد فى رواة السنن والأسانيد، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

- **أبو الفداء:(ت:٧٣٢هـ/١٣٣١م) الملك المؤيد أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة:**

٧٦- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة،(د.ت).

- **الفراهيدي:(ت:١٧٠هـ/٧٨٦م) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري:**

٧٧- كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، (د.ت)

- **ابن الفقيه:(ت:٣٦٥هـ/٩٧٦م) أبو عبدالله أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذانى:**

٧٨- البلدان، تحقيق: يوسف الهادى، بيروت، ١٩٩٦م.

- **ابن فهد:(ت:٨٧١هـ/١٤٦٦م) محمد بن محمد بن محمد، أبو الفضل تقى الدين ابن فهد الهاشمى:**

٧٩- لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

- **الفيروز آبادي:(ت:٨١٧هـ/١٤١٥م) مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى:**

٨٠- القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ط.٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥م.

- **الفيومي:(ت:نحو٧٧٠هـ/١٣٦٨م) أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي:**

٨١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).

- **القرشى:(ت:٧٧٥هـ/١٣٧٣م) عبدالقادر بن محمد بن نصرالله القرشى:**

٨٢- الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية، دار مير محمد كتب خانه، كراتشى، د.ت.

- **القزويني:(ت:٦٨٢هـ/١٢٨٣م) زكريا بن محمد بن محمود القزويني:**

٨٣- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).

- **ابن قطلوبغا:(ت: ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني (نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني:**

٨٤- تاج التراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط.١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م.

- **ابن القف:(ت:٦٨٥هـ/١٢٨٦م) أبى الفرج ابن موفق الدين يعقوب بن إسحاق:**

٨٥- العمدة فى الجراحة، ط.١، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، د.ت.

- **القلقشندي:(ت:٨٢٠هـ/١٤١٧م) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي:**

٨٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

- **القيسى:(ت:٨٤٢هـ/١٤٣٨م) محمد بن عبدالله(ابى بكر) بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيسى:**

٨٧- الرد الوافر، تحقيق: زهير الشاويش، ط.١، دار المكتب الإسلامى، بيروت، ١٩٧٣م.

- **ابن القيم الجوزية:(ت:٧٥١هـ/١٣٤٩م) محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية:**

٨٨- الداء والدواء، ط.١، دار المعرفة، المغرب، ١٩٩٧م.

- **الكتبى:(ت:٧٦٤هـ/١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين:**

٨٩- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط.١، دار صادر، ج١(بيروت، ١٩٧٣م)؛ ج٢،ج٣،ج٤(بيروت، ١٩٧٤م).

- **ابن كثير:(ت:٧٧٤هـ/١٣٧٢م) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي:**

٩٠- البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.

٩١- طبقات الشافعيين، تحقيق: د.أحمد عمر هاشم، د.محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م.

- **أبو المحاسن:(ت:٨٧٤هـ/١٤٧٠م) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي:**

٩٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣م.

٩٣- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عزالدين، ط.١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.

٩٤- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.

٩٥- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت)

- **ابن مفلح:(ت:٨٨٤هـ/١٤٧٩م) ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن محمد بن مفلح:**

٩٦- المقصد الارشد فى ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن بن سلمان، ط.١، دار مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٩٠م.

- **المقدسى:(ت:نحو٣٨٠هـ/نحو٩٩٠م) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري:**

٩٧- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط.٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

- **المقريزي:(ت:٨٤٥هـ/١٤٤١م) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي:**

٩٨- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٩٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٠٠- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: كرم حلمى فرحات، ط.١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٠١- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج١، تحقيق: د.جمال الدين الشيال؛ ج٢،ج٣ حققه د.محمد حلمي محمد أحمد، ط.١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (د.ت).

- **ابن الملقن:(ت:٨٠٤هـ/١٤٠١م) عمر بن على بن أحمد الشافعى:**

١٠٢- طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبه، ط.٢، دار مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **ابن مماتى:(ت:٦٠٦هـ/١٢٠٩م) اسعد بن مماتى، الوزير الأيوبى:**

١٠٣- كتاب قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة،

١٩٩١م.

- **المهلبى:(ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م) الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي:**

١٠٤- الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تحقيق: تيسير خلف، (د.ت).

- **ابن منظور:(ت:٧١١هـ/١٣١١م) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي:**

١٠٥- لسان العرب، ط.٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣م.

- **ناصر خسرو علوى:(ت:٤٨١هـ/١٠٨٨م) أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي:**

١٠٦- سفر نامه، ترجمة: يحيي الخشاب، ط.٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

- **نشوان الحميرى(ت:٥٧٣هـ/١١٧٧م) نشوان بن سعيد الحميرى اليمني:**

١٠٧- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين عبد الله العمرى& مطهر على & يوسف محمد عبد الله، ط.١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩م.

- **النعيمى:(ت: ٩٢٧هـ/١٥٢١م) عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي:**

١٠٨- الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط.١، بيروت، ١٩٩٠م.

- **ابن النفيس:(ت:٦٨٧هـ/١٢٨٨م) علاء الدين على ابن أبى الحزم القرشى:**

١٠٩- الموجز فى الطب، تحقيق: عبد الكريم العزباوى، ط.٢، القاهرة، ١٩٩٧م.

- **النويري:(ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري:**

١١٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **الهروي:(ت: ٦١١هـ/١٢١٥م) على بن أبى بكر بن على الهروى:**

١١١- الإشارات إلى معرفة الزيارات، ط. ١، دار مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **ابن الوردي:(ت:٧٤٩هـ/١٣٤٩م) أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي:**

١١٢- تاريخ ابن الوردي، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

١١٣- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: أنور محمود زناتى، ط.١، دار مكتبة الثقافة الاسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

- **اليافعي:(ت:٧٦٨هـ/١٣٦٨م) أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي:**

١١٤- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م

- **ياقوت الحموي:(ت:٦٢٦هـ/١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي:**

١١٥- معجم البلدان، ط.٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

- **اليعقوبي:(ت: بعد ٢٩٢هـ/ بعد ٩٠٥م) أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي:**

١١٦- البلدان، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

- **اليوسفى:(ت:٧٥٩هـ/١٣٥٨م) موسى بن محمد بن يحيي اليوسفى:**

١١٧- نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط.١،عالم الكتب، بيروت،١٩٨٦م.

- **اليونيني:(ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م) موسى بن محمد اليونيني:**

١١٨- ذيل مرآة الزمان، تحقيق: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، ط.٢، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٢م.

رابعاً: المراجع العربية:-

- **إبراهيم حمادة :**

١- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **إبراهيم مدكور:**

٢- فى الفكر الإسلامي، ط.١، سميركو للطباعة والنشر، د.ت.

- **إبراهيم على السيد القلا :**

٣- نظم الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة العلم والإيمان، دسوق، ٢٠٠٧م.

- **ابراهيم مصطفى & أحمد الزيات& حامد عبدالقادر& محمد النجار:**

٤- المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ت.

- **احمد احمد بدوى:**

٥- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة، ١٩٧٢م.

- **أحمد صبحى منصور:**

٦- العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- **أحمد عبد الرازق:**

٧- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك(دراسة عن الرشوة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.

٨- المرأة فى مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **أحمد عيسى بك:**

٩- تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ، ط.٢، دار الرائد العربى ، بيروت ، ١٩٨١م.

- **أحمد مختار عبدالحميد عمر:**

١٠-معجم اللغة العربية المعاصرة، ط.١، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.

- **البيومى اسماعيل:**

١١- النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الصحافة)، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **جمال الدين الشيال:**

١٢-تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

- **حسن أحمد التطاوى:**

١٣-أهل العمامة فى مصر عصر سلاطين المماليك، ط.١،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ،٢٠٠٧م.

- **حسن الباشا:**

١٤-الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

- **حكيم أمين عبد السيد:**

١٥–قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٧م.

- **حمدى عبد المنعم محمد حسين:**

١٦–دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.

- **زبيدة عطا:**

١٧–بلاد الترك فى العصر الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربى، القاهرة ،١٩٨٦م.

- **سعيد عبدالفتاح عاشور:**

١٨–الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٩–العصر المماليكى فى مصر والشام، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٩٤م.

٢٠–المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ط.١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٢١–الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

- **سهام مصطفى أبو زيد :**

٢٢–الحسبة فى مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٦م.

- **سمير يحيي الجمال:**

٢٣– تاريخ الطب والصيدلة المصرية، الهيئة العامة للكتاب(فرع الصحافة)، ١٩٩٩م.

- **سيدة اسماعيل الكاشف:**

٢٤–مصر فى عصر الإخشيديين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.

- **عاصم محمد رزق:**

٢٥–خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧م.

- **عامر النجار:**

٢٦– فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية، ط.٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **عبدالحى الكتانى:**

٢٧–فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، دار الغرب الإسلامى، بيروت،١٩٨٢م.

- **عبد الرحمن زكى:**

٢٨–قلعة صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثار، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١م.

- **عبد الرحمن محمود عبد التواب:**

٢٩– قايتباى المحمودى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م.

- **عبد اللطيف حمزة :**

٣٠–الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **عبدالمنعم ماجد:**

٣١- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، ج١، ط.٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣٢-التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.

٣٣-تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى، ط.٧، القاهرة، ١٩٩٦م.

- **عثمان عبدالحميد عشرى:**

٣٤-نظم الحكم والإدارة على عصر سلاطين المماليك في مصر: الدولة الأولى(٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، د.ت.

- **عثمان على محمد عطا:**

٣٥-الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والأقتصادى والاجتماعي(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، ط.١، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

- **عصام الدين عبد الرءوف الفقى :**

٣٦- تاريخ الفكر الإسلامي، ط١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٧م.

- **عطية القوصى:**

٣٧-عصر سلاطين المماليك، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠٠٧م.

- **علاء طه رزق:**

٣٨-دراسات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك، ط.١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

- **على محمد محمد الصلابى:**

٣٩-الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، بيروت، ٢٠٠٨م.

٤٠-صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٨م.

- **علية عبد السميع الجنزورى:**

٤١- الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- **عمر رضا كحالة:**

٤٢-معجم المؤلفين، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨٢م.

- **فاطمة مصطفى عامر:**

٤٣-تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج١، ج٢، (سلسلة تاريخ المصريين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٠م.

- **فيصل محمد خير الزراد:**

٤٤-الصرع فى الطب وعلم النفس، دار المريخ ، الرياض،١٩٩٠م.

- **قاسم عبده قاسم:**

٤٥-دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعي، القاهرة، ١٩٨٣م.

٤٦-عصر سلاطين المماليك، ط.١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.

- **قدرى حافظ طوقان :**

٤٧–العلوم عند العرب، مكتبة مصر، د.ت.

- **لطفى احمد نصار:**

٤٨– وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب(فرع الصحافة)، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **محاسن الوقاد:**

٤٩–مصر فى العصر المملوكى(دراسات حضارية)، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- **محمد أحمد دهمان:**

٥٠–معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكي، ط.١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م.

- **محمد حمزة إسماعيل:**

٥١–السلطان المنصور قلاوون (تاريخ– أحوال مصر فى عهده – منشآته المعمارية)، ط.٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **محمد رواس قلعجى& حامد صادق :**

٥٢– معجم لغة الفقهاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

- **محمد عبد الرحمن مرحبا:**

٥٣– المرجع فى تاريخ العلوم عند العرب، ط.١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.

- **محمد عبد العظيم الخولى:**

٥٤–العلماء فى مصر فى العصر المملوكى، ط.١، دار الفكر العربى، القاهرة، ٢٠١٤م.

- **محمد عبدالغنى الأشقر:**

٥٥–سلار الأمير التترى المسلم نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٦٠- ٧١٠هـ/ ١٢٦٠-١٣١٠م)، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٥٦–الملحمة المصرية عصر سلاطين المماليك الجراكسة ورد الاعتبار فى عهد برسباى(٧٦٧-٨٢٩هـ/١٣٦٥- ١٤٢٦م)، ط١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٥٧–أتابك العساكر فى القاهرة عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م)، ط.١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- **محمد عبدالمنعم الجمل:**

٥٨–معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى، دار المعرفة الجامعية، د.ت.

- **محمد كامل حسين:**

٥٩–الموجز فى الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، د.ت.

- **محمد كرد على:**

٦٠–خطط الشام، ط.٣، مكتبة النورى، دمشق، ١٩٨٣م.

- **محمود الحويري:**

٦١–مصر فى العصور الوسطى، ط.١،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦م.

- **محمود رزق سليم:**

٦٢-عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مج٣، مكتبة الآداب،١٩٥١م؛ دار الحمامى، ١٩٦٥م.

- **محمود نديم أحمد فهيم :**

٦٣-الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.

- **نبيلة حسن محمد:**

٦٤-المقتبس من تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط١، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٩م.

- **نبيل محمد عبدالعزيز:**

٦٥-رياضة الصيد فى عصر سلاطين المماليك، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م.

- **نظير حسان سعداوى:**

٦٦-صور ومظالم من عصر سلاطين المماليك، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

- **نهلة أنيس محمد مصطفى:**

٦٧-خوندات العصر المملوكى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠٠٣م.

خامساً: المراجع الأجنبية (المترجمة):-

- **آشتور:**

١- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادى علبة، مراجعة: أحمد غسّان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.

- **أولج فولكف:**

٢- القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة(٩٦٩- ١٩٦٩)، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.

- **جومار:**

٣- وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل منذ نشأتها وحتى سنة ١٨٠٠م، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط.١، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٨م.

- **دوزى:**

٤- تكملة المعاجم العربية، تحقيق: محمد سليم النعيمى، ط.١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ٢٠٠٠م.

- **زيغريد هونكه:**

٥- شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق : مارون عيسى الخورى، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقى، بيروت، ١٩٩٣م.

- **ل.ا ماير:**

٦- الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

- **ح. هايد :**

٧- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- **وليم موير:**

٨- تاريخ دولة المماليك فى مصر، ط١، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٥م.

- **يول غليونجى:**

٩- ابن النفيس، القاهرة، ١٩٨٩م.

سادساً: الدوريات العربية :-

- **إبراهيم محمد حمد المزينى:**

١- المدارس الطبية المتخصصة فى الحضارة الإسلامية، مجلة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث عشر، الرياض، ابريل ١٩٩٥م.

- **بلال حامد ابراهيم:**

٢- أثر المرض المعدى على المعاملات المالية (دراسة مقارنة)، دورية كلية الآداب، جامعة دمنهور، العدد: ٣٧، ٢٠١١م.

- **حمد عبد الرحمن الجنيدل:**

٣- جريمة الرشوة وأثرها فى إعاقة التنمية الاقتصادية، مجلة مركز البحوث، العدد الثانى، أكتوبر ١٩٨٣م.

- **حياة ناصر الحجى:**

٤- المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك فى الفترة ما بين عام ٦٩٤- ٦٩٥هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٥م)، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السابع، ١٩٨٤م.

- **سعود محمد العصفور:**

٥- الألعاب ووسائل التسلية فى العصر المملوكى، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد السابع عشر، (يناير ٢٠٠٥م).

- **شفيق جاسر أحمد محمود:**

٦- المماليك البحرية وقضائهم على الصليبيين فى الشام، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط٢١، العدد ٨١، ٨٢، جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ.

- **صلاح سليم طايع:**

٧- الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى ودوره السياسى خلال عهدى المنصور قلاوون والأشرف خليل(٦٧٨-٦٩٣هـ/١٢٧٩- ١٢٩٣م)، جامعة جنوب الوادى، مجلة كلية الآداب بقنا، العدد الحادى والثلاثون، ٢٠١٠م.

- **عبدالله كامل موسى:**

٨- منتزه سرياقوس فى العصر المملوكى، جامعة جنوب الوادى، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث،١٩٩٤م.

- **على السيد على محمود:**

٩- الرعاية الصحية فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٩٥م، مج ٣٨.

- **عمارة الناصر:**

١٠- إيتيقا المرض: مقارنة هرمينوطيقية، مجلة ديوجين(مصباح الفكر)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج١،العدد الأول، يناير ٢٠١٤م.

- **فتحى سالم حميدي:**

١١- وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة فى العصر المملوكى، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مج١٢، ع٤، ٢٠١٣م.

سابعاً: الرسائل الجامعية :-

- **اسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم:**

١- الأمـراض الإجتماعيـة بـين الطبقـة الارسـتقراطية المملوكيـة فـي مصـر زمـن المماليـك البحرية(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٨٨م.

- **زبيدة محمد عطا:**

٢- مخطوط زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تأليف بيبرس الدوادار، تحقيق الجزء التاسع، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٧٢م. (رسالة منشورة)

- **سعاد حسن على الضوينى:**

٣- الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة عين شمس، ١٩٩٩م.

- **شيماء مشهور منصور:**

٤- الكولاج واستخداماته التعبيرية والجمالية فى التصوير الأوروبى خلال القرن العشرين، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، كلية الفنون الجميلة، ٢٠١١م.

- **ماجدة مصطفى نادى الغمرى:**

٥- قلعة الجبل فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

- **محمد أحمد على:**

٦- نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك (٦٥٨- ٩٢٣هـ/١٢٦٠- ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٩٠م.

- **محمد الشثتاوى سند الرفاعى:**

٧- منتزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م **(رسالة غير منشورة).**

- **مكرم عبد الجواد عبد الحميد:**

٨- الطب والأطباء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ٢٠٠٩م. **(رسالة غير منشورة).**

- **هدية إمام على عبد الرحيم:**

٩- المماليك الجلبان و دورهم فى عصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤- ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م)،رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ٢٠٠٣م.

ثامناً : المراجع الأجنبية:

1-Ahmad Abd ar-raziq: La femma au temps des Mamlouks en Egypte, Le caire , 1973.

2- Amalia,L: Aturning point in Mamlouk History, leiden, 1995.

3- Ashtor (.E): A social and economic history of the Near East in The Middle Ages (Collins, London 1976)

4- Ayalon: Le régiment Bahrya dans l'armée mamelouke, R.E.I,1952.

5- Bjorkmann: Beitrage zur Geschichte der Staatskanzlei im Islamischen Aegypten, Hambourg, 1928

6-Dopp (p.H): L'Égypte au commencement duquinzième siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, le caire, 1950.

7- Doris Behhiens: cairo of the mamluks, the American University in cairo, cairo, 2007.

8- Johnson: Dict. Persian Arabic and English, London, 1852.

9- Linda s.northrup: Qalawan's Patronage of the Medical Sciences in Thirteenth-Century Egypt , university of chiago, 2001.

10- Mary s.templeton, Debbie L.Booth, Wendy D.O'kelly: Effects of Aquatic Therapy on Joint Flexibility and Functional Ability in Subjects With Rheumatic Disease, Journal of thopaedi & sports physical therapy, 1996, vol.23, issue :6.

11- Mercier: La chasse et les Sports chez Les Arabes , paris , 1927.

12- Michel Voision: William Harvey et la circulation sanguine, Académie des sciences et letters, Montpellier, séance 14 novembre, 2011.

13- paul kahle:the Arabic shadow play in Egypt,(J.R.A.S.london, 1940).

14- Quatremère: E., Histoire de sultans mamlouks de l' Egypte , paris, 1844-1845,I,

15- Repertoir: chronologique d'epigraphie arabe , III , Le Caire, 1931

16-schefer: le voyage d'outremer de jean thenaud ,(paris, 1864).

17-tafur (pero): travels and adventures, London,1926.

18-William Muir: The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt 1260-1517, London ,1896.

19- Van Berchem: Corpus Inscriptorum Arabicarum, Premiere partie , I, Egypt , Mifao ,t ,Le caire, 1894-1903.

تاسعا : المواقع الالكترونية:-

1-http://www.abou-alhool.com/arabic1/details.php?id=25509#.VSj8wtysUcZ

2- بيمارستان/ar.wikipedia.org/wiki

3-http://www.startimes.com/?t=3436511

4-http://awqaf-damas.com/?page=show_det&category_id=139&id=1581

الفهرس

فهرس الموضوعات





Faculty of Arts
History Dept.

ASWAN University

The Effect of Diseases on Political Life During The Jarkasy and Marine Mamluk Sultans' Age

(648-923 H/1250- 1517)

An MA thesis in Islamic History

By

Abdallah Ahmed Hammam Abdelmajied

Supervised by

Prof. Dr. Mamdouh Abdalrahman
Professor of Islamic History
Faculty of Arts
South Valley University

Dr. Saqaw Dardeer Abdeljawad
Lecturer of Modern History
Faculty of Arts
Aswan University

2015

PhD Thesis Abstract

Name : Abdallah Ahmed Hammam Abdelmajied.

Title : The Effect of Diseases on Political Life During the Jarkasy and Marine Mamluk Sultans' Age(648-923 H/1250- 1517).

Faculty of Arts- Aswan University

First Chapter : " Diseases during the Mamluk Sultans ". It focuses on the psychological and biological diseases of the sultans and Princes as well as their wife's . It also deals with social illness such as adultery , wine, bribery and their effect on political life at that age.

Second Chapter: "The Effect of Diseases on Political life". It discusses the influence of diseases on the procedures of crowning, plots, conspiracies and disputes on military conquests as well as on government and admenstration.

Third chapter: " the Celebrations of the Recovered sultans of the Mamluks Age" It shows how they used to celebrate through charity distrubting food, clothes and money.

Fourth chapter: " Physicians and Hospitals" . Doctors and medicine enjoyed at that time a prominent position. This chapter examines the most important hospitals built by sultans and Princes at the page of Mamluks.

Conclusion : It deals with the most important results of the thesis.

The English Summary

Egypt and Syria enjoyed a prominant position during the Mamluks age in the East of the Middle Ages (1250- 1517) . The Mamluks established a great universaL force as the leaders of the Islamic World , both politically and culturally . This was because Egypt owned the basics of such political and military leadership that was feared and respected by other contemporary forces . The establishment of the Abbassid state in Cairo added do that status.

The chaos happened during the Mamluks sultans was not because of their challenge over the status of the ruler, but rather because of the wrong division of resources or other political causes . For example, Their in inability to control the level of the Nile River water led to famine , plague , shortage of crops and the destruction of agriculture.

The current study is divided into preface, introduction , four chapters, conclusion , numerous appendixes, a list of manuscripts , a list of works cited , and an index for the content of the thesis.

The introduction section includes the importance of the study , the causes , literature reviews , the outline of the thesis, an analytical study of some important resources of the works cited. The introduction includes also the influence of diseases on political life in Egypt and Syria during the span of time from the Islamic invasion till the Iubian age.

The First chapter entitled ," Diseases during the Mamluk Sultans", is dedicated to the biological diseases that need a physician who can cure them through medicine or even some drinks. This may lead to the absence of the ruler for some days or some months from practising his political role unable to achieve his duties, the thing which may lead to some sort of coup.

The second chapter , entitled " the Influence of Diseases on Political life " , underlines the fact that some sultans pretend that they are ill for certain recons. It also includes the passive political effects of such illness

such as forcing the ruler to move his responsibilities to his son temporary or crowning one of his sons as a permanent ruler.

This chapter underlines also the political effects of diseases that are used in conspiracies against sultans . For example one pretends that one is ill and the sultan in his trip to visit this ill one may lose his position through this trap . Diseases also may become the cause of defeat during battles when the leaders become ill or even the horses and other animals used in wars become, in its turn, ill. Again the conquered territory may take very long time if there was a plague there.

The third chapter, entitled " the Celebrations of the Recovered sultans of the Mamluks Age" surveys the kinds of diseases and its treatment. It also highlights the habit of celebrating the recovery of the sultan , the procedure includes: bathing him , decorating Cairo and endowing the people with some luxury like distributing food, chothes , money and practicing some games. .

The fourth and last chapter, entitled"Physicians and Hospitals" covers the concern of sultans with the affairs of the patients of their people from different classes.

For example, Mansur Qalawoon established in 1284 a hospital that became famous for its doctors, chemists, as well as a large kitchen to cook food for the patients . This chapter refers to many other hospitals founded in Mecca , El-Madina and Trepoly .

The conclusion partition includes the results of the thesis as follows:

* Diseases passively affects and delays the achievements of the sultans' duties because of their absence during their illness.

* The Mamluks sultans used to visit the ill ones who may be forced to move their previllages to other princes. The visit of the patient by others sheds light on his position in the state . Those sultans used also to visit their patient mothers and wives.

* Pressures and psychological life of the patient sultans, who may be pushed to make hasty or wrong decisions . Consequently some sultans,

may be forced to leave willingly their positions departing for the sake of the peace of their mind, and for psychological tranquility away from political life.

* Some patient sultans are forced to move responsibilities to one of his sons the thing which may be acceptable to him . In other cases the ill sultan asks for his moving to govern another territory that may demand less effort .

* Diseases also lead to the delay of military campaigns or even the defeat of the army because of the illness of the sultan.

* People used to celebrate the recovery of their sultans after the period of their illness. Ceremonies were performed by sending the good news of recovery to the other territories . The wives of the recovered sultans made the donation of silk clothes to the different classes of people .They also distribute food and money.

* General health affairs help sultans to be interested in fostering the vocation of medicine. They , for example , added to the hospital a medical school in which the doctor –in- chief become in charge of giving instructions concerning practising medicine and the medical profession . They also give permissions and licenses to individuals to function as physician , or they even prevent such previllages .This shows the concern of sultans for the profession of medicine and their fostering of physicians at their time.

الملخص العربى

تمتعت مصر والشام بين دول العصور الوسطي في الشرق والغرب بمكانة مرموقة خلال عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) بل يمكن القول أن المماليك شكلوا قوة عالمية عظمى ذات مكانة متفردة إذ تبوأت زعامة العالم الإسلامي سياسيا وثقافيا وحضاريا، ويعود ذلك إلى أن مصر كانت تملك معطيات الزعامة التي تجعلها قوة سياسية وعسكرية يخشى جانبها، ويمكن القول أن مصر تمتعت باحترام القوى السياسية المعاصرة لها والتي كانت تخطب ود سلاطين المماليك، وذلك بسبب وجود الخلافة العباسية في القاهرة، والكيان العسكري الكبير الذي شكلته قوة المماليك الحربية آنذاك.

ولم تكن الاضطرابات التى تعرضت لها البلاد فى عصر سلاطين المماليك منشؤها التنافس بين كبار الامراء حول منصب السلطنة أو غضب المماليك بسبب سوء التوزيع وغيرها من الأسباب السياسية الأخرى فحسب، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيراً ما تسببت فى إثارة الفتن ونشر الاضطرابات فى البلاد ذلك أن عدم التحكم فى زيادة النيل ونقصه ترتب عليه انتشار المجاعات والأوبئة عند انخفاض النيل، مما يؤدى الى فساد الزراعة وقلة المحاصيل، وتوقف النشاط المعماري، وتنتشر على الفور المجاعات والأوبئة.

وقسمت هذه الدراسة إلى مقدمة و تمهيد وأربعة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق التى تخدم الموضوع ثم قائمة بالمخطوطات والمصادر والمراجع والدوريات العلمية والرسائل الجامعية ثم ذيل البحث بفهرسة موضوعاته المختلفة حتى يسهل على القارئ الوصول إلى ما يريد من معلومات بسهولة ويسر.

وقد اشتملت المقدمة على إظهار أهمية الموضوع، وأظهرت أسباب اختيار الموضوع و بعض الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، ويليه خطة البحث ثم دراسة تحليلية لأهم مصادر والمراجع التى اعتمد عليه البحث،وتناول التمهيد أثر الأمراض على الحياة السياسية على مصر والشام عبر العصور فى تاريخها منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية العصر الأيوبى، ثم عقبها نبذة مختصرة عن نشأة المماليك.

وقد تناولت في الفصل الأول: " الأمراض فى عصر سلاطين المماليك" الأمراض العضوية التى أصابت السلاطين والأمراء في عصر سلاطين المماليك التي تحتاج إلى طبيب يستطيع علاجها بالأدوية أو الأشربة الأمر الذى يدفع السلطان أو الأمير الى الانقطاع بالدور لتلقى العلاج فينقطع أياماً بل وقد يتطلب المرض شهوراً حتى يشفى فينقطع بالتالى فى تلك المدة عن ممارسة حياته السياسية مما يكن له آثارا وخيمة منها قد يدفع الأمراء المتطلعين الى السلطة فى الانقلاب على السلطان أثناء

مرضه نظرا للانشغال فى تلقى العلاج كما ظهر من بين سلاطين المماليك من يعانى من مرض عضال لازمه طوال مدة حكمه نتيجة أصابته فى بعض المعارك أو ما شابه ذلك كمرض آلام المفاصل الذى لازم السلطان شيخ المحمودى حتى جعله يتنقل محمولاً فى محفة.

بينما تناولت فى الفصل الثانى الذى جاء بعنوان " أثر الأمراض على الحياة السياسية " وكشف هذا الفصل أن بعض سلاطين المماليك لجأ إلى استخدام المرض كشكل من أشكال التحايل أو التظاهر والدوافع والأسباب قد تختلف بين سلطان وآخر، كما تناول الآثار السلبية السياسية لهذه الأمراض مثل تأثيرها على التولية والعزل إذ يؤدى تدهور صحة السلطان فى مرضه الى اقتراح الامراء على السلطان المريض وخاصة فى مرض الموت بتولية ابنه ولاية العهد بل وفى بعض الاحيان الى عزل نفسه لتنصيب أحد أبنائه ملكا.

وجاء بهذا الفصل عرضاً للآثار السياسية للأمراض و التى استخدمت فى المؤامرات السياسية مثل تظاهر بعض الامراء بالإصابة بالأمراض، وذلك ليعملون شركاً للسلطان حيث ينقضون عليه أثناء زيارته لهم؛ وأيضاً كانوا يلجئون الى هذه الحيلة للقضاء على الأمراء، كما تطرقت آثار الأمراض أيضا الى الحملات والفتوحات العسكرية إذ تؤدى الأمراض التى تصيب الجند والخيل وغيرها من الحيوانات الحاملة للأسلحة الجيش الى ضعفه وعجزه عن ملاقاة عدوه، كما قد يؤدى أيضاً انتشار الوباء فى البلاد المراد فتحا الى تأخير غزوها لحين انقضاء ذلك المرض، ذلك خوفاً على سلامة الجند فيكون بذلك الأمراض سببا فى تأخير الفتوحات، كما تناولت الدراسة بعض الآثار السياسية الأخرى للأمراض كأثرها على الإدارة والحكم والترقيات وغيرها.

أما الفصل الثالث " الاحتفالات بشفاء سلاطين وأمراء العصر المملوكى" وعرض هذا الفصل ما انتاب سلاطين المماليك الأمراض التي تعددت أنواعها واختلف علاجها ، وقد جرت العادة أنه عند شفاء السلطان أن يدخل الحمام إعلانا بشفائه، وتُزين القاهرة ،ويتفنن الناس بأنواع الترف، كما جرت العادة فى المناسبات التى تقام احتفالاً بعافية السلاطين أن توزع الصدقات من الخبز والملابس والأموال، وكانت أيضاً تعمل ألعاب النفط بحضور أهالي القاهرة و كبار رجال الدولة.

أما الفصل الرابع والأخير فقد جاء بعنوان " الأطباء والبيمارستانات "وعرض هذا الفصل لاعتناء السلاطين والأمراء بأمر المرضى من كافة طبقات الشعب المصرى، وخير ما يدل على تلك العناية البيمارستان المنصوري الذي شيده المنصور قلاوون سنة٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وكانت له شهرة واسعة، وعين له الأطباء لعلاج المرضى والصيادلة لتركيب الدواء، كما زوده بمطبخ كبير لإعداد الطعام اللازم للمرضى، كما وضحنا بالتفصيل خلال هذا الفصل.

وتناولت فى هذا الفصل أشهر البيمارستانات التى قام بتشيدها السلاطين والأمراء فى العصر المملوكى الأخرى و التى منها بيمارستان السلطان المؤيد شيخ المحمودى الذى أغلق عقب وفاة ذلك السلطان لعدم العثور على كتاب وقفه، كما أشرنا الى البيمارستانات الأخرى التى أنشأها السلاطين والأمراء فى أنحاء بلدن الدولة المملوكية كمكة والمدينة المنورة وصفد وطرابلس وغيرها، ومن البيمارستانات التى شيدها الأمراء بيمارستان أرغون الكاملى فى حلب و الذى أوقف عليه الأوقاف الجليلة، ولم يقتصر دور السلاطين والأمراء على تشيد تلك البيمارستانات فحسب، بل قاموا أيضاً بترميم ما وإضافة بعض المنشآت المعمارية بتلك البيمارستانات.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج التى توصل اليها البحث.

بعدما تقدم من عرض لموضوع الأمراض وأثرها على الحياة السياسية فى العصر المملوكى فإن من المفيد والمتمم لذلك ان نذكر أبرز النتائج وهى:

كان من شأن الأمراض التى كان يصاب بها السلاطين أن تؤثر فى مزاولة السلاطين لمقاليد الحكم فتجعلهم ينقطعون عنها مدة تلقيهم العلاج حتى يشفوا من أمراضهم ويعودوا الى مزاولة أمور السلطنة مما له الأثر بالتالى على الأحوال السياسية بالبلاد وشئونها نتيجة هذه الفترة التى يظل فيها السلاطين يتلقون فيها العلاج.

وكان سلاطين المماليك يكثرون من التردد على الامراء فى مرضهم لزيارتهم وكان من حرص السلاطين خلال العصر المملوكى لعيادة مرضى الأمراء و الأعيان ان كان منشغلاً بأمور الحكم ان ينيب السلطان من يقوم بهذه المهمة للاطمئنان على صحة الأمير المريض، كما ألقت عيادة المرضى فى العصر المملوكى الضوء على مكانة الأمير المريض فى الدولة من خلال تصرفات الأمراء الزائرين أثناء عيادتهم للمريض،كما اعتاد سلاطين العصر المملوكى عيادة أمهاتهم فى حالة مرضهن والإقامة عندهن بضعة أيام للإطمئنان على حالتهن الصحية، وقد دأب السلاطين فى العصر المماليكى على معاودة زوجاتهم مراراً عند مرضهن ، ويسمحون لهن بالنزول الى بولاق اذا استدعى الأمر ذلك.

وتبين أن للظروف والضغوط النفسية التى يتعرض لها سلاطين العصر المملوكى أثرها البالغ فى حياتهم السياسية ويظهر هذا الدور فى التأثير على ما يتخذه هؤلاء السلاطين من قرارات سياسية سريعة نتيجة تلك الضغوط النفسية مما توثر تأثيرا سلبيا على تلك القرارات التى يتخذونها، وقد يجبر الضيق النفسى الذى يتعرض له السلطان من قِبل الامراء فى بعض الأحيان الى إقدامه على اتخاذ قرارا بعزل نفسه من السلطنة ويناشد الإقامة بمعزل عن مقر الحكم وأهله ابتغاء راحة النفس والبال بعيدا عن شئون الحكم كما أشارت المصادر الى ان الحالات النفسية التى كانت تنتاب أمراء العصر المماليكى كانت تتدخل فى تغيير القرارات التى يتخذها السلاطين لترضية خواطرهم.

وتعددت صور أثر الأمراض على الحياة السياسية فى العصر المملوكى ومنها: التظاهر والتحايل بالأمراض فقد اتخذ السلاطين فى هذا العصر من التظاهر بالأمراض وسيلة لمتابعة ومباشرة الحكم ، ولجأ إليه كبار رجال الدولة لإخفاء موت السلطان وذلك " حفظاً للمهابة " الدولة وحتى لا تضطرب الأحوال بالبلاد حيال موت السلطان وحتى يتسنى الوقت لتسليم ابن السلطان مقاليد الحكم ،وكان من أهداف السلاطين العصر المماليكى من التظاهر بالمرض فى بعض الأحيان القبض على عدد من كبار رجال الدولة الذين يخشى شكيمتهم فى الدولة وتحكمهم فى السلطنة عند قيامهم بعيادته فيسهل عليه إلقاء القبض عليهم ويتخلص بالتالى من سطوتهم وهيمنتهم على أمور الحكم والسلطنة.

وكان من شأن أثر الأمراض على التوليه فى السلطنة ان الأمراء اذا أحسوا بدنو أجل السلطان فى مرض موته ان يقترحوا عليه ان يعهد بالسلطنة الى أحد أولاده بعد موته ، وكان هذا الاقتراح يلقى غالباً قبولاً لدى سلاطين المماليك فيقومون بتنصيب أحد أبنائهم ولاية العهد ، ومن صور أثر المرض السياسى فى التولية والعزل ان يطلب الأمير بسبب المرض النقل من الجهة التى يباشرها الى غيرها تكون أقل أعمالاً و تتناسب مع حالته الصحية بدلاً من العزل ، وعلى صعيد آخر فكان من جملة الأمراء من يحرص على عدم إظهار الضعف خصوصاً إذا أصابه شدة المرض ، فنرى الأمير منهم إذا أصابه المرض واشتد به نجده يتجلّد ويحرص على عدم إظهار ما به من ألم حتى لا يعلم السلطان ويقيله عن منصبه.

وكشفت الدراسة ما كان للأمراض من دور هام فى الفتوحات والعمليات العسكرية فى عصر سلاطين المماليك، وكان للأمراض والأوبئة أثراً كبيراً فى الفتوحات العسكرية لدرجة تصل الى إجبار القيادة العسكرية الى رفع الحصار عن إحدى القلاع المحاصرة التراجع عنها والعودة بالجيوش، بل واتخاذ تلك الجيوش كافة استعدادتها العسكرية لمواصلة الغزو والعودة مرة أخرى بعد انقضاء الأوبئة، كما من أثر الأمراض على الامراء من الناحية العسكرية فكان من شأن الأمراض أن تعوق الأمراء من حضور الحروب والوقائع العسكرية .

واعتاد الناس ان يظهروا لملوكهم و سلاطينهم ابتهاجهم وفرحهم اذا منّ الله عليهم بالشفاء بعد مرض ألم بهم إذ كانت تقام الاحتفالات بمناسبة شفاء سلاطينهم أو أمرائهم ومن مظاهر تلك الاحتفالات فى العصر المماليكى أن ترسل البشائر إلى الأقطار بالبشارة بشفاء السلطان، كما تقوم زوجات السلاطين بتوزيع البنود والحرير الأصفر على الخدم والخاصبكية وأعيان الناس، كما جرت العادة فى المناسبات التى تقام احتفالاً بعافية السلاطين أن توزع الصدقات من الخبز والملابس

والأموال، وعمل النفط بسوق الخيل تحت القلعة بحضور السلطان، فتشارك كافة طوائف المجتمع الابتهاج بهذه المناسبة.

وبلغ اهتمام سلاطين المماليك بالنواحي الصحية، وأمر المرضى إلى اهتمامهم بمهنة الطب، فألحقوا بالبيمارستان مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء التي جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن يعّين من قبل السلطان نفسه، يصبح بعدها رئيس الأطباء مسئولا عن إعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للأفراد أو حرمانهم منها؛ وهذا يدل على حرص هؤلاء السلاطين بالإشراف على الأطباء والقيام بممارسة مهنتهم على أكمل وجه.